چوزفين كام

المستكشفون فى أفريقيا

ترجمة وتقديم وتعليق
دكتور السيد يوسف نصر
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب — جامعة أسيوط

راجع الترجمة الى العربية
دكتور محمد على وقاد
مدرس اللغة الانجليزية
كلية الآداب — جامعة أسيوط

١٩٨٣



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة ــ ج ٠ م ٠ ع

ترجمـــــة كتـــــاب

Explorers into Africa

By

Josephine Kamm.

تقـــديم المترجـــم

كان من دوافع ترجمتى لهذا الكتاب أنه من الكتب الهامة ، لأن مؤلفته استخدمت فيه الكثير من النصوص المقتبسة من تقارير الرحالة أنفسهم ، وهذا فى حد ذاته يعطى الكتاب أهمية علمية بالغة • ومن ناحية أخرى فان هذا الكتاب تناول بشىء من التفصيل كل المحاولات الكشفية التى تمت فى أفريقيا عبر العصور وحتى القرن ١٩ ، وأن كان هناك بعض الثغرات التى قمت بأكمالها حتى تكتمل الصــورة أمام القــارىء الكــريم • ولذلك فقد تم اختيار هذا الكتاب من بين عدد من الكتب المتخصصة فى هذا الموضوع •

وكان من هذه الكتب كتاب بعنوان « كشف افريقيا » African Discovery. By Margery Perham and J. Simmons.

فهذا الكتاب يبدأ بمقدمة عــامة ، ثم يتناول موضوع كشف جيمس بروس مباشرة لمنابع النيل الأزرق ، ولم يشر الى فتــرات الكشــف الأولى ، بل عــرض الى بقيــة المستكشفين ، ومن بعــده كتــاب بعنـــوان « تــاريخ استكشـــاف أفريقيا » A history of African Exploration. By David Mountfield.

وهذا الكتــاب يبدأ بمقدمة تضمنت بطريقة موجزة ، المحــاولات الكشـــفية التى تمت فى العصــور القديمة ، ولم يقم مؤلفه بالفصــل بين المحاولات التى تمت قديمــا ووســيطا • وهناك كتــاب آخر بعنوان « كشـــف أفريقيـــا وآســـيا » Exploring Africa and Asia. By Doubleday and Company Inc.

ويتناول هذا الكتاب الكشوف الجغرافية التى تمت فى آســـيا وأفريقيا • وتبدأ الكشوف الأفريقية بمجىء البرتغاليين ، كما أنه لم يتنــاول الفترات القديمة والوســيطة • ومن بعــده كتــاب بعنـــوان « منجــوبارك الرحـــالة الأفريقى » Mungopark, The African Traveler, By Kenneth Lupton.

ويقتصر هذا الكتاب على حياة منجوبارك وكشوفاته فى غرب افريقيا ، هذا فضلا عن تناوله لبعض الرحالة الذين ساهموا فى كشف منطقة غرب القارة ، ومن بعده كتاب بعنـــوان « الســـير ريتشـــارد بيرتون Sir Richard Burton. By Michael Hastings. ، ويتناول هذا الكتاب تاريخ بيرتون واستكشافاته فى هرر وشرق إفريقيا ، وأما الكتاب الأخـــير فهـــو بعنـــوان « النيـــل The Nile, By Helen O'Clery

ويتناول هذا الكتاب الفترة القديمة والعصر الأغريقى الرومانى ومصر المسيحية وانتشار الاسلام فى مصر وافريقيا ومجىء الاوربيين والسير صمويل بيكر والجنرال غوردن ودافيد لفنجستون • وواضح أن هـــذا الكتاب يضم موضوعات عامة ، بحيث لم يتخصص فى الأعمال الكشفية ، لهذا لم نقم بترجمته •

ومن الدوافع التى دفعتنى أيضا الى ترجمة هذا الكتاب ، وجود مادة تدرس فى كلية الآداب بسوهاج ، تعرف بأسم « موضوع من تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها » ورغم ذلك فلم يوجد من المراجع ما يخدم هذه المادة بصورة وافية • ولو قدر ووجد البعض من هذه المراجع فأنها لم تعالج هذه المادة بطريقة مرضية ومفصلة مما يجعل الطلاب فى حيرة •

هذا فضلا عن أننى قمت بترجمة هذا الكتاب لأن الطلاب لم يكن فى أمكانهم قراءة مثل هذا المرجع بسهولة ، وذلك لعدم المامهم باللغة الانجيلزية بصورة مرضية ولو حاولوا ذلك فأنهم يواجهون مصاعب جمة •

وقد استغرقت ترجمة هذا الكتاب سنتين تقريبا • وأود أن أنوه الى القراء عن الأسباب التى ساعدتنى على القيام بهذه الترجمة ، وهو أننى عندما كنت أعد لرسالة الماجستير سألت أستاذى المرحوم الأستاذ الدكتور / حسن عثمان سؤالا مفاده : الى أى مدى أقف على درجة المامى باللغة الأنجليزية ؟ فقال لى رحمة الله أن تقرأ كتابا باللغة الانجليزية وتلم بما جاء به ، فهذا هو الدليل على فهمك لهذه اللغة •

وعلى أثر ذلك التحقت بالجامعة الأمريكية بقسم الخدمة العامة Division public service أو الـ D.P.S. ومما لا شك فيه أننى أستفدت الكثير من هذه الدراسة ، ومع ذلك فأننى لم أكتف بهذا القدر منها ، بل أننى عندما قيدت أسمى لدرجة الدكتوراه ، كان على أن أعمق فهمى للغة الانجيلزية وبخاصة أجادتى للترجمة التى هى غاية مقصدى ، والتى يحتاج اليها طالب الدراسات العليا فبدونها لا يتمكن من الاطلاع على المصادر الأجنبية •

لذلك بادرت بالالتحاق بكلية الآداب جامعة القاهرة ، قسم اللغة الانجيزية كطالب منتسب ، ومن حسن حظى كان الانتساب قد فتح عام ١٩٧٤ فى هذا القسم • وكان هذا الالتحاق قاصرا على الطلاب الحاصلين على درجة الليسانس والبكالوريوس • وفى أثناء فترة الدراسة فى هذا القسم تتلمذت على أيدي أساتذة أفاضل درسوا لى الرواية Novel والنقد Criticism والمسرحيات Dramas والترجمة Translation والشعر Poetry وكثيرا من المواد الأخرى • ولم يكن الهدف من التحاقى بهذه الدراسة ، الحصول على درجة علمية ، بل أجادة اللغة الانجيلزية • ولم أترك هذه الدراسة الا بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه ، وعينت بجامعة أسيوط •

وقد مكنتنى هذه الدراسة من معرفة الترجمة معرفة جيدة • فقد قمت بترجمة كتاب تاريخ غرب افريقيا للمؤرخ فيج The History of West Africa By Fage ، وها أنذا اليوم انتهيت من ترجمة كتاب المستكشفون فى افريقيا للمؤرخة جوزفين كام The Explorers into Africa By Josephine Kamm.

وقد تضمن هذا الكتاب عددا من الفصول ، على وجه التحديد عشرة فصول •

فقد تناول الأول من هذه الفصول المحاولات التى تمت بشأن الكشف

عن افريقيا سواء أكان ذلك من جانب الأغريق أو الرومان أو قدماء المصريين ، وأن كانت المؤلفة لم تعط المصريين قدرهم فى هذا العمل ، بل أنها تجاهلت معظم الأعمال الكشفية التى تمت من جانبهم •

وتتناول الفصل الثانى من هذا الكتاب دور التجار Traders والمبشرين Missionaries ، وبخاصة بعثة الجزويت التبشيرية التى جاءت الى الحبشة • وكان على رأس هذه البعثة الأبوان لوبو وبيز ، ولكن على الرغم من وصولهما الى منابع النيل الأزرق ، الا أنهما لم يتمكنا من الكشف النهائى عن منابع هذا النهر •

وجاء فى الفصل الثالث دور الرحالة الاسكتلندى جيمس بروس James Bruce الذى جاء الى شمال افريقيا بعد وفاة زوجته المحببة اليه ، وكان الملك جورج الثالث قد كلفه بأن يقوم برسم كل ما يقع تحت بصره من بقايا أثرية ، بحيث يحضرها معه الى انجلترا ، فمن شمال افريقيا ، رحل بروس الى الاسكندرية ، ومنها الى القاهرة فأسوان ، ومن هناك عبر الصحراء الشرقية الى القصير ، ومنها اتخذ طريقه عبر البحر الأحمر الى مصوع فغندار فمنابع النيل الازرق فسنار فأسوان ، فالقاهرة فأنجلترا •

وتتناول الفصل الرابع المغامر الاسكتلندى الطبيب منجو بارك الذى جاء الى غرب أفريقيا من قبل الجمعية الافريقية African Association وقد نجح منجو بارك فى الوصول الى بلدة بوسا ، ولكنه لم يتمكن من الكشف النهائى عن نهر النيجر • وعاد الى انجلترا ، ثم جاء بعد ذلك على رأس بعثة كشفية من قبل الحكومة البريطانية لأن بريطانيا رغبت هذه المرة أن يكون العمل متسم بالصفة الرسمية وبخاصة بعد أن وصل نابليون الى شبه جزيرة آيبريا • فسارعت الى الوصول الى غرب أفريقيا حتى لا تكون خطوط مواصلاتها مع الهند عرضة للتهديد الفرنسى • وبعد أن واصل منجو بارك رحلته أغتيل من جانب القبائل الأفريقية •

وتناول الفصل الخامس عددا من الرحالة والمغامرين الذين جاءوا الى غرب افريقيا للمساهمة فى حل لغز النيجر ، وكان من هؤلاء الرحالة الميجور هوفتون وكلابرتون ولاندر ولينج .

وتناول الفصل السادس عددا آخر من الرحالة كان من أشهرهم هنريش بارث ، وجيرهارد رولفس ، ولويس جوستاف بنجر ، وريتشاردسون وفوجيل ... وغيرهم .

وتناول الفصل السابع الدكتور روبرت موفات ومجيئه الى جنوب افريقيا ، والمبشر الاستعمارى دافيد لفنجستون الذى تجول فى جنوب افريقيا حيث عبر القارة من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، وكان لفنجستون قد نجح فى كشف نهر الزمبيزى .

وتناول الفصل الثامن الرحلات التى اتجهت الى منابع النيل ، وكان من هذه الرحلات الرحلة التى قام بها بيرتون وسبيك ، وجرانت ، وسبيك والسير صمويل بيكر (رحلته الخاصة) ، والبعثة التى قادها غوردون باشا . ومن الملاحظ أن المؤلفة لم تشر الى البعثات الكشفية التى أرسلها محمد على فى الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٣ ، ولا الى الحملات العسكرية التى أرسلها الخديو اسماعيل منذ عام ١٨٦٩ م .

وجاء بالفصل التاسع دور هنرى مورتون ستانلى فى أفريقيا ، وبخاصة عندما جاء اليها بحثا عن لفنجستون ، وبالفعل تمكن ستانلى من لقائه ولكن لفنجستون رفض العودة معه الى انجلترا ، وأصر على مواصلة تجواله حتى مشكلة الأنهار المجهولة فى أفريقيا الوسطى .

وتناول الفصل العاشر الرحلة التى قام بها ستانلى من شرق افريقيا ، متتبعا نهر لولابا وهو الفرع الرئيسى لنهر الكنغو ابتداء من المنبع وحتى المصب (المحيط الأطلسى) وبذلك يكون ستانلى قد أنجز الكشف عن نهر الكنغـــو .

ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء الرحالة والمغامرين كانوا من بريطانيا والسبب فى ذلك يرجع الى أنها كانت أسبق الدول الأوروبية فى مجال التصنيع بل وفى مجال التقدم العلمى ، الذى تمثل فى كثرة الجامعات الانجليزية ، وأدى ذلك بالتالى الى أن أصبح معظم هؤلاء الرحالة على قدر كبير من العلم والمعرفة والثقافة • وكان من أشهر هؤلاء الرحالة البريطانيين ؛ بيرتون وسبيك وجرانت ومنجو بارك وكلابيرتون ولينج وريتشاردسون ؛ ولاندر ، ودافيد لفنجستون ، وصمويل بيكر ، وجونستون وكاميرون •

وكان من أشهر الرحالة الفرنسيين رينيه كابيه الذى أرسلته الجمعية الجغرافية الفرنسية French Geographical Society الى غرب افريقيا ، كى يصل الى مدينة تمبكتو ويقوم بكشفها ، ومعرفة حقيقتها ونقل صورة كاملة عنها الى الجمعية الجغرافية الفرنسية لأن تمبكتو كانت تمثل بالنسبة للأوربيين حلما • فكانت بالنسبة لهم مدينة الذهب ، وزاد الأهتمام بها بعد رحلة ليو الأفريقى لها ، وما كتبه عنها وكان رينيه قد نجح فى الوصول اليها ، وبعد ذلك عاد الى فرنسا وحصل على المكافأة التى كانت الجمعية الجغرافية الفرنسية قد قررتها لأول مكتشف يصل الى مدينة تمبكتو •

وكان من أشهر الرحالة الألمان هنريش بارث الذى لعب دورا بارزا فى كشف منطقة غرب افريقيا • ومن المعروف أن دور ألمانيا فى مجال الكشف الافريقى جاء متأخرا أى جاء فى القرن ١٩ ، ويرجع ذلك الى أن المانيا كانت مقسمة الى عدد من الولايات المستقلة كل منها عن الأخرى ، ولم تتوحد الا فى القرن ١٩ ، (وليس هذا مجال حديثنا) لهذا جاء دورها متأخرا الى هذا الميدان الكشفى •

وأما ايطاليا فلم يكن لها دور يذكر فى مجال الكشف الافريقى ، وبخاصة فى مطلع العصور الحديثة وذلك لنفس الأسباب الألمانية •

واما البرتغال فكانت أسبق الدول الاوربية مجيئا الى أفريقيا ، فبعد

أن تأسس فى أوربا النظام المعـروف بأسـم الدولة الوطنية الحديثـة The Modern National State فى مطلع العصر الحديث ، كان على هذه الدول أن تحقق التوسع والتفوق على غيرها من الدول الأخرى • وكان هذا لا يتأتى الا بتحقيق شيئين أولهما التوسع القارى ، ونجم عن ذلك ما يعرف بأسم الحروب الأوربية (الايطالية ، وحرب الثلاثين عاما ، وحروب لويس الرابع عشر والحروب السبعينية) وثانيهما التوسع الخارجى ونجم عن ذلك ما يعرف بأسم الكشوف الجغرافية •

ولما كانت البرتغال فى منأى عن الصراعات الأوربية ، سارعت الى القيام بحركة الكشوف الجغرافية ، وبخاصة فى أفريقيا ، وذلك لأسباب منها فصل الشمال الافريقى عن بقية الشعوب الافريقية الواقعة جنوب الصحراء ، ومنها ايجاد علاقة وطيدة بينها وبين الملك الحبشى ، فكانت خطتها ترمى الى عبور القارة والاتصال بملك الحبشة ، ولكنها عجزت عن تحقيق هذا الهدف بسبب المظاهر الطبيعية التى كان من الصعب اجتيازها ، ولو كان هنرى الملاح غامر فى هذا العمل فمن المحتمل أن تكون قواته قد أبيدت عن آخرها • ومنها أيضا رغبة البرتغال فى الوصول الى الهند والاستئثار بتجارة جنوبى شرقى آسيا وحرمان العرب والمماليك فى مصر والايطاليين من الهيمنة على هذه التجارة ، وقد نجحت البرتغال فى ذلك •

ومن الملاحظ أن البرتغال لم تعمق وجودها فى الساحل الغربى لأفريقيا لأن ذلك لم يكن ضمن تخطيطها ، فأكتفت بأنشاء عدد من المراكز الامامية التجارية Outposts ، والحصون العسكرية على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، وانتهى الأمر بالبرتغال الى أن قامت بتأسيس أكبر أمبراطورية استعمارية فى مطلع التاريخ الحديث ، ولكن هذه الأمبراطورية لم تدم طويلا ، لأسباب منها عدم مقدرة قوات البرتغال العسكرية على حماية هذه الامبراطورية والحفاظ عليها ، وثانيها صعوبة المواصلات التى كانت تربط بين برشلونة وبين ممتلكات البرتغال فيما وراء البحار فضلا عن اتساع مساحة هذه الأمبراطورية • فاذا كانت البرتغال قد أسست امبراطوريتها

بسهولة ويسر فأن هذه الامبراطورية قد انتهت بسهولة أيضا أمام منافسو البرتغال ومن الجدير بالذكر أن دول أوربا الأخرى لم يكن لها دور كشفى فى افريقيا بسبب مشاكلها الداخلية •

وبعد ذلك ننتقل الى الحديث عن السمات التى اتسم بها هـؤلاء الرحالة فقد اتسم هؤلاء الرحالة والمغامرين بسمات مشتركة تمثلت فى التنكر الذى مارسه جميع الرحالة دون استثناء ، ويعنى التنكر أن هؤلاء الرحالة كانوا يرتدون زى سكان البلاد التى يمرون من خلالها حتى لايكون هنالك من الاشياء ما يكشف أمرهم • هذا فضلا عن أنهم كانوا يتقنون أجادة لغات ولهجات السكان الوطنيين • فكان الواحد يتقن أكثر من لغة ، فمثلا تعلم جيمس بروس اللغة العربية والفرنسية ، بل وتعلم جميع اللهجات الافريقية ، وتعلم رينيه كاييه اللغة العربية ، واتقنها عن ظهر قلب عندما كان فى مراكش وقبل أن يبدأ رحلته الى تمبكتو ، ووصل به الأمر أنه كان يقوم بقراءة القرآن وتفسير معانيه الى السكان الوطنيين بحيث أنهم كانوا يثقون فيما يقول ولم يكتشفوا أمره بعد أن غادر تمبكتو • وتعلم جون لويس بركهاردت اللغة العربية ، ولكى يتقنها عن ظهر قلب سافر الى سوريا ومكث بها فترة من الوقت عاد بعدها وهو يجيد العربية أجادة مطلقة •

ومن السمات التى اتسم بها هؤلاء « الجدية » وقد ظهر ذلك بصورة جليـــة فى تحملهم للمشاق دون كلل أو ملل ، فلولا هذا ما تمكن بروس من المســـير الى الاسكندرية والوصول الى الحبشـــــة رغم ما إعترضه من صعاب ومخاطر شأنه فى ذلك شأن دافيد لفنجستون وستانلى وصمويل بيكر وسبيك وجرانت •

وكان من هذه السمات أيضا سمة التضحية ، فمما لا شك فيه أن هؤلاء الرحالة كانوا يضحون بكل غال ورخيص فى سبيل تحقيق هدفهم الكشفى ، ومن أجل ذلك فقد تعرضوا لمخاطر جمة منها الأمراض الفتاكة ، وكان من هؤلاء الرحالة الذين ماتوا نتيجة مغامرتهم جون لويس بركهاردت ، وكلابيرتون ، ودافيد لفنجستون ولم تقتصر حياتهم على الموت فحسب

بل أن البعض منهم تعرض للاغتيال ، وخير مثال على ذلك الجنرال هوفتون ومنجوبارك الذى أغتيل فى منطقة غرب أفريقيا ، والمس تنبيه وفوجيل الألمـــانى •

ومن السمات التى أتسم بها هؤلاء المكتشفون أيضا هى حبهم لبلادهم ، فقد عمل هؤلاء جميعا وبلا استثناء لمصلحة أوطانهم ، وخير دليل على ذلك يتضح من عبارة لفنجستون التى جاء بها ما نصه « والآن أصبحت أفريقيا مكتشفة فعليكم أن تفتحوا طريقا للتجارة ولنشر المسيحية بين القبائل الوثنية » أى أن لفنجستون قال هذه العبارة بعد ان وقف على ما تحويه هذه القارة من ثروات معدنية وبشرية وحيوانية وزراعية •

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المكتشفين لم يأتوا الى أفريقيا حبا فى هذه القارة ، ولكنهم جاءوا اليها من أجل مصالح بلادهم التى كانت فى مسيس الحاجة الى تحقيق هدفين أولهما فتح أسواق جديدة فى أفريقيا لتوزيع الفائض من انتاجهم الصناعى ، وثانيهما أنهم كانوا فى حاجة الى الحصول على المواد الخام الموجودة بوفرة فى هذه القارة • أذن يمكن القول بأن مرحلة الكشف الجغرافى الاوربى لأفريقيا كانت بمثابة « مرحلة الاستعمار السلمى » •

وفى ختام هذا التقديم يمكن القول أنه بعد ان تم الكشف عن المناطق المجهولة من أفريقيا ، تكالبت الدول الأوربية على هــذه القارة ، وانتهى هذا التكالب بعقد مؤتمر برلين فى الفترة ما بين ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ م • وفى هذا المؤتمر قسمت افريقيا بين كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا والبرتغال وبلجيكا • ويمكن ان نسمى هذه المرحلة « بمرحلة الاستعمار الأوربى الفعلى لأفريقيا » كما يمكن أن نسميها « مرحلة النهب الاستعمارى لموارد أفريقيا » •

وتجدر الإشارة الى أننى علقت على كل فصل على حدة ، وفضلت أن يكون هذا التعليق فى نهاية كل فصل ، حتى يتشجع القارىء على قراءة هذا

التعليق ، فغالبا ما يترك القارىء الهوامش دون قراءتها ، الا فى حـــالة الضرورة القصوى ، اذا كتبت فى حواشى الصفحات •

وأشير هنا الى أننى أعددت عددا من الخرائط التى توضح خطوط سير الرحالة الذين جاءوا الى أفريقيا ، وساهموا بقدر كبير فى الاعمال الكشفية الأفريقية ، حتى يتمكن القارىء الكريم من تتبع خط سير أى رحالة ، وحتى نسهل عليه مهمة فهمه لهذا الكتاب • ولعلى بهذا العمل أن أكون قد أضفت الجديد الى المكتبة العربية •

والله ولى التوفيق ،،،

الجيزة ١٩٨٣ **دكتور / السيد يوسف نصر**

الفصل الأول

الرحـــــالة الأوائل

كان من الغريب حقا أن يظل معظم داخل القارة الافريقية غير معروف الى الاوربيين حتى منتصف القرن التاسع عشر ، والسبب فى ذلك يرجع الى جغرافية هذه القارة ومناخها ، هذا فضلا عن أنها فقيرة فى موانيهـــا الطبيعية ، أى أنه لم يكن لها موانى طبيعية وفيرة باستثناء ميناء خليج غينيا الكبير • هذا الى جانب أن القارة الأفريقية تنقسم فى مجموعها الى عدد من المناطق المختلفة ، التى تختلف كل منها عن الأخرى ، وكان من هذه المناطق منطقة البحر المتوسط الخصبة ، التى تمتد جنوبا الى مسافات بعيدة تجاه الصحراء الكبرى ، التى يبلغ عرضها آلاف الأميال ، والتى تعتبر بحق من أعظم صحارى العالم فى المساحة • وتتميز هذه الصحراء بجفافها وشدة حرارتها ، ولهذا ينتشر فيها عدد قليل من الواحات والآبار • والى الجنوب من هذه الصحراء توجد منطقة كثيفة الحشائش والغابات التى لا يمكن اختراقها ، ولكن على الرغم من ذلك فأن نهر النيل الذى ينبع من منطقة جبلية ملاصقة لخط الاستواء قد اخترقها • وفضلا عن ذلك ، فأن القليل من أنهار أفريقيا يكون صالحا للملاحة (فى معظم أجزائه) وعلى سبيل المثال نهر النيل ، وأما بقية أنهار القارة الأفريقية فهى أما مسدودة بالجنادل والشلالات والمستنقعات ، أو أن مصباتها مسدودة بالحواجز الرملية •

وعلى هذا فقد كان من الصعب جدا الوصول الى داخل القارة الأفريقية بواسطة استخدام هذه الأنهار حتى بعد أن تمكن الأنسان من أختـــراع وسائل المواصلات الحديثة • وكان من الصعب أيضا الوصول الى قلب القارة الأفريقية بالطرق البرية ، لأنها كانت غير ممهدة ، ولانها كانت محفوفة بالمخاطر • ولكن على الرغم من كل هذا فقد قرر الرحالة اختراق بعض مناطق من القارة سيرا على الأقدام ، وبخاصة بعد أن نفقت دوابهم وماشـــيتهم

بسبب لدغات ذبابة تسى — تسى Tse - Tse Fly ، وكذلك بسبب الحشرات الحاملة للأمراض ، حتى أنه أصبح من المتعذر حصر الأشخاص الذين ماتوا بسبب حرارة الصحراء الشديدة ، فكان قد مات الكثير منهم بسبب الملاريا ، ومات البعض الآخر بسبب الحمى أو بسبب وقوعهم فريسة لعداء القبائل المحلية • وأزاء كل هذه الصعوبات لم يكن من المدهش ان تظل افريقيا مغلقة امام العالم الخارجى •

ولكن على الرغم من ذلك ، فأن وادى النيل كان معروفـا للمصريين القدماء ، فقد مكنهم فيضان النيل السنوى من رى حقولهم • ومن المحتمل أن تكون معرفتهم لوادى النيل قد شملت الشـواطىء الجنوبية للبحـر المتوسط ، بل وحتى مدينة الخرطوم فى السودان ، وكانت معرفتهم بسيطة بالنسبة لسواحل البحر الأحمر وشمال الحبشة ، أما معرفتهم بالنسبة لبقية القارة الأفريقية فكانت معدومة •

وعلى أية حال كان المصريون القدماء من أول المكتشفين لأفريقيا ، مع أنهم لم يكونوا الشعب القديم الوحيد الذى أسس دولة متمدينة فى الشمال الأفريقى • فالى جانبهم وجد الفينيقيون الذين كانوا تجارا وملاحين مهرة ، كما وجد أيضا القرطاجيون الذين عملوا بالتجارة ، والذين كانوا يميلون الى حب المغامرة ، فمكنهم ذلك من تأسيس المستعمرات • ومن الجدير بالذكر أن الأغريق أسسوا فى تاريخ مبكر فى مصر مستعمرات لهم ، على وجه التحديد فى القرن السادس قبل الميلاد •

وكـان المـؤرخ الأغريقى هيرودوت Herodotus الذى زار مصر عام ٤٦٠ ق•م اعتقد بأن القارة الأفريقية كانت قد أرتيدت منذ بداية عام ٦٠٠ ق•م ، وطبقا لما ورد فى كتابات هيرودوت فأن نخاو (١) الفرعون المصرى أرسل حملة كشفية تحت قيادة بحارة فينيقيين مهرة ، كى يكتشفوا الطرف •

---

(١) انظر التعليق فى نهاية الفصل •

الجنوبى للقارة والمجاور للبحر • وقد أوصاهم نخاو أن يبحروا من خلال البحر الأحمر ، ثم يعودوا بعد ذلك من خلال أعمدة هرقل Pillars of Hercules أو من خـــلال مضـيق جبـل طارق Straits of Gibraltar كى يصلوا الى البحـر الشـمالى (البحر المتوسـط) ثم يواصلـون مسـيرهم بعـد ذلك الى مصر • وكانت البعثة قـد بدأت رحلتها مارة من خــلال البحر الأحمـر ، ودارت حـول افريقيا (حول رأس الرجاء الصـالح) (The Cape of Good Hope) ثم مـرت بعد ذلك بمحازاة ساحل غـرب أفريقيا ، ومنها الى مضيق جبـل طـارق ، ثم وصـلت فى النهـاية الى مصر للمرة الثانية بعد السنة الثالثة من بدء الرحلة • وفى أثناء تلك الرحلة كان أفراد البعثة يمارسون حرفة الزراعة وذلك بزراعة قطعة من الأرض ملائمة للزراعة على الساحل ، فكانوا يبذرون الحبوب ثم ينتظرون حتى جنى المحصول ، وبعد ذلك يواصلون مسيرهم •

ومن المحتمل أن يكون القرطاجيون قد أرسـلوا عددا من البعثـات الكشفية ، ولكن لم تكن التفصيلات كاملة عن هذه البعثات بأستثناء ما وجد من هذه التفصيلات لأحدى هذه البعثات • وقد اتضح ذلك جليا من الترجمة اليونانية لقصـة هانون Hannon القرطاجى ، ففى عام ٤٧٠ ق•م قرر مجلس الشيوخ القرطاجى أن يرسل الأدميرال هانون على رأس بعثة كشفية الى منطقة غرب افريقيا ، كى يؤسس مستعمرات على سـاحلها الغربى ، وكانت هذه البعثة تضم أسطولا كبيراً • وقد تمكن هذا الأسطول على أقل تقدير من تأسيس مستوطنة واحدة ، كما تمكن من الوصول الى رأس الفيرد ، بل ودار حولها ، كما تشير كل الاحتمالات أيضا الى أنه وصل الى سيراليون • وهناك وقع صـدام بين رجال الأسطول القرطاجى وبين رجال القبائل الهمج القاطنين عند مصب نهر السنغال • وكان هانون قد رأى أن الشعر يكسو أجسام السيدات الأفريقيات ، فى هذه المنطقة ، حيث قام الهمج الموجودين عند مصب نهر السنغال بقذف القرطاجيين الغزاة بالحجارة ، ولكن على الرغم من ذلك ، فقد تمكن رجال الأسطول القرطاجى

من القاء القبض على ثلاث سيدات منهن لم يستطعن عمل أى شىء ، بل كان كل ما فعلنه ضد رجال البعثة هو أنهن قمن بعضهن وخربشنهن ، هذا فضلا عن أنهن لم يتبعن رجال البعثة فى رحلة العودة • لذلك أضطر رجال الأسطول الى قتلهن وسلخ جلودهن واحضارها معهم الى قرطاجة • ولم يعرف أحد على وجه التحديد أن هذه المخلوقات الهمجية كانت تنتمى الى سلالة الغوريلا (القـــردة) أم كانت تنتمى الى بعض القبـــائل البشرية البدائية • وقد انقسمت الآراء أيضا حول « الأنهـــار المتقدة » فقد لاحظ رجال البعثة لهب كبير « مشتعل فى كل جانب » Kindled on every side

ويبدو من المحتمل أن يكون هذا اللهب نتيجة للأعشاب المحترقة ، التى اشتعلت للإضاءة بمعرفة الوطنيين •

وبعد ذلك عادت بعثة هانون الى قرطاجة بسبب نقص المواد الغذائية اللازمة لرجالها ، فقد فشلوا فى سد العجز الناقص فى التموين اللازم للبعثة • ولكن لم يكد يحل منتصف القرن الخامس عشر ، الا وكانت البعثة الأوربية تمر من خلال نهر سيراليون ، بل ووصلت الى أقصى نقطة فى جنوبه •

وفى خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، هزمت روما قرطاجة ، وأطلق الرومان كلمة (افريقيا) على الشمال الافريقى ، وفيما بعد امتد هـــذا الإسم على حسب المعلومات الجغرافية الى القارة الافريقية كلها • ومن قبل أطلق الكتاب الأغريق والرومان كلمة (ليبيا) على كل القارة الأفريقية •

وكان الرومان قد اكتشفوا طريقا جديدا الى حدود الحبشة ، وذلك بأرسال بعثة كشفية للكشف عن منابع النيل • ومنذ أيام الفراعنة فأن المؤرخين والجغرافيين قد تحيروا فى غموض مصدر النيل الذى ظل مجهولا حتى تم كشف العالم الجديد • ويعتبر نهر النيل أطول نهر عرفه الأنسان • وقد ترددت اشاعات مفادها أن هذا النهر ينبع من بعض المنابع العميقة التى توجد فى قلب افريقيا ، ولكن لا أحد يعرف مكانها على وجه التحديد • وفى عام ٤٦٠ ق•م تتبع هيرودوت مجرى النيل ووصل الى الشلال الأول

عند أسوان ولكنه لم يستطع أن يكتشف أى شىء محدد من منبع هذا النهر ، وقال أنه سمع أشاعات عن نهر ضخم يعج بالتماسيح يقع على مسافات بعيدة صوب الجنوب الغربى من مصر • وكان المقصود بهذا النهر « هو نهــر النيجر » وكــان هــيرودوت Herodotus كغيره من الجغرافيين الذين ســبقوه أو الذين جاءوا من بعده ، فقد تصور أن هذا النهر ربما أن يكون المجرى العلوى لنهر النيل ، واعتقد أيضاً أنه من المحتمل أن ينبع النيل من مكان ما فى جنوب جبال أطلس ، ثم يسير مجراه نحو الشرق مسافة طويلة قبل أن يتجه نحو الشمال لتتدفق مياهه من خلال مصر الى البحر الأبيض المتوسط • اما بالنسبة لفياضانات النيل ، فأعتقد هيرودوت أنه من المحتمل أن يكون السبب فى هذه الفيضانات يرجع الى نقص فى التبخر خلال شهور الشتاء ، التى تسمح بوجود مياه غزيرة تتدفق فى النهر ، وتتجه نحو مصبه • وقد أستمر الجدل حول السبب فى فيضانات النهر الى أن تم الكشف عنه فى نهاية القرن التاسع عشر • ولم تأت هذه الفياضانات عن طريق المجرى الرئيسى للنهر ، بل يرجع السبب فى وجودها الى النيل الأزرق ، نتيجة للامطار التى تسقط على هضبة الحبشة •

وقد قاد نيرون البعثة الرومانية الى بلاد النوبة (السودان) فكانت الأوامر قد صدرت اليه بأن يتتبع مجرى النيل الى منبعه وطبقا لما ذكره سينكا Seneca الذى كان مرشدا Tutor لنيرون ، أنه قال « بعد أن قطعت البعثة رحلة طويلة رجعت بسبب وجود منطقة من المستنقعات الطمبية الكثيفة النباتات المتشابكة ، وكان من المستحيل على البعثة اختراقها • وقد رأى رجال البعثة صخرتين كان النهر ينحدر بقوة هائلة من فوقهما ، وقد وجد بعض الشكوك فى تحديد مكان الصخرتين بالضبط • ولكن لم يكن هناك شك فى أن البعثة قد وصلت الى مستنقعات منطقة السدود النباتية • وعلى الرغم من فشل البعثة فى تحقيق هدفها الرئيسى ، الا أنها كانت قد وصلت الى النقطة التى لم يتمكن الأوربيون من الوصول اليها مرة ثانية حتى بعد مضى ١٨٠٠ عام •

ولقد انتشرت قصة منطقة النيل فى القرن الأول الميلادى ، فقد لاقت رحلات التـاجر الأغريقى ديوجينس Diogenes اهتماما كبيرا ، وكان هذا التاجر قد أدعى أنه قام برحلة الى الداخل ابتدأها من الساحل الشرقى لأفريقيا ، وكان قد رأى أن الثلوج تغطى قمم الجبال المجـاورة للبحيرتين الكبيرتين • هـذا فضلا عن الجغرافى مارينوس Marinus الذى أخبرنا بهذه القصة التى تقول •••• أن مياه البحيرات تكونت من ثلوج الجبال ، ولكونت بدورها مصادر النيل •

وكان كل من مارينوس Marinus of Tyre والجغرافى الفلكى بتولومى Great Astronomer على حق عندما فكرا فى مصادر بحيرات النيل • ولكن كان من الخطأ التفكير فى أن مياه البحيرات كانت تتكون من مياه ثلوج الجبال • وتوضح لنا خريطة بتولومى الشهيرة ، التى رسمها للعالم المعروف آنذاك (عام ١٥٠ م) أن النيل ينبع من بحيرتين مستديرتين فى قلب أفريقيا ، وتحصلان على مياههما من جبال القمر •

وتوضح لنا خريطة بتولومى هـذا أيضا نهرا كبيرا آخرا هو نهر النيجر الواقع الى الغرب من نهر النيل ، والذى يصب فى الغرب مباشرة ، ومع ذلك فأن معرفة بتولومى عن أفريقيا كانت غير كاملة ، ولكن رغم ذلك فأن العمل الذى قام به لا يقدر بثمن بالنسبة للجغرافيين ، بل وظل خاضعا للمجادلة لعدة قرون •

وفى أثناء الفترة القديمة كان شمال أفريقيا جزءا من عالم البحـر المتوسط ، بل وكان خاضعا بأكمله الى النفوذ الرومانى ، ومع ذلك فلم يمتد نفوذ روما الى المناطق الصحراوية حيث شيد البدو ، وسكان الواحات منازلهم ، وكيفوا أنفسهم على المعيشة فى هذه البيئة القاسية • لهذا لم يوجد سبب يحتم على الرومان البحث والاختراق صوب الجنوب ، كما لم تكن فى الحقيقة حدود مقاطعتهم محمية من الجنوب بحدود طبيعية • لهذا اندفعوا ليشيدوا مراكز ومستوطنات يدافعون منها ضد تهديد ومهاجمـة

القبائل الصحراوية التى يعمل افرادها قطاع طرق • وبعد هذا الاهتمام فقد أسدل الستار الذى لم يرفع الا فى العصور الوسطى • وفى نفس الوقت حدثت تغييرات كبيرة فى شمال أفريقيا حيث تمكن النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، من نشر العقيدة الإسلامية فى شمال أفريقيا ، فقد تمكن اتباعه من العرب فى خلال القرن السابع الميلادى من غزو مصر وفتحها ، بل ومدوا نفوذهم الى مسافات بعيدة صوب الشمال الأفريقى ، فى اتجاه الغرب وهم بذلك يرفعون لواء دينهم ، فلم تعرقل الصحراء تحركهم بل تمكنوا من عبورها ونشروا عقيدتهم فى قلب افريقيا ، كما احتلوا الساحل الشرقى الواقع على مسافة بعيدة صوب الجنوب عند زنجبار وهناك أقاموا صرح امبراطورية عربية •

وقد قام العرب بنشر الدين والتجارة فى الأماكن الجديدة واستخدموا فى ذلك العديد من طرق القوافل التجارية التى تعبر الصحراء الكبرى وتلتقى فى تمبكتو التى كان يوجد بها مركز تجارى يقع بالقرب من نهر النيجر فى السودان الغربى ، وكانت البضائع الثمينة ترد الى تمبكتو لتباع فى سوقها وقد تضمنت هذه البضائع الرقيق والذهب •

وكان العرب مشهورين بعبقريتهم وبأهتمامهم بالجغرافيا وبالرحلات ، ففى خلال القرنيين الثانى عشر والثالث عشر ، تمكن العرب من الوصول الى منطقة البحيرة الموجودة فى أواسط افريقيا • وهناك قصة تقول أن العرب أرسلوا بعثة لتبحث عن منبع النيل ، وبالفعل تمكن أفراد هذه البعثة من مشاهدة جبال القمر ، والبحيرة التى يخرج منها النهر • ورغم ذلك فأن الخرائط العربية التى وضعت لهذا الغرض ، وضعت على أساس خريطة بتولومى وأعماله التى ترجمت الى العربية ، ولو تأكد قيام هذه البعثة فأنها بكل بساطة تكون تكرارا لبعثة ماريوس وديوجنيس التاجران الأغريقيان ومع هذا فأنه من المؤكد أن فى ممارسة المسلمين لشعائر الحج للأماكن المقدسة تشجيعا على السفر والتعرف على شعوب أخرى ، وفى القرن الرابع عشر ، قام ملك مالى برحلة حج من السودان الغربى جذبت الأنظار

اليها ، حيث حدد خط سير هذه الرحلة على الخرائط التى وضعها كتالان Catalan

وكان من أشهر الرحالة العرب ابن بطوطة الذى ولد فى طنجة ، والذى قام فى عام ١٣٢٤ م بسلسلة من الرحلات ، وكان عمره آنذاك ٢٢ عاما • وكان الهدف من قيامه بهذه الرحلات هو زيارة جميع الأقطار الأسلامية فى العالم ، فقد زار مصر وفلسطين ومكه ، بل ووصل الى أماكن بعيدة أخرى من العالم ، مثل روسيا والصين والهند ، كما قام برحلة على طول الساحل الشرقى لأفريقيا ، ونزل فى أماكن مختلفة ، ووصل فى تجواله الى كلـــوا التى تتبع فى الوقت الحاضر تنزانيا • ولم يكتف ابن بطوطة بهذا القدر من السفر ، بل نجده يقوم برحلة أخرى عام ١٣٥١ م من بلدة فاس Fez فى مراكش ، فعبر الصحراء الى بلدة تمبكتو ، وقد وقع ابن بطوطه فى نفس الخطأ الذى وقع فيه غيره من الرحالة ، حيث توصل الى نتيجة مفادها أن نهر النيجر يتصل بنهر النيل •

ولم يخرج ابن بطوطه بأنطباع كبير عن تمبكتو ، بل أنه بعد قرنين من الزمان جاء بعده رحالة عربى مسلم يدعى ليو الأفريقى ، الذى تجول على نطاق واســـع فى غرب افريقيا ، ووصف تمبكتو بأنها مركز تجـــارى على جانب كبير من الأهمية ، كما وصفها أيضا أنها غنية بثرواتهـــا الكبيرة • وفى هذا الصدد كتب ليو الافريقى كتابا عن ملك تمبكتو ، وكان عنوان هذا الكتاب « تاريخ ووصف افريقيا » The History and discription of Africa فقد وصف ليو الأفريقى فى كتابه هذا ملك تمبكتو بأنه يملك الكثير من الألواح والعصى الذهبية كما كان لديه أطباق وصولجانات من الذهب يزن البعض منها حوالى ١٣٠٠ رطل ، كما انه وصف بلاط الملك بأنه مجهز تجهيزا عظيما ، وكان لهذا الملك حرسا خاصا مكونا من ٣٠٠٠ فارس ، بالإضافة الى عدد كبير من جنود المشاه ، الذين كانوا يتسلحون بالسهام والذين كانوا يقومون على خدمة الملك ، ففى أغلب الأحيان كانت هذه القوات تقوم بمحاربـــة الشعوب التى ترفض أن تدفع الأتاوة للملك ، ففى هذه الحالة كانت قواته

نبيع أسرى هذه الهجمات فى سوق تمبكتو • ومن الجدير بالذكر أن الأطباء ورجال الدين والقضاه والعلماء ، كانوا يعيشون فى بلاط الملك وعلى نفقته الخاصة • فضلا عن ذلك فأن ليو الأفريقى رأى سلعا أوربية كانت تباع فى محــلات تمبكتــو • فقــد جلبت اليهــا المخطوطـــات والكتب التى كانت تباع جميعها بأسعار أعلى من أسعار السلع التجارية الأخرى وكان ملك تمبكتو يعيش فى قصر ملكى ، كما كان يوجد له مسجد فخم ، وفى الوقت نفسه كان أهل البلدة يعيشون فى منازل مسقوفة بالقش ، مما جعل بلدهم تتعرض فى أحوال كثيرة لخطر الحرائق •

ولقــد أثار تقرير ليــو الأفريقى الكثير من الأشــاعات المختلفــة Rumours والمبالغات Exaggeration عن أهمية تمبكتو ، مما أدى الى أن الرحالة الأجانب وبخاصة الذين كانوا لا يعرفون شيئا عن داخل افريقيا ، أن يخاطروا بحياتهم لكى يعثروا على مدينة تمبكتــو المغنية التى قيل أن منازلها لم تكن مسقوفة بالقش ، ولكنها كانت مسقوفة بالذهب ، ومع هذا ، فأنه وقبل أن يحدث ذلك فأن عصرا جديدا فى مجــال الكشوف الجغرافية كان قد بدأ •

تعليق عـــلى الفصل (١)

من الواضح أن المؤلفة لم تقم بتوضيح دور مصر كاملا فى مجـــال الكشوف الأفريقية فى العصر الفرعونى ، ربما لعدم المامها بهذا لدور ، أو ربما أن تكون غير مقتنعة به ، ومن المحتمل أنها لم تكن على دراية أو على علم بهذا الدور الكشفى فى التاريخ القديم ، وهذا ما أرجحه وأؤيده • وهناك احتمال آخر هو أنها لم تركز على الفترة القديمة بأعتبار أنها سوف تركز بشكل واضح على فترة العصور الحديثة ، فأعتبرت الفترة القديمة مجرد مقدمة • مع أن دراسة هذه الفترة تمثل الاساس الذى قامت على أساسه هذه الدراسة • لهذا كان من الضرورى أن أقوم بالقاء الضوء كاملا على دور مصر فى هذه الفترة •

ومن المعروف لدينا ولعلماء التاريخ فى دول العالم المتحضر أن مصر لم تكن فى منأى عن بلاد النوبة ، أو بالأحرى لم تكن بعيدة عن الأقاليم الأفريقية الواقعة فى جنوب مصر أو فيما وراء حدودها الجنوبية ، فقد كانت هناك علاقات بين مصر وبين شعوب هذه المناطق منذ فجر التاريخ سواء أكان ذلك فى المجال الثقافى أم العسكرى أم الكشفى أم التجارى •

ويؤيد دور مصر هذا نصوص الدولة القديمة ، هذه النصوص التى تشير الى أن مصر فى هذه الفترة كانت ترسل بقواتها تجاه الجنوب لعدة أهداف منها تأديب القبائل الزنجية التى كانت تحاول الاغارة على حدود مصر الجنوبية ، وفى تلك الأثناء كانت هذه القوات تقوم بأرتياد المناطق التى وصلت اليها ، والتى تقع فى أغلب الظن فى الجنوب الغربى من مصر ، وقد شجع القوات المصرية على قيامها بهذه المهمة أنه لم تكن هناك حـــدود سياسية ، فكان فى امكان هذه القوات المصرية أن تتجول الى أقصى نقطة يمكن أن تصـــل اليها صوب الغرب ، فربما وصلت هذه القـــوات الى شاطىء المحيط الأطلسى الشرقى • وقـــد أشـــــار فيج الى ذلك فى كتابـــــه تـــاريخ غـــرب افريقيـــــا A History of West Africa

حيث قال أنه يوجد تشابه فى عادات وتقاليد ملوك غرب افريقيا بالتقاليد المصرية القديمة •

ولكن على الرغم من ذلك فأن وولتر أمرى ذكر أنه لا يوجد دليل على وجود أية مستعمرة مصرية لها نظامها الخاص فى بلاد النوبة بأستثناء وجود بعض المعسكرات الصغيرة والقلاع ، وذلك لحماية الطرق التجارية بل وحماية حدود مصر الجنوبية • (١) •

ولكننى أقول أن بلاد النوبة وما جاورها كانت محط أنظار المصريين القدماء ، بل وكانت تحظى برعايتهم ، ويضيف د • محمد ابراهيم بكر بما معناه أن الملك بيبى الأول كان قد كلف حاكم الجنوب المدعو « ونى » أن يقوم على رأس جيشه الى الجنوب ، لكى يرتاد هذه المناطق (٢) ، وقد نجح جيش بيبى الاول الذى قاده « ونى » فى القضاء على القبائل المتمردة التى كانت تهدد حدود مصر الجنوبية ، بل وقامت هذه القوات بحفر خمس قنوات فى صخور الشلال الأول الواقعة الى الجنوب من أسوان ، وذلك لتسهيل الاتصال بين البلاد الواقعة بين مصر وبلاد النوبة (٣) •

ولم تقف جهود مصر عند هذا الحد بل نجد أنه فى عهد الأسرة الحادية عشرة قام من مصر أحد الرواد الذى يدعى هينو Henou على رأس حملة الى بلاد بونت ، وتكونت هذه الحملة من ٣٠٠٠ رجل ، وكانت هذه الحملة قد بدأت مهمتها من قفط حيث عبرت الصحراء الشرقية،وفى تلك الأثناء كان هينو يأمر رجاله بحفر الآبار على جانب الطريق حتى يستخدمها رجاله فى الشرب ، وواصلت هذه البعثة مسيرها حتى وصلت الى ساحل البحر الأحمر • ومن هناك سارت عبر هذا البحر ، ومن بعده وصلت

---

(١) وولتر أمرى ، ترجمة تحفة حندوسة . مصر وبلاد النوبة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٣٣ .

(٢) د . محمد ابراهيم بكر : المدخل الى تاريخ السودان القديم ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥ .

(٣) د . أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٨ .

الى بلاد بونت ، وهناك قام هينو بشراء البخور وكل منتجات هذه البلاد • وبعد ذلك عاد هينو من نفس الطريق البحرى الذى سلكه فى بداية الرحلة ، فوصل الى القصير ، ومنها اخترق وادى روهانو حتى وصل الى طيبه • ومن الجدير بالذكر ، أن هينو هذا يعتبر من الرواد العظام فى عصره (٤) •

ولم تتوقف الرحلات المصرية الكشفية عند هذا الحد ، بل نجد الملكة حتشبسوت أرسلت حملة الى بلاد بونت مكونة من خمس مراكب مشحونة بالسلع المصرية المراد استبدالها بالسلع الصومالية • وعندما وصلت الى هناك اتجه قائدها وبصحبته ضابط وثمانية جنود الى الأرض المقدسة ، وبدأ كل شىء فى هذه الأرض غريبا ، وبعد ذلك تقدم باروحو ملك بلاد بونت وزوجته وأولاده ومن خلفهم الخدم لتحية المصريين الذين سألهم الملك البونتى عن سبب مجيئهم الى هذه البلاد التى لا يعرفها أحد • وبعد انتهاء الرحلة جلب رجالها البخور والذهب وسن الفيل والأبنوس ، فى مقابل ما قدموه من سلع تجارية • وكان المصريون يسمون الأشياء التى يحصلون عليها من بلاد بونت بالجزية ، واعتبرت السلع التى تقدم من جانب مصر بالقرابين التى تقدم الى آله بلاد بونت (حتحور) • وبعد أن أنهت البعثة مهمتها عادت الى طيبه ، ودخل رجالها فى موكب كبير ، وفى أيديهم أغصان خضراء ومن خلفهم عظماء بونت ليقدموا هداياهم الى الملكة التى كانت فى استقبالهم فى حشد كبير من المواطنين ، وكان لهذه الرحلة أثرها العظيم فى تدعيم علاقات مصر الخارجية (٥) •

وقد سجلت أحداث هذه الرحلة العظيمة على جدران معبد الدير البحرى ، فقد وضح من الرسوم صور المراكب والبحر الأحمر ولون مياهه وأسماكه التى من المحتمل أن تكون هذه الأنواع من الأسماك لازالت

---

(٤) بيير مونتيه : ترجمة عزيز مرقس : الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٥) د • السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى القرن ١٩ ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، (انظر المقدمة)

موجودة حتى أيامنا هذه ، وهذه الرسـومات خير دليل مادى عـلى هذه الرحلة (٦) •

ومع ذلك ، فلم تتوقف رحلات مصر الى بلاد الصومال ، ففى عهد رمسيس الثانى أرسلت مصر حملات أبعد من بلاد بونت ، فقد تحدث عنها الرواة ، والسبب فى ذلك يرجع الى حاجة المصريين الى الأحجـار الكريمـة التى كانت تـوجد فى بـلاد باكتريان Bacterian والتى يربطها بسوريا ومصر طريق بحرى • ففى البداية لم يذهب المصريون القدماء رأسا الى البلاد التى تنتج الأحجار الكريمة بل اكتفوا بشرائها من بلد كانت تسمى تيفـر Teffer ويقـال أنها سـيبار Sipar التى تقع على قناة تربط نهر دجله بنهر الفرات •

وخير دليل على ذهاب المصريين الى بلاد الرافدين ، أنه حدث فى أحدى السنوات ان الفرعون المصرى ذهب لزيارة بلاد نهارينا ، وبينما كان مشغولا بتلقى تحيات الأمراء والأجانب تقدم اليه ملك باكتريان وملك باختان ، وقدم له الأخير ابنته وهدايا أخرى والتمس ملك باختان أن يتحالف مع الفرعون المصرى الذى قبل هذا العرض • وبعـد ذلك عـاد الفرعـون المصرى الى طيبـه •

وبعد أن عاد الفرعون المصرى الى بلاده جاءه رسول من قبل ملك باختان وطلب المثول بين يدى الفرعون المصرى وأخبره بمرض أخت الأميرة « زوجته » ، فعلى الفور بعث الفرعون بأشهر أطبائه لعلاج أخت زوجته ، ولكن هذا الطبيب لم ينجح فى علاجها ، فجاء رسول آخر يطلب من الفرعون أن يرسل الاله الى بلاد باختان كى يشفى الأميرة من المرض • وكان هذا الاله هو خنسو المعبود الذى ينظم المصائر ، فأستقل مركبا كبيرا تحرسه خمسة مراكب صغيرة ووصل الى باختان بعد سنة وخمسة أشهر • ومن

---

(٦) د . أحمد فخرى : المصدر السابق . ص ص ١٣ ـ ١٤ ، ٢٧٥ .

الواضح أن هذه الفترة كانت طويلة ، اذ لم يعرف على وجه التحديد أن هذا الأسطول الصغير اخترق البحر الأحمر ودار حول شواطىء العرب أم تتبع شاطىء بلوخستان ثم صعد بعد ذلك فى نهر السند ، ومنه الى النقطة التى يتجمع فيها المسافرون المتجهون الى مملكة باختان . وقد بقى اله المصائر فى بلاد باختان ثلاث سنوات وتسعة أشهر . وبعد ذلك سمح له ملك باختان بالعودة الى مصر ، بعد أن زوده بالهدايا والتحف والجنود الأقوياء والخيول . وتعتبر لوحة اللوفر التى سجل عليها وقائع هذه الزيارة وثيقة رسمية فى كل مظهرها ، بحيث لم يعد هناك مجال للشـــك فى صحة هذه العلاقات (٧) .

ورغم ذلك ، فلم تتوقف الحملات المصرية عند هذا الحد ، بل نجدها تستمر فى عهد رمسيس الثالث الذى ابرم معاهدة مع ملك بـــابل تقضى بالسماح لأفراد قواته ، وموظفيه بعبور نهر الفرات ، وكان على اسطول رمسيس الثالث أن يمخر عباب نهر الفرات ، ثم يدور حول شاطىء شبه الجزيرة العربية ومنها يصل الى بـــلاد بونت ، دون أن يتعرض الى أى أحداث بفضل النفوذ القوى والخوف الذى يثيره مجرد سماع اسم فرعون مصر . وبعد ذلك تعود المراكب المصرية بمنتجات تونوتير Tonotir (اسم ملك الصومال) وببذور البخور مارة من خلال البحر الأحمر حتى خليج السويس ومنه الى وادى النيل عن طريق قناة بيتوم .

هذا فضلا ، عن أن زعمـــاء أرض بونت كانـــوا يجيئون الى مصر بواسطة المراكب المصرية ، أى أن المراكب المصرية كانت تجوب البحر الأحمر ذهابا وإيابا ، فيمكن القول أن هـــذا البحر كان بحيرة مصرية ، وكان ينزل منها الصوماليون ومعهم منتجات بلادهم ، ثم يسيرون بعد ذلك على هيئة قافلة حاملين بضائعهم على ظهور الحمير وعلى اكتاف الحمالين حتى يصلوا

---

(٧) بيير مونتيه : المصدر السابق . ص ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

الى جبل قفط ، ومنها يركبون القوارب النهرية حتى يصلوا الى طيبة ، وهم فى حالة معنوية جيدة (٨) •

ومن الجدير بالذكر أنه فى عهد الدولة القديمة كان يوجد خطا ملاحيا يربط جبيل الواقعة على ساحل سوريا وشاطىء بلاد بونت ، كما كانت المراكب تبحر من جبيل حتى تصل الى الشواطىء المصرية ، ثم تسير بعد ذلك فى فرع تنيس (دمياط) ومن بعد هذا الميناء تسير فى قناة تصل الى وادى الطميلات الذى يعتبر أقصى الفروع الشرقية لنهر النيل ، ومع ذلك لم يكن هذا الفرع صالحا للملاحة الا فى زمن فيضان النيل • وبعد ذلك تصل هذه المراكب الى خليج السويس بعد عبورها للبحيرات المرة ، ثم تواصل مسيرها الى بلاد بونت (٩) •

وخلاصة القول أن مصر فى عصورها القديمة كانت دولة رائدة فى مجال الكشف والارتياد فلم يقتصر ارتيادها على المناطق الواقعة فيما وراء حدودها الجنوبية أو الغربية بل وصل ارتيادها الى سواحل البحر الأبيض الشرقية ، بل ووصلت الى نهر الفرات ، بل وتمكنت مراكبها من المسير من شواطئها الشمالية الى ميناء جبيل ، ثم تعبر بعد ذلك الفرات ، حيث تمر من خلال الخليج الفارسى فجنوب الجزيرة العربية ثم تصل فى النهاية الى بلاد الصومال • وبعد ذلك تمر من خلال البحر الأحمر الى مصر ، كما كانت مصر ترسل الحملات عبر الصحراء الشرقية الى البحر الأحمر والتى تصل فى النهاية الى بلاد بونت وهكذا •

ورغم كل هذه الجهود التى قامت بها مصر فى مجال الكشف الجغرافى فى افريقيا وآسيا ، الا أنه عندما سيطر الاغريق على مصر نجدهم يواصلون ارتيادهم الى افريقيا وبخاصة الى منطقة الساحل الغربى للبحر الأحمر •

---

(٨) نفس المصدر • ص ٢٥٥ •
(٩) بيير مونتيه : نفس المصدر • ص ٢٤٨ •

ولقد أرسل البطالمة سلسلة من البعثات الكشفية لمعرفة أجزاء من افريقيا الشرقية هذا فضلا عن قيام هذه البعثات بالوقوف على موارد هذه المناطق وسكانها • فقد تمكن فيلون قائد بطليموس الأول من كشف جزيرة الزمرد • واهتم بطليموس الثانى بشواطىء شبه الجزيرة العربية وبسيناء وخليج العقبة ، بينما اهتم بطليموس الرابع بأفريقيا الشرقية ، فقد وصلت بعثاته الى رأس نوتوس (رأس غرد فوى) هذا فضلا عن أن البطالمة اهتموا بتجارة البحر الأحمر فأنشأوا المدن والمستودعات على الساحل الغربى لهذا البحر كما أسسوا عددا من المدن منها هرؤنوبوليس الواقعة عند الطرف الشمالى للبحيرات المرة ، وأرسينوى على خليج هرؤنوبوليس ، وميوس هورموس عند رأس أبى شعر ، وفيلوتيرا عند سفاجة ، وليوكوس ليمن عند القصير ، وبرينيكى فى مواجهة أسوان ، وأسس البطالمة أيضا عددا من المراكز الخاصة بصيد الفيلة فى بلاد النوبة والسودان كما أهتموا بانشاء الطرق ، فقد أعاد بطليموس الثانى حفر قناة النيل ، كما اهتموا بالطريق الذى يبدأ من قفط وينتهى عند ليوكوس ليمن (١٠) •

ومن بعد البطالمة أرسل نيرون بعثة لكشف منابع النيل ، ولكنها فشلت فى تحقيق هدفها ، هذا فضلا عن أن الرومان قد سيروا الحملات التأديبية وذلك لتأمين حدودهم الجنوبية • فاذا كان الرومان قد اتجهوا فى تجوالهم فى افريقيا صوب الجنوب ومع وادى النيل ، فنجد أن البطالمة يتجهون مع الساحل الغربى للبحر الأحمر •

ومن المؤكد أن كل من البطالمة والرومان كانوا قد وصلوا الى صحراء كالهارى ، وهذا أمر غير مشكوك فيه ، ودليلنا على ذلك انه اكتشف فى الفترة ما بين ١٨٩٦ الى ١٨٩٨ فى حصن جروسفينور • Fort Grosvenor

(١٠) د • ابراهيم نصحى : دراسات فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ص ١٢١ — ١٢٣

(الواقعة الى الشرق من منطقة بوندولاند Pondoland ، أى عـلى بعـد ١٦٠ كم من باسولاند والتى تسمى فى الوقت الحالى ليسوتو) وعلى عمق ١٨٠ سنتيمتر فى مكان كوخ للوطنيين عند ساحل البحر « المحيط الأطلسى » وعاء يحتوى على ٢٨ قطعة نقود كان البعض منها متآكل لدرجة أنه لم يمكن التعرف عليها ، ولكن خبير من المتحف البريطانى تمكن من تحديد أن الثلاث قطع الأقدم عمرا تنتمى عـلى التوالى الى عصر كل من بطليموس الأول والثانى والرابع ، أى فى الفترة ما بين ٣٠٠ ، ٢٠٠ عام ق٠م٠ أما بقيـة القطع الأخرى والتى أمكن التعرف عليهـا فكانت رومانيـة ضربت اثنين منها فى الفترة ما بين ٣١٣ ، ٢٩٦ ق٠م ، وكانت خمسة منها قد ضربت فى الأسكندرية وإثنين منها ضربتا فى أنطاكية وسوريا وواحـدة ضربت فى سيزيكوس Cyzicus (١١) ٠ اذن يمكن القول بأن البطالمة والرومان كانوا قد توغلوا الى مسافات بعيدة فى افريقيا وبخاصة فى المنطقة الواقعة الى الجنوب من خط الاستواء ٠ ولا يمكن الشك فى هذا لأنه لم يكن هناك قوى سياسية يمكن لها مقاومة التوسع البطلمى ومن بعده التوسع الرومانى ٠

وأخيرا يمكن القول بأن مصر كان لديها امكانات ضخمة مكنتها من أن تكون دولة لها سطوتها على كل من جاورها من دول ٠ ولكن على الرغم من كل هذا الدور الفعال الا أن مؤلفة هذا الكتاب لم تعن بهذا الدور ، وهذا مما دفعنى ان ألقى الضوء على الدور المصرى لما له من أهمية ، ولا نعلم السبب وراء اغفال المؤلفة لهذا الدور ، ولا نعرف على وجه التحديد أكان هذا الاغفال عن عمد أم كان ذلك عن جهل ، ولكننى أقول أن هذا الاغفال كان مقصودا ، لأنه من المعروف لنا جيدا أن الأوربيين يميلون دائما لأن يكونوا هم الأعلون على من سواهم من البشر ، لذلك فهم لا يرغبون فى إظهار دور مصر الحضارى فى افريقيا ، ويتضـح ذلك جليا فى التـاريخ الحديث ، حيث يعمدوا الى اغفال هذا الدور لشىء فى أنفسهم وهو عقدة التفوق على من سواهم من الأجناس الأخرى من سكان العالم ٠

---

(11) Victor Ellenberger : La fin tragique des Buchmen. Paris, 1953. p. 20.

الفصل الثانى

التجـار والمبشـــرون

بدأت السفن الاوربية رحلاتها الكشفية الى السواحل الأفريقية فى خلال القرن الخامس عشر ، وذلك للبحث عن طرق جديدة للتجارة ، لأن التجارة التى كانت تتم بين أوربا والعالم العربى كانت قد تأسست من قبل ، فى منطقة شرق البحر المتوسط • وكان من أهم السلع التى تحتاجها أوربا فى ذلك الوقت ، التوابل والحرير والقطن طويل التيلة وكانت هذه السلع ترد من الهند عبر الطريق البرى الى موانى البحر المتوسط الجنوبية ، ومن هناك كانت تشحن الى الجهات المقصودة ، أى أنها كانت تتجه بعد ذلك الى دول أوربا الغربية • والى جانب هذا الطريق وجد هناك طريق بديل آخر ، هو طريق البحر الاحمر ، الذى يبدأ من باب المندب فى الجنوب وحتى برزخ السويس فى الشمال ، وفى السويس كان يتم تفريغ البضائع التى تنتقل بعد ذلك الى موانى البحر المتوسط الجنوبية لتشحن مرة أخرى الى أوربا • وتعتبر هذه العملية التجارية باهظة التكاليف بسبب سياسة الإحتكارات التى أتبعها حكام مصر فى تعاملهم فى تجارة الشرق ، فكان هؤلاء الحكـام قد فرضوا الضرائب على السلع التجارية التى تمر من الأراضى المصرية قبل وصولها الى الأسواق الأوربية • « ومما لا شك فيه أن الأوربيين استاءوا من هذا النظام المتبع فى تجارة الشرق ، وفكروا بطريقة جدية فى الاستيلاء على هـذه التجارة » •

ويعتبر البرتغاليون ، أول الأوربيين الذين وصلوا الى هذا المسرح ، لأنهم كانوا يعيشون فى قلق بسبب رغبتهم فى تنشيط حركة التجارة البحرية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخـرى كـان البرتغاليون يرغبون فى كسر الأحتكارات المصرية ، حتى يتمكنوا من نقل البضائع فى سفنهم الخاصة بدلا

من نقلها فى سفن تجار فينسيا (البندقية) الذين كانوا حلفاء للمصريين أى أنه لهذا كان على (البرتغاليين) القيام بنقل وتوزيع السلع التجارية التى يحضرونها الى أوربـا والتى تمر عبر البحر الأحمـر • لهذا لم يفكـر البرتغاليون بجدية فى أهمية التجارة مع أفريقيا بل اكتفوا بالاستقرار فى نقط على ساحل أفريقيا الغربى ، حيث كانوا يشترون من القبائل الساحلية كميات صغيرة من السلع التجارية التى تمثلت فى العاج وخـام الذهب والفلفل الأسود ، وأعتقد البرتغاليون بعد ذلك فى أنه من المحتمل أن يكون فى امكانهم الأبحار حول أفريقيا الى الهند كى يؤسسوا هناك وبطريقة مباشرة تجارة معها ، « أو بالأحرى الاستيلاء على تجارة الهند ، وأن صح التعبير احتكار تجارة جنوب شرقى آسيا » •

وكان اكتشاف البرتغاليين لسواحل غرب أفريقيا يمثل الخطوة الأولى التى قاموا بها من أجل البحث عن طريق بحرى جديد • ويرجع الفضل فى هذا العمل الى حث وتشجيع الأمير هنرى بن ملك البرتغال الذى كـان يعرف بهنرى الملاح ، ومع أن الأمير هنرى لم يبحر مع البعثة ، الا أنه كان شغوفا بالقيام برحلات أكثر ، وفى نفس الوقت كان يمكنه أن يقـوم بتوسيع امبراطورية وتجارة البرتغال • وقد بدأ تدريجيا فى تطوير بناء السفن وعلم الجغرافيا ، ولكن على الرغم من أرسال البعثات الكشـفية الأولى فأن المعلومات عن الشاطىء الغربى لافريقيا لم تتعد رأس البوجادور Bogador الواقعـة فى منطقـة ريـودى أورو Rio de oro ، ولكن فى عام ١٤٤٥ م ، وصلت سفن هنرى الى رأس الفيرد Cape **Verde** ونهر السنغال • وفى عام ١٤٦٢ م ، أى بعد وفاة هنرى الملاح بسنتين وصل البرتغاليون الى خليج غينيا •

وقد استمرت البعثات الكشفية البرتغالية على طول ساحل افريقيا الغربية ، فأكتشف ديجوكام Diego Cam عام ١٤٨٤ م مصب نهر الكنغو ، وقد تمكن فى تلك الأثناء من كشف أكثر من ١٤٠٠ ميل من هـذا الساحل •وفى عام ١٤٨٧م ، قام من بعده بارثولوميوديا ز Bartholomew Diaz

على رأس بعثة كشفية بدأت مهمتها من البرتغال وذلك لمواصلة الكشف الفعلى لساحل افريقيا الغربية ، ابتداء من النقطة التى توقف عندها ديجوكام وهى مصب نهر الكنغو ، بحيث يواصل سيره صوب الجنوب ، كى يقوم بعملية مسح شاملة للساحل الأفريقى ، وقد تمكن من الوصول الى خليج وولفس ، الواقع فى جنوب غرب أفريقيا ، بعد ذلك واصل المسير حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح The Cape of Good Hope ودار من حوله ، وتتبع الساحل الأفريقى فى اتجاه الشرق ، حتى وصل الى نهر السمك الكبير The Great fish River ، وبعد ذلك عاد الى برشلونه التى وصلها عام ١٤٨٨ م مضيفا بذلك مسافة جديدة تم كشفها والتى بلغ طولها ١٢٦٠ ميلا أضيفت الى المسافة التى اكتشفها ديجوكام •

وقد كلف هنرى الملاح المغامر فاسكو دى جاما Vasco de Gama بمهمة اكتشاف طريق بحرى الى الهند ، وفى الوقت نفسه أبحر كرستوفر كولمبس من أسبانيا متجها الى الهند فأندفع بحماسة صوب الغرب عبر بحر مفتوح اعتقادا منه أنه يسير فى الطريق الصحيح ، ولكنه بدلا من أن يصل الى الهند وصل الى جزر الهند الغربية فى قارة امريكا (الواقعة فى المحيط الأطلسى) ، وفى تلك الأثناء كان فاسكو دى جاما قد أبحر بهمة ونشاط من جزر رأس الفيرد متجها صوب الجنوب ، وبعد بدء الرحلة بثلاثة شهور ، وصلت بعثته الى منحنى واسو • وقد شاهدت البعثة فى الجنوب شواطىء خليج القديسة هيلانة المستقيم • ومن هذه المنطقة دار فاسكو دى جاما حول هذه الرأس ، وواصل ابحاره شمالا حتى وصل الى ساحل ناتال وموزمبيق ، ومن الأخيرة وصل الى مالندى فى كينيا ،وهناك تمكن من الحصول على بحار عربى استخدمه كدليل ، ومرة ثانية وبحماسة عبر بحر مفتوح • وفى ١٦ مايو عام ١٤٩٨ م ، القت السفينة بمراسيها عند كاليقوط Calicut أوكوز هيسكود Kozhiskode الواقعة على ساحل كيرالا Kerala فى الجنوب الغربى من الهند •

وبنجاح رحلة داجاما حقق البرتغاليون هدفهم فى كشف طريق

جديد الى الهند والشرق ، وبهذا العمل تمكنوا من اقامة عدد من المراكز التجارية على طول الساحل الغربى لأفريقيا • وفى السنوات التى تلت ذلك قاموا بتأسيس مراكز تجارية أخرى ، ولكن رغم ذلك تناقصت قوة البرتغال ، مما دفع الدول الأوربية الأخرى أن تأمل فى الاستيلاء على مكانة البرتغال التجارية فى غرب افريقيا ، وبالفعل قام بحارة من كل من انجلترا وهولندا وفرنسا بزيارة ساحل غرب افريقيا لتأسيس تجارة لهم مع القبائل التى كانت تسكن الساحل، وقبل مضى وقت طويل أخذت التجارة الصغيرة فى الاضمحلال وحلت محلها تجارة أكثر ربحا الا وهى تجارة الرقيق •

وعندما أسست الدول الغربية المستعمرات فى العالم الجديد جلبت اليها العبيد للعمل فيها • وكان الأمداد بالرقيق مستمر والسبب فى ذلك يرجع الى رؤساء القبائل الأفريقية ، الذين كانوا فى صراع مستمر بسبب تجارة الرقيق ، فكان هؤلاء الرؤساء يرسلون مساجينهم الى الساحل لبيعهم الى الرحالة (المكتشفين الأوربيين) ، وفى نفس الوقت لم يكن للتجار الأوربيين الرغبة فى تأسيس مستعمرات على ساحل غرب افريقيا ، ويرجع ذلك الى أن المناخ فى هذه المنطقة غير صحى ، فضلا عن أن داخل القارة (الافريقية) ، كان غير معروف بالنسبة لهم ، لذلك نجدهم يشيدوا سلسلة من المراكز التجارية الحصينة لكى يجمعوا فيها الرقيق ، قبل أرساله عبر الأطلنطى الى العالم الجديد ، وقد زاد حجم هذه التجارة قبل ذلك بوقت طويل ، وكان قد تم الكشف عن حدود سواحل غرب افريقيا ، فبهذا تحققت المعرفة عن داخل القارة الإفريقية •

وفى هذا المجال تمكن البريطانيون والفرنسيون من كشف المنطقة الممتدة من غينيا الى السنغال ، بل وواصلوا كشفهم بعد ذلك حتى وصلوا الى مجموعة الأنهار التى تعرف بأنهار الزيت ، والتى تصب مياهها فى ساحل غينيا • وكانت هذه المنطقة معروفة للأوربيين كسوق للرقيق ولزيت النخيل •

ولكن بعد ذلك زاد نشاط البرتغاليين فى منطقة الكنغو ، وفى المنطقة الواقعة الى الجنوب منها بحيث بدأوا يوطدون نفوذهم فى أنجولا ، فأقاموا المراكز التجارية على طول الساحل الشرقى ، بل وتوغلوا الى داخل القارة حيث أصبحت مملكة الحبشة هدفا لنشاطهم التبشيرى • وكان من بين أفراد الجزويت المبشرين رحالة مشهورين ، بل وبارزين ، من أمثال القس بدروبيز Pedro Paez وجيروم لوبو Jerome Lobo فكان بدروبيز هذا شخصية بارزة وكان المسلمون فى الجزيرة العربية قد أودعوه السجن لبضعة سنوات ، ولكنه فى عام ١٦٠٣ تمكن من الوصول الى الحبشة ، لأنه كان تواقا الى نشر العقيدة المسيحية ، وبعد أن وصل الى الداخل حققت بعثته نجاحا هائلا تمثل فى إعتناق امبراطور الحبشة وحاشيته للعقيدة المسيحية • وفى عام ١٦١٣ رافق الاب بيز امبراطور الحبشة وجيشه فى مناورات عسكرية Military Manoeuvres ، وقــد قادتهم هذه المناورات الى مشــاهدة بعض ينابيع المياه فى جنوب بحيرة تانا ، تلك البحيرة التى عرفها المصريون القدماء • وقد فهم بيز على الفور أهمية هذه الينابيع ، وقال ما نصه « لقد صعدت الى هذا المكان ، ولاحظت كل شىء بأنتباه كبير ، فبينما كنت أنظر من حولى ••• اكتشفت ينبوعين مستديرين من المحتمل أن يكون قطر أحداهما قدمين • وقد ملأنى هذا المنظر سرورا ، فعجزت عن التعبير ، وعندئذ قدرت حماس القدماء من قبلى ، هذا الحماس الذى ضاع سدى ، وكنت قد لاحظت هذين الينبوعين ، ولكن لم يكن لهما مخرج الى السهل الواقع على قمة الجبل » وبعبارته

«The fountains have no issue in the plain on the top of the Mountain»

وكانت مياهها تتدفق الى أسفل الجبل ، وكان الينبوع الثانى يوجد الى الغرب من الينبوع الأول ، كما كان يقع فى منطقة صخرية • لهذا واصل الأب بيز اهتمامه بهذين الينبوعين ، وكتب تقريرا مفصلا عن القطر الذى يحيط بهما •

وفى الواقع فوجىء بدرو بيز بمنبع النيل الأزرق الذى يتحد مــع المجرى الرئيسى عند الخرطوم ، والذى يسبب فيضان النيل ، وكان المبشر

الآخر التابع لبيز يدعى الأب لوبو Father Lobo الذى فشل فى محاولته ايجاد طريقا مباشرا الى الحبشة من مالندى الواقعة على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، لهذا اضطر الى دخول القطر (الحبشة) من ساحل البحر الاحمر ، وتجول فى أماكن كثيرة من هذه البلاد • وتختلف الآراء حول امكانية رؤية الأب لوبو لمنبع النيل الأزرق من عدمه ، فكان قد أدعى أنه زار شلالاته الكبيرة المعروفة باسم شلالات تسيسات Tisisat falls التى كانت مثار جدل لسنوات طويلة وكانت مساقط مياه الشلالات تحدث صوتا كصوت الرعد ، لأنها كانت تنحدر من قمة مرتفعة الى أسفل بحيث تسير فى ممر ضيق ومع ذلك فان القس لوبو أدعى أنه تمكن من الوصول الى المنحدر الصخرى (الجرف) وذكر أنه توجد هناك ستارة من المياه المتدفقة والتى تنهمر على الحافة الصخرية فى حوض النهر • وقال لوبو أنه شاهد من هذه النقطة ألف قوس من أقواس قزح Rainoows ، والتى كانت قد تكونت بسبب أشعة الشمس الساطعة والتى تسقط على الشلال •

وقد عرف كل من بيز ولوبو والمبشرين البرتغاليين الاخرين الكثير عن مداخل الحبشة ، ولكن قبل مضى وقت طويل طرد المبشرون من القطر (الحبشة) • وفى عام ١٦٩٩ ، أى بعد مائة عام (على بعثة بيز) وصل الى الحبشة فريق من المبشرين ، وكان بصحبة هذا الفريق طبيب فرنسى يدعى تشارلى بونسية Jacques Charles Poncet الذى عين سفيرا لدى امبراطور الحبشة من قبل ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكان بونسيه هذا قد بدأ الرحلة من القاهرة ، ثم وصل الى السودان ، ثم مر من خلال سنار الواقعة على النيل الأزرق • وكانت سنار هذه عاصمة لامبراطورية الفونج العظيمة ، التى كانت تضم معظم اقليم السودان الحديث ، وكانت أصول الشعب الفونجى غير معروفة ، مع أنهم كانوا قد تزاوجوا مع العرب وأعتنقوا العقيدة الاسلامية •

ويقال أن الفونجيين كانوا يحصلون على ثرواتهم من مناجم الذهب الواقعة على حدود الحبشة ، وكان تجار سنار الأثرياء يمارسون التجارة

مع التجار الهنود عن طريق ميناء على البحر الأحمر • وقد وصف بونسيه رحلته ، كما وصف أيضا مدينة سنار وشعبها • وقد كتب بونسيه يقول أن النساء فى سنار كن عبارة عن أشخاص غريبة الشكل للغاية ، فكن يلبسن ملابس حريرية زاهية ، وكن يتزين أيضا بالخلاخل والحلقات الفضية • وكانت وجوههن ملطخة بالكحل • وكان ملك سنار يملك قصورا كثيرة ، فكان يخرج فى كل أسبوع فى موكب لزيارة أحد هذه القصور المنتشرة فى مملكته • وكان سوق سنار يعج بالبضائع التجارية وبالعبيد والجمال والفاكهه وبالعديد من السلع الأخرى •

وفى عام ١٧٠١ جاء مبشر آخر من بفاريا يدعى ثيودور كرنب Theodore Krump وسلك نفس الطريق الذى سلكه بونسيه • فقد مر ثيودور من خلال مصر (فالسودان ثم سنار) وقد قام بوصف سنار • وفى تلك الأثناء ، عبر النهر وسافر الى غندار عاصمة الحبشة الواقعة الى الشمال من بحيرة تانا • وفى غندار استدعى امبراطور الحبشة بونسيه كى يقوم بمعالجته من مرض أصابه • وبعد ذلك عاد بونسيه الى أوربا عن طريق ميناء مصوع الحبشى الواقع على البحر الاحمر •

ولقد أعقب رحيل بونسيه فترة من الركود الكشفى الطويل ، على الرغم من أن المبشرين كانوا يجدون من الوسائل ما يمكنهم من الوصول الى الحبشة ، ومع ذلك فلم يرغبوا فى الاستقرار هناك حتى أن هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة انصرفوا عن هذه المهمة • وعلى هذا فقد مر سبعون عاما قبل أن يرى أوربى آخر منبع النيل الأزرق ، لهذا فقد ظل الغموض يخيم على المنبع الرئيسى للنيل دون حل ، رغم ارسال البعثات الكشفية الى وادى النيل • وفى عام ١٧٣٧ ، سافر من القاهرة بصفة فردية كل من الدنمركى فردريك نوردن Frederick Norden والانجليزى ريتشارد بوكوك Richard Pococke وقد نجحا فى تتبع طريق مجرى النيل ، ووصلا الى فيلة الواقعة جنوب أسوان • وهناك ، قام نوردون بعمل رسومات للنقوش الخاصة بالآثار الموجودة فى منطقة فيلة • وقد تبعهما

الى وادى النيل رحالة آخرون ، ولكنهم لم يقدموا من المعلومات مـا يستحق الذكر •

وفى الجزء الجنوبى من القارة كانت المستوطنات البرتغالية التى انشئت مع بداية الاستعمار البرتغالى قد اختفت بسبب اضمحلال قـوة البرتغاليين فى القرن السادس عشر ، وفى خلال القرن السابع عشر بدأت السفن البريطانية والهولندية فى استخدام ميناء رأس الرجاء الصالح To use the harbour the Cape of Good Hope واتخـذوها كمحطة تقع فى منتصف طريق الرحلة الى الهند الشرقية • وفى عام ١٦٥٢ م احتل الهولنديون منطقة موقع كيب تون ، وأسسوا فيها مستعمرة ذات أهمية • وفى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، أرسل الهولنديون عددا من البعثات الى نتال وخليج دى لاجوا Delagoa Bay الواقع عـلى الساحل الجنـوبى الشرقى ، وذلك للبحث عن مناطق جـديدة صـالحة للاستيطان ، وبدأوا بالتدريج فى كشـف المناطق الداخلية الواقعـة فى اتجاه نهر الأورانج •

التعليق على الفصـــــل (٢)

يرجع السبب وراء تعليقى على هذا الفصل الى أن مؤلفة هذا الكتاب أشارت الى بعض النقاط الهامة التى من أهمها طرق التجارة التى تربط بين الشرق والغرب والتى لم تفها حقها ، بل أنها أغفلت دراسة بعض الموضوعات التى من أهمها الكشوفات الجغرافية الأسبانية ، لذلك كان من المحتم على توضيح هاتين النقطتين ، السابقتين •

فبعد أنهيـــار القوى الصـــليبية فى شرق البحـــر المتوســـط فقـــد الأوربيون الاتصال التجارى المباشر بأقليم وسط آسيا ، وعلى أثر ذلك ، حاولوا تدعيم الطريق البرى الذى يربط بين أوربا وفارس والهند • وكان هذا الطريق يمر من خلال أقاليم الدولة البيزنطية وبذلك تحاشى الأوربيون المرور من خلال الأراضى العربية والمملوكية • وكان من أكثر البـــلاد الأوربية اهتماما بتجارة الشرق البنادقة والجنويين الذين فضلوا الطريق البحرى الى شرق البحر المتوسط • وعندما اشتدت هجمات القراصنة حول هؤلاء التجار الأوربيون طريقهم الى الطريق البرى الذى يبـــدأ من ساحل دلمشيا مارا بالقسطنطينية وآسيا الصـــغرى ، ثم يمر بعد ذلك بآسيا • وكان الأوربيون فى تلك الأثناء يعقدون معاهدات مع ملوك البلاد التى يمرون من خـــلالها بحيث تخـــول لهم هـــذه المعاهـــدات حرية المرور والتجارة ، ولكن بعد سقوط القسطنطينية عام ١٢٥٣ ، فقد هؤلاء التجار الاوربيون هذا الطريق واضطروا ازاء ذلك الى العودة الى الطريق البحرى القديم الذى ينتهى عند موانى الشام ومصر ، حيث كانت توجد مراكز تجمع السلع الشرقية الواردة من الصين والهند • وكان هؤلاء التجار الأوربيون يعقدون معاهدات تجارية مع حكام مصر والشام ، وقد ظلت هذه المعاهدات سارية المفعول حتى الفتح العثمانى لبلاد الشام ومصر فى الفترة ما بين ١٥١٦ ، ١٥١٧ م •

وكان من هذه الطرق البحرية طـــريق الصين ـــ الهند ـــ الخليج

الفارسى ، ومن نهاية الخليج الفارسى تبدأ فروع هــذه الطرق النهرية والبرية ، فيبدأ الطريق البحرى من البصرة الى بغداد ومنها يتفرع الى فرعين يتجه الأول شمالا حتى ديار بكر ، ويتجه الثانى غربا الى دمشق ، ومن الأخيرة يخرج منها فروع الى موانى ساحل البحر الأبيض المتوسط ؛ ومن دمشق يخرج فرع آخر فى اتجاه الجنوب مارا بحذاء الســاحل الى غزة ، ومنها يمر من خلال الصحراء الى القاهرة ، ومن دمشق أيضــا يخرج فرع آخر يتجه شمالا الى حلب ومنها الى آسيا الصــغرى ليلتقى بالطرق القادمة من وسط آسيا ثم يتحد معها الى القسطنطينية ، ثم يمر بعد ذلك الى أوربا • وقد توقف المسير فى هذا الطريق أثناء غزو المغول لآسيا فى القرن ١٣ ، ولكن عاد استخدامه من جانب التجار بعد أن سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى ، وقاموا بتأمين الطرق التجارية المارة بها ، بل وأصبح هذا الطريق يمثل الطريق الاحتياطى للتجارة الشرقية كلما تعطلت الطرق الأخرى أو أصابتها كوارث القراصــنة وقطاع الطرق • ويخــدم هــذا الطريق فى جزئه الرئيسى موانى ومــدن هرمز وسيراف وقيس والبصرة والأيلة (تقع عند مصب دجلة والفرات) •

وأما الطريق الثانى فهو الطريق البرى الذى يمر من وسط آسيا فالهند فنهر الأثيل وهناك يلتقى مع طريق القوافل القادم من الصين ، ثم يسير حتى يصل الى بخارى ، وهناك يتفرع الى فرعين يتجه أحداهما الى بحــر قزوين فنهر الفلجا فبلاد البلغار ، ويتجه الثانى الى البحر الاسود ، ومن منطقة البحر الأسود يخرج منه فروع جانبية الى حلب وساحل البحر المتوسط ، وبغداد وديار بكر ، ويتفرع منه أيضا طريق ثالث غير مطروق يمر من أرمينيا فآسيا الصغرى فالقسطنطينية •

وفى خلال القرن الخامس عشر توقفت حركة التجارة فى هذا الطريق أكثر من مرة فى مدنه وموانيه بسبب اشــتداد الصراع بين العثمانيين والتركمان والأوربيين ثم بســبب الصراع بين الصــفويين والمماليك كما

تأثرت فروعه الأخرى بهذه العمليات الحربية التى أشتدت بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م •

وأما الطريق الثالث فهو يبدأ من الصين وحتى الهند ، ومن الهند يخرج منه فرعان يتجه أحداهما الى الخليج الفارسى ويتجه الثانى الى البحر الأحمر ، ويخدم التجارة على هذا الطريق عدد من الموانى فى الصين والهند ، كان من أبرزها خانفو (كانتون) وزيتون وكينساى فى الصين ، وجوجيرات وكمباى وديوفقليقوط وجوا وكولون ، وشول وكانانور وسورات فى الهند ، هذا فضلا عن وجود عدد قليل من المحطات التى تقع على ساحل كروماندل الشرقى وفى جزيرة سيلان • وقد سيطر على نهايتى هذا الطريق دولتان عظيمتان ، هما الصين التى تقع فى النهاية الشمالية لهذا الطريق ودولة المماليك فى مصر والشام والتى تقع فى نهايته الغربية •

وأما الطريق البحرى الرابع ، فيبدأ من الشرق الأقصى وحتى البحر الأحمر ، وعند النهاية الشمالية للبحر الأحمر يتفرع هذا الطريق الى فرعين يتجه أحداهما عبر سيناء الى دمشق ومنها يصل الى موانى البحر الأبيض الشرقية ، ويتجه الطريق الآخر عبر الصحراء الى النيل فالقاهرة أو الى الاسكندرية ومنها الى أوربا • ومع ذلك فأن هذا الطريق تعترضه صعوبتان ، أولهما المساحة البحرية الشاسعة التى تبدأ من الصين وحتى الهند بما فى ذلك البحر الاحمر ، وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة معظم السنة ، وثانيهما كثرة الشعاب المرجانية التى تعترض الملاحة فى البحر الأحمر ، وقد ذللت الصعوبة الأولى بعد وصول السفن العربية الى المحيط الهندى فى وقت تقدمت فيه المعلومات الجغرافية ، فقد لائم البحارة أوقاتهم فى مواعيد هبوب الرياح الموسمية • وقد تم التغلب على الصعوبة الثانية بالإبحار الى مسافات بعيدة عن أماكن تلك الشعاب المرجانية • ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، أصبح طريق البحر الأحمر أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغربوسبب ذلك

يرجع الى الغزوات التى انتابت آسيا ، فهو بعيد عن ميادين الحرب التى نشبت بين المماليك والمغول ، كما كان بعيدا عن ميادين القتال بين العثمانيين والأوربيين والتركمان وامارات آسيا الصغرى ، والصفويين ، والمماليك فى مطلع القرن السادس عشر • فكانت هذه الإضطرابات السياسية والعسكرية سببافى قطع الصلات التجارية وسدالطرق البريةالقديمةبين الشرق والغرب• لهذا اضطر التجار الى اللجوء الى طريق البحر الأحمر الذى يمر من أملاك السلطنة المملوكية ، فكان أكثر الطرق أمنا ، وأن كانت مرحلة السير فيه تكلف كثيرا من الجهد والمال والحراسة • لذلك عمل المماليك على ضـــبط الطرق التجارية وحماية التجارة والتجار من عبث قطاع الطرق •

وقد أثرى عمال سلاطين المماليك من التجارة على هذا الطريق ، فقد عملوا أولا وسطاء بين تجار الشرق والغرب ، ثم تاجروا بأنفسهم واحتكروا هذه التجارة ، بعد أن انتزعوها من التجار (الكارمية) ، بل وغـــالوا فى إحتكارهم لها ، وبخاصة فى السلع النادرة فـــأدى ذلك الى مضــــاعفة أسعارها فى أوربا الى أربعة أو خمسة أضعاف أسعارها فى الهند • أضيف الى ذلك أن المماليك فرضوا رسوما جمركية باهظة على كل سلعة تجارية تمر من البحر الأحمر الى مصر ودول أوربا ، فالبضائع التى كان ثمنها ٢٠ر٠٠٠ جنيه كان يدفع عنها جمارك تقدر بنحو ٤٠٠٠ جنيه ، وفى ميناء بولاق النهرى كانت البضائع التى تساوى ٣٠ر٠٠٠ جنيه ، كان يدفع عنها رسوما قدرها ٥٠٠٠ جنيه ، هذا بخلاف الهدايا التى كانت تقدم لرجال السلطان وعمال الميناء لتسهيل حركة الشحن وحماية البضائع •

ونتيجة لهذا فقد أصبحت بلاد السلطان المملوكى مقصد تجار البندقية وجنوه وفلورنسا ، وقطالونيا ، وفرنسا ، وأصبح لهم وكالات وفنـــادق ومعاملات وحسابات جارية ومصرفية ، مع السلطان والأهالى • وكـــان من أهم المدن التى خدمت التجارة على هذا الطريق القاهرة والأسكندرية ، وعلى البحر الاحمر القلزم والسويس والطور وجده وعدن ، وفى الشام دمشق وبيروت وحلب •

وحتى نهاية العصور الوسطى كان التنافس شـديدا بين القاهرة والأسكندرية ، فى بيع وتوزيع سلع الشرق وسلع الغرب ، ولكن ظلت القاهرة نقطة تجميع السلع ، فكانت مركزا لتوزيع تجارة الشرق الى غرب أوربا ومركزا لتوزيع تجارة الغرب الى الشرق ويرجع ذلك الى موقعهـا المتوسط ، كما كانت أقصى نقطة يصل اليها التجار الأجانب الوافدين الى مصر ، وكان بالقاهرة أحياء معينة مخصصة لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والعربية وكان يوجد للتجار مخـازن وقياسر ووكـالات وفنادق واماكن خاصة لدوابهم ولا سيما الوافدين من الشـام وبلاد العـرب والسودان ، وأحيانا من فارس (١) •

وكان من نتيجة هذا أن أصبح السلاطين المماليك فى دولتى المماليك البحرية والبرجية فى سعة عظيمة من المال ، وخير دليل على ذلك مبانيهم الشاهقة وآثارهم النفيسة ، فلم تكن موارد ثروتهم قاصرة فقط على الزراعة التى كانت أساس ثروة مصر ، بل أن الكثير من هذه الثروة كان يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة الهندية ، عنـد مرورها من مصر الى أوربا وبخاصة قبل أن تهتدى أوربا الى كشف طريق رأس الرجاء الصالح الذى يربط أوربا بالهند (٢) •

ويمكن القول أن لكل هذه الاسباب والمبالغات فى فرض الضرائب على تجارة الشرق المرسلة الى الغرب أثره فى تفكير أوربا فى ضرورة السيطرة على تجارة الشرق • وقد كان على رأس دول أوربا دولتان هما دولة البرتغال وأسبانيا ، وعلى الرغم من اتفاقهما على الفكرة الا أنهما اختلفتا فى طريقة

---

(١) د • نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسـطى ، القـاهرة ١٩٧٣ ، ص ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٢٥ ، ١٢٨ •

(٢) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن ، مراجعة أ • ج • سفدج تاريخ مصر من الفتـح العثمـانى الى قبـل الوقت الحاضر • القاهرة ، ١٩٢١ • ص ٧٢ •

التنفيذ ، ففى الوقت الذى وجهت فيه البرتغال جهودها نحـو الجنـوب ، كانت أسبانيا توجه جهودها صوب الغرب لكى تصل الى الهند •

وبعد ذلك أتحدث عن حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية والتى يرجع الفضل فيها الى الامير هنرى الملاح الذى عاش فى الفترة ما بين ١٣٩٤ ، ١٤٦٠ أى عاش ٦٧ عاما ، فهو ثالث أبناء الملك البرتغالى جون الأول • وقد أبلى بلاء حسنا فى حروبه ضـد المسلمين فى مراكش وانتزع منهم سبتة Cebta عام ١٤١٥ م ، الواقعة على الشاطىء الشـمالى لأفريقيا ، فعينه أبوه حاكما عليها ، وجاش فى صدره طرد المسلمين من مراكش ، ولكنه أخفق فى احتلال طنجه عام ١٤٣٦ [٣] عندئذ حول جهوده لاحتلال الشواطىء المراكشية الواقعة على المحيط الأطلسى وأخضاع أفريقيا الشمالية الغربية ابتداء من نهر السنغال ، وتم الأستيلاء بالفعل على غانا الغنية بالذهب ، وقام بنشر المسيحية هناك ، وقد أسس أكاديمية بحرية ومرصد فى ساجرس Sagres الواقعة على الطرف الجنوبى للبرتغال ، وزوده بمجموعة ضخمة من المراجع والخرائط ، واستضاف صفوة من العلماء والجغرافيين الأيطاليين • وقد بدأت الكشوف فى عهده عام ١٤١٩ [٤] •

ويقول فيج فى هذا الصدد أن الهدف من وراء جهود هنرى الملاح هو الوصول الى مملكة الحبشة المسيحية ، حتى يكون له حليفا قويا فى الجنوب ، وذلك عن طريق عبور القارة من الغرب الى الشرق ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ربما لوعورة الطريق وعدم مقدرة الجنود البرتغاليين على أتمام هذا الهدف • ونتيجة لذلك اضطر الى ارسال حملات كشفية على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، وقد تمكنت هذه الحملات من الدوران من حول جنوب أفريقيا والسير بحذاء الساحل الشرقى ، ثم عبرت بعد ذلك

---

(٣) د • زينب عصمت راشد : المختصر فى تاريخ أوربا الحـديثة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢ •

(٤) د • محمد شكرى ، د • محمد أحمد أنيس : أوربا فى العصـور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣٧ •

المحيط الهندي الى شبه الجزيرة الهندية مركز تجارة الشرق ، « ولا مجال هنا للاستطراد وسوف أكتفى بما جاء فى هذا الكتاب فى هذا الصدد » .

وبعد ذلك ننتقل الى الدور الأسبانى لما له من أهمية ، لأنه لا يمكن اغفال هذا الدور لأن هدف اسبانيا كان الوصول أيضا الى الهند والسيطرة على تجارة الشرق شأنها فى ذلك شأن البرتغال ، ولم يكن هدفها فى حقيقة الأمر الوصول الى العالم الجديد ، فكشف العالم الجديد تم بالمصادفة .

ودليلنا على ذلك أنه فى ٣ أغسطس عام ١٤٩٢ خـرج كريستوفر كولمبس على رأس حملة كشفية من ميناء بالوس Palos فى أسبانيا وكانت هذه الحملة الصغيرة مكونة من ثلاث سفن . وفى ٣ سبتمبر وصلت هذه الحملة الى جزر الكناريا ، ومنها استأنف كولمبس الرحلة فى عرض المحيط الأطلسى ، واستمرت مدة الرحلة ٣٣ يوما وبعدها وصلت السفن الى جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم سان سلفادور San - Salvador وهى من ضمن مجموعة جزر لوكس Lucayes الواقعة عند مدخل مضيق فلوريدا . ومنها اتجه جنوبا فوصل الى الجزيرة التى أطلق عليها اسم كـوبا Cuba وأشـار سكان هذه الجزيرة الى جزيرة تقع الى الشرق من كوبا ويعتقد أنه يوجد بها الذهب ، وقد وصل كولمبس فى ٦ من شـهر ديسمبر من نفس العـام الى جزيرة هايتى Haiti وأسـماها كولمبس هسـبنيولا Hispaniola . وكان سكانها يملكون مقادير كبيرة من الذهب .

وفى عام ١٤٩٣ م عاد كولمبس الى اسبانيا فوصلها فى ١٥ مارس من نفس العام بعد أن كان قد زار ملك البرتغال ، وقد استغرقت هذه الرحلة سبعة أشهر وأحد عشر يوما ، وبعد وصوله الى بالوس غادرها متوجها الى برشلونة حيث كان فى استقباله الملك والملكة اللذين رفعـاه الى مصـاف النبـلاء .

وفى ٢٥ سبتمبر عام ١٤٩٣ قام برحلة الى جزر الهند العربية أكتشف خلالها جزيرة دومنيكا Dominica ومارى جالانت Mari Galante وجواديلوب Guadeloupe وبورتوريكو Porto Rico وجاميكا

Gamaica • وفى ٣٠ مايو سنة ١٤٩٨ قام برحلة أخرى اكتشف خلالها جزيرة ترينداد وكان ذلك فى أول أغسطس من نفس العام ، الواقعة عند مصب نهر الأورينكو ثم سار بمحاذاة الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية •

وفى عام ١٥٠٢ قام على رأس بعثة أخرى سار خلالها بمحاذاة سواحل أمريكا الوسطى مبتدئا رحلته من ســـاحل هندوراس الواقعة عند رأس جراسياس ديوس Gracias Dios ووصل الى بورتوبللو Porto Bello أى وصـــل الى مضيق بنمـــا • وعقب عودته بفترة قصيرة مات فى أسبانيا عام ١٥٠٦ ودفن فى أشبلية فقد مات كولمبس وهو يعتقد أنه وصـــل الى آسيا وأن الجزر التى اكتشفها هى جزر الهند الشرقية •

ومن بعده قام البحارة الشهير ماجلان على رأس حملة كشفية فى شهر أغسطس عام ١٥١٩ ، أى فى عهد ملك أسبانيا شارل الأول الذى تولى العرش عام ١٥١٦ م والذى توج امبراطورا بأسم شارل الخامس عـــام ١٥١٩ م • وقد أبحرت حملته من ميناء سان لوكار San Lucar وسارت عبر المحيط الأطلسى ، ووصلت الى ريودى جانيرو فى البرازيل واكتشف ماجلان ممر مائيا طبيعيا يفصل بين امريكا الجنوبية وجبال ثلجية تقع الى الجنوب منها وقد أطلق ماجلان على هذا الممر ممر ماجلان • وفى ٢٠ من شهر نوفمبر دخلت الحملة المحيط الهادى وسماه ماجلان بهذا الاسم لان مياهه كانت هادئة عن المحيط الأطلسى واتجهت الحملة بعد ذلك شمالا فمرت بجـــزر مريانا ومنها وصلت الى جزر الهند الشرقية وسماها ماجلان الفلبين تكريما لولى عهد أسبانيا فيليب بن شارل الخامس الذى سيتولى عرش أسبانيا بأسم فيليب الثانى ، ولقى ماجلان حتفه على أيدى سكان أحدى الجزر الفليبينية عام ١٥٢١ م • وتولى قيادة الحملة من بعده أحد رجاله ويدعى جـــون سباستيان ديلكانو John Cebastian Delcano وفى عـــام ١٥٢١ م وصلت الحملة الى جزيرة تيدور Tidor

وفى عام ١٥٢٢ م غادرت الحملة جزيرة التوابل ، فى طريق عودتها

الى أسبانيا فعبرت المحيط الهندى ، وفى ٦ مايو ١٥٢٢ دارت حول رأس الرجاء الصالح ثم دخلت مياه المحيط الاطلسى بعد أن قضت ثلاث سنوات . وكان عدد رجالها منذ بدء الرحلة أكثر من مائتى رجل ، ولكن بعد أن غادرت البعثة الفلبين أصبح عدد أفرادها ثمانية عشرة رجلا ، كما فقدت كل السفن ولم يبق الا واحدة فقط ، وعندما وصلت الى جزر ملوكس Moluccas المعروفة بجزر التوابل والواقعة الى الشمال الغربى من استراليا حصلت هذه السفينة على شحنة من التوابل كى تغطى بها تكاليف الرحلة التى بدأت من أسبانيا وحتى الفلبين .

وكان من أهم النتائج التى حققتها الحملات البرتغالية والأسبانية على حد سواء ، أن هذه الحملات وبخاصة البرتغالية منها قد تمكنت من فرض هيمنتها على تجارة الشرق التى كانت من أهم أهدافها . كما ان هذه الحملات الكشفية وجهت أنظار باقى دول أوربا الى القارة الأفريقية خاصة ، لما تتميز به هذه القارة من خيرات بشرية واقتصادية ، كما وجهت انظارهم أيضا الى القارة الأسيوية بصفة عامة ، ففى الوقت الذى كانت فيه البرتغال تواصل رحلاتها حول أفريقيا كانت أسبانيا قد أكتشفت العالم الجديد وفتحت بذلك مجالا جديدا للارتياد والاستغلال والاستثمار ، وذلك لما تتميز به أمريكا من خصوبة التربة ووفرة الموارد الإقتصادية ، وقلة الأيدى العاملة عندئذ لجأ الأوربيون الى استغلال ابناء أفريقيا فى زراعة الأرض فنشأت نتيجة لذلك تجارة جديدة بالنسبة لأوربا وتجارها هى تجارة الرقيق التى حققت نتائج اقتصادية باهرة وحققت نتائج سلبية بالنسبة لقارة افريقيا ، أذن يمكن القول بأن الكشوف الجغرافية البرتغالية والأسبانية قد حققتا شيئين متكاملين أولهما يتمثل فى اكتشاف البرتغاليين لسواحل افريقيا الغربية ، والتى ساهم أبناؤها فى تقدم العالم الجديد اقتصاديا

---

(١) د . زينب عصمت راشد : المصدر السابق ، ص ص ٥١ — ٥٤ .

ويتمثل ثانيهما فى اكتشـــاف أسبانيا للعالم الجديد الذى ساهم فى فتح مجالات جديدة أمام دول أوربا .

وفضلا عن هذا كله كانت هـــذه الحملات البداية الحقيقية لعصر المستعمرات وعصر الامبراطوريات والسيطرة والاستغلال ، الذى أستمر زهاء خمسة قرون تقريبا . ولم تقتصر النتائج على هذا الحد ، بل كان منها الرواج الأقتصادى الذى ساد دول أوربا الغربية والتى تمكنت من فتح أسواق جديدة فى البلاد التى سيطرت عليها ، وذلك لتوزيع الفائض من منتجاتها الصناعية فى هذه المستعمرات ، وأدى ذلك بالتالى الى أن عاد هذا بالنفع على أبناء الدول الإستعمارية .

ويضيف الدكتور / محمد أحمد أنيس فى هذا الصدد « أن الكشوف الجغرافية البرتغالية والأسبانية قد حققتا لأوربا زيادة كبيرة فى حجم تجارتها ، فضلا عن ذلك فأن أسبانيا تمكنت من جلب كميات كبيرة من معدن الفضة الى أوربا ، هذا المعدن الذى تسبب نقصه فى عمل الأوربيين بجدية لكى يصلوا الى مناطق تجارة الشرق حتى يستولوا عليها من أيدى الوسطاء العرب أو المغاربة أو الأتراك . فقد أصبحت الفضة فى عهد فيليب الثانى ذات شأن كبير على مجرى الحياة فى أسبانيا ، بل وســيطرت على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والأقتصادية فى أوربا ، كما كان لها أثار بعيدة على مستقبل الطبقة المتوسطة ، وسبب ذلك راجع الى كثرة الوراد من الفضة مما جعل النقد المتداول متوفر فتسبب هذا فى رفع الأسعار ، فأرتفعت بالتالى تكاليف الحياة والمعيشة ، وشعرت بالضنك الطبقـــات الفقيرة وصاروا ينقمون على التجار وأصحاب المهن الذين يؤلفون الطبقة المتوســـطة » .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى ، د . محمد أحمـــد انيس : المصـــدر الســـابق ص ص ٥٦ — ٥٧ .

الفصل الثالث

جيمس بـــروس James Bruce

فى الحبشـــة

فى عام ١٧٦٨ م قام رجل اسكتلندى يدعى جيمس بـــروس برحلة كشفية الى أفريقيا ، وقد تميز بروس بقوة البنية ، فبلغ طوله ستة أقدام ، وتميز بصوته الجش وبشعره الأحمر • وقد أدعت أسرته أنها تنحدر من سلالة الملك الأسكتلندى القديم روبرت بروس Robert Bruce وكان جيمس بروس هذا قد ولد فى عام ١٧٣٠م فى مقاطعة كنيارد Kinnaird وكان وريث لأسرة ذات منزلة رفيعة • فقد ماتت أمه عندما كـــان عمره عامين وتزوج والده بعد ذلك للمرة الثانية ، وأصبح عنده أكثر من تسعة أطفال • والتحق بروس بمدرسة فى جنوب لندن عندما كان عمره أثنتى عشرة سنة ، وذكر أستاذه أنه كان أثناء دراسته يتميز بالذكاء والجد • وكـــان يميل لوظيفة قس والتى كانت تستهويه ، ولكن والده رفض هذه الوظيفة ، وأصر على ضرورة أن يكمل بروس دراسة القانون التى يكرهها بشدة ، وبعـــد أن أمضى فترة دراســـته للقانون الأســـكتلندى ، بجامعة أدنبره Edinburgh University وبعـــد أن مكث ســـنة أو ســـنتين بالمنزل ، عاد بعد ذلك الى لندن ، وتولى وظيفة فى شركة الهند الشرقية ، ومع ذلك كان فى امكانه أن يحصل عـــلى وظيفة فى الهند أو فى الشرق الأقصى •

وفى لندن غير جيمس بروس وجهة نظره بعد أن وقع فى حب فتاة كانت ابنة لسيدة أرملة ، وكانت هذه الأرملة تدير أعمال زوجها كتاجرة للنبيذ • ولما تم زواجه من هذه الفتاة ، دخل مشاركا فى شركة الخمور الخاصة بهذه الأسرة • وكان بروس فى خلال هذه الفترة يقدس زوجته الشابة • وبعد

مرور تسعة شهور من الزواج السعيد توفيت زوجته وتركته يائسا • وفى تلك الفترة ، قرر أن الحياة ممكن تحملها فقط فى حالة بعده عن الأماكن التى عرفها ، وفى حالة تحقيقه عملا كبيرا ، لذلك اتجهت أفكاره صوب قارة افريقيا التى لاتزال أجزاء كثيرة منها غير معروفة للعالم ، وبخاصة الغموض الذى خيم على نهر النيل • وكان لمساهمته فى تجارة الخمور أثره عليه ، فقد جعلته هذه التجارة يرغب فى زيارة الأقطار المنتجة للكروم ، وعلى هذا الأساس قضى السنوات الأولى القليلة من هذه الفترة فى السفر والدراسة • ففى بداية الأمر تعلم اللغة الأسبانية والبرتغالية ، وكذلك العربية ، وفيما بعد تعلم الأمهرية (اللغة القديمة لأثيوبيا أو لغة الحبشة ، كما كانت تسمى حينذاك) • وأيضا درس جيمس بروس فن العمارة •••• والرسم ، وقرر أن يكون متفوقا فى هذه الفنون وتجلى ذلك فى زيارته لأيطاليا وقيامه بعمل رسومات على جانب من الدقة لمعابد الأغريق الرائعة فى باستيوم Paestum

وكان هذا العمل من جانب بروس بمثابة الأعداد للرحلة المزمع القيام بها • وفى عام ١٧٦٣ م ، اتخذ بروس الخطوة الأولى صوب تحقيق هدفه ، فقد عينته حكومة الملك جورج الثالث King George III قنصلا لبريطانيا فى الجزائر ، التى كانت فى ذلك الوقت جزءا من الامبراطورية التركية • وكان ملك بريطانيا قد منحه تصريحا يخول له التجول فى الجزائر وتونس ، فضلا عن قيامه بعمل رسومات لبقايا الآثار الرومانية فى هذه المناطق من شمال أفريقيا ، وسبب ذلك يرجع الى أن ملك بريطانيا كان جامعا للآثار القديمة بدرجة كبيرة ، وكان القصد من ذلك أن تضاف هذه الرسومات الى المجموعة الملكية •

وقبل أن يغادر بروس لندن أنشغل بزواجه من فتاة اسكتلندية ، تبلغ من العمر ست عشرة عاما • فقد وعدته هذه الفتاة بجدية بأن تنتظره ، حتى ينتهى من مهمته ، ولم يكن لدى أى منهما أدنى فكرة أنه ربما تمضى أثنتى عشرة سنة قبل أن يرى أسكتلندا مرة ثانية ، كما لم يعرف بروس الوقت

الذى ســوف تتخلى فيه هذه الفتاة عنه سواء أكان ذلك بسبب الموت أم بسبب الزواج من شخص آخر •

ويمكن القول أن الظروف فى الجزائر كانت تنذر بالخطر الأن الباى (الحاكم التركى) كان شريرا وقاسيا ، فكان يقتل أى شخص يضايقه أو يزج به فى السجن ، ولم يستثنى من السجن القناصل الممثلين للدول الأجنبية ، لهذا لم يشعر بروس بالامان أبدا ، ومع ذلك فقد تمكن من أن يكيف نفسه مع هذه الظروف الصعبة لعدة سنوات ، قضى خلالها وقت فراغه فى انجاز تعلمه للغة العربية ، كما أنه أعد نفسه للقيام بالرحلة المرتقبة ، فضلا عن تعليمه مهنة الطب تعليما كافيا كى تمكنه هذه المهنة (مهنة الطب) من عبور الأقطار التى يمر من خلالها • زد على ذلك فأنه قام بشراء بعض الأجهزة العلمية ، التى تضمنت التلسكوبات وجهاز كبير لقياس الأرتفاع والزوايا a heavy quadrant وكاميرا متنقلة للتصوير aportable camera - obscura التى بواسطتها يمكن رؤية صور الأشياء المحيطة ، وذلك من خلال حاجز • وفى الجزائر انضم اليه الفنان الايطالى Italian artist الذى يدعى لويجى بالوجانى Luigi Balugani والذى كان عليه أن يعمل كسكرتير لجيمس بروس ، وقد ساعده فى الرسومات التى تجمع من أجل الملك ، فكل من الرجلين قام بعمل أو برسم بعض الرسومات ، ولكن رسومات بالوجانى كانت أكثر دقـة •

وفى عام ١٧٦٨ م ، تسلم بروس أيضا من حكومة بريطانيا التصريح الذى انتظره مـدة طويلة ، كى يبدأ رحلته ، ففى بداية الصيف غـادر بروس الجزائر متوجها الى الاسكندرية ويعتبر ذلك بداية لمغامرته • وفى الوقت نفسه بدأ رحلته وهو متخفيا فى زى عربى ، فضلا عن إنه كان يتحدث اللغة العربية بطلاقة ، كما أنه تظاهر بأنه طبيب وفيلسوف ، ومع ذلك فقد سلح نفسه بمرسوم كان قد حصل عليه من سلطان مصر يوصفه فيه بأنه نبيل انجليزى ، وأنه أحد رعايا الملك جورج الثالث ملك بريطانيا ، وفى أثناء وجوده فى مصر مارس مهنة الطب ، فاستمال بذلك البعض من مرضاه

من ذوى النفوذ ، وحصل منهم على خطابات توصية الى الشخصيات الهامة فى سواحل البحر الأحمر والحبشة • فقد حصل على خطابين حرر أحدهما الى حاكم ميناء مصوع بالحبشة وحرر الآخر الى ملك سنار •

ولم يترك بروس أية فرصة دون اغتنامها فكان قد تعلم أستخدام الأسلحة النارية ، لذلك حمل معه عددا من المسدسات والبنادق القصيرة ، فضلا عن أنه حمل معه كمية من ورق الرسم والكتابة • زيادة على ذلك فأنه قرأ كل شىء استطاع قراءته عن النيل ، حتى وصل به الأمر الى تمزيق صفحات بعض الكتب التى تتحدث عن النيل ، والاحتفاظ بها معه • وكان قد اصطحب معه عددا من الحمالين ، كما أنه أجر سفينة لتقله من القاهرة عبر النيل وحتى الشلال الأول الواقع الى الجنوب من أسوان •

وكان بروس قد تحمل كل تكاليف الرحلة على نفقته الخاصة • ومن الملاحظ عليه أنه لم يحاول أثناء قيامه بهذه الرحلة أن يرفع العلم البريطانى على أى إقليم أو مقاطعة مجهولة ، كما لم يكن فى نيته أيضا تحويل المسلمين أو الوثنيين الى العقيدة المسيحية أو أن يفتح طريقا عاما للتجارة ، بل كانت كل دوافعه علمية صرفة ، فكان هدفه الأساسى الكشف عن الغموض الذى خيم على منابع النيل ، بل وكشف كل ما يمكن كشفه من هذه المنطقة وشعبها • ولم يعرف من وجهة النظر الجغرافية أنه بحث أو اكتشف نهرا خطأ ، حيث أنه كان يعتقد فى أن النيل الأزرق يمثل المجرى الرئيسى للنيل • وكان بروس قد عرف كل هذه الادعاءات من الأباء بيز ولوبو ، ومع ذلك فأنه كان أكثر استعدادا فى عدم تصديقهما •

وقد تبع جيمس بروس طريق أسوان الذى سار فيه من قبل كل من بوكوك ونوردن ، وكان بروس قد توقف كى يتفحص بقايا طيبة القديمة ، وشجعه فى ذلك أن هذا الطريق المتجه جنوبا كان مسدودا بسبب نشوب الحرب الدائرة بين القبائل (القاطنة على جنباته) لذلك نجد بروس يعبر الصحراء الشرقية ويتجه الى ساحل البحر الأحمر • ومن هناك ذهب

على متن سفينة أقلته الى مصوع الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى ، وفى ابريل من عام ١٧٦٩ م أبحرت السفينة من ميناء القصير الصغير المزدحم بالناس والذى لم يستحق الذكر • وبعد ذلك اتجهت السفينة صوب الجنوب فى خط متعرج عبر البحر الأحمر •

وكان بروس تواقا الى مشاهدة خليج السويس وعرف بنفسه كيف أن الشباب اليهود خططوا للعبور من مصر الى شبه جزيرة سيناء ، وسجلوا معلومات هامة عن الملاحة فى البحر الأحمر • وقد واجه بروس وجماعته وهم على متن السفينة ، نقص فى الطعام والحطب ، ففى أوقات كثيرة كان بروس وجماعته لا يجدون من الطعام شيئا يأكلونه ، فكان الطعام المتوفر لديهم ، عبارة عن خليط من الدقيق والمياه الباردة •

وفى شهر سبتمبر ، وبعد مضى خمسة شهور من بدء الرحلة وصلت السفينة الى ميناء مصوع الميناء الرئيسى للحبشة ، ويبدو أن رئيس ميناء مصوع كان خسيسا ، لانه رغم علمه مسبقا بأن بروس كان على وشك الوصول الى ميناء مصوع ، الا أنه لم يهتم بمجيئه ، بل تصور أن بروس كانت تربطه علاقة قرابة بالملك جـورج الثالث • فدبر مكيدة لسرقته ، حتى ولو أدى ذلك الى قتله (قتل بروس) • ولكن لما تبين لبروس ذلك لوح لحاكم مصوع بالتهديد بمرسوم السلطان المصرى الذى كان يحمله معه كجواز سفر • ومع ذلك فقد ظل جيمس بروس فى شبه أسر لمـدة شهرين ، وبعد ذلك استماله بروس الى جانبه فتركه يغادر ميناء مصوع • وفى ١٥ نوفمبر عام ١٧٦٩ ، غادر بروس مصوع متجها صوب الداخل • وكان برفقته الرسام بالوجانى وباقى أفراد المجموعة المكونة من عشرين شخصا ، وكان من ضمنهم تاجر مسلم ، وحبشى أسمر اللون يدعى يس •

وكان الطريق الذى سلكه جيمس بروس طريقا وعرا وجبليا ، ولكن على الرغم من ذلك فقد تمكن بروس بمساعدة ياسين الحبشى من حمل أجهزته ، والوصول الى قمة المنحدر ، وقد أدى ذلك الى تمزق أقدامه

وأدمائها • ولكنه نسى كل متاعبه فى غمرة بهجته بتجهيز معسكر لاقامة البعثة لأول مرة على أرض الحبشة •

ويصف بروس أرض الحبشة فيقول أنها عبارة عن هضــبة يبلغ ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم تقسمها أودية الأنهار والسلاسل الجبلية • ولكن على الرغم من ذلك تمكن بروس وجماعته من تسلق هذه الهضبة والوصول الى عدوه Adowa ، وهى تمثل حصون الحبشة الرئيســية • ومن المعروف أن اسم الحبشة اشتق من كلمة عربية تعنى التشويش أو اللخبطة «Confusion» فلو كــان هــذا يعنى فى الأصــل اللخبطة التى تتضمن السلالات ، فأنه من الممكن أن تمثل هذه اللخبطة أيضا الأشياء الغامضة وغير المفهومة ، وكذلك تمثل الحرب الأهلية التى كان القطر ينغمس فيها ، ومن الممكن أيضا أن تعنى هذه اللخبطة التقاليد الهمجية والعقيدة المسيحية الأسمية • ويضيف بروس أن زمام السلطة فى الحبشة كان فى يد حاكم يدعى أنه ينحدر من سلالة سليمان بن داود • ولكن على الرغم من ذلك فقد ضعفت سلطة الأمبراطور ملك الملوك ، وكانت سلطة الحكومة فى البلاد قد قسمت بين عدد من الحكام المحليين الذين كانوا فى صراع مستمر ، وفى ثورات أدت الى ضعف المملكة ، بل وأدت الى انتشار الفوضى فى البلاد • ولم يكن الأمبراطور هو أقوى رجل فى الدولة ، بل كان الرجل القوى هو الراس The Ras (أو الفيزير or Vizier) ميتشل ، حاكم أقليم تجره Tigré ومن قبل ، تسبب الراس ميتشل فى قتل اثنين من الأباطرة ، فقتل الأول عن طريق الاغتيال وقتل الثانى عن طريق السم • وفى ذلك الوقت حكم الراس ميتشل كثالث امبراطور للحبشة وكان يعرف باســـم تكلا هيما نوت Tecla Haimanot

وكان من أهم الأبنية فى عدوة ، القصر الذى كان يحكم منه الراس ميتشل تجرا • وكان هذا القصر عبارة عن سجن أكثر منه منزلا ، فبالقرب منه كان يوجد المئات العديدة من الناس المكبلين بالسلاسل فقد ظل بعضهم أسيرا لمدة عشرين عاما • وقد أدى ذلك الى أن أصبحت أسرهم تحيا حياة

ضنكا ، بحيث لم يكن لدى هذه الاسر المقدرة على تحرير الأسرى ، ودفع الفدية ، للذين ظلوا فى السجن ، وكثيرا منهم وضعوا فى اقفاص حديدية وعوملوا معاملة الحيوانات المتوحشة •

وعندما وصل بروس الى عدوة كانت الحرب على أشدها بين الراس ميتشل وامبراطور الحبشة ، لذلك اضطر بروس الى الذهاب صوب اكسوم العاصمة القديمة لأثيوبيا ، وفى خارج أطلال هذه المدينة تبع بروس وجماعته بثلاثة جنود أثيوبيين كانوا يقودون أمامهم بقرة ، وبعد ذلك أوقفوها فأعتقد بروس أنهم سيقومون بذبحها ، ولكن حدث العكس ، فبدلا من ذبحها قاموا بقطع قطعة من اللحم من جسم هذه البقرة ، ثم قاموا بعد ذلكبتغطية المكان المقطوع بالصلصال ، عندئذ ، أجبر الجنود الأحباش البقرة على النهوض وقادوها أمامهم ، كى تعد لهم وجبة أخرى ، عندما يلتقون مع زملائهم فى المساء • وأضاف بروس فى قوله ما نصه « أننى لم اعتقد بعد ، أن هذه الطريقة فى اعداد الطعام ، هى الطريقة المألوفة بالنسبة للمواطنيين ، وحتى بالنسبة لرجال الدين فى كل مكان من البلاد (الحبشية) •

واستمر بروس ورفاقه ثلاثة شهور فى تسلق كل الحواجــز الجبلية الواقعة بين مصوع وغندار العاصمة ، وكانت مبانى مدينة غندار عبارة عن اكواخ مبنية من الطين وذات سقوف بارزة ، وبها قصر محــاط بســـور ، ومطل على بحيرة تانا الواقعة الى الجنوب من غندار • وقد حصل بروس على منزل فى مدينة غندار فى الحى الاسلامى • وفى ذلك الوقت كـــان الراس ميتشل والامبراطور لا يزالان بعيدين • وقد وجد بروس أن الناس يموتون بالمئات من مرض الجدرى Small pox ويموت الأخرون بسبب الحمى • لهذا اندهش بروس للغاية • وكان المواطنون يستخدمون فى علاج هذا المرض دواء عبارة عن علبة معدنية يضـــع بها البعض من الحبـــر والصليب وصورة مريم العذراء •• وبعبارة المؤلف :

This was scarcely surprising, for the native «cures» ranged from a medicine made of tinplate and ink to the application of a cross and a picture of the Virgin Mary.

وكان ابن الراس مينتشـــل الصغير مريضـــا بالجدرى Small - Pox مرضا مزمنا أو ميؤس منه ، هذا فضلا عن أصابة عدد من أطفال الأسرة المالكة بهذا المرض • وكـــان بروس قد نجح من قبل فى علاج المرض فى الحى الاسلامى ، لذلك استدعى لعلاج هؤلاء الأطفال • وكان بروس قـــد رفض علاجهم مالم يقبلوا طرقه الخاصة فى علاج هذا المرض • قال جيمس بروس ما نصه « أن الجدرى مرض من الواجب مطاردته ، والقضاء عليه ، وأضاف أن المريض يحتاج أثناء المرض الى فترة طويلة للعلاج ، فلو أطعم السكان المرضى طبقا لأهوائهم (أهواء السكان) البدائية فأن نصيحتى للمريض ستضيع ســـدى » •

ولقد كان الأطفال شديدى المرض حتى أن بروس منح تصريحا على وجه السرعة ليعمل أى شىء هو يرغب فيه ، وقد وجد المرضى نائمين فى حرارة الشمس ، وفى حجرات سيئة التهوية وتحت أكوام من البطاطين • وكان أول شىء فعله بروس هو فتح النوافذ والابواب وغسل الحوائط بالخل والماء الساخن • وقد أصر بروس على ضرورة وضع قواعد صحية صارمة ، هذا فضلا عن توفير كمية من الهواء النقى • وقد شفى المرضى فى تلك الحالة واستطاع بروس بطريقته البسيطة أن يمنع انتشار التلوث •

ولقد نجم عن النجاح الذى حققه بروس فى عـــلاج المرضى قيـــام صداقة بينه وبين الأميرة الشابة زوجة الراس التى تدعى أثير Esther وكانت أثير هذه أما لطفل (ابن مينتشل) كما كان لها طفلين من زوجها السابق • ومن الممكن رؤية جمال الأميرة أثير فى أحد النصوص الواردة فى كتـــاب جيمس بـــروس • رحـــلات للكشـــف عن منـــابع النيـــل ، Travels to discover the source of the Nile
وكانت أثير فاتنة الجمال وذكية • وقد سلم بروس بأنه وجد أنـــه من المستحيل أن يكون الى جانب أثير مدة طويلة من الوقت ، دون أن يفكر فى الارتباط بها الى الأبد •

وعلى الرغم من البهجة التى كان يعيشها بروس فى رحاب الأميرة أثير

الا أنه أصبح نافذ الصبر ، ويرجع ذلك الى رغبته فى التوجه الى مصادر النيل الأزرق ، الذى سماه الاثيوبيون آبيا Abia « مصـدر الميـاه » وبعبارته أبو المياه «The Father of waters»

ولم يكن النهر بعيدا عن المنطقة التى يقف عندها ، ومع ذلك فلم يستطع الذهاب اليها ليواصل بحثه ، الا اذا حصل على تصريح من الراس ميتشل • وبعد أن عاد كل من الراس ميتشل والامبراطور من الحروب ، كان لديهم انطباع كبير عن هذا الرجل الاسكتلندى ذو الشعر الأحمر الغامق المحلوق من الأجناب والمفتول من أعلى والمعطر على حسب الأسلوب الأمهرى ، وبعبارة المؤلف :

Who had had his red hair cut round, curled and perfumed in the Amharie fashion, and was dressed, like a perfect Abyssinian, in a cloak over chain - armour, with pistols stuck in his wide belt.

وكان مرتديا زيا شبيه بالزى الكامل للمواطن الأثيوبى ، وارتدى أيضا معطفا ، من فوقه ارتدى درعا على شكل سلاسل حديدية Chain - armor ، وكان يعلق المسدسات فى حزامه العريض • وقد أعجب كل من الراس ميتشل والامبراطور بالحديث مع جيمس بروس لأنه كان يتقن الفروسية ، فضلا عن أنه كان ماهرا فى استخدام السيف واطلاق النار • كما اعجبا بأسلوب قيادته وبثقته فى نفسه ، رغم وجوده فى وطن يكتنفه العنف والموت ومع ذلك فلم يشعر بأدنى خوف ، وقد أشار بروس الى ذلك بصراحة ، وهكذا فقد سحرهم هذا الزائر القادم من العالم الآخر • وقـد أجل كل من الراس ميتشـل والامبراطور رحيل جيمس بروس ،حيث مرت الأيـام وهـو فى سـعادة تامة ، فقـد قضى هـذه الفترة فى الصـيد وفى القيـام بالبعثات العلمية القصيرة ، وفى تلك الأثناء عرف بروس أن الراس ميتشل كان قاسيا وطاغيا ، ولكن عندما تم اللقاء بينهما شعر بروس بأنطباع غريب نحو ميتشل وفى هذا الصدد يقول بروس : « أن ميتشل كان اشيب الشعر ، وكان مرتديا زيا عبارة عن خيوط كثيرة وقصيرة ، وكان منطلق التفكير ، بل ويتميز بحدة البصر • بينما كان الأمبراطور يتميز بالذكاء والوجاهة وحسن الأدراك ، وكان يصرف الأمور ويتحمل المسئولية كالبرتغاليين » •

وبعد أن مكث بروس مدة طويلة فى هذه المنطقة ، طلب منه ميتشل والأمبراطور أن يصحبهما فى حملتهما التالية الى القطر الواقع الى الجنوب من بحيرة تانا Lake Tana والذى كان يحكم بواسطة شيخ يدعى فاسيل Fasil وكان هذا الشيخ تابعا لقبائل الجالا الشرسة والوثنية • وقد أعد هذا الشيخ جيشا ليحارب به حكام اثيوبيا • وكانت هذه المنطقة هى المنطقة التى رغب بروس فى كشفها • وقبل أن يصل بروس الى المنطقة القريبة من منبع النيل الأزرق ، كان فاسيل قد استسلم ، وبذلك نجح بروس فى الوصول الى النهر أى بالقرب من المنطقة التى يتدفق منها ماء البحيرة (بحيرة تانا) عندئذ عاد بروس الى جهة الجنوب الشرقى فى اتجاه الشلالات الكبيرة ، المعروفة بأسم (شلالات تسيسات The Tisisat falls) وبعد نصف ميل من خروج النهر من البحيرة ، يجتاز قنطرة مقوسة مبنية من الحجر a single - arched stone bridge كانت قد شيدت منذ مائة عام مضت بمعرفة البرتغاليين ، وقبل أن يصل بروس الى هذه القنطرة بمسافة طويلة استطاع سماع هدير مياه الشلال • وكتب بروس يقول ما نصه « لقد كان هذا المنظر أعظم منظر رأيته ، فقد كان الأرتفاع مبالغ فيه ، لأن المبشرين كانوا قد قالوا أن أرتفاع الشلال يبلغ حوالى ١٦ ذراع Ells أو يبلغ خمسين قدما • وفى الواقع أن معرفة أرتفاع هذا الشلال كان صعبا ولكن أغامر وأقول أنه يبلغ على وجه التقريب أكثر من ٤٠ قدما • والى حد بعيد ، فأن مياه النهر تزداد بواسطة الأمطار ، بحيث يشكل سقوطها مسطحا مائيا واسعا لا يفصله أى شىء ، ويبلغ عرض هذا المسطح المائى نصف ميل انجليزى ، وتمثل قوة اندفاع المياه والضوضاء رعبا حقيقيا ، ولمدة من الوقت أصابنا الذهول والدوار التام • وقد خيم على المنطقة دخان سميك ، غطى منطقة الشلال وما حولها ، وقد خيم هذا الدخان على المجرى من أعلاه ومن أسفله ، وأدى ذلك الى أن حجب مجرى النهر ومياهه عن الرؤية وكان هذا منظرا رائعا فى تلك العصور ، بل وأضاف بروس فى قوله أن هذا المنظر سوف لا يمحى أو يتبدد من ذاكرتى على مدى الحياة البشرية ••• وكان واحدا من أهم المناظر الجميلة أو المدهشة

فى شكلها ، وقد تعرض هذا المنظر لتضليل رجل دين متعصب وخسيس حيث أنه قلل من قيمة هذا المنظر ، بل أنه شوهه » •

وكان رجل الدين هذا هو الأب لوبو Lobo لذا عقد بروس العزم على أن يكون هو الأوربى الأول الذى تقع عيناه على شلالات تسيسات Tisisat Falls وقد عمل كل شىء بحيث لا يشك أى شخص فى قصته واستند فى ذلك على افتراضين كى يدعم بهما ادعائه ، أولهما أن لوبو غالى فى تقدير عمق الشلال ، رغم أنه أقر بنفسه ذلك بقوله :

« أستطيع القول بأنه لم يعد وقت باقى فى حياتى أتعهد فيه على أقل التقدير بالدقة فى كشفى لهذه المنطقة » ثم أضاف بروس يقول فى الواقع أن كل من تقدير لوبو وتبشيره ثبت فيما بعد أنهما غير دقيقين مع أن لوبو كان قريبا أو أقرب الى الحقيقة • وأما الافتراض الثانى الذى افترضه بروس فيتمثل فى أن الأب لوبو لم يتمكن من الوقوف بين المياه المنهمرة من المجرى وبين المنحدر الصخرى ، وعلى ذلك فهو كذاب وبخاصة عندما ادعى أنه اكتشف الشلال • مع أن بروس السباح القوى أو المتمرس لم يستطع القيام بمحاولة ايجاد ممر فى الماء عند أسفل الجندل ، واقتنع أنه لا يوجد أى شخص آخر يقوم بمثل هذا العمل • وفى هذا فقد ارتكب بروس خطأ ، لأنه رأى الشلالات فى فصل المطر ، بينما الأب لوبو رآهم (الشلالات) فى فصل الجفاف • ولم تكد تحل العشرينيات من القـــرن العشرين ، الا وقد ثبت بطريقة حاسمة أنه لم يكن من الصعب بالمرة ، أثناء فصل الجفاف الوصول الى الأرضية الصخرية الواقعة خلف الشلالات ، بالضبط مثل ما ادعى الأب لوبـــو •

وقد اضطر بروس فى ذلك الوقت الى العودة مع جيش الامبراطـــور الى مدينة غندار ، وقد مثل جيش الامبراطور بأسرى الحرب أى كـــان يقوم بقتلهم ، وفى تلك الأثناء مرض بروس بسبب تعرضه للحمى ، ورغم ذلك ، أنه بدأ بحثه بكل حرية فى شهر أكتوبر عام ١٧٧٠ ، فقد انطلق

ومعه بالوجانى الفنان الايطالى ورجل يونانى آخر يدعى اســـتريتس Strates ، الذى كان يعيش فى أثيوبيا ، وعدد آخر من الحمالين الذين حملوا جهاز قياس الارتفاع والزوايا • وفى تلك الأثناء ، كان الراس ميتشل قد نصح الامبراطور أن يعين بروس حاكما على بلدة جيش Gish ، التى يوجد بها منابع النيل الأزرق والتى من المعروف أنها تنبع من هناك • وكانت جيش هذه لاتزال تحت ســيطرة فاســيل Fasil رئيس الجالا المتمرد ، والذى قام رجال قبيلته وللمرة الثانية بالاغارة عــلى المنطقة الواقعة بالقرب من غندار • لذلك لم يستطع بروس المرور من خلال هذه المنطقة دون حصوله على تصريح من شيخ القبيلة • وفى تلك الأثناء ، وجد بروس فاسيل معسكرا بجيشه فى الشمال الغربى من بحيرة تانا ، فعندما استقبله بروس وجده جالسا فى خيمته على جلد أسد ، وكانت رأسه معصوبة ببعض الملابس القطنية الشبيهة بالفوطة القديمة • فقد لف فاسيل بأحكام حول نفسه عباءة ملطخة بالشحم ، وعندما تقدم بروس منه كى يحييه التحية المعتادة قبل شــفتاه فقط بعد أن ازاح ملابســه بعيد (أى ملابس فاســيل) •

وكان فاسيل على علم تام بأن الهدف من تعيين بروس حاكما لهذا الأقليم ، هو تمكينه من زيارة منبع النيل الأزرق ، ولكن مع ذلك فأن فاسيل قد تنصل من كل ما يعرفه عن أماكن تواجد منابعه ، وصاح فاسيل فى بروس بقوله هل تعرف ماذا تقول ؟ فقال بروس أعنى منابع الآبيا Abai ، فقال فاســيل لماذا منابع الأوبيا يا بروس أن اللــه يعرف أن وطن الجالا Galla يسكنه شعب مرعب ومتوحش ، ثم أضاف فى قوله لبروس أيضا أأنت مجنون ؟ فمن المحتمل أن تعود من هذه الرحلة بعــد عــــام •

وبعد ذلك ذكر فاسيل لبروس بتملق بأن منبع النيل معروف معرفة جيدة ، وأنه يوجد فى داخل اقليمه ، وأضاف فى قوله أنه من الموثوق فيه أنك ستكون وحيدا فى هذه الرحلة ، فى الوقت الذى سأكون فيه أنا بعيدا عن

هذا المكان ، فرد عليه بروس بثقة اذا لم تحمن بقية الحبشة ، فأنا لن استطيع حماية نفسى ، وعندئذ قال بروس لفاسيل أن كلمتك هى الوحيدة التى يمكن أن تفعل هذا أى تحمينى •

وكان فاسيل يلطف من غضب بروس بأستخفاف ، ولكن جيمس بروس ظل عنيدا • وكتب يقول ما نصه «أنا وجدتهـا الآن ، كمـا اعتقدت ، حيث أن أمالى فى الوصول الى منبع النيل الأزرق ، قد انتهت الى الأبد ، كما ضاعت سدى ولسنوات عديدة كل متاعبى وكل أموالى وكل معاناتى ، ليس فقط بسبب عقبة كئود ، ولكن بسبب نزوات Whimsies شخص بربرى » •

ولقد فشلت المجادلة والمناشدة مع الشيخ فاسيل ، فأضطر جيمس بروس الى التفكير فى استمالة هذا الشيخ وذلك عن طريق مهارته فى كبح جمـاح الخيـول البريـة وفى اطـلاق النيران عـلى الطيـور البرية واصابتها فى اجنحتها • عندئذ استسلم فاسيل لمطالب جيمس بروس ، والدليل على ذلك أنه أقرض بروس حصانه الخاص ، وطلب اليه أن يقوده أمامه ، وكان الحصان فى أثناء ذلك مسرجا وملجما وهذه علامة على العطف على بروس ، وكانت هذه العلامة يفهمها شعبه (أى شعب فاسيل) بحيث يكن الاحترام لبروس وزوده فاسيل أيضا بدليل وبحماية سبعة من صغار الشيوخ ، مع أن حمايتهم كان مشـكوك فيها • وكتب بروس يقول فى هذا الصدد ما نصه « أنا لم أر لصوصا فى حياتى أكثر من هؤلاء اللصوص الذين رأيتهم فى هذه البلاد » وبعبارته :

I never saw more thief - like fellows in my life.

وهكذا فقد أعد بروس نفسه وذهب الى مكان بحثه ، وتمكنت بعثته من الطواف حول الشاطىء الغربى من بحيرة تانا ، وبعد ذلك اتجهت صوب الجنوب ، ومر أفرادها من خلال قطعة جميلة من قطر ، ومن هذه المنطقة رأوا الجبال والأشجار الجميلة والشجيرات ، التى كانت تغطيها الورود المختلفة ، وتتزاحم عليها الطيور من كل الأنواع غير المألوفة والمزينـة

بريشها الانيق المختلف الألوان • وفى الساعة الثانية من بعد الظهر وفى اليوم الثانى من شهر نوفمبر ، كتب بروس يقول « لقد أتينا الى شواطىء النيل » ، وبعد يومين وصل بروس الى نهاية مغامرته ، وقد تسلق ومعه بقية أعضاء البعثة الجبل الذى توجد على قمته كنيسة صغيرة • ويقـول بروس عندما نظرنا من أعلى الجبل الى أسفل ، رأينا عـلى الفور من أسفلنا ، النيل نفسه تناقص حجمه فى هذه المنطقة بطريقة غريبة ، بحيث أصبح شبه جدولا من المياه ، وفى هذه الحالة أصبح من الصعب على مياهه أن تدير طاحونة • ولم أتمكن من أشباع رغبتى اشباعا كاملا بهذ المنظر ، بل دار فى تفكيرى نبوءات قديمة كانت تدعوا الى التخلى عن فكرة أن النيل سيظل غامضا وخفيا •

ولقد أشار المرشد المرافق لجيمس بروس الى المستنقع الصـغير الموجود خلف الكنيسة وقال ما نصه « أنظر يا بروس الى هـذه الرابية المغطاة بالأخشاب الخضراء الواقعة فى وسط هذا المستنقع ، فهناك يوجد ينبوعان للنيل ، فأذا أردت يا بروس الذهاب اليهما فعليك أن تخلع حذاءك لأن الناس فى هذه المنطقة من الوثنيين فهم لا يعتقدون فى شىء تعتقد أنت فيه لكنهم يعتقدون فقط فى هذا النهر الذى يصلون له ، كما لو كان هو الاله الخاص بهم ، ولكن من المحتمل أن تفعل الكثير بنفسك » •

وقد توقف بروس ليخلع حذائه ، وبعد ذلك سار ببطء بجانب تل يقع فى اتجاه جزيرة صغيرة تكسوها أعشاب خضراء ، وقد غطيت كل جوانب هذا التل بغطاء كثيف من الورود ، وقد ظهر على سطح الأرض الجذور النباتية المنتفخة التى تتساقط قشورها بسبب المسير من فوقها ويضيف بروس فى قوله أن ذلك سبب لى السقوط مرتين أثناء مسيرى قبل وصولى الى حافة المستنقع Marsh • وقد نهض جيمس بروس بنفسه ، وبعد ذلك وصل الى جزيرة مغطاة بالأعشاب ، كانت فى شكل هيكل أو مذبح كنيسة ، ويضيف جيمس بروس لقد وقفت وأنا فى غاية البهجة والسرور على الجبل الرئيسى الذى يبرز من وسطها •

واذا لم اعبد النهر بطريقة فعلية ، فأنه فى هذه الحالة سوف أصاب بشعور غير طبيعى ، وانه لمن السهل بالنسبة لى أن أخمن كثيرا ، بدلا من أن أصف ما يدور فى ذهنى فى تلك اللحظة ، واستمر بروس واقفا فى تلك البقعة التى حيرت تفكيره ونشاط وهمة القدماء والمحدثين على مدى ثلاثة آلاف عام تقريبا رغم ما قام به أحد الرعايا البريطانيين قديما • وأضاف بروس يقول « لقد حققت النصر هنا بتفكيرى على كل الملوك وعلى كل جيوشهم ، (أو بمعنى آخر لقد حققت بنفسى ما عجز الملوك وجيوشهم عن تحقيقه) •

ولقد تجاهل جيمس بروس ادعاءات الأب بيزبل وكان يشك فى كل ما قاله هذا القس الذى زار هذه المنطقة منذ ١٥٠ عاما ، وكان بروس قد جعل ادعاءاته فى القمة Bruce was pitching his own claims far too high; وصمم على أنه هو الأول على هذا المسرح بل وخدع بسبب ثقته العميقة فى نفسه • وعلى الرغم من أنه قام بالبحث عن المصدر الحقيقى للنيل ، الا أنه لم يجده • بل أنه اكتشف النيل الازرق الذى يزود النيل بمياه غزيرة • ففى الواقع يمثل الفرع الرئيسى للنيل الأبيض ، الذى توجد منابعه على مسافة ٢٠٠٠ ميل (من منبع النيل الازرق) •

وكان رد الفعل الذى اعقب لحظة انتصار بروس هو تفكيره فى الرحلة الطويلة الموجودة أمامه ، ولكن وبروح معنوية عالية ، التقط نصف جوزة هند مفرغة من الداخل وملأها بالماء من النيل وشرب نخب الملك جورج الثالث ، ودعى بروس ستراتيس Strates الإغريقى ليشرب معه ، ولم يوجد دليل فى كتاب بروس يدل على أنه كان قد دعى بالوجانى ليشرب معه من النيل • ومن المشكوك فيه أن بولوجانى كان قد مات بسبب مرض الدوسنتاريا فى غندار أثناء رحلة العودة • فكان بروس مصمما على أن يحتفظ بالمجد لنفسه ، فتظاهر أن الفنان بالوجانى قد مات قبل أن تبدأ

مرحلة البحث عن النيل • ولم يكن سترانتيس الرجل اليونانى الذى عاش فى أثيوبيا منافسا لبروس فكان بروس قد ودع بالنسيان كل من بالوجانى والأب بيز والأب لوبو •

وبعد أن أمضى بروس عدة أيـــام فى فحص وعمل المقاييس لتلك المنطقة عاد متخذا طريقه الى غندار • وفى أثناء غياب بروس فى منطقة منابع النيل الازرق هاجم رجال قبائل الجالا المدينة (يبدو أنها مدينـــة غندار) بعنف ، وعلى ذلك اشترك بروس فى الحرب ، بحيث كان عـــلى رأس الفرقة الخاصة بحماية الامبراطور • وفى أثناء المعركة كان بروس يمثل الجندى الماهر فى اطلاق النيران ، وكانت خدماته الطبية لها أثر كبير فى نفوس الجرحى ، وقد تمكنت قوات الأمبراطور من هزيمة المتمردين ، وأجبر بروس على مشاهدة الأعمال الأنتقامية المرعبة التى يقوم بها الراس ميتشل ، واحتج جيمس بروس على هذه الأعمال البربرية ولكن احتجاجاته ضاعت سدى أمام أعمال الأعدام الوحشية • وقد تساءل الراس ميتشل بالقول موجها حديثه الى بروس ما نصه « هل من الممكن أن يتسع قلبك لكل هذه الأشياء ؟ وأضاف ميتشل يقول « أنت يا جيمس بروس رجل شجاع ، فنحن جميعا عرفناك ، ورأينا هذه الشجاعة فيك ، ونحن جميعا نلومك كغريب فى هذا الوطن لأن عنايتك أو اهتمامك بنفسك ضئيل ، فأنت تتأثر من كل هذه الأشياء شأنك فى ذلك شأن امرأة جبانة أو فتاة أو طفل » • فأجاب بروس ردا عليه ما نصه « سيدى أنا لا أعلم هل أنا شجاع أم غير شجاع ، ولكننى لو رأيت رجالا يعذبون ، أو يغتالون أو يعيشون بين أجسام القتلى دون اكتراث فأنا فى هذه الحالة ليس لدى أية شجاعة » •

وقبل أن يغادر بروس الحبشة قضى عدة شهور فى اعداد دراســـة عن الشعب الاثيوبى وعن تاريخه ، وجغرافية وطنه ، وقد ثبت أنها دراسة دقيقة للغاية وقد تمكن بروس من جمع مجموعة قيمة من الوثائق الأمهرية ، وجمع كذلك مجموعة من النباتات الحبشية والمعادن التى خطط أن يأخذها معه الى أوربا • وبعد ذلك حصل بروس على تصريح يخول له الخروج

أو مغادرة أثيوبيا • وقد أقام بروس حفلة وداع للأميرة أثير وولدها الصغير الذى أنقذ بروس حياته • وكانت الأميرة الأثيوبية وولدها يعيشـــان فى حالة تقاعد أو فى حالة عزلة أو كانا يعيشان بمفردهما • ووصف بروس حفلته هذه التى اقامها للاميرة أثير وولدها بأنها كانت واحدة من أعظم لحظات حياته » •

وفى شهر ديسمبر عام ١٧٧٢ ، غادر جيمس بروس أرض أثيوبيا وسافر فى اتجاه الغرب ، واستمر فى مسيره حتى وصل الى امبراطورية الفونج التى كانت تتكون من عدد من الأقاليم الصغيرة ، والتى يضم سكانها قبائل واجناس مختلفة ، وهم متقاربون فى اللون من البنى الفاتح الى الأسود Ebony • وقد وصف بروس كل شىء بعناية وبدقة ، ويعتبر بروس الأوربى الاول الذى سجل أضرار ذبابة تسالتساليا Tsaltsalya كحشرة خطيرة فهى مثل ذبابة تسى — تسى Tse - Tse fly التى تلدغ الحيوانات لتصيبها بالمرض المميت ، وتجبر رعاة القطعان على مغادرة الأرض الرعوية الى مناطق النباتات الصحراوية المتناثرة ، التى توجد فى الفصل المطير ، حيث لا تتوالد هذه الذبابة فى هذه المناطق الصحراوية •

وقد قضى بروس المرحلة الأولى من الرحلة فى قطر شبه صحراوى ، بحيث تشتد فيه حرارة الشمس ، حتى أن المجارى المائية والعيون الجوفية قد جفت ، وأدى ذلك الى أن الحيوانات (بالطبع حيوانات البعثة) ضعفت بسبب الجوع والعطش ، فضلا عن أن هذه الحيوانات كانت فريسة سهلة للأسود والضباع التى تكمن فى الأدغال • وفى نفس الوقت وصلت البعثة (بعثة بروس) الى صحراء شاسعة لا يوجد فيها أشجار على الأطلاق ، وبعد ذلك وصلت الى قرية مهجورة ، كان سكانها قد غادروها فى العام السابق وبخاصة عندما أصبحت محصولاتها الزراعية غير كافية للغاية • وقد كتب بروس يقول ما نصه « لقد عسكرنا بين عظام الموتى ، فلا يوجد مكان خالى من هذه العظام » • وكانت البعثة قـــد قطعت فى أسبوع مسافة طولها ٦٥ ميلا ، ولكن أفرادها كانوا فى ذلك الوقت على مقربة من حوض النهر الذى لم يعد جافا ، وعلى مقربة أيضا من مدينة تيوا Teawa

ولقد رحب الشيخ فضل شيخ مدينة تيوا بجيمس بروس وبرجاله ترحيبا حارا ، وكان بروس قد حذر من قبل من أن هذا الشيخ الشرير سوف يعمل بكل جهده على عرقلة البعثة من الذهاب الى سنار عاصمة امبراطورية الفونج ولكن بروس تمكن من استمالة هذا الشيخ عن طريق أجادته لفن الفروسية والصيد ، فضلا عن أجادته للأعمال الطبية ، وقد وصف بروس علاجا للشيخ فضل ولزوجاته ولبناته ، ولولا هذا لفقد بروس حياته ، وعندما بدا على الشيخ فضل علامات العداء لبروس ، تدخلت زوجاته لصالح بروس ، فكان لبروس علاقات حب مع زوجات هذا الشيخ • وفى هذا الصدد كتب بروس يقول ما نصه : « لم يكن هذا شيئا كريها فى ربيع الحياة In the prime of life ، بل كان حيلة عرضية ، كما لم يكن ارتداء الزى والتحدث بلغتهم بسهولة وبطلاقة شىء تافه ، وأضاف أننى كرست جهدى فى صداقة الجنس الجميل ، ومداومة الاحترام والتواضع لرجال الحاشية ، وعلى وجه العموم كنت خانعا ، لأن هذا الأسلوب بصفة خاصة كان يلائم أمزجتهم وميولهم » •

ومن المحتمل أن يكون بروس قد أثار غيرة الشيخ فضل ، الذى رفض بأصرار أن يدع بروس يغادر مدينة تيوا ، ويرجع الفضل فى تحرير بروس من هذا الأسر الى صديقه الحبشى أو الأثيوبى ، الذى يدعى ياسين والذى تركه بروس يعود الى قريته الخاصة • وعندما سمع ياسين بالمأزق الذى وقع فيه بروس ، أرسل ثلاثة جنود من المخصصين لنقل البريد ، ومعهم خطابات تهديد بتدمير مدينة تيوا وحرق محاصيلها اذا لم يسمح لبروس بمغادرتها ، وعندئذ تراجع هذا الشيخ عن موقفه وبايماءة تدل على الكرم ، قدم الشيخ لبروس حصانه الخاص وحذره أن الخيول لم تستطع أن تعيش فى سنار • عندئذ رحل جيمس بروس وبعثته بعد أن شكر الشيخ فضل • وكان بروس قد سافر ليلا كى يهرب من حرارة النهار الحارقة •

ومن قبل كان كل من بونسيه الفرنسى وكرمب الألمانى قد زار سنار أى

قبل ذلك التاريخ بسبعين عاما • وقد تأثر بونسيه بحجم وأهمية المدينة ، ولكن بروس وجدها فى حالة بشعة للغاية بحيث يخيم عليها الاستبداد وكان بروس قد وصلها أثناء فصل الجفاف الذى ترتفع فيه نسبة حدوث المرض والموت بوضوح • ولاحظ بروس أن المدينة احتفظت بكثافتها السكانية بسبب خطفها للعبيد من الجنوب • وقد كره جيمس بروس الشعب فى سنار ، لأنه وجدهم فى حالة كئيبة ومريبة • وكتب بروس يقول « يبدو أن الحرب والخيانة هما من أهم عمل هذا الشعب المرعب الذى يفصل عن بقية الجنس البشرى بواسطة سماء وصحارى لا يمكن اجتيازها ، وتعد هذه البلاد بقعة بغيضة » •

وقد قدم بروس لمقابلة الملك ، فوجده شابا ضعيفا متراخيا ، ذو بشرة بنية شبيها بأمه العربية ، وذو ملامح خشنة واضحة بحيث لا يمكن معها معرفة شخصيته واندهش هذا الملك عندما علم بأن بروس اختار أن يقضى سنوات عديدة فى أفريقيا وتساءل بالقول « كيف يكون هذا ؟ وأضاف قائلا مانصه « أنت يا بروس نبيل متعلم وتعرف كل شيء ، وتتحدث كل اللغات ، وأنت شجاع ، ولم تخف من السفر مع عدد قليل من الرجال المسنين ، من خلال أقطار مثل هذا القطر ومثل أثيوبيا ، أليس من الأجدر بك أن تمكث فى بلدك لتستمتع بالأكل والشرب ، بدلا من التجوال مثل الرجل الفقير ، متعرضا لكل أنواع الخطر » وبعبارته :

«Instead of wandering like a poor man exposed to all sorts of dangers».

ومن قبيل التفسير ، فقد أجاب بروس على تساءلات الملك بالقول « أن هذا التجول الذى أقوم به يعتبر نوع من أنواع الدروشة بحيث أن آخذ على عاتقى القيام بممارسة حياة التقشف والفقر ، وأنا مصمم على السفر فى ظل ظروف صعبة وخطيرة ، بحيث أقوم بعمل كل الأعمال الطيبة التى استطيع القيام بها الى الفقير والغنى على حد سواء ، كما أننى لا أقوم بإيذاء أى شخص » وبعبارته :

«By way of explanation Bruce replied that he was a sort of dervish,

pledged to lead a life of austerity and poverty, bound to travel in hardships and danger, doing all the good I can to poor and rich and hurting nobody.

ولما أخبر بروس الملك بأنه فى امكانه أن يسافر لسنوات عديدة ، أستنتج الملك أن بروس قد تورط Committed فى ارتكاب ذنوب كثيرة عندما كان شابا ، فكان عليه أن يقضى مدة طويلة فى تأدية أعمال مثل القيام بالتجوال فى المناطق المجهولة حتى يكفر عن ذنوبه His Sins وأراد الملك أن يعرف من بروس هل كل الذنوب التى ارتكبها كانت مع النساء ، فقد أجابه بروس بتواضع بقوله « من المحتمل أن يكون بعضها قد ارتكب مع النساء ، وقد أقنعت هذه الاجابة الملك الذى دعى بروس للجلوس على وسادة أثناء الوقت الباقى من المقابلة The interview

وفى اليوم التالى ، عاد بروس ليحضر الهدايا ، وفى تلك الأثناء شاهد أحد خدم الملك يقوم بتدليك جسم سيده (الملك) بدهن فيل كريه الرائحة • وكان الغرض من هذا التدليك أن يظل جسم الملك قويا وأن تظل بشرته ناعمة • واقترح الملك على بروس أن يحاول معالجة جسمه بهذا الدهان (المرهم الدهنى) ، وقال الملك لبروس أن هذا الدهان يمنع شعرك من الأحمرار •

وكان هيكل السلطة فى سنار ، كما فى الحبشة ، فأن الشخص المهيمن على السلطة لم يكن الملك ، ولكن كان الوزير الذى يدعى الشيخ عدلان والذى كان يمتلك قطيعا من الفرسان العربية ، هذا فضلا عن امتلاكه لجيش من الخيالة الذين كانوا يرتدون الخوز والدروع • ولكن على الرغم من ذلك فقد شاهد بروس أن امبراطورية الفونج كانت فى حالة من الفوضى والحرب الأهلية ، مثل التى كانت فى أثيوبيا • وقد شكر بروس الملك ، وطلب منه أن يسمح له بمغادرة سنار ، ولكن الملك لم يوافق له بمغادرة البلاد الا بعد أن يستولى على كل ممتلكاته (ممتلكات بروس) •

وفى شهر سبتمبر من عام ١٧٧٢ ، اتخذ بروس طريقة الى النيل الأبيض ، ثم يتوجه بعد ذلك الى القاهرة التى توجد على بعد ٢٠٠٠ ميل

من النهر ، واستغرقت هذه المسافة ثلاثة أسابيع من السفر حتى وصل الى نقطة التقاء النيل الأبيض بالأزرق أى عند موقع قرية الخرطوم فى ذلك الوقت ، ولاحظ بروس أن النيل الأبيض كان عميقا ، بل وكان أكثر استمرارا فى جريانه من النيل الأزرق • وينبع النيل الأبيض من منطقة خط الاستواء التى تهطل الأمطار عليها على مدار السنة ، وكتب بروس يقول ما نصه : « أن النيل الأبيض لم يعان من نقص المياه التى يعانى منها النيل الأزرق خلال فترة الجفاف التى تستمر شهور وكيفما كان الحال ، فأن هذا يدل على التناقض ، وقد أصر بروس على تسمية النهر الــذى اكتشفه « بالنيل » وطبقا لتقديره ، كــان النيل الأزرق يمثل المجرى الرئيسى للنيل ، ويمثل النيل الأبيض فرع للنيل الأزرق •

ورغم أن بروس كان يتمتع بقوة جسمانية وشجاعة غير مشــكوك فيها ، ألا أنه كان يشعر فى نفس الوقت بالتعب والاحباط • ومما زاد الطين بلة فقد أصيب بروس بمرض دودة غينيا Guinea Worm ، التى تمثل مرضا طفيليا ، وكان قد أصاب المرض أحد رجليه ، ممــا جعل المشى بالنسبة له مسألة صعبة • ورغم ذلك فقد وصل بروس الى سوق مدينة شندى ، وكان ذلك فى شهر أكتوبر من نفس العام ، واستقر فى هــذه المدينة لمدة أسبوعين • وبالقرب من هذه المدينة اكتشف بقايا مستعمرة قديمة وقضى بروس الوقت فى هذه المدينة فى فحص اطلال هذه المستعمرة • وعاش بروس هذه الفترة على نفقة بلاط ملكة شندى ، التى كانت امرأة غريبة الأطوار وتبلغ من العمر أربعين عاما فقد أصيبت بأحباط ولكنها فرحت عندما قبل بروس يدها وتعجبت سائلة هل تعرف انه لم يقبل يدى أحد من قبل ؟ فقال بروس « أن هذا التصرف من جانبى يعنى الأحترام ، وشرح لها أن هذا أمرا عاديا وأن ذلك يعنى التحية ففى انجلترا يقتصر ذلك على الملوك والملكات • وقد زادها ذلك سرورا ، ومع هــذا فأنها فى الواقع كانت متملقة ، وقد منحت بروس دليلا كى يصطحبه فى الرحلة » • وفى نهاية الشهر واصل بروس مسيرته مع افراد بعثته المكونة من تسعة أفراد ، الذين كانوا جميعا يركبون الجمال ، وفى أثناء سير البعثة مرت

ببعض الأطلال ، التى أرجعها بروس الى أنها بقايا مروى القديمة عاصمة النوبة ، وتقول الاسـطورة أن مروى أسست بمعرفة موسى Moses تشريفـا لأبنه الفـرعون مير in honour of Merr الذى كان قد تنبنى موسى •

وقبل أن يعبر بروس نهر العطبرة الرافد الاخير للنهر ، أو آخر روافد النيل ، مكثت البعثة بها بعض الوقت حتى يتمكن بروس من شراء بعض الأبل ، لانه فى ذلك الوقت كان على بعثته أن تواجه عبور الصحراء التى تبلغ مسافتها ٤٠٠ ميل ، وكان بروس قد اختار عبورها لأنه يفضل أطول الطرق التى تتبع نهر النيل • وفى ١١ من شهر نوفمبر من نفس العام ، وبينما كانت جمال البعثة محملة اغتسل جيمس بروس فى النيل وقال ما نصه : « هنا اسمح لنفسى أن أقول لمعارفى القدمـاء أنه لمن الأمور المشكوك فيها أن نتقابل هنا مرة ثانية » •

«And thus took leave of my old a cquaintance, very doubtful if we should ever meet again.

وكان بروس يعتبر الرحلة فى الصحراء كالكابوس بسبب حرارة الشمس وبسبب العواصف الرملية • ففى تلك الأثناء ، كانت رجله قـد آلمته كما تقرحت رقبته وأدميت قدماه ، وعلاوة على ذلك فقـد نفقت الجمال الواحدة تلو الأخرى وعندما وصلت البعثة الى بئر ماء a waterhole كانت الفرصة سانحة لملئه بالجمال الميتة (البئر) • وبعد ثمانية عشر يوما من المسير وصلت البعثة الى أسوان ، وابحرت مع النيل الى القاهرة •

وقد قضى جيمس بروس عدة شهور فى أوربا قبل عودته الى انجلترا • وفى ايطاليا غضب بروس عندما قابل النبيل الايطالى الذى عرف بروس أنه كان قد تزوج من الفتاة التى تركها بروس فى اسكتلندا متحديا بذلك الرجل سىء الحظ (بروس) وبذلك نشبت مبارزة كلامية فيما بينهما • وقد كتب الأمير الايطالى الذى لم يسمع أبدا عن بروس أعتذارا جـاء فيه « أنه يعتذر وأنه أخطأ خطأ غير مقصود » ، عند ذلك رحل جيمس

بروس الى لندن التى وصلها فى شهر يونيو عام ١٧٧٤ ، بعد غياب دام أحد عشر عـــاما •

ويقول الكاتب هورس وول بول Horace walpole أن بروس خلق إحساسا مختلفا فى الدوائر الرسمية البريطانية ، وأن كل أوربا لا يمكنها أن تذكر فقرة جديدة عن افريقيا زيادة على ما ذكره بـــروس ، حيث أنه السبب الأول فى ظهور أفريقيا الى حيز الوجود •

ويرجع الفضل فى ذلك الى المستر جيمس بروس الذى عاش ثلاث سنوات فى البلاط الأثيوبى ، فكان يتناول أفطاره كل صباح مع حاشية القصر الذين يتناولون لحوم الأبقار النيئة •

وقد اعتبرت قصص ومغامرات جيمس بروس قصصا من نسج الخيال بحيث أن معظم أجزائها لا يصدقها أحد ، وقد أعد الملك جورج الثالث استقبالا رسميا لبروس وتسلم منه بكل امتنان جميع الرسومات التى قام هو والفنان بالوجانى برسمها ، ومع ذلك فلم يحظ بأى اعتراف رسمى ، حتى أن الجمعيات العلمية انكرت أدعاء بروس الخاص بالكشف عن منابع النيل •

وكان الدكتور جونسون Dr. Johnson واحدا من خصوم بروس المشهورين ، وكان جونسون هذا فى ذلك الوقت رجلا مسنا • وقد ألف جونسون كتابا بعنوان راسليس أمير أثيوبيا Rasselas the prince of Abyssinia وقد قدم جونسون الحبشة فى هذا الكتاب على نحو مثالى ، بحيث أنها تختلف عن الواقع ، كما أنه ترجم الى الإنجليزية رحلة الأب لوبو الى الحبشة Father Lobo's A Voyage to Abyssinia • وكان جونسون معجبا بالجزويت ، وغضب عندما نعته بروس بالكذاب والأفاق • وقـــد رد جونسون على ذلك بقوله أن بروس غير جدير بالثقة تماما •

أدى الأستقبال الفاتر لجيمس بروس الى الأذى والأهانة ، مما حتم عليه التقاعد ومراعاة شئونه فى اسكتلندا ، وعاش حياة زوجية سعيدة ولكنها كانت حياة قصيرة • وعندما ماتت زوجته طلب منه أحد أصدقائه بالحاح أن ينسى حـــزنه ، وذلك عن طريق كتابة تقرير عن مغامراته • وبالفعل كتب بروس مذكراته فى كتاب بعنوان « رحلات للكشف عن منبع النيـــــل » Travels to discover the source of the Nile وقـــد نشر هذا الكتاب عام ١٧٩٠ م ، أى بعد سبعة عشر عاما من عودته من افريقيا ومن الممكن قراءة هذا الكتاب اليوم ، بحيث يحس القارىء بمتعة كبيرة • وقد أرتاب بروس فى أن الكتاب سوف يقوده الى المتاعب • وعلى هذا ، فقد ذكر بروس فى مقدمة هذا الكتاب أنه سوف لا يجيب على أى اعتراضـــات تافهة ، أو تحـــامل Captious أو تفـــاهات من المحتمل أن توجه ضده ، وقال بروس ما نصه : « عندما رغبت فى كتابـــة التقـــرير كتبته » وبعبارته : «What I have written, I have written»

وكان بروس على حق من كل هذه المضايقات • فقد تناول النقـــاد الكتاب وقاموا بنقده بطريقة قاسية وجاء فى نقدهم أن القصص التى وردت فى كتاب بروس كانت عبارة عن سخريات ، ورفض كثير من الناس تصديقها ، بل قالوا أنـــه لم ير أبدا أثيوبيا ، ولكن على وجه التقريب زار منبع النيل •

وبسبب كل هذا ، فقد أصبح بروس مغتاظا ومتشائما وتقوقـــع أكثر من مرة فى صومعته التى ظل بها حتى وافته منيته عام ١٧٧٩ م ، وهو فى سن الرابعة والستين من عمره ، وقد حكم معـــاصروه على معرفته لرحلته بأجحاف Unfairly

ولقد استمر الجدل حول المسائل الصحيحة والمسائل الخاطئة فى تقرير بروس عن مغامراته ، وحتى الى ذلك اليوم ، فهناك يوجد كثير من الناس الذين اعتقدوا فى أن بروس كان أفاقا لأن كتابـــه فى الحقيقة ،

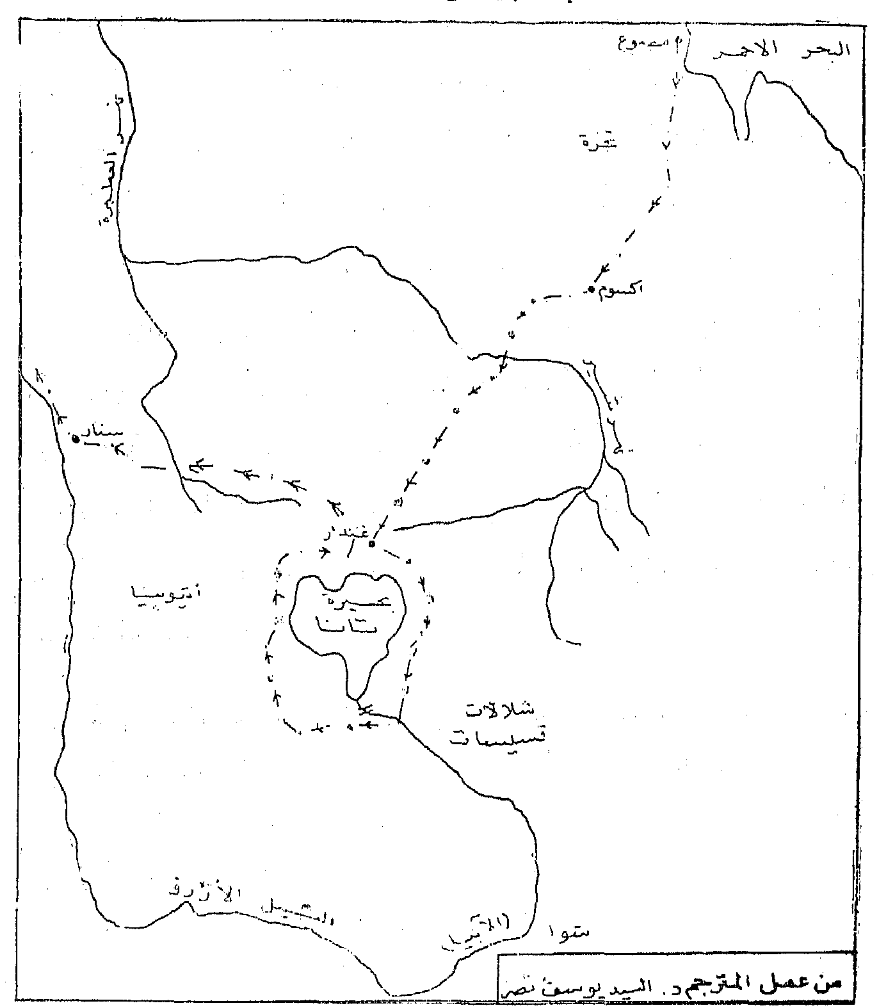
كان ••• يضم بين صفحاته بعض المبالغات Exaggerations والمتناقضات inconsistencies ولكن فيما بعد وجد الرحالة والمكتشـــفون أن كتابه يعتبر على جانب من الأهمية حيث أنه كان صحيحا ودقيقا ، ولا يوجـــد شك بالمرة فى سفر بروس الى الحبشة ، وزيارته لمنبع النيل الأزرق • ومن المؤسف حقا أن كبريائه وطموحه قاداه الى أن يجحف أســـماء مثل القسيسان بيز ولوبو ، وأن يخفى حقيقة أن بالوجانى كان قد رأى أيضا منبع النيل الأزرق The fountains of the blue Nile وكان هذا عيبا defect خطيرا فى رجل عرف بالشجاعة وسعة الحيلة ، والشهامة ، والود والإنســـــانية •

وأخيرا فأذا كان بروس قد أكد ما رآه المكتشفون الأوائل ، فأنه قــــد ســـــافر مســـافات طويلة وتجـــول فى مســـــاحات شاســـعة وقدم ثروة ذات قيمة عظيمة من المعلومات • وبهذه الطريقة فأنه فتـــح آفاقا جديدة للرحالة الذين جاءوا من بعده ، ويمكن القول عنه بحق أنه أول مكتشف علمى لأفريقيا •



صورة المغامر جيمس بروس الذى جاء الى الحبشة عام ١٧٦٨ ليكتشف منابع النيل الأزرق . من اعداد المترجم

الخريطة رقم (٥) الخاصه
ببعثة جيمس بروس عام ١٧٦٩



بدأ جيمس بروس رحلته من مصوع مارا بأكسوم فغندار ، ثم طاف حول بحيرة تانا وشاهد شلالات تسيسات . وبعد ذلك واصل رحلته حتى سنار ، ومنها وصل الى مصر ، ثم سافر بعد ذلك الى انجلترا .

التعليق علـــى الفصـــل (٣)

نستخلص من دراستنا للفصل الثالث عبرا تاريخية على جانب كبير من الأهمية ، أولها أن الإنسان من الممكن أن يكره المعيشة فى موطنـــه الاصلى الذى عاش فيه طفولته ، والذى كان يحبه ، اذا تعرض لظروف صعبة للغاية يتحتم معها عدم مقدرته على المعيشة فى موطنه الأصـــلى (أقصـــد مسقط رأسه) • لهذا علينا ان نتساءل عن الاسباب أو الدوافع التى دفعت جيمس بروس أن يتخذ مثل هذا القرار الخطير فيمكن القول أن جيمس بروس رغب فى أن ينسى مشاكله وهمومه ، هذا الرجل الذى لم يتحمل صدمة وفاة زوجته المحبوبة اليه ، فعلى أثر وفاتها كره بروس كل شىء بل ورفض كل شىء ، وفكر فى الرحيل الى مكان آخر جديد يبدأ فيه صـــفحة جديدة ، وينسى همومه ومشـــاكله حتى يتمكن من أن يحقق لنفســـه المجـــد •

ويمكن القول أنه عندما تعرض بروس الى صدمة وفاة زوجته انتابه اليأس ففكر أول ما فكر فى السفر الى افريقيا ، القارة التى كانت أجزاء كبيرة منها لا تزال مجهولة ، كى يحقق لنفسه مجدا فى مجال الكشـــوف الجغرافية الأفريقية ، هذا من ناحية ، ولكى يشغل نفسه حتى ينسى همومه ، هذا من ناحية أخرى ، ولكن قبل قيامه برحلته هذه كان عليه أن يعد نفسه اعدادا جيدا ، فكان من هذا الأعداد أنه تعلم عددا من اللغات التى يحتاج اليها • وكان من هذه اللغات التى تعلمها بروس الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والعربية ، فضلا عن تعلمه الأمهرية (لغة الأحباش) وكان الهدف من وراء ذلك كله مواجهة كل الاحتمالات التى من الممكن أن تصادفه أثناء الرحلة فيكون لديه المقدرة على التحدث مع أى شخص من غير بنى جنسه ، أو قراءة أى مرجع بأى لغة • زيادة على ذلك ، تعلم مهنة الطب كى يستخدمها أولا كوسيلة لأستجداء عطف المسئولين فى أى بلد يصل اليه ، والحصول منهم

على ما يريد (وهذا ما حدث بالفعل مع بروس فى الأسكندرية عندما قام بمعالجة كبار القوم فيها الذين حصل منهم على توصيات الى حاكم مصوع وملك سنار) • وثانيا كى يقى نفسه من الأمراض التى يتعرض لها وبخاصة وأنه كان ذاهبا الى قارة موبوءة بالأمراض المختلفة •

والى جانب ما سبق فقد أجاد بروس فن التنكر ، وذلك بأرتدائه للزى العربى ، فأصبح وكأنه عربيا تماما ، ولا شك أن هذا الأسلوب سوف يمكنه بكل سهولة من التوغل فى داخل هذه البلاد التى يتكلم سكانها العربية ، والذين يرتدون أيضا الجلباب ، وبهذه الطريقة تمكن جيمس بروس على أقل تقدير أن يسهل لنفسه مهمته •

والى جانب هذا فأن جيمس بروس تميز بالجلد والجدية ، ويتضح ذلك من أنه تمكن ومجموعته من الصعود الى تلال الحبشة والمسير بين صخورها ووديانها ، مما أصاب اقدامه بتقرحات كانت تؤلمه ، ولكن على الرغم من ذلك فأنها لم تمنعه من مواصـــلة مهمته ، وكان من الممكن أن تصيبه بمضاعفات خطيرة ، ولكنه تمكن بأسلوبه من التغلب على كل هذه العقبات التى اعتبرها بسيطة فى سبيل تحقيق هدفه الأسمى ، الا وهـــو الوصول الى منبع النيل الأزرق •

وقد تميز بروس أيضا بسعة الحيلة والذكاء ، ويتضح ذلك من مواقفه فى مصر وذلك بأستمالة كبارات القوم والحصول منهم على تصاريح تخول له تسهيل مهمته • كما نجح أيضا فى استمالة حاكم مصوع الذى رفض أن يسمح له بمغادرة الميناء الا بعد أن يجرده من كل أمتعته ، ولكنه المح له بالتصريح الذى كان يحمله معه من مصر ، فيبدو أن هذا الحاكم قد خاف من ذلك وسمح له بمواصلة المسير الى داخلية الحبشة ومن الجدير بالذكر أن منطقة البحر الأحمر كانت تخضع للدولة العثمانية فى ذلك الوقت وبالتالى فان حاكم مصوع كان يتبع لهذه الدولة حتى ولو اسميا • ومن حيله أيضا أنه عندما توطدت علاقته مع الأميرة أثير زوجة الراس ميتشل اضـــطر الى التخلص من هذه العلاقة حتى لا يتورط فى مالا يحمد عقباه ، بل ويدخل نفسه فى مشاكل هو فى غنى عنها •

وتتضح لباقته أيضا مع الشيخ فاسيل حاكم منطقة بحيرة تانا الذى رفض السماح لبروس بزيارة النهر ، وقال بروس فى هذا الصدد ما نصه :

« لقد تعرضت لما كنت اتوقعه ، فقد ضاعت أمالى فى الوصول الى منبع النيل الأزرق ، بل انتهت أمالى الى الابد ، وكما ضاعت ولسنوات عديدة كل متاعبى وأموالى ووقتى وكل معاناتى ، ليست بسبب عقبة كأداء ولكن بسبب حقد رجل همجى » • ولكن رغم ذلك فقد تمكن بذكائــه من استمالة هذا الشيخ ، وذلك بمهارته فى الفروسية وفى اطلاق النيران مما جعل هذا الشيخ أن يسمح له بالسفر تقديرا لكفاءته •

ولم تقف حيل بروس عند هذا الحد بل أنه قام بتصرفات ، ربما كان هو نفسه غير راض عنها ، ولكن مادفعه لاقترافها هو رغبته فى تحقيق هدفه الذى كرس حياته من أجله (كشف منابع النيل) • ويتضح ذلك من موقفه من شيخ مدينة تيوا ، الذى شك فى سوء سلوك بروس مع زوجاته ، ولكن ، بروس تدارك الأمر قبل فوات الأوان ، وكف عن ممارسة هذا السلوك • الذى من المحتمل أن يكون قد اقترفه عن طيب خاطر ، أو اقترفه لكى يحقق لنفسه التقرب من نساء القصر ويضمن لنفسه الاستمرار والاستقرار ، ومما لا شك فيه أن هذا العمل الذى قام به بروس كان عملا كبيرا وخطيرا لا يقوم به أحد الا بروس نفسه فلو تصورنا الرحلة الطويلة التى قطعها لوجدناه حقا ، أنه بطل وكفء ويستحق كل تقدير •

ولكن على الرغم من أنه أنهى رحلته التى بدأت من أسوان فصحراء شرق السودان فالبحر الأحمر ، فمصوع فغندار فسنار فأسوان فالقاهرة وأخيرا وصل الى انجلترا ، الا أنه لم يلق ترحيبا من المسئولين فى بريطانيا بل قوبل بالنكران وعدم التصديق ، حتى أن الملك جورج الثالث نفسه لم يستقبله الاستقبال اللائق بمكتشف له قدره ، بل أستقبله بصفة عادية ولم يأخذ عمله مأخذ الجد ، مع أن هذا الملك كان قد تسلم منه الكثير من الرسومات التى كان قد طلبها من بروس قبل بدء الرحلة •

وفضلا عن ذلك كله ، فأن الجمعيات العلمية فى بريطانيا لم تعترف بعمل بروس بل ورفضت تصديقه • ولم تنته المأساة عند هذا الحد ، بل نجد بروس يتعرض الى النقد اللاذع من جانب الكتاب • ويعتبر هذا فى حد ذاته صدمة قوية لا تقل فى ضراوتها عن الصدمة الأولى التى تعرض لها عند وفاة زوجته ، وربما لو كان بروس فى كامل قوته لبحث عن مكان آخر يريح فيه نفسه أو ليبحث عن شىء آخر يقوم به كى يحقق مجدا آخرا •

وظل بروس هكذا يتعرض للنقد مدة طويلة وسبب ذلك يرجع الى أنه لم يكن لديه أجهزة تصوير يصور بها كل الأشياء التى لمسها ورآها حتى تكون دليلا ماديا على صحة رحلته ، وعلى صحة ما ذكر ، ولكن لسوء حظه لم تكن أجهزة التصوير قد وجدت بعد • ومما لا شك فيه أن عدم وجود أجهزة للتصوير لعبت دورا هاما فيما تعرض له بروس من نقد واهانات •

ورغم ذلك كله فأنه يعاب على بروس أنه كان محبا لنفسه بل ومحبا للظهور وتحقيق المجد على غيره ، وقد أدى به ذلك الى أن يكون ناكرا لجهد الغير ، ويتضح ذلك جليا من مهاجمته للقسيسين بيز ولوبو اللذين كانا قد سبقاه فى الوصول الى منبع النيل الأزرق • كما أنه اغفل حق بالوجانى الرسام الإيطالى ، الذى كان يرافقه فى هذه الرحلة حيث قال بروس أن بالوجانى قد مات قبل أن يصل الى منبع النيل الأزرق • وفى الحقيقة كان بالوجانى يرافقه فى زيارته لمنبع النيل الأزرق •

ولكن على الرغم من كل المصاعب التى واجهها جيمس بروس والتى اتعبت حياته وجعلته يعيش حالة من اليأس أشد مما كان عليه الحال عقب وفاة زوجته وقبل بدء رحلته ، الا أن الجمعيات العلمية فى لندن ، وكذلك الرحالة الذين زاروا افريقيا فيما بعد أقروا جميعا بأهمية الرحلة التى قام بها بروس ، بل وأقروا بدرجة كبيرة بما جاء فى كتابه من معلومات ، فقد تأكد بصورة لا تقبل الشك من أنه كان على صواب بل واعتبروه من

الرحالة العظام الذين ساهموا بحق فى الكشوف الافريقية • ولكن لسوء الحظ فأن هذا التبجيل قد جاء متأخرا أى بعد فوات الأوان •

وكان من أهم نتائج رحلة جيمس بروس أنه تمكن من القاء الضوء على أحوال الحبشة فتعرض لعادات سكانها ولنظامها السياسى والاجتماعى كما قدم وصفا غاية فى الروعة لمناظرها الطبيعية ، هذا فضلا عن أنه نقل لنا صورة عن حياة السكان فى كل الممالك التى مر من خلالها مثل مملكة سنار وتيـوا Tewa ومنطقة النيل النوبى •

وأخيرا اختتم تعليقى بأن بروس كان رجلا عظيما ورحالة على جانب من الأهمية ، حيث أنه لعب دورا بارزا رغم كل الصعاب التى اعترضت طريقه فهو على أى مقياس من الابطال ولا يمكن بأى حال انكار جهده فى مجال الكشوف الافريقية ، وبخاصة أنه ذهب الى افريقيا فى وقت كان لا يمكن للانسان الوصول الى هذه المناطق الا اذا كان مغامرا حقا ، بمعنى أنه كان لا يخشى الموت سواء أكان ذلك بسبب الأغتيالات أو بسبب الأمراض المتوطنة • فلا يمكن للإنسان المعاصر الذهاب الى ماذاهب اليه جيمس بروس لا رتياد هـذه المناطق الأفريقية المجهولة ، سيرا على الاقدام ويعرض نفسه لمخاطر جسـيمة •

وبقى لى أن أضيف هنا أن بروس لم يشر الى سوق شندى ربما لأنه كان قد وصل الى شندى فى غير موعد انعقاد سوقها • مع أن جـون لويس بركهاردت كان قد ذكر أن شندى ملتقى طرق التجارة ، فيخرج منها طريق يتجه الى مصر وآخر يتجه شرقا الى الجزيرة العربية وثالثا الى جنوب الحبشة ، ورابعا يتجه غربا الى بحيرة تشاد • وكان من أهم السلع التى ترد الى سوقها الابل والعبيد واللحم واللبن والتباك والبن وكان التجار يروجون لتجارة ريش النعام ، بأصوات مرتفعة ، هذا فضلا عن وجود التوابل والاحجبة والسروج •

وكانت الخيول تأتى الى سوق شندى من د نقله والذهب من الحبشة ،

والخرز من مصر والملابس الجميلة من الهند ، والعطـور من الجزيـرة العربية ، والأدوات الزجاجية من فينسيا (البندقية) وأمواس الشفرة من ألمانيا ، والورق من ايطاليا ، أى أن هذا السوق كان سوقا عالميا • ولكن رغم ذلك فأن كل هذه السلع المختلفة كانت لا تقارن بالسلعة البشرية (العبيد) فقد قدر جون لويس بركهاردت عدد العبيد الذين كانوا يصدرون من سوق شندى كل سنة بنحو ٥٠٠٠ عبد • وكان هذا العدد يشتمل عـلى الفتيات اللائى يبلغن من العمر أقل من خمسة عشرة سنة ، وكان سعر الفتاة الواحدة ٢٥ دولارا أسبانيا ، بينما بلغ سعر الفتى ١٥ دولارا أسبانيا • وكانت أعمار الأطفال الذين يعرضون للبيع فى سوق شندى تتراوح فيما بين ٤ ، ٥ سنوات (١) • وللاستزادة أنظر كتاب النيل الأزرق لأن مورهيد •

---

(1) Elspeth Huxley : Encyclopedia of Discoveries and Exploration, the challenge of Africa. No. 12 London, 1971. p. 81.

الفصل الرابع

منجـــــوبارك ونهر النيجـــــر

عندما كان بروس يواصل تجواله (فى الحبشة) اندلعت الشرارة الأولى فى الحرب الطويلة ضد تجارة الرقيق • وقد ساهمت الدول الأوربية فى هذه الحروب • ففى عام ١٧٧٢ م ، أصدر اللورد مانسفيلد Lord Mansfield قاضى محكمة انجلترا العليا حكما قضائيا يقضى بتحرير كل العبيد الذين يعيشون على التراب الإنجليزى •

وقـــد تمثلت المرحلة التالية فى الغاء تجـــارة الرقيق البريطانيـــة وبعد ذلك بدأ التدخل فى افريقيا ، وكـــان على المؤيدين لالغاء تجـــارة الرقيق ان يخوضوا حربا طويلة الأمد ضد المعارضين بقوة لسياسة الغاء الرقيق ، حيث كان لهم مصالح ثابتة فى استمرار هذه التجارة • وفى عام ١٨٠٧ ، أصدر مجلس العموم البريطانى مرســـوما يقضى بأنه بعـــد شهر يناير من عام ١٨٠٨ ، ينتهى التعامل فى تجارة الرقيق سواء فى داخل افريقيا أو فى نقل العبيد منها الى أى مكان آخر ، وقد أعلن أن هـــذه التجارة أصبحت محظورة وغير شرعية un lawful • وفى عام ١٨٠٧ ، خصصت نسبة من الأرض التى كان قد تم شراؤها من الملك المحلى عام ١٧٨٨ م ، كى تنشأ عليها مستعمرة تكون بمثابة مستوطنة للعبيد الأفريقيين المحررين ، وأصبحت مســـتعمرة تابعة للتاج البريطانى Crown Colony

وفى غضون ذلك ، كانت السلطات أو الحكومات (الأوربية) على علم بأنه فى حالة الغاء تجارة الرقيق فمن المحتم على هذه الحكومات أن تحل تجارة شرعية محل تلك التجارة ، على أن تحدد المنطقة التى يمكن ارتيادها ومسحها وكشفها قبل أن تبحث امكانيات هذه التجارة مع داخل أفريقيا •

وكان النصير الأول للكشف الأفريقى هو السير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks العالم البريطانى الذى أبحر حول العالم مع الكابتن كوك Captain Cook فقد ولد بانكس فى عام ١٧٤٣ م ، وهو ابن رجل من ملاك الاراضى الأثرياء ، وتولى بانكس رئاسة الجمعية الملكية لما يزيد على ٤٠ عاما ، وتعتبر هذه الجمعية أقدم هيئة علمية بريطانية ، بل وأكثرها شهرة • ويعتبر بانكس أيضا العضو المؤسس للنادى الذى كان يلتقى فيه كل أسبوع ليتناول العشاء ، ومناقشة المواضيع العلمية • وفى السابع من شهر يونيو عام ١٧٨٨ م ترأس بانكس الحديث الذى انصب على افريقيا وعلى داخلها المجهول ، وقبل نهاية الجلسة المسائية كون الأعضاء من أنفسهم جمعية كان الهدف منها تنشيط حركة الكشف الجغرافى للأقاليم الداخلية من افريقيا ، وعرفت بأسم الجمعية الأفريقية «Association for promoting the Discovery of the Inland Districts of Africa» or the African Association as it came to be called.

وكان من أهداف الجمعية الجديدة ايجاد تجارة بين بريطانيا وغرب افريقيا ، على أن تتبع مجرى النيجر ،هذا النهر الذى لم يراه أى أوربى والذى تقع على شواطئه مدينة تمبكتو المتألقة • وقد اعتقد بعض الجغرافيين أن نهر النيجر فرع من فروع نهر النيل ، ولكن على الرغم من ذلك فأنهم لم يستطيعوا أن يقرروا أن هذا النهر ينبع من الغرب أم الشرق ، واعتقد البعض الآخر من الجغرافيين بأنه من المحتمل أن يكون هذا النهر أحد فروع نهر الكنغو أو ربما يكون هو نهر الكنغو نفسه • ومع ذلك فقد كانت هذه تخيلات ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن الكشف البريطانى لهذه المنطقة لم يكن قد تعدى بعد أنهار السنغال وجامبيا ، بل كان كل ما تم كشفه من هذه المنطقة هو عبارة عن كشف مسافات قصيرة كانت قد تمت فى شبكة أنهار الزيت التى تصب مياهها فى ساحل خليج غينيا •

وكانت الحاجة الملحة أمام الجمعية الأفريقية أن تقوم بتجنيد المتطوعين الذين يرغبون فى الذهاب الى غرب افريقيا على وجه السرعة •

وقد سر سكرتير الجمعية الأفريقيةعندما استدعاه أحد المتطوعين فى صباح أحد الأيام وقال له أنه على أتم استعداد للقيام برحلة كشفية فى اليوم التالى • وكان هذا المتطوع مغامر أمريكى ، يدعى جون ليديارد John Ledyard الذى يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاما • وقد ولد ليديارد فى بلدة جروتون الواقعة فى ولاية كونيكتيكت Groton Connecticut ، وعندما وصل ليديارد الى انجلترا أول الأمر التحق بالقوات البحرية البريطانية ، ثم أبحر بعد ذلك مع الكابتن كوك فى رحلته الأخيرة الى البحار الجنوبية • وكان ليديارد قد تقابل مع السير جوزيف بانكس ، الذى أرسله على رأس بعثة تنطوى عليها مخاطر جسيمة الى كامشاتكا Kamchatka فى سيبريا Siberia وهناك لم يقدم طلبا للبقاء فى سيبريا ، فأبعدته السلطات الروسية عن البلاد ، وعلى أثر ذلك عاد الى لندن خاوى الوفاض • وفى ذلك الوقت وجهت الجمعية الأفريقية الدعوة اليه كى يذهب الى مصر ، ومنها يعبر الصحراء الليبية حتى يصل الى نهر النيجر • وكان ليديارد مصمما على الوصول الى مدينة تمبكتو ، ولكنه لم يتمكن من الذهاب أبعد من القاهرة ، وذلك بسبب تعرضه للمرض الذى أودى بحياته •

وفى الوقت الذى كان فيه ليديارد فى طريقه الى مصر ، أرسلت الجمعية الافريقية متطوعا آخراً الى شمال أفريقيا ، يدعى لوكاس Lucas وكانت الجمعية الافريقية قد زودته بتعليمات مفادها القيام بعبور الصحراء ، ثم التوجه بعد ذلك الى نهر النيجر • وكل ما أمكن لوكاس القيام به هو جميع كمية من المعلومات التى تشير الى وجود طرق تجارية تمر من الصحراء • وفى عام ١٧٨٩ م ، جاء من بعده رحالة آخر يدعى فردريك هورن Frederick Horne man الذى بدأ رحلته من مصر ثم عبر الصحراء الليبية ووصل بعد ذلك الى واحة مرزوق Marzuk التى كانت تمثل مركزا تجاريا هاما فى ذلك الوقت ، وتمثل كذلك عاصمة لمنطقة فزان Fezzan ، وبعد أن غادر فردريك واحة مرزوق ، اختفى دون أن يترك أى أثر • ومن بعد اختفاء فردريك ، جاء رحالة رابع ، يدعى

الميجور هوفتون Major Houghton الذى وصل الى الساحل الغربى ، وبدأ سيره مع نهر جامبيا ووصـل بعيدا الى ميدينا Medina فى السنغال ، وبعد ذلك نصب له رجال القبائل كمينا فاغتالوه وسلبوه أمتعته

وبعد هذه النكسات الأولية تذكر بانكس طبيبا شابا كان يعمل على متن سفينة ، وكان قد أحضر معه مجموعة من النباتات أثناء الرحلة التى قـام بها الى جزر الهند الغربية ، وكان هذا الطبيب يدعى الدكتور منجوبارك Mungo Park ، الذى ولد فى عام ١٧٧١ م ، وكان هو الطفل السـابع لفلاح اسكتلندى ، يعيش فى سلكيرك شير Selkirkshire الواقعة بالقرب من نهر يارو Yarrow ، وكـان بـارك قـد تلقى تعليمه فى المدرسـة الثـانوية بالمنطقة The local grammar school وبعد ذلك أكمل دراسته الطبية فى جامعة أدنبره The University of Edinburgh

وكانت ممارسة مهنة الطب البسيطة فى ذلك الوقت فى اسكتلندا لا تشبع طموح ونشـاط وتطلعات بـارك حيث كـان تواقا للقيـام بـأى مشروع أو عمـل يختبر فيـه قوته وجسـارته لذلك فأنـه سـافر الى لندن حيث تقابل مع بانكس ، ولما علم بانكس برغبة بارك فى السفر ، استخدم بانكس نفوذه فى الحصول على وظيفة لبارك ، بحيث يعمل كطبيب على ظهر سفينة ، وعندما سأله بارك عن نتائج رحلته الأخيرة دعاه بانكس للذهاب الى غرب افريقيا ، وذلك للبحث عن نهر النيجر •

وكان بارك طموحا ، وكعهد بانكس به بل وكان لديه حب استطلاع ، وكان يتميز بقوة الملاحظة الدقيقة التى تكون علامة حقيقية من علامات العالم • ولهذا قبل العرض الذى تقدم به بانكس على وجه السرعة • وفى عام ١٧٩٥ م ، أى وهو فى سن الرابعة والعشرين أبحر منجوبارك من ميناء بورتس موث Portsmouth ووصل الى نهر جامبيا بعـد شهر من بدء الرحلة الخالية من الأحداث •

وكان بارك قد عرف جيدا أن الرحلة فى الداخل لن تكون خالية من الأحداث وكان لديه ايمان لا حدود له infinite فى قدراته الخاصة capabilities وفى نوايا الجمعية الأفريقية • وفى هذا الصدد أعلن بارك ما نصه « ينبغى على أن أهلك فى رحلتى ، كما ينبغى أن تهلك معى آمالى وتوقعاتى ، وينبغى على كذلك أن انقل جغرافية افريقيا بحيث تصبح معروفة أكثر لأهل بلدى ، وأن أفتح أمام طموحاتهم وأمام صناعتهم مصادر جديدة من الثروة ، وقنوات جديدة للتجارة ، وأننى على يقين من أننى فى أيدى رجال شرفاء ، هؤلاء الرجال الذين لم يضنوا بالبذل والعطاء ، وذلك لان خدماتى الناجحة سوف تظهر لهم جدارتى » •

وقبل أن يبدأ بارك رحلته ، قضى عدة شهور فى تعلم لغة الماندنجو Mandingo التى يتحدث بها سكان منطقة كبيرة من الداخل ، وكان بارك يهدف من وراء تعلم هذه اللغة التحدث الى السكان المحليين دون مترجم • وفى نهاية العام ، غادر بارك بيزانيا Pisania الواقعة على نهر جامبيا ، وكان بصحبته اثنين فقط من الخدم الأفريقيين ، بالإضافة الى أنه حمل معه كميات صغيرة من المعدات • وكان بارك فى تلك الأثناء مرتديا زيه الوطنى (الزى الأسكتلندى) وقد تكون هذا الزى من بنطلون مثبت أسفل الركبة ، ومن معطف ثقيل زاهى الزرقة a Heavy bright blue Coat with gilt buttons ، مزود بزراير مذهبة ، كما كان يرتدى قبعة صلبة وطويلة • وقد ثبت أن هذه الزراير كانت مغرية للغاية ، وأنه من الضرورى مقاومة هذا الأغراء ، وقبل أن يمضى على بدء رحلة بارك وقت طويل ، سرق معطفه ومعظم أمتعته أو ممتلكاته ، ومع ذلك فقد نجح فى الاحتفاظ بقبعته ، التى لم يقتصر استخدامها كغطاء للرأس ، ولكنه استخدمها كمكان يخفى فيه ملاحظاته التى شملت سكان غرب افريقيا ومنتجاتهم وتجارتهم ، ونباتاتهم وحيواناتهم ، وكان منجوبارك دقيقا فى ملاحظاته تماما لدرجة أنه لم يسجل حقيقة قابلة للشك أو للنقاش •

وفى البداية كان كل شىء على ما يرام حيث كانت البعثة تتجه صوب

الشرق مارة من خلال دول صغيرة يحكمها ملوك من الزنوج الذين كسب بارك صداقتهم عن طريق استعداده العاطفى وعن طريق أسلوبه السهل اللطيف ، وعن طريق مزاجه المعتدل غير المتغير • وفضلا عن ذلك فقد زودت هذه الصفات الجميلة بشجاعة هائلة •

وكان بارك مدركا تماما لمصير أسلافه ، ومع ذلك فأنه لم يتراجع عندما رأى المكان الفعلى فى الغابة ، هذا المكان الذى اغتيل فيه الميجور هوفتون Major Houghton

وكان ملوك هذه الدول الوثنية فى حالة حرب كل مع الآخر ، وكان هدفهم الوحيد من وراء هذه الحروب هو الاستيلاء على المساجين (أسرى الحرب) وبيعهم كعبيد ، وكانت تجارة الرقيق هى الشكل التجارى الوحيد ، حيث كانت تجارة مربحة للغاية ، وقد قرر بارك بأن مالا يقل عن ثلاثة أرباع السكان من مجموع ما قابلتهم كانوا عبيدا ، أما عن طريق أسرهم فى الحرب أو انهم ارتكبوا احدى الجرائم أو أنهم لم يتمكنوا من دفع ديونهم • ولكن رغم ذلك فأن ملوك هذه البلاد نهبوا أمتعة بارك بل وعطلوه ، ولكنهم لم يصيبوه بضرر ، وفى الواقع ، أهتم هؤلاء الملوك بسلامته ، فقد توسلوا اليه الا يذهب بعيدا عن بلادهم •

وفى ميدينا Medina الواقعة بالقرب من النقطة التى قتل فيها هوفتون Houghton يقول بارك ما نصه : « وفى ميدينا طلب منى ملك وولى Woolli بكل لطف أن أتخلى عن غرضى فى السفر الى الداخل ، وقال لى •• لو تتبعت (خطوات هوفتون) فأنه من المحتمل أن ألقى نفس المصير • وأضاف أننى أسيطر على السكان الذين يقطنون الجهة الشرقية مثلما أسيطر على سكان الوولى ، الذين سبق لهم أن شاهدوا الرجل الأبيض من قبل ويكنون له الاحترام • مع أن السكان فى الشرق أو فى الجهة الشرقية لم يروا الرجل الأبيض ، وأنه من الممكن أن يدمروننى • بعد ذلك شكرت الملك على قلقه على بأخلاص ، وأخبرته أننى مهتم بهذه المسألة ومصمم على تنفيذها ، على الرغم من not withstanding

كل الأخطار التى تحيط بها ، فأننى سوف أقوم بالسفر وعندئذ هز الملك رأسه ، ولم يثنين عن عزيمتى » •

وقد زود هذا الملك منجوبارك بمرشد ليساعده فى المرحلة التالية من رحلته • وكان بارك متجها الى نهر النيجر • وفى الطريق كان بارك يسجل كل ملاحظاته • وعلى الفور توقف بارك ليتفحص نوع من الأثواب الخاصة بالتنكر والمصنوع من لحاء الشجر ، وكان هذا الثوب يخص غول غريب a strange bugbear وكان هذا الغول مألوفا بالنسبة لسكان مدن الماندنجو Mandingo وعرف بأسم ممبوجومبو Mumbo Jumbo وكان الرجال هم الذين يرتدون هذا الثوب (ثوب الغول) كى تبقى نسائهم خاضعة لهم ، وفيما يتعلق بالرجال فى هذه القبائل فأنهم لم يتقيدوا بتعدد الزوجات • فكل رجل يتزوج أكبر عدد من السيدات ، يمكن أن يحتفظ به بسهولة ، وكثيرا ما يحدث أن الزوجات لا تتفق فيما بينهن ، وفى بعض الأحيان كان النزاع الأسرى يصل الى الذروة لدرجة أن سلطة الزوج لم يعد فى مقدورها حفظ السلام فى بيت الزوجية House hold • وفى هذه الحالة يستدعى الممبوجومبو وهو فى كل الأحوال يكون الفيصل الحاسم •

وكان هذا الوزير القريب للعدل (والذى من المفترض أن يكون فيه الزوج نفسه أو أحد الأشخاص الذين يختارهم الزوج أيضا) ، يرتدى هذا اللبس الحقير والذى أشرنا اليه فيما قبل ، وأن يتسلح بصولجان يمثل السلطة العامة ثم يعلن عن قدومه ••• بصرخات مرتفعة وحزينة ••• وبعد ذلك يبدأ تمثيله الصامت pantomime وبخاصة عند اقتراب الليل ، وعلى الفور يحتشد سكان المدينة وبعد ذلك يبدأ الحفل بالأغانى والرقص الذى يستمر حتى منتصف الليل ، وعند هذا الحد يستقر رأى الممبوجومبو على المذنب ، وبعد ذلك يلقى القبض على الضحية ، وتنزع ملابسها وتصبح عارية ، وتربط فى عمود وتجلد بعصا الممبوجومبو وسط صياح وسخرية المحتشدين ، ومن الملاحظ أن بقية السيدات يصحن بأعلى اصواتهن فى هذه المناسبة على أخواتهن غير السعيدات •

وقبل أن يعبر منجوبارك الحدود بين دولة الوولى ودولة البوندو Bondu شاهد مباراة فى المصارعة بين بطلين ، ولاحظ بارك فى تلك الأثناء قرع الطبول ، التى بواسطتها تنتظم العابهم على أى مقياس • وعند الرقص الذى يعقب المباراة تواصل هذه الطبول القرع •••• كى تحفظ النظام بين المتفرجين حيث كانوا يقومون بتقليد بعض من جمل الماندنجو Mandingo • وهكذا فقد اكتشف بارك حقيقة مفادها أنه طالما أن القرع على الطبلة يشبه أصواتا للغة بسيطة فأنها واضحة ككلمة منطوقة لأى واحد يفهم اللغة •

ولقد واصل منجوبارك أبحاثه بكل جد واستقصاء فوصف فى مذكراته الأساليب التى استعملها تجار الرقيق مع عبيدهم ، لمنعهم من الهروب ، كما قام بارك بفحص تراب الذهب وكذلك قام بفحص صبغ الملابس القطنية بالنيلة وذلك من أجل الحصول على اللون الأزرق الممتاز ، وحتى عندما سجن بارك وأحيط بالخيالة الذين جروا من خلفه وحاصروه والذين كانوا يدورون ببنادقهم التقليدية من حول رؤوسهم كما لو كانو يعذبون حيوانا متوحشا ، فقد هدأ بارك من روع نفسه ، وذلك بتدوين الملاحظات عن الفروسية عند هؤلاء الناس •

ومع ذلك ، فقد انتظرته متاعب فيما وراء حدود الدول الوثنية الصديقة وقبل أن يبدأ بارك رحلته أعاد تجهيز نفسه بالأمكانيات المتواضعة المتاحـــة وذلك بمساعدة أحد التجار الأوربيين ، وبعد ذلك واصل مسيره فى داخل الممالك الأسلامية الكبيرة ، التى كانت شعوبها تعمل على نشر العقيدة الأسلامية بين الشعوب الوثنية • ويمثل هؤلاء المسلمون (أو المراكشيون) جزء من العرب وجزء من الزنوج ، الذين كانوا يحكمون بمعرفة سلاطين أو امراء • وعلى الفور مر بارك من خلال مقاطعة يحكمها حاكم مسلم ، وفى تلك الأثناء تعرض للهجوم وللسرقة • وعند هذه المنطقة أعلن خدمه الزنوج أنهم لن يستطيعوا الذهاب أبعد من ذلك لخوفهم من وقوعهم فريسة فى أيدى تجار الرقيق • لهذا اضطر بارك الى مواصلة السفر بمفرده •

ولو أن خدم بارك أسرعوا بالعودة فكان من المحتمل نجاتهم من الأسر ، ونظرا لأنهم لم يفعلوا ذلك فقد تم أسرهم ، ولم يتمكن بارك من مساعدتهم لوقوعه هو أيضا فى الأسر ، وعاد بارك من الطريق الذى تبعه عند الحدود ، وطوال بقية حياته فأن منجوبارك كان دائما يحلم بتلك الايام التى قضاها فى السجن بواسطة المراكشيين ، الذين عاملوه بمنتهى القسوة ، وكان من أمثلة هذه القسوة أنه فى احدى المرات طلب أن يشرب ماء من أحد الآبار فأضطر رجل مسن الى جذب دلوا وملأه بالماء ، وبمجرد أن اقترب بارك من الدلو ليمسكه بيده ، تذكر هذا الرجل المسن على الفور بأن بارك رجلا أوربيا « لهذا خشى الرجل المسن أن يتنجس دلوه من شفتى (.... بارك) ، فسارع بسكب الماء فى حوض كانت ثلاث أبقار تشربن منه ، وكان على بارك فى هذه الحالة أن يشرب مع تلك الدواب beasts

وعلى الرغم من كل الأضطهادات التى تدعو الى الشفقة والتى أجبر على تحملها من أجل حصوله على المعلومات كما أنه لولا وجوده لكان خدمه حتى الآن ينعمون بالحرية ، وأن بارك نفسه لم يفقد أعصابه واراح عقله من دراسة اللغة العربية ، ولم يكن الموت بعيدا عنه . فلولا شفقة بعض النساء لكان من المحتمل أن يموت جوعا ، اذا لم يمت هو مقتولا ، هذا فضلا عن أن المراكشيين كانوا يحتقرونه بصفته مسيحيا ، ولم يصدقوا ببساطة أنه كان مكتشفا ، بل أنه كان رسولا لغزو مسلح ، والسمة الوحيدة التى بدا أنهم يقدرونها فيه هى لحيته الحمراء الوقورة ، وفى هذا الصدد يقول بارك ما نصه : « اعتقد فى نفسى أنهم رأوا فى هذه اللحية وقارا بالنسبة لى كمسيحى » وبعبارته :

«Ithink, in my conscience he wrote they thought it too good a beard for a christian».

وبعد ثلاثة شهور تقريبا قرر بارك بصفته أسيرا ، أن فرصته الوحيدة فى الحياة هى الهروب . ويقول فى هذا الصدد « أننى لو ذهبت الى الأمام بمفردى ، فأن ذلك يعنى أننى سوف أواجه صعوبات جمة ... ومن ناحية

أخرى ، فأن عودتى الى انجلترا ، دون أن أنجز هدف بعثتى سوف يكون أسوأ من الحالة الأولى ، وبعبارته :

«And yet, if I went forward singly, it was evident that I must sustain great difficulties. On the other hand, to return to England, without accomplishing the object of my mission, was worse than either».

ولهذا تستر فى أحد خدمه السابقين والذى تصادف أنه كان مسجونا فى نفس المعسكر حيث تمكن من الهرب ، عندما كان المراكشيون نائمين وواصل منجوبارك مسيره بصعوبة لمسافة ميلين ، وعند ذلك سمع طلق نارى وقفز عليه ثلاثة من المراكشيين وهم يصيحون ويلوحون بأسلحتهم ذات الأنبوبتين أو ذات الماسورتين • وعندما يكون العقل البشرى فى حالة تأرجح بين الأمل واليأس لفترة من الوقت ، فأن الأنسان قد يصاب بالقلق والضيق ، بحيث لا يستقر على حال ، وفى هذه الحالة يصاحب الإنسان حالة من الراحة الكئيبة ، حيث يدرك أسوأ ما يمكن أن يحدث وهكذا كان موقفى • وبعبارته :

«He added tortured with anxiety, and hurried from one extreme to another, it affords a sort of gloomy relief to known the worst that can possibly happen; such was now my situation...»

ومن حسن الحظ أن هؤلاء المراكشيين أرادوا أن يسرقوه ، ولم يرغبوا فى أخذه (بارك) أسيرا أو سجينا ، بل رغبوا فى الحصول على حزمة صغيرة كانت معه بها قليل من الملابس ، وبعد ذلك تركوه وحال سبيله ، وكان بارك فى حالة شديدة من الضعف بسبب الجوع والعطش والحمى ، بل وانتابته الهواجس بصفة مستمرة ، بسبب خوفه من وقوعه فى الأسر مرة ثانية ، لهذا ناضل بارك طوال هذه الرحلة حيث كان متوجها الى الجنوب الشرقى • وفى شهر يوليو عام ١٧٩٦ م ، التحق بجماعة من الهاربين من بطش المراكشيين ، وصحبهم الى السوق الكبير فى مدينة سيجو Segu الواقعة على نهر النيجر وفى النهاية رأى منجوبارك نهر النيجر العظيم بعد بحث طويل تتلألأ مياهه تحت اشعة شمس الصباح ،

ونهر النيجر متسع مثل نهر التيمز Thames الموجود فى وستمنستر Westminster ، وتتدفق مياه نهر النيجر ببطء فى اتجاه الشرق •
وقال بارك « أسرعت الى الحافة ، وشربت من مياهه ونهضت وقدمت الشكر بحرارة فى صلاتى الى الحاكم الأعظم لكل هذه الأشياء • وعند هذه النقطة كللت مساعى •••• بالنجاح » •

«I hastened to the brink, and having drank of the water, lifted up my fervent thanks in prayer to the Great Ruler of all things, for having thus for Crowned my endeavours with success.»

ولم ير منجوبارك نهر النيجر فقط ، ولكنه حل واحدة من المشاكل التى حيرت الجغرافيين فى أوربا ، فقد ثبت أن النهر يتدفق من الشرق وليس من الغرب •

وعند هذا الحد كان منجوبارك متعبا ، ومرتديا زيا عبارة عنخرق بالية ولكن مع ذلك ، كان لا يزال متمسكا بالقبعة الطويلة التى كان يحفظ فيها ملاحظاته السابقة ، وفى الغالب ناضل منجوبارك حتى قطع مسافة طولها مائة ميل ، بطول الشاطىء الشمالى للنهر ، فقد بذل جهدا كبيرا كى يتتبع مجراه • وفى ذلك الوقت كان فصل الأمطار قد بدأ ، وأرتفع بذلك منسوب ماء النهر بصورة مخيفة ، ولم يعد مع بارك أموال • ولكن لكى يواصل سيره ، كان عليه أن يتوغل أكثر من مرة فى داخل قطر اسلامى معاد ، وكان عليه أيضا أن يتواجد بين شعب لا يستطيع أن يتحدث بلغة سكانه ، لهذا تخلى عن هدفه ، وواصل المسير لمدة أثنى عشر يوما الى تمبكتـــــو •

وقد عاد بارك من هذه الرحلة وهو فى غاية الضيق ، وكان أثنائها مضطربا ، ومع ذلك فقد كان عليه أن يقطع مسافة طولها ٣٠٠ ميل تجاه الغـــرب ، حتى يصل الى كماليا Kamalia ، وقد خابت آماله بدرجة كبيرة ، وبعبارته : At the very lowest ebb of his fortunes •
وقد رحب به تاجر رقيق مسلم ، يدعى كارفاتورا Karfataura الذى

أبقى منجوبارك طرفه مدة سبعة شهور ، ولم يكن بارك أثناء هذه المدة أسيرا ولكنه كان ضيفا شرفيا ، وقد عالج هذا التاجر المسلم بارك من نوبة حمى انتابته مدة طويلة • وعندما شفى بارك تماما من مرض الحمى التحق بقافلة الرقيق التابعة لكارفا بحيث صحبها منجوبارك مسافة ٥٠٠ ميل ، حتى وصل الى نقطة البداية فى جامبيا • وهناك استقبله أحد أصدقائه من التجار الأوربيين ، كواحد خرج من القبر وبعبارته : «As one risen from the dead» فمن مدة طويلة كان هؤلاء التجار الأوربيين قد تخلوا عن بارك لاعتقادهم أنه فقد ، وخشوا عليه أن يلقى نفس مصير هوفتون Houghton الذى كان قد اغتيل من قبل فى نفس المنطقة •

وبعد ذلك ، وصل منجوبارك الى لندن ، وكان ذلك فى عام ١٧٩٧ م ، ومن محاسن الصدف أن يوم وصوله الى لندن كان يوم عيد رأس السنة الميلادية ، وعلى الفور أخبر بارك السير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks الذى كان فخورا بأنجازات بارك لدرجة كبيرة •••• وعلى أثر ذلك قررت الجمعيـــة الأفريقية The African Association أن تبقى بارك فى خدمتها ، حتى ينتهى من كتابة مذكراته فى صورة كتاب • وبعد ذلك عاد بارك الى اسكتلندا لمقابلة والدته التى أصبحت فى ذلك الوقت أرملة Widow

وقد عنون بارك كتابه بـ « رحلات فى الاقاليم الداخلية من افريقيا » • وبالانجليزية يكون عنوان هذا الكتاب على النحو التالى : «Travels in the Interior Districts of Africa» وقد نشر هذا الكتاب عام ١٧٩٩ م • وكان متداولا لدرجة كبيرة ، كما ثبت أنه لا غنى عنه بالنسبة للمكتشفين التاليين أو الذين أتوا بعد ذلك الى افريقيا • وفى هذا الوقت ، تزوج منجوبارك من محبوبته أيلى Ailie ، أبنة الطبيب الجراح الذى درب بارك على مهنة الطب ، بحيث أصبح بارك فى ذلك الوقت يمارس هذه المهنة كطبيب • وفى تلك الاثناء رغب جوزيف بانكس رئيس الجمعية الأفريقية فى أن يرسل منجوبارك الى أستراليا كى يكشف داخلية هذه القـــارة المجهولة • ولكن بارك رفض هذا العرض والسبب فى ذلك يرجع الى زواجه

السعيد للغاية ، لذا أصبح فى هذا الوقت غير راغب فى السفر الى مسافات بعيـــدة •

وفى صباح عـام ١٨٠٤ م ، صـعد صـديق بـارك الذى يدعى Sir Walter Scott السير وولترسكوت الروائى المشهور ، التلال كى يزور الطبيب (منجوبارك) فوجده يلقى بالأحجار فى بركة عميقة واقعة بين سلسلة صخور يارو Yarrow ، وكان منجوبارك فى تلك الأثناء يراقب عن كثب الفقعات المائية أثناء صعودها الى السطح ، وقد وصف لوكارت سكوت Lockart Scott كاتب تاريخ حياة المشاهير هذا اللقاء الذى جاء فيه ما يلى :

« وهكذا ، قال سكوت ، يبدو أن هذه تسلية عديمة الجدوى ، بالنسبة لأنسان كان قد رأى دوافع كثيرة للقيام بمغامرة ، فرد منجوبارك بالقول ربما لم تكن تسلية عديمة الجدوى مثلما تفترض ، ولكن كان هذا الأسلوب الذى استخدمته هو بهدف التأكد من معرفة عمق نهر فى افريقيا ، قبل أن أغامر بعبوره ، فمن المؤكد أن تكون محاولة الحكم صادقة ، وبخاصة أثناء تصاعد فقعات الهواء الى أعلى » •

وحتى هذه اللحظة ، لم يعرف سكوت Scott شىء عن مقصـد منجو بارك الخاص بأمكانية قيامه ببعثة ثانية • ولكن سكوت قرر على الفور أن هذه التجارب التى أجراها بارك فى يارو كانت متعلقة بغرض ما •

وكان سكوت على صواب ، لأن بارك كان قد تقرب من قبل الى اللورد كامدن Lord Camden وزير المستعمرات الذى أخبر بانكس بما يلى :

« يبدو أن المستر بارك له الرغبة فى التعهد بالقيام ببعثة استقصائية الى داخل أفريقيا ، وعلى وجه الخصوص كمحاولة للتأكد من مجرى نهر النيجـــر » •

وقد اندهش سكوت من جرأة صديقه بارك الذى قبل قيادة بعثة أخرى (الى غرب افريقيا) وكان السبب فى ذلك يرجع الى رغبة منجوبارك القوية فى الأبحار نحو مصب نهر النيجر ، لدرجة أن زوجته المحببة اليه وأطفاله الثلاث لم يثنوه عن عـزمه بحيث يبقوه بالمنزل • وعندئذ بدأ الرجلان معا (بارك وسكوت) رحلة وداع ، وفى نقطة معينة ودع كل من الرجلين الآخر ، وعند هذه النقطة تعثر حصان بارك فى حفرة عميقة • وقد بدأ هذا التعثر للروائى فألا سيئا ، فضحك بارك وقال معقبا على ذلك بما نصـــه :

« أن التفاؤلات تتبع الذين يبحثون عنها ، وأضاف بأن سكوت لم يره مرة ثانية » •

ولقد كان موقف المستكشف موقفا خفيف الظل ، بل وموقفا شجاعا راسخا ، مع أن هذا الموقف لم يكن له ما يبرره • وفى الواقع كانت خفة الروح عند بارك فجائية • وكانت مقدرته قد دفعته على انجاز الكثير ، وجعله هذا عديم الصبر أو التأخير ، ومن ناحية أخرى ، فأن التفاؤل ساعده على تحمل المشاق بصورة قوية بل وكان يثق كثيرا فى غيره من الناس • ويتضح ذلك من تفسيره للمخاطرة التى شرع فى تنفيذها • وكانت خطته الرئيسية أن يسافر بالطريق البرى من جامبيا الى نهر النيجر وبخاصة فى فصل الجفاف ، وكان عليه أن يبحر هابطا مع النهر ، عندما تسقط الأمطار ، ويرتفع منسوب المياه فى النهر بحيث يكون فى الأمكان عبور الشلالات • ومن الملاحظ أن بعثة منجوبارك هذه المرة كانت على نفقة الحكومة البريطانية ، ولم تتكفل بها الجمعية الافريقية • وفى عام ١٨٠٤ م ، وقبل وقوع معركة الطرف الأغر بفترة قصيرة كانت الحكومة البريطانية قلقة من امكانية غزو نابليون لانجلترا ، لدرجة أن الأعداد لحملة بارك قد تأجل وفى الوقت •••• الذى اكتملت فيه الأستعدادات الخاصـــة بهذه البعثة (بعثة بارك) أدرك بارك أنه من المؤمل فيه أن يصل الى نهر النيجر وبخاصة عند بداية فصل المطر لو سار كل شىء طبقا للخطة • وفى

تلك الأثناء ، لم يجرؤ بارك أن يطلب التأخير أكثر من ذلك ، فمن المحتمل أنه كان فخورا لقيامه على رأس هذه البعثة ، وكان بانكس قد ذكر من قبل أنه من الممكن أن تكون هذه الرحلة واحدة من أعظم الرحلات التى ينطوى عليها مخاطر جمـــة ، وأضاف بـــانكس فى قوله أنـــه من رأيه أن الأخطار لم تكن كبيرة لدرجة يصعب معها مواجهتها ، لانه بدون مخاطر ، فأن الكشوف الجغرافية العظيمة لا يمكن أن تتم أبداً •

وفى بعض الأحيان ، تعرض بانكس وزملائه للنقد بسبب المخاطر التى أودت بحياة الرجال الآخرين • مع أن بانكس كان قد خاطر فى شبابه وبكل سرور بحياته بسبب الأهتمام العلمى • فلم يكن هناك بعثة قط يمكن أن يكفل لها قدر معقول من الأمان • ولم يكن لدى بارك نفسه أية مشاعر أو أحاسيس • ورغم أنه كان معروفا بتحفظه ، وهدوء طبعه ، فأن مشاعره نحو الثروة والنفوذ والرعاية أخذت كثيرا من اهتمامه فى هذه الأيام ، حتى أنه كان دائما يخاطب بانكس فى كل مراسلاته بكلمة « صـــديقى العزيـــــز » •

وفى ٢ من شــــهر يناير عـــام ١٨٠٥ م ، وصـــل منجوبارك الى ساحل غرب افريقيا ومن هناك كتب خطابا أرسله الى منزله ، وقد جاء فى هذا الخطاب ما نصه : « لو أن السيد جوزيف بانكس استفسر عنى أخبروه أننى أواصل عملى ، بقدر ما تمليه على ارادتى ، وآمل فى أن اكتب خطابا آخر من منطقة نهر النيجر فى الرابع من شهر يونيو من نفس العام » •

ولو سافر منجوبارك بمفرده ، فمن المحتمل أن يصل الى نهر النيجر مع بداية شهر يونيو ، وفى هذه المرة كانت بعثته تضم أكثر من ٤٠ شخصا من الأوربيين كان معظمهم من الجنود ، كما كانت تضم واحدا أو اثنين من الأصدقاء ، كما تضمنت أخو زوجته الذى يدعى الاسكندر أندرسون Alexander Anderson وقد أدرك بارك أن السفر فى أثناء فصـــل

المطر سوف يكون له نتائج خطيرة بالنسبة للرجال البيض ، الذين كانت تنقصهم مقدرة بارك وقوته البدنية غير العادية ، فعلى الفور صـــادف افراد البعثة مصاعب جمة ، وفى نهاية شهر ابريل (من نفس العام) كتب بارك من جامبيا الى بانكس « يؤكد عليه أنه فى حالة سماعه اشاعات عن أحداث مؤسفة قد وصلته ، فينبغى عليه بقدر الأمكان أن يمنعها من الوصول الى الجرائد ، كما يمنعها بكل الطرق من الوصول الى آذان زوجتـــه العزيـــــزة أو أمــه » •

وقد بدات الأمطار فى شهر يونيو ، واستمرت حتى منتصف أغسطس ، ومع ذلك استطاع أحدى عشر أوربيا من الوصول الى نهر النيجر ، وأما الآخرون فقد ماتوا أثناء الطريق بسبب ضربة الشمس والحمى ، أو الدوسنتاريا • وقد زادت آمال بارك عندما رأى النهر ، وعندما حقق الوصول الى قمة الحافة التى تفصل نهر النيجر عن الأفرع البعيدة لنهر السنغال ، قـــال منجوبارك ما نصه : « لقد واصلت المسير الى مسافة قليلة قبل ذلك ، حتى وصلت الى حافة التل ، ورأيت أكثر من مرة مياه نهر النيجر تنساب فى مجراه الواسع على طول السهل ، ولم يتبق سوى عدد قليل من أفراد البعثة على قيد الحياة لكى يشاركوه هذه الفرحة : فقد مات منهم ستة أشخاص قبل وصولهم الى الجزء غير المكتشف من النهر ، وكان حزن منجوبارك ينصب على شقيق زوجته الذى كان ضمن الستة أشـــخاص المتوفين ، ولم تحدث أية حادثة طوال الرحلة حتى تضيف أقل قدر من الكآبة على تفكيرى حتى واريت شقيق زوجتى السيد أندرسون فى قبره • ويقول منجو بارك مانصه : « عندئذ أحسست بأننى تركت وحيدا وبدون أصدقاء للمرة الثانية فى وسط أحراش افريقيا » وبعبارته :

«I then felt myself as if left a second time, lonely and friendless, amid the wilds of Africa.»

ومهما كانت المشاعر التى تنتابه ، الا أن جهوده لم تضعف • وبدا بارك للأحياء أنه فى إمكانه الانتقال الى أى مكان على وجه السرعة فى الوقت الذى كان يعتنى فيه بمرضه ، وكان يعيش على المؤن الجافـــة

المنقوعة فى الماء ، هذا فضلا عن أنه كان يبعد الأسود التى تهاجمه كما كان يطارد اللصوص •

وفى أحد الليالى عبر منجوبارك نهر (النيجر) ما لا يقل عن ستة عشر مرة كتمساح مندفع من تماسيحه ، وفى تلك الأثناء كان بارك يقوم بحمل الرجال (بالطبع المرضى) والأمتعة وبعد أن أدى هذا العمل بمغامرة شديدة ، سلم بأنه شعر ببعض التعب ، ولما رقد بسبب مرض الدوسنتاريا تناول دواء الكالوميل Calomel بكثرة ، فعلى أثر ذلك لم يستطع الحديث ، ولا النوم لمدة ستة أيام بلياليهم • ومع ذلك فقد شفى بارك من هذا المرض تماما ، وبدأ فى تشييد سفينة مسطحة ، تصلح للمسير فى المياه الضحلة ، وكانت تعرف هذه السفينة بأسم إسكونر Schooner ، وقد تم بناؤها من بقايا قاربين كانا يتسرب منهما الماء ، وساعد فى هذا العمل الذى استغرق ثمانية عشر يوما جندى واحد ، وعندما اكتمل العمل فى بناء هذه السفينة ، كان الأشخاص الذين ظلوا على قيد الحياة على أتم استعداد لإنزالها الى الماء •

وقبل أن يغادر منجوبارك هذا المكان ، أرسل دليله الماندنجو Mandingo guide الى جامبيا وهو يحمل تقريره •••• وخطاباته • وقد كتب بارك الى جوزيف بانكس يقول « إن مرشده الجديد ، المدعو أمادى فاتومى Amadi Fatoumi يقول أن نهر النيجر بعد أن يمر من كاشنا Cashna يسير مباشرة الى الجانب الأيمن أو الى الجنوب ، ولم يسمع بعد ذلك من أى شخص أنه رأى نهاية هذا النهر » • وقد أعطت هذه المعلومات الدليل الواضح عن إنحناءة نهر النيجر الجنوبية • وكتب بارك أيضا الى زوجته يقول ، « أنه فى صحة طيبة ، وأن معنوياته مرتفعة ، ويضيف فى قوله ما نصه « أعتقد أنه من غير المحتمل أننى سأكون بأنجلترا قبل أن تتسلمى هذا الخطاب » • ويضيف بالقول « يجب أن تشعرى وتتأكدى أننى أشعر بالسعادة عندما يتجه وجهى الى وطنى » كما كتب بارك الى وزارة المستعمرات « يخبرها بأنه يأخذ على عاتقه مواصلة العمل حتى

النهاية • وعلى الرغم من أن كل الأوربيين الذين كانوا برفقتى قد ماتوا ، ورغم أننى كنت نصف ميت ، الا أننى لازلت أواظب على العمل ، واذا لم استطع أن أحقق هدف رحلتى بنجاح ، فأنا سأكون على أقل تقدير قد ادركنى الموت على ضفاف نهر النيجر •

وفى التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٠٥ م ، شرع بارك فى السفر بجوار النهر ، ووصل الى مدينة سان ساندنج Sansanding ، وكان برفقته ضابطا واحداً ، هو الملازم ثان مارتن Lieutenant Martyn وثلاثة جنود ، كان واحد منهم نصف مجنون ، هذا فضلا عن ثلاثة عبيد من الأفريقيين ، وفى العام التالى وصلت اشاعات عن موت بارك عند ساحل جامبيا ، وقد مضت فترة من الوقت قبل أن تتأكد هذه الإشاعات • ولكن لما وصل أمادى فاتومى الى الساحل عقب على ذلك ، فأعطى ملخصا عن القصة (قصة بارك) فقال أنه عندما كان يحاول شراء المؤن علم بالكارثة من أحد الأفارقة الذين ظلوا على قيد الحياة ، وفى السنوات القليلة التالية سدت بعض الثغرات فى هذا الموضوع بمعرفة المستكشفين الآخرين ، ولكن مع ذلك فأن القصة الكاملة لم تعرف بعد •

وقد نجح بارك فى الوصول الى مملكة اليورى Yauri بعد أن قطع مسافة تبعد عن نقطة البداية بـ ١٠٠٠ ميل ، وقد وصف بارك وهو فى منتصف الطريق الجانب الشرقى من النهر الضخم • ويمثل هذا العمل من جانب منجوبارك فى حد ذاته عملا كبيرا فى مجال الملاحة • ولسوء الحظ ، فأن بارك أهمل أن يقيم علاقات صداقة مع الشيوخ المحليين الذين كان بارك يمر من خلال أقاليمهم ، ومن المحتمل أن يكون السبب فى ذلك راجع الى أن منجوبارك كان متسرعا فى انجاز مهمته ، بينما كان لايزال لديه قوة كافية • وقد سبقته التقارير التى كتبت عن قدوم رجل أبيض كافر an infidel white man ، لذلك نجده عندما يصل الى شلالات بوسا يقع فى شرك Ambush ، ومن الممكن أن تكون السفينة السكونر Schooner قد ارتطمت بصخرة أو أن السفينة قد هوجمت من جانب الوطنيين ، وأن

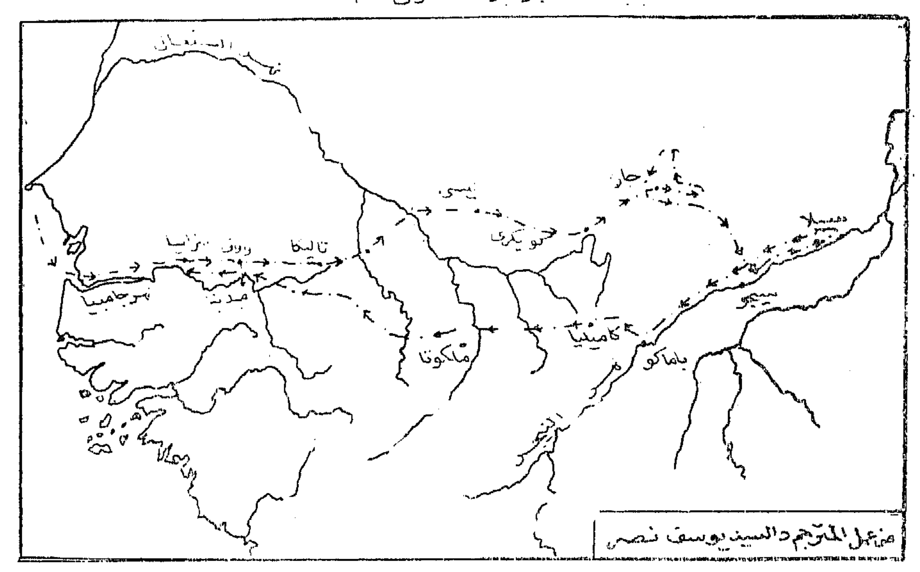
طاقمها دافعوا عن أنفسهم • عند هذا الحد أصبح الموقف ميئوس منه • ومن المحتمل أن يكون كل من بارك ومارتن وواحد أو كل أفراد البعثة قد جرحوا ، لذلك أضطروا جميعا الى القفز فى الماء بهدف الهروب من موت محقق ، عندئذ غرق جميع الرجال •

ومات بارك ، وهو على بعد مسافة ٧٢٠ ميل من هدفه ، وقد وقعت الحادثة مع أن البعثة كانت قـد بدأت مهمتها فى الموعد المحدد ، فلـو كان بارك قد سلك فى اسلوبه العادى اسلوب الصداقة ، ولو كان أكثر دبلوماسية فى معاملاته مع الشيوخ الوطنيين ، فمن المحتمل جدا أن يكون قد نجح ، ولكن مع ذلك فأن انجازاته كانت علامة بارزة (على الطريق) • ويعتبر بارك الأوربى الأول الذى وصل الى النيجر ، ولاحظ أن منبع هذا النهر يقع فى مكان ما عند المنحدرات الشرقية للجبال التى تشكل الحد الشمالى لما يعرف فى الوقت الحاضر بدولة سيراليون • وكان بارك قد أبحر فى النهر لما يزيد عن ١٠٠٠ ميل ، واعطى الدليل الأول عن انحناءته الجنوبية ، ولكن على الرغم من أنه لم يعط الأجابات الكاملة لكل الأسئلة المطروحة ، ألا أنه فتح الطريق أمام الآخرين من المستكشفين كى يجدوا حلا لهذه المشكلة •



صورة المغامر منجو بارك الذى جاء الى منطقة غرب افريقيا عام ١٧٩٥ م
ليكتشف منابع نهر النيجر . من اعداد المترجم .

خريطة رقم ٢ والخاصة
ببعثة منجو بارك الأولى عام ١٧٩٥



بدا منجو بارك رحلته الأولى من بلدة بيزانيا الواقعة على نهر جامبيا عام ١٧٩٥ ، ومنها عبر منطقة منابع نهر السنغال ، ثم وصل الى بلدة سيجو الواقعة على نهر النيجر ، وسار بعدها مسافة ولكنه اضطر بعدها للعودة مع قافلة فوصل الى نقطة البداية . وبعد ذلك سافر الى لندن فوصلها عام ١٧٩٧ م .

الخريطة رقم ٣ والخاصة
ببعثة منجو بارك الثانية عام ١٨٠٥

غادر منجو بارك بلدة بيزانيا فى اتجاه الشمال ، فوصل الى بلدة جارا ، ومنها اتجه جنوبا الى سيجو الواقعة على نهر النيجر . ومن سيجو سار بجوار الضفة الشرقية لنهر النيجر ، حتى وصل الى تمبكتو ، ومنها سار جنوبا مع نهر النيجر ، فمر ببلدة يورى ، ومن بعدها وصل الى بلدة بوسا ، ولكنه اغتيل فى هذه المنطقة .

التعليق عــلى الفصــــل (٤)

أوردت مؤلفة هذا الكتاب ، فى هذا الفصل عددا من النقاط الهامة والجديرة بالدراسة ، ولكنها مرت عليها بصورة سطحية • وكان من أهم هذه النقاط ، تجارة الرقيق فى افريقيا ، وجوزيف بانكس وجون ليديارد ولوكاس وفردريك ، وهورن مان والميجور دانيال هوفتون • ولكن على الرغم من أهمية هؤلاء الاشخاص ودورهم فى كشف الأجزاء المجهولة من القارة الأفريقية ، الا أن مؤلفة الكتاب لم توضح بشىء من التفصــيل دورهم • لذا كان من الضرورى على أن أقوم بأضافة ما يمكن اضافته حتى نفى هؤلاء حقهم •

وبدء ذى بدء ، أقول أن بريطانيا بدأت فى نهاية القرن الثامن عشر فى إلغاء تجارة الرقيق • فكان قاضى محكمة انجلترا العليا قد أصدر قرارا يقضى بألغاء تجارة الرقيق عام ١٧٧٢ م ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن تجارة الرقيق لم تعد ذات قيمة بالنسبة لبريطانيا ، أو بالأحرى لم يعد لها نتائج ايجابية وربما يرجع ذلك الى أن مزارعها فى العالم الجديــد لم تعد فى حاجة الى أيدى عاملة ، بل وأصبح نقل العبيد يمثل عبئا ثقيلا على الخزانة البريطانية • ومن المحتمل أيضا أن الأوربيين فى العــالم الجديد أصبحوا يعتمدون على الميكنة الزراعية ، ولم يصبحوا فى حاجة الى استخدام عبيد افريقيا • وبخاصة بعد أن أصبحت بريطانيا متقدمة صناعيا فهى أصبحت تعتمد على الأله بدلا من إعتمادها على الفرد • وكان من نتيجة ذلك أن أصبح لديها فائض فى الانتاج الصناعى ، لهذا كان من المحتم عليها البحث عن أماكن جديدة لتصريف هذا الفائض من انتاجها (يعنى ذلك فتح أسواق جديدة) فلم تجد أمامها الا افريقيا الميدان الخصب الثانى بعد العالم الجديد • ولكن السؤال هنا كيف تصل بريطانيا الى افريقيا • لكى تصل بريطانيا الى افريقيا كان عليها أن تتذرع بإلغاء تجارة الرقيق المنتشرة فى هذه القارة ، لأنها تجارة ذات جذور متأصلة فى كيان المجتمع

الافريقى ، ولم تكن هذه التجارة وليدة التاريخ الحديث أو وليدة الرجل الأبيض ، بل يرجع تاريخها الى عصور سابقة • ولكن زادت أهمية هذه التجارة بعد كشف ما يعرف بالعالم الجديد لخصوبة تربته وحاجته الى الأيدى العاملة القوية والرخيصة • ولكن بعد اعتماد الأوربى فى العالم الجديد على الميكنة الزراعية الحديثة الناتجة عن التقدم الصناعى ، لم يعد فى حاجة الى عبيد افريقيا ، ومن هنا وجدت بريطانيا السبيل الى التدخل والوصـــول الى افريقيا •

ولكن قبل أن تصل بريطانيا الى إفريقيا كان لابد لها من معرفة المناطق التى لازالت مجهولة من هذه القارة ، وشجعها على ذلك ما قام به جوزيف بانكس عالم الطبيعة البريطانى الذى عاش فى الفترة مابين ١٧٤٣ ، ١٨٢٠ ، والذى كان قد رافق الكابتن كوك فى رحلته حول العالم • وكان بانكس قدساهم فى هذه الرحلة بمبلغ ١٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى (أى ما يعادل ٢٥٫٠٠٠ دولار) وقام بانكس أثناء هذه الرحلة بعمل دراسة على النباتات التى جمعها من المناطق التى زارها كما ساهم فى إنشاء الحدائق الواقعة الى الغرب من لنـــــدن (١) •

وكان بانكس قد أسس الجمعية الأفريقية الخاصة بتنشيط حـــركة الكشـــف للمناطق المجهولة من افريقيا The Association for promoting the discovery of the Interior parts of Africa in London in 1788, introduced a new era in Africa Exploration (2).

وفى عام ١٨٣٠ ، أدمجت الجمعية الافريقية The African Association فى الجمعية الملكية التى عرفت بأسم The Royal Geographical Society

وأما عن الكابتن كوك James Cook زميل بانكس والذى عاش

---

(1) Encyclopedia of discovery and Exploration, No. 13, London, 1971. p. 11.

(2) David Mountfield : Ahistory of African Exploration. England, 1976. p. 67.

فى الفترة ما بين ١٧٢٨ ، ١٧٧٩ م • فكان ملاح بريطانى قام بثلاث رحلات حول العالم ، على جانب كبير من الأهمية ، بحيث أنها ساهمت فى معرفة العالم بالمحيط الهادى واستراليا ، ودحض نظرية القارة الجنوبية المجهولة Terra Australis in Cognita وأثبت أن نيـــوزيلاند تتكـــون مـــن جـــزيرتين منفصلتين بمضـــيق ضـــيق ، وتمكن كـــوك من ملىء الفراغات الباقية عـــلى خريطة الباســـفيك ، وذلك بأكتشـــافاته الكثيرة لجزر ساندويش Sandwich Islands ، وقد تمت بعثته الأولى فى الفترة ما بين ١٧٦٨ ، ١٧٧١ ، فكان قد أبحر فى محـــاولة لزيارة تاهيتى Tahiti ودار حول نيوزيلاند ، ورسم أثناء هذه الرحلة خريطة لجزء من الساحل الإسترالى ، وقد تمت الرحلة الثانية فى الفترة ما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٥ م ، وذلك عندما قـــام بمغامرة الى المنطقة الجنوبية The Antractic Circle وزار جزر عديدة فى الباسفيك ، وقطع مسافة ٦٠ر٠٠٠ ميل • وتمت الرحلة الثالثة فى الفترة ما بين ١٧٧٦ ، ١٧٧٩ م ، وقام كوك أثنائها بالبحث عن طريق الشمال الغربى ، وقام بمسح ساحل امريكا الشمالية ، ووصل الى مسافات بعيدة من الاسكا ، وأبحر من خلال مضيق بيرنج The Bering Strait وفى جزر هواين Hawaiian Islands ، قتل جيمس كوك بمعرفة واحد من سكان هذه الجـــزر (٣) •

وبعد ذلك ، نعود الى دور الجمعية الأفريقية ، التى بدأت مهامها الكشفية فى منطقة غرب افريقيا ، ربما لقرب هذه المنطقة من الجـــزر البريطانية ، ومن المحتمل أن يكون ذلك راجع الى وفرة مواردها الأقتصادية وبخاصة معدن االذهب الذى كان من أهم ثروات مملكة غانا فى العصور الوسطى ، وكانت مدينة تمبكتو فى ذلك الوقت مشهورة بالذهب أيضا (سبق التعليق عليها) • وكما كان على الجمعية الأفريقية ضرورة القيام بالكشف عن

---

(3) Encycolopedia of discovery and Exploration. Op. Cit. p. 22.

نهر النيجر (ليس حبا فى الكشف ولكن حبا فىالبحث عن الثروات الطبيعية التى كانت لاتزال مجهولة) ، الذى لازال مجهولا ، والذى يعتبر ثالث أكبر نهر فى افريقيا ، فهو ينبع من غرب القارة ويسير مجراه مسافة طولها حوالى ٢٦٠٠ ميل ، وقـــد تمت محاولات عديدة لتتبع مجرى هذا النهر (٤) •

وكان من الرحالة الذين حاولوا الكشف عن مصادر نهر النيجر والذين لم تتعرض لهم المؤلفة بشىء من التفصيل حتى يمكن اعطاء فكرة شبه وافية عن كل شخص منهم الرحالة جون ليديار John Ledyard الذى قضى بعض السنوات مع الهنود الأمريكيين ، وبعد ذلك أبحر مع الكابتن كوك حول العالم • وسافر سيرا على الأقدام فى فصل الشتاء من السويد مارا بفنلندا Finland الى روسيا Russia ، وبعد ذلك عبر سيبيريا ، وكان يقصد من وراء ذلك الأبحار الى أمريكا ، حتى يكون أول شخص يعبر القارة الأمريكية ، ووصل تأثيره الى أبعد مدى • وعاد مرة ثانية الى سيبيريا فى فصل الشتاء ، وخرج من الجهة الغربية وهو فى حالة أفلاس • وأخبر بانكس أنه تمكن من اقتراض مبالغ بسيطة بأسمه كى يتمكن من العودة To get Back to England ، واقترح بانكس على الفورأنه يجب أنيسافر ليديارد الى افريقيا ، وأجاب ليديارد أنه يوجد فى فكره رحلة تاليـــة وسأله بيوفوى Beaufoy ، متى يكون جاهزا للقيام بهذه الرحلة ، فأجاب ليديارد صباح باكر Tomorrow morning ، وقد بدأ ليديارد رحلته فى يوم ٣٠ يونيو عام ١٧٨٨ م ، وكان عليه أن يذهب الى مصر ، بعد ذلك يتجه الى النوبا ومنها الى جهة الغرب فى داخل افريقيا •

ومن القاهرة ، كان فى امكان ليديارد ان يرسل بعض المعلومات عن الطرق التجارية الموجودة على مسافات بعيدة فى الجهات الجنوبية والغربية من تمبكتو ، وعن سوق الرقيق ، وعن أى مكان آخر • ولكنه لم يذهب أبعد من ذلك ، وكان قد أعطى نفسه جرعة زائدة من (دواء الكبريتات) كى

---

(4) Encycolopedia of discovery and Exploration. Ibid. p. 59.

يعالج نفسه من مرض الصفراء الذى كان يشكو منه ، ثم تناول بعده ملح الطرطير القوى المقىء فمات من شدة الألم مع أنه عاش قويا وشجاعا (٥) •

ومن بعده ، قام المستر سيمون لوكاس Mr. Simon Lucas الذى كان يترجم عن الشرق ، والذى كان قد قضى ثلاث سنوات فى مراكش كعبد ، وبعد أن حصل على حريته شغل وظيفة نائب قنصل لبريطانيا فى مراكش لمدة ستة عشر عاما • وقد أهلته خبرته ومعرفته للعربية بأن يقوم على رأس بعثة كشفية من الساحل الشمالى لأفريقيا تجاه الجنوب (أى فيما وراء الصحراء) • وقد بدأ رحلته فى شهر أغسطس عام ١٧٨٨ م •

وبعد أن وصلت البعثة الى طرابلس ، حصل لوكاس على حماية وأمان الباشا ، وكان ذلك بمثابة مساعدة بسيطة يتمكن بها من الوصول الى الداخل • وكان لوكاس قد التحق بقافلة سارت على طول الساحل لمسافة بعيدة من مصراته Mesurata • ولكنه بسبب المتاعب التى اعترضته اضطر للعودة الى مصراته • وفى مصراته هذه علم من أحد الأشراف العظـام والذى يدعى محمد ، بوصول تقرير مفصل عن بورنو ، وكان هذا التقرير قد وصل من فزان ، الواقعة فى الجنوب الليبى • وكان هذا التقرير يخص بورنو Borno ، وكاتسينا Katsina الواقعتين فيما وراء الصحراء ، كما يتضمن وصفا عاما عن أقطار الزنوج الواقعة فى جنوب النيجر ، وبعد ذلك لم يعرف أى شىء عن مصير لوكاس • من المحتمل أنه مات فى مصراته ولم يكمل مهمته ، وربما عاد الى لندن بعد فشل بعثته فى تحقيق هدفها •

ولكن فى عام ١٧٩٠ م ، قدم بيوفوى Beaufoy تقريرا الى الجمعية الأفريقية ، أيد فيه بوضوح المعلومات التى أوردها لوكاس فى تقريره ، واستشهد بيوفوى بمصادر أخرى • ومن هذا المنطلق يمكن القول

---

(5) Kenneth Lupton : Mungopark, the African traveler. Oxford, 1979. pp. 27, 28.

بأن لوكاس كان قد مات ، لأنه لو كان على قيد الحياة لكان من الأجدر به أن يقدم هو تقريره الى الجمعية الأفريقية بدلا من بيوفوى .

ومن بعد الرحالة السابقين يأتى دور دانيال هوفتون Major Daniel Houghton ، الذى كان فى بعثة رسمية فى مراكش عام ١٧٧٢ م وفى الفترة ما بين ١٧٧٩ ، ١٧٨٣ م ، كان الميجور دانيال يمثل الشخصية القوية فى منطقة الجورى Gorée ، وفى تلك الأثناء تعلم بعض اللغات المحلية ، وبعد ذلك قدم خدماته بدون أن يحقق نجاحا يذكر الى الحكومة البريطانية . فقد قام بارتياد المنطقة الواقعة الى الجنوب من جامبيا Gambia ، وذلك فى أكتوبر من عام ١٧٩٠ م ، فقد أبحر دانيال هوفتون من ميناء بليموث Plymouth ، ولكنه عندما كان فى جونكاكوندا الواقعة على نهر جامبيا سمع خلسة من زوجات التجار الأفريقيين عن مكيدة تعرض حياته للخطر ، فأضطر بسرعة الى الهرب صاعدا مع النهر ، وكان قد حصل على معلومات من تاجر يدعى جون ليدلى Dr. John Laidly ، عن هذه المنطقة ، ولكنه بعد ذلك واصل السفر الى عاصمة مملكة الوولى الواقعة الى الشمال من النهر . وعندما التقى بملك الوولى ، طلب منه هذا الملك أن يقوم ببناء حصن تجارى فى بلدة فتاتندا Fattatenda ، الواقعة على نهر جامبيا ، لأنها منطقة جميلة ولأن الملك رغب فى أن يؤجرها الى دانيال هوفتون بعشرة جنيهات فى السنة . وكان الكابتن ليتليتون Littleton قد عاش فيها من قبل مدة أربع سنوات وفر خلالها مبالغ كافية ، ولكن هوفتون رفض عرض ملك الوولى ، لأنه كان عليه مواصلة السفر مهما كان الحال ، وبخاصة بعد أن فقد كل أمتعته بسبب نشوب حريق فى بلدة « الميدينا » فضلا عن ذلك فأن المترجم الذى كان مرافقا له قد اختفى . وعندئذ ، لم يكن الذهاب مهما الى ما وراء البوندو Bondu ، لأنه لم يوجد هناك مركز تجارى ، فأضطر بعد ذلك الى الذهاب الى بامبوك ، فهناك كانت توجد تجارة نشطة وبخاصة فى الأسلحة ، وقد استقبل هوفتون استقبالا باردا .

وبينما كان هوفتون فى بامبوك قابل شريف من تمبكتو ، كان قد تعرف عليه أثناء تواجده فى مراكش • وقد عرف هوفتون أن هذا الشريف ذاهب ليكتشف نهر النيجر • وقد زخرف التجار مراكبهم بالصوارى Masts ، هذه المراكب التى كانت تحمل السلع التجارية من تمبكتو وتتجه بها صوب الشرق الى وسط افريقيا ، وكان دانيال هوفتون قد رغب فى السفر على متن واحدة من هذه المراكب التى سوف تتجه الى جين Jene الواقعة فى اقليم بامبارا Bambara • ويمثل هذا فى حد ذاته البعض من المعلومات الهامة التى قام دانيال هوفتون بأرسالها • فكان قد عرف أسماء لبعض الأماكن الواقعة فى كل من الطريق الشمالى والجنوبى ابتداء من بامبوك وحتى تمبكتو ، كما تضمنت هذه المعلومات باماكو Bamacoo وسيجو ويامينا Yamina ، وجين التى كانت عاصمة للبامبارا • وذكر هوفتون أن النهر يتجه شمالا الى تمبكتو ، وبعد ذلك يتجه نحو الشرق •

وفى عام ١٧٩٣ م ، قدم رينيل Rennell ايضاحات جديدة عن جغرافية افريقيا ، فقــد وفق بين المعلومات التى حققها دانيال هوفتون وبين المعلومات التى حققها دانفيل D, Anville ، وبين التقارير التى كتبت بمعرفة القناصل ، وكان رينيل هذا قد أغفل تقرير شابينى Shabeni مع أنه كان من الممكن أن يكون على جانب من الأهمية • وكان على رينيل أن يغير فكرته عن أماكن مصادر نهر النيجر ، فكان قد سلم بأنه لا يزال يوجد هناك غموض ، وتساءل فى كيفية وضع حد لهذا الغموض Discounted وكان هيرودوت قد ذكر من قبل أن النيجر يتصل بالنيل ، وجاء هوفتون من بعده ليؤكد هذا القول • وذكر كل منهما أن شعب الهوسا يمثل مدينة أو وطن أو الكل معا ، واعتقد أيضا أن وطن الهوسا هذا يقع بالقرب من النيل أى على بعد مسيرة أيام قليلة الى الجنوب أو الجنوب الشرقى من تمبكتو •

وكان سكرتير الجمعية الافريقية قد تسلم ملحوظة موجزة من دانيال هوفتون ، كانت هذه الملحوظة مؤرخة فى الأول من شهر سبتمبر عــــام ١٧٩١ م ، وقد أرسلت هذه المعلومة من مكان يسمى سمبنج Simbing

الواقعة فيما وراء باميوك • وتضمنت الرسالة التى تحوى هذه المعلومة تحيات دانيال هوفتون الى الدكتور ليدلى Dr. Laidley وقد ورد بهـا أنه فى صحة جيدة In good Health ، وأنه فى طريقه الى تمبكتو ، وأشارت الى أن كل أمتعته كانت قد سرقت بمعرفة شخص يدعى ابن بوكرفندا Fenda Bucar's Son • وبعد ذلك تسلم سكرتير الجمعية الافريقية تقارير عن موته ، ولكن لم يعرف مكان مقتله ، ولا ظروف الحادث ، وكانت الجمعية قد ترددت فى اذاعة خبر موت هوفتون ، وتناست ذلك فى نشوة الفرح الخاصة بتحقيق هوفتون النجاح فى الوصول الى هـذه المناطق ، وبخاصـة لم يكن منجوبارك قد وصل اليها بعد •

وعلى الرغم من موت هوفتون ، الا أن الجمعية لم تكترث فيما يبدو بهذا الحادث لأنها اعتبرت الكشف عن منابع نهر النيجر مسألة على جانب من الأهمية بل ومسألة قومية أن صح التعبير • لهذا عقد اجتماع عـام للجمعية عام ١٧٩٢ تقرر فيه أن تستمر الجمعية فى مواصلة أرسال البعثات الكشفية الى منطقة غرب افريقيا • وفى مايو من العام التالى عام ١٧٩٣ م ، وقع اختيار الجمعية على شاب يدعى جيمس ويلز James Willis ، الـذى كان من المحتم تعينه قنصلا فى تلك المنطقة (٧) •

ولكن لم نسمع عن أى عمل قام به جيمس ويلز بعـد أن اختارته الجمعية الأفريقية للذهاب الى منطقة غرب افريقيا ، فمن المحتمل أن تكون الجمعية استبدلته بشخص آخر ، ربما لعدم كفاءته ، أو ربما لتعينه فى وظيفة قنصل فأضطرت الجمعية ازاء هذا الموقف أن تبحث عن رحالة آخر •

وفى يونيو من عام ١٧٩٧ م ، وقبل عودة بارك من رحلته الأولى من غرب أفريقيا اختارت الجمعية الأفريقية شاب ألمانى يدعى فردريك هورن مان Friedrich Hornemann ، الذى ذهب الى القاهرة فى الوقت الذى

(7) Kenneth Lupton. Mungo Park. Op. cit., pp. 33 - 34.

كانت فيه قوات نابليون تغزوها ، وكان نابليون قد قابله وتعرف عليه • وبعد ذلك بدأ فردريك رحلته صوب الغرب مع قافلة التجار والحجـــاج العائدين من مكة • وفى تلك الأثناء تلقى فردريك هورن مان رسائل عن الغزو الذى تعرضت له منطقة غرب افريقيا من جانب الشماليين ، وقد حمل له ذلك الخوف والرعب ، ففى ذلك الوقت كانت الاتصالات الاسلامية بشمال وغرب افريقيا قوية ، ولكن فردريك تحدى كل هذه المصاعب وذلك بتنكره فى زى رحالة مسلم ومع ذلك فقد انتابه الخوف ، وبعد رحلة مسلية قطعها من الشمال عبر الصحراء الأفريقية وصل الى واحة مرزوق فى فزان • وكان فردريك قد أرسل قبل بدء هذه الرحلة تقريرا من طرابلس الى انجلترا •

وفى مرزوق سمع عن تيبو Tibu ، وعن قبائل الطوارق Tuarge وعن الأراضى الصحراوية ، وعن الجنوب وعن الأقطار الواقعة فى الشرق ، ابتداء من بورنو وحتى النيل •

وقد دونت هذه المعلومات فى تقرير بـــراون Browne W. G. الرحالة الذى لم يعمل لحساب الجمعية الافريقية ، بل كان يعمل لحسابه الخاص • وكان براون هذا قد بدأ رحلته من دارفور الواقعة فى غرب جمهورية السودان الحالية والتى تبعد عن القاهرة مسافات بعيدة • وقد قام براون هذا بهذه الرحلة فى الفترة ما بين ١٧٩٣ ، ١٧٩٦ م •

وكان هورن مان قد أكتشف أن كلمة الهوسا تطلق على مجموعة من الأقاليم التى تضم كانو Kano ، وكاتسينا Katsina ، التى لم تكن دولة منفصلة ، ورسم خريطة وضح عليها مواقعهم بطريقة دقيقة • وذكر فردريك هورن مان أن نهر النيجر يتدفق صوب الشرق ويمر من خلال اقاليم الهوسا • وفى عام ١٨٠٠ ، أرسل خطابين مختصرين من واحة مرزوق ولكن لم يتسلمهما أحد • وفى عام ١٨٠٥ ، علم بأنه فى كاتسينا منذ سنتين مضت ، وبعد ذلك سمع عنه أنه يواصل سفره صوب الجنوب • ولكن فيما بعد سمع أنه هلك بسبب تعرضه لمرض الدوسنتاريا عند بلدة باكانى Bakkanee

الواقعة فى اقليم النوب Nupe ، ومن المحتمل أن تكون باكانى هذه قريبة من التقاء الطريق الرئيسى بحوالى ٣٠ ميل شمال جيبا Jebba ، الواقعة على نهر النيجر ، وفيما وراء أبعد نقطة وصل اليها بارك . وكان فردريك على مسافة ٣٠٠ ميل من الشاطىء (من المحتمل أن يكون شاطىء المحيط) ومع ذلك فلم يتمكن من حل الغموض الخاص بأرض الهوسا أو بالنيجـــر (٨) .

ورغم كل هذا الجهد الذى قامت به الجمعية الافريقية من أجل الكشف عن مصادر نهر النيجر ، الذى سوف تتخذه بريطانيا فيما بعد طريقا تجاريا هاما بحيث يمكن من خلاله الوصول الى ثروات القارة الأفريقية ، الا أن هؤلاء الرحالة كانوا قد فشلوا جميعا فى مهامهم .

ومع ذلك فلم تذكر المؤلفة الأسباب التى عوقت هؤلاء الرحالة عن تأدية مهامهم ، ومن المحتمل أن يكون السبب وراء فشـــلهم راجع الى صعوبة المسير ، ومن المحتمل كذلك أنهم قد تعرضوا لأمراض خطيرة أودت بحياة الغالبية العظمى منهم ، زد على ذلك أنه لم يكن هناك وسائل مواصلات شبه حديثة ، يمكن استخدامها لتحقيق أهدافهم على الوجه الأكمل ، كما لم يكن لديهم المواد الغذائية الكافية التى تعينهم على مواصلة سفرهم ، علاوة على ذلك كله ، فلم يكن هناك طرق مدروسة أو معروفة لهم ، فلا شك أنهم لاقوا مصاعب جمة فاقت كل تقدير ويرجع الفشل فى مهمتهم أيضا الى أنهم كانوا يأتون على نفقة الجمعية الأفريقية التى كانت تقـــوم بتزويدهم بما يلزمهم من أمتعة ومؤن ، ولكن رغم ذلك فأنها لم تستطع أن تقدم لهم العون العسكرى لأنها كانت جمعية خاصة ، بينما لو كان هؤلاء الرحالة يرسلون من قبل الحكومة البريطانية لكانت قد زودتهم بما يلزمهم من عتاد وجنود وأدوية ومؤن . وفى هذه الحالة يكون فى امكانهم تحقيق الهـــدف المنشـــود .

---

(8) Kenneth Lupton Op. Cit pp. 130 - 132.

ولكن على الرغم من فشل هؤلاء الرحالة الا أن الجمعية الأفريقية African Association ، لم تتوقف عن القيـــام بمحاولات أخـــرى ، وهذا فى حد ذاته يجعلنا نكن الأحترام والتقدير لهذه الجمعية العلمية التى أخذت على عاتقها القيام بمثل هذه الأعمال النبيلة •

وفى عام ١٧٩٥ م وقع اختيارها على طبيب شاب يدعى منجوبارك وكلفته بالقيام بمهمة الكشف عن منابع نهر النيجر ، ولكن على الرغم من فشله الا أنه حقق نتائج على جانب كبير من الأهمية منها أنه ألقى الضوء على تجارة الرقيق التى كانت سائدة فى هذه البلاد ، وأوضح لنا الطرق التى بواسطتها كان يمكن الحصول على العبيد سواء أكان ذلك بالحرب أم بالقنص ، كما ألقى الضوء على العادات الأجتماعية لهؤلاء السكان والتى كان الجغرافيون فى أوربا فى أمس الحاجة اليها كما قام بتفحص تراب الذهب ، أى أن ذلك يعنى اشارة على وجود معدن الذهب فى هذه البلاد ، وأيضا على تقدمهم فى صناعة الأقمشة واستخدام النيلة فى صبغها •

وبقى لى أن أضيف فى قولى أنه مما لاشك فيه أن منجوبارك كان شخصية غير عادية ، شخصية تغلب عليها الجرأة والجسارة والأصرار على ضرورة نقل جغرافية افريقيا الى أوربا ، ويتضح ذلك من قوله « ينبغى على أن أهلك فى رحلتى كما ينبغى أيضـــا أن تهلك معى كل آمالى وتوقعـــاتى ، وينبغى على كذلك أن أنقل جغرافية أفريقيا بحيث تصبح أكثر ألفة لأهل بلدى ••• وأن أفتح أمامهم مصادر جديدة للثروة والتجارة ••• » أذن واضح من هذا التعبير أن الهدف من الكشف ليس فى حد ذاته بقصد الكشف ، ولكن كان الهدف هو استغلال موارد افريقيا ، وجعلها سوقا رائجة للصادرات الأوربية ، زد على ذلك فأن بارك كان شخصية جسورة وجريئة ، والدليل على ذلك أنه عندما قابل ملك الوولى الذى حذره من الذهاب أبعـــد من مملكته خشية أن يلقى نفس المصير الذى لقيه من قبله الميجور دانيال هوفتون الا أن منجوبارك أصر على الذهاب الى أقصى نقطة يمكن الوصول اليهـــا •

وبعد أن أنهى رحلتــه الأولى عاد الى انجلترا ولكنــه لم ينسى افريقيا التى عاد اليها مرة ثانية دون أن يتأثر بأطفاله الصغار بل تركهم فى سبيل أن يحقق هذا الهدف النبيل .

وفى النهاية ، يمكن القول بأن بارك كان شخصية فذة لا تقل عن شخصية جيمس بروس فى الجرأة وحب المعرفة وتحقيق المجد لنفسه ولوطنه ولكنه يختلف عن بروس فى أن بارك كان يريد أن يحقق لبريطانيا مطامعها فى موارد افريقيا وتجارتها ، بينما كان بروس يريد أن يحقق لنفسه المجد .

الفصل الخامس

حل مشـــكلة النيجـــر

لقد كانت حياة منجوبارك قصيرة ولكنها كانت حافلة بالأعمال الهامة ، ومع ذلك فقد انتهت نهاية محزنة ، فبعد موته باءت بالفشل كل المحاولات العديدة التى اتخذت لتتبع مجرى نهر النيجر حتى منبعه • ففى عــام ١٨١٥ م ، أرسلت ثلاث بعثات الى منطقة غرب افريقيا ، بدأت إحداها من بلدة كلبيار الواقعة على ساحل غينيا ، وبدأت الثانية من مراكش ، والثالثة من مصر • ولكن هــذه الخطة باءت بالفشل (لأســباب غير معروفة) • وعلى ذلك فقد اختارت الجمعية الأفريقية African Association رجل عظيم وشجاع ومتزن ، هــذا الرجل هــو جون لويس بركهــاردت John Lewis Burchardt الذى كان عليه ان يتخذ الطريق المصرى •

وكان بركهاردت سويسرى الجنسية ، فقد عاش فى انجلترا ، ودرس العربية فى جامعة كامبريدج Cambridge University ، وكان عــالما لامعا بحيث إنه فى عام ١٨٠٩ عرض خدماته على السير جوزيف بانكس ، الذى وافق على شرط أن يقضى جون لويس بركهاردت سنتين فى سوريا كى يتقن خلالهما لغته العربية ، وبعد ذلك تجول فى بلاد الشرق الأوسط للاستزادة بالمعلومات ، قبل القيام بمهمته الخاصة بنهر النيجر • وقــد درب جون لويس بركهاردت نفسه على الحياة القاسية قبل أن يبدأ مهمته ، فعود نفسه على النوم فى العراء ، والمشى حافى القدمين فضلا عن عدم تناوله الطعام بأستثناء اعتماده على الخضروات ، وكان الهدف من وراء ذلك كله أن يعود نفسه على تحمل المشاق أثناء مروره من خلال الأقطــار الأسلامية ، ويتضح ذلك من قوله الذى جاء فيه ما نصه : « لقد تقدمت من هنا كتاجر هندي مسلم ، وبسرعة تلاشيت وسط الزحام فى حلب Aleppo

وقد أخبر بركهاردت الجمعية الأفريقية بذلك فى خطاب أرسله من مالطة •
وفضلا عن ذلك فقد قام بسفريات واسعة النطاق ، فزار أماكن أخرى
كثيرة منها مدينة باترا القديمة The ancient City of Petra التى
لم يرها أوربى منذ مئات السنين ، ثم وصل بعد ذلك الى القاهرة عام
١٨١٢ م وفى هذا الوقت كانت معرفته للغة العربية تكاد تكون كافية ،
وكان يرتدى زيا عربيا وبذلك تمكن من المرور من خلال مصر كعالم شريعة
مسلم ، وبعبارة المؤلف «He passed as a learned doctor of Muslim law»

ومن القاهرة تتبع مجرى النيل ، وكان يسجل الملاحظات المفصلة
عن الناس وعن الوطن الذى يمر من خلاله ، وعن الحياة البدائية والآثار
القديمة • وكما قام بفحص المعابد العظيمة والهياكل الأثرية الضخمة فى
أبى سمبل ، وبعد ذلك سافر الى مسافة بعيدة صوب الجنوب حتى وصل
الى سوق مدينة شندى ، هذه المدينة التى كان بروس يتمتع بالغزل مع
ملكتها • وعندئذ عبر جون لويس بركهاردت الصحراء النوبية الى ميناء
سواكن الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر • وبعد ذلك عبر البحر
الى الجزيرة العربية حيث كان متنكرا فى زى تاجر سورى • وهناك
أدى فريضة الحج فى المدينة الإسلامية المقدسة (مكة) • ومن المحتمل
أن يكون بركهاردت قد أصبح مسلما حقا (والدليل على ذلك أنه عندما
توفى دفن على الطريقة الأسلامية كما لو كان مسلما) • ولو كان أى
شخص قد ظن أن بركهاردت مسيحيا ، فمن المحتمل أن يكون قد لقى حتفه •
ولكن لحسن حظه لم يشك أحد من الناس فى ذلك ، وقبل مغادرته لهذه
المنطقة كان قد تمكن من كتابة تقريرا عن المدينة (مكة) وعن الحجاج
وعن الأحتفالات الخاصة بهم • وفى النهاية ، وبعد أن سافر شمالا الى
فلسطين كى يزور جبل سيناء ، كان عليه بعد ذلك أن يبدأ بحثه الخاص

---

* لقد رفعت بنجاح هذه المعابد حديثا من مواقعها الأصلية لكى تنقذ من
الغرق بسبب تخزين المياه المتكونة من بناء السد العالي في جنوب أسوان .

بنهر النيجر ، ولكن حدث ذلك بعد فوات الأوان ، لهذا انتظر بركهاردت فى مصر (بلاد النوبة) حتى تصل أية قافلة يستطيع اللحـــاق بها أو الأنضمام اليها كى تقله الى منطقة منابع نهر النيجر ، ولكنه مات فى هذه الفترة بسبب مرض الدوسنتاريا ، وكـــان آنذاك فى الثالثة والثلاثين من عمـــره •

وفى عام ١٨١٦ ، قاد الكابتن تاكى Captain Tackey الذى كان يعمل فى الأسطول الملكى (البريطانى) بعثة مكونة من ٥٦ فردا من العلماء والجنود كى يكتشف نهر الكنغو ، ويكتشف أيضا هل نهر الكنغو له اتصال بنهر النيجر أم لا • ومع ذلك فقد باءت جهود هذه البعثة بالفشل ، بل وانتهت بكارثة ، فقد مات بسبب المرض الكثير من رجالها ومات تاكى نفسه بعد أيام قلائل من وصول البعثة الى الكنغو •

وفى الوقت الذى كانت فيه بعثة تاكى فى طريقها الى الكنغو انطلق كل من الضابطين العسكريين الميجوربيدى Major Peddie والكابتن كامبل Captain Campbell من الساحل الغربى لأفريقيا ، ولكن مات الكابتن بيدى بينما أضطر الكابتن كامبل الى الرجوع الى الساحل بسبب مرضه بعد أن كان قد قطع مسافة مع نهر السنغال (لم يعرف طولها) • ثم تبعه بعد ذلك الكابتن وليام جرى Captain William Gray الذى اصطحب معه الطبيب دوتشارد الجراح Staf-Surgeon Dochard حيث أنهما أبحرا مسافة وهما صـــاعدين مع نهر جامبيا ، وبعد ذلك ذهبـــا بالطريق البرى تجاه نهر السنغال • وقد نجحا فى الوصول الى منابع النهر The upper waters وواصل دوتشارد تقدمه الى الأمام كى يصل الى النيجر ، وبخاصة عند النقطة القريبة من سيجو Segu التى لم تبعد كثيرا عن النقطة التى ركب منها بـــارك سفينته (أى عند مدينة سانساندنج) • عندئذ التحق دوتشارد بالبعثة الرئيسية ، ولكن الشيوخ عرقلوا تقدمه بصورة واضحة بسبب خوفهم من قيام البعثة

بالبحث عن الذهب • وهكذا فشل كل من جرى ودونتشارد Dochard ، وعادا الى الســاحل •

وبعد ثلاث سنوات ، وعلى وجه التحديد عام ١٨١٨ م ، وصل طبيب شاب يدعى جوزيف رتشى Joseph Ritchie الذى كان برفقته الضابط البحرى جورج ليون George Lyon الى طرابلس Tripoli ، وكان رتشى هذا قد عين نائبا للقنصل البريطانى فى فزان ، وحسب التعليمات التى صدرت اليه يتضح الآتى : « أن الهدف الأساسى من وراء تعيينك هو التقدم تحت الحماية المناسبة الى مدينة تمبكتو على وجه السرعة ••• فلو تمكنت من الوصول الى هذه المدينة ، فعليك الا تفشل فى جمع كل ما يمكن جمعه من المعلومات الخاصة بمجرى نهر النيجر ، وكذلك معرفة إمكانية تتبعك بأمان لمجرى ذلك النهر حتى نهايته » •

وكانت تمبكتو نقطة التقاء للطرق التجارية التى تأتى من الشمال الأفريقى ، ومن المنطقة الواقعة فى جنــوب الصحراء ، فكانت معروفة للأوربيين ، وبصفة أساسية من خلال وصف ليو الأفريقى ، الذى قال أنها تمثل مركزا للثروة والثقافة •

وقد سافر كل من رينتشى وليون الى الجنوب من طرابلس لكى يصلا الى مرزوق Murzuk عاصمة فزان • وهناك مات رينتشى بسبب تعرضه لمرض الحمى • لهذا لم يتمكن ليون من الوصول الى تمبكتو ، ولكنه تمكن من جمع قدر كبير من المعلومات عن مرزوق ، والقطر الواقع الى الجنوب منها ، قبل أن يضطر الى العــودة بســبب قلة التمويل ، وكما أن بارك قد صدم بسبب حجم تجــارة الرقيق ، فأن ذلك قــد حدث أيضا لليون ، فكان تجار الرقيق العرب يقومون بالإغارة عــلى القرى ويأسرون الرجال والنساء الذين يشترون ويباعون كالماشية تماما ، فضلا عن ذلك كله ، فأن هؤلاء العبيد كانوا يسيرون مسافة طولها ١٥٠٠ ميل حتى يصلون الى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى أثناء هذه الرحلة المخيفة ، كان الكثير منهم يفشل فى الوصول حيا • وفى رحلة العــودة

التحق ليون بقافلة للرقيق وقد تأثر بسبب المعاملة الوحشية التى كان يلقاها الرقيق • ولاحظ ليون أن أصحاب الرقيق كانوا لا يسيرون دون أن يكون فى أيديهم الكرابيج ، التى كانوا يستخدمونها على الدوام • ويقول ليون ما نصه : « أننى لاحظت أن واحدا من تجار الرقيق يجلد عبيده بصفة مستمرة ، وقد اضطررت مرارا الى تجريده من هذا الكرباج » • وأضاف ليون فى قوله « أنه عندما يستسلم عبد للموت يشك التاجر فى وجود شىء مريب داخل أحشائه ويأسف هذا التاجر لعدم استخدامه بشجاعة للعلاج المعهود ، الذى يتمثل فى كى العبد فى بطنه بقطعة من الحـــديد الساخن لدرجة الأحمرار » •

وعندما كان ليون فى مرزوق ، لاحظ أن هذه القرية نفســها كانت مركزا من مراكز الرقيق ، وهناك سأل ليون التجار الذين يزورون هذه القرية عن تمبكتو وعن النيجر • واكتسب ليون أنطباعا مفاده أن هذه المدينة الأسطورية (مدينة تمبكتو) لم تكن مدينة على جانب من الثراء والأهمية مثلما تخيلها الأوربيون • فلم ير واحداً من هؤلاء التجار الذين تواجدوا فى مرزوق يعرفون بالفعل نهر النيجر ، ولكن يبدو أن الرأى العام كان يشير الى أن هذا النهر يصب فى بحيرة تشاد ، الواقعة فى مملكة البرنو فى السودان الأوسط • وعلى هذا الأساس أرسل ليون هذا الكم من المعلومات الى لندن ، ونتيجة لذلك فقد صدرت اليه التعليمات بالتخلى عن بحثه الخاص بتمبكتو ، وعليه أن يرحل تجاه الجنوب الى بورنو Bornu • ولكن هــذه التعليمات لم تصل اليه لأنه كان قــد بدأ الرحلة قبل ذلك الى انجلتــــرا •

ولقد مرت حتى الآن ثلاثين عاما على أرسال الجمعية الأفريقية للرحالة الأول كي يحاولوا حل لغز النيجر • فقد مات الكثير من الرجال الشجعان ، ولكن على الرغم من ذلك ، فلم تكن هناك نتائج ملموســة قد تحققت من استكشافات بارك ، بل ظل اللغز دون حل • وفى عـــام

١٨٢٠ م مات بانكس ، وبعد ذلك كان من المحتم أن تخضـــع الجمعية الأفريقية الى سلطة أجنبية ، ولكن السير جون بارو Sir John Barrow الرجل المتحمس ، وراعى Patron حركة الكشوف فى القارة الجنوبية ، والسياسى الذى عمل سكرتيرا فى رئاسة البحرية فى الفترة ما بين ١٨٠٤ ، ١٨٤٥ ، قد طلب بصفة مستمرة من الحكومة البريطانية ، أن تزوده بالأموال اللازمة لأرسال بعثات الى المناطق النائية (فى افريقيا) • فكان هو الأداة الخاصة بتجنيد الرحالة ، وهـــو المخطط لبعثاتهم ، بل وهو الحارس لمصالحهم ، فى الوطن عندما يكونون فى افريقيا •

وكان بارو هذا قد واصل البحث من حوله على الشخص المناسب الذى يحل محل ليون ، وقد عثر على الميجور الأسكندر جوردون لينج Major Alexander Gordon Laing الذى كان يبلغ من العمـــر آنذاك سبعة وعشرين عاما • فقد خطط لينج بنفسه للقيام بمغامرة الى تمبكتو • وكان لينج اسكتلنديا وسيما ونحيل البنية ، بحيث لم يكن قوى الجسم ومع ذلك فأنه كان يثق بنفسه • وعمل مدرسا قبل أن يقرر التحاقـــه بالجيش ، وبدأ أهتمام لينج بالكشوف الأفريقية ، عندما تمركزت كتيبته فى سيراليون التى أنشئت لتكون مستعمرة للعبيد المحررين •

وكان طموح لينج الأكبر هـــو أن يكون الأوربى الأول الذى يرى تمبكتو وقد طلب الحصول على تصريح ، فرفض طلبه • ولكن فى عـــام ١٨٢١ م سمح له بالحصول على التصريح الذى يخول لـــه قيادة بعثة صغيرة الى الـــداخل (داخل افريقيا) من أجل البحث عن منابع نهـــر النيجر • وقد تمكن من تحديد أماكن هذه المنابع على الرغم من عدم وصوله اليها ، كما أنه وصل الى نتيجة لم يستطع برهنتها وهى أنه لا توجـــد هناك امكانية تدل على أن النيجر والنيل يمكن أن يكونا نهرا واحدا ، وكان لا يزال يحلم بتمبكتو وبخاصة عندما تم تكليف بعثة فى العـــام التالى بحيث تتبع ارشادات ليون التى تقول أنه من المحتمل أن يصب نهر النيجر فى بحيرة تشاد •

وقد خطط لهذه البعثة تخطيطا جيدا ، بل ونظمت أكثر من أى من البعثات السابقة سيئة الحظ منذ موت منجوبارك ، وكان على رأس هذه البعثة وولتر أودنى Walter Oudney ، الطبيب الأسكتلندى ، الذى كان يبلغ من العمر واحدا وثلاثين عاما ، وكانت إهتماماته الأساسية تتمثل فى الكشوف ومعرفة التاريخ الطبيعى • وكان أودنى هادىء الطبع ، ورجل متواضع ، وضعيف البنية Physically Frail ومع ذلك فقد كان مملوءا بالحماس • وكان العضو الثانى فى هذه المجموعة شخص اسكتلندى ، يدعى هيو كلابيرتون Hugh Clapperton الذى كان طويل القامة ، ووجيه الشكل ، ومرح exuberant ويكبر أودنى بسنتين فقط وقد ذهب كلابيرتون الى البحر فى سن الثالثة عشرة عاما ، حيث كان يعمل خادم سفينة تجارية As a Cabin-boy in a merchantman وفى جبل طارق هرب كلابيرتون ، ولكنه أسر وفرض عليه العمل فى الأسطول الملكى وأبحر حول العالم من الشرق الى جزر الهند الغربية وكندا • وفى كندا قام كلابيرتون برحلات صيد مع الهنود الحمر ، وقد قبله الهنود الحمر على أنه واحداً منهم ، وكان كلابيرتون يأمل فى الزواج من أميرة من الهنود الحمر •

وفى عام ١٨١٧ ، عاد الى وطنه فى أدنبره Edinburgh ، وأصبح فى تلك الأثناء بلا عمل مع أنه كان يتقاضى نصف مرتب من الأسطول • وفى أدنبره قابل أودنى الذى عاش معه فى نفس الشارع ، وعلى الرغم من اختلافهما فى الطبائع الا أنه كانت تربطهما صداقة متينة •

وكان الأوربى الثالث فى هذه البعثة الملازم ديكسون دنهام Lieutenant Dixon Denham ، الذى كان يعمل ضابطا بالجيش (البريطانى) وكان فى سن كلابيرتون • وكان دنهام هذا متعجرفا arrogant ومغرورا Conceited ، ومثيرا للمتاعب a born trouble-maker وكان يختلف جدا عن أودنى المستقيم الطبع the straight for ward وعن كلابيرتون ، الذى كان يحتقره علنا despised ، وكان دنهام قد

قابل ليون الذى ملأه بالحماس للقيام بكشف افريقيا • ولما كان لـــه أصدقاء كثيرون فى الوطن من ذوى النفوذ ، فأنه كان فى استطاعته ايجاد وظيفة على قدم المساواة مع أودنى وأعلى من وظيفة كلابيرتون •

وفى بداية عام ١٨٢٣ رست هذه البعثة فى طرابلس ، وبعد ذلك أخذت طريق القوافل الصحراوى الذى يصل الى واحة مرزوق • وقد تأخر تقدم البعثة ، وكان من بين الأشياء الأخرى التى ســـاهمت فى تأخيرها قلة التمويل ، وكان دنهام يحاول فى الظاهر أن يخفف المصاعب ، ولكن فى الحقيقة كان يعمل على تحسين مركزه ، وبعد ذلك رحل الى لندن • ثم عاد مرة ثانية ، وانتابه الغضب الشديد ، لأنه وجد كل من أودنى وكلابيرتون يشغلان وقتهما فى كشف المنطقة الواقعة بين واحة مرزوق وبين واحة غات Ghat الواقعة فى الجنوب ، دون أذن منه ، وغضب كل من أدونى وكلابيرتون من دنهام ، بسبب تركه موقعه فى هذه اللحظة الحرجة a critical moment ، ولكن على الرغم من ذلك فقد سويت الخلافات فيما بينهم ، وعلى هذا التحقت بعثتهم بقافلة كانت متجهـــة الى بورنـــو •

وقـــد عانت البعثة من السفر تجاه الجنوب عبر الصحراء بسبب حرارة الشمس الشديدة ، والعواصف الرملية العنيفة ، وبسبب النقص الشديد فى المياه والذى يدعو لليأس ، وفى نهاية يـــوم ملىء بالمتاعب وصلت البعثة الى بئر ، ولكنها وجدته مردوما بالرمال ، وكان عـــلى أفرادها أن يقضوا عددا من الساعات فى حفر هذا البئر كى يحصلوا على المياه ، وكان عليهم أيضا أن يقضوا ساعات أكثر حتى يمكن للجمال أن تشرب ، وهكذا ، فقد ناضلوا بجهد مضنى ومتعب يوما بعد يوم عـــلى طول الطريق الـــذى تتناثر strewn على جنباتـــه الألاف من الهياكل البشرية ، إنه لتذكار كئيب عن العبيد الذين هلكوا أثناء عبورهم للصحراء •

وعلى الرغم من كل هذه المصاعب التى واجهت البعثة ، الا أن أفرادها

ظلوا على قيد الحياة ، وكلما كانت الصحراء خلفهم أصبح السفر سهلا حيث كانوا متجهين فى طريقهم الى بورنو ، وفى الرابع من شهر فبراير عام ١٨٢٣ م ظهر فجأة وعلى مرمى البصر تماما هدفهم الأول • فقد كتب دنهام يقول ما نصه : « أن بحيرة تشاد الكبيرة بدت الينا على مسافة ميل واحد من النقطة التى وقفنا عندها ، وكانت أشــعة الشمس القوية المتوهجة الذهبية اللون تسقط عليها • وفى هذه اللحظة خفق قلبى عند رؤيتى لهذا المنظر ، واعتقدت أن هذه البحيرة هى المفتاح الى الهدف الكبير لبحثنا • • • • • »

وكـــان كل من دنهـــام وأودنى وكلابيرتون من الأوربيين الأوائل الذين رأوا بحيرة تشاد ، وكان دنهام على خطأ حينما اعتقد أن أفراد البعثة وجدوا المفتاح الى لغز النيجر • وعند هذه المرحلة افترق دنهام عن كل من أودنى وكلابيرتون ، والتحق بمجموعة كبيرة من جنـــود البورنـــو المسلحين ، والمتجهين الى قطر المندارا الجبلى ، الذى يقع الى الجنوب من بحيرة (تشاد) • وكـــان يبدو على أودنى علامات السل ، ومـــع ذلك فأنه كان شجاعا ، (بل وأن روحه المعنوية كانت مرتفعة فقد سافر كل من أودنى وكلابيرتون الى الجنوب الشرقى كى يكتشفا نهـــر شارى Shari River ، وأثبتا أن هذا النهر لم يكن نهر النيجر • وبعد ذلك ، عاد دنهام الى البحيرة (بحيرة تشاد) بعد أن تبين لـــه Turned Out أن هذه البعثة (التى كان قد التحق بها) هى بعثة لصيد العبيد • فغضب دنهام غضبا شديدا مثلما كان عليه الحال فى واحة مرزوق ، وذلك لأن أودنى وكلابيرتون كانا يواصلين الكشـــف بدونه ، وفى الواقع فأنه كان قـــد غضب حتى وصل به الأمر الى اخفاء تقرير كلابيرتون الخاص بهـــذه البعثـــــة •

وكان من الحكمة للبعثة أن تنقسم الى قسمين ، قسم تحت رئاسة دنهام الذى كان عليه أن يكتشف نهر شارى والطرف الجنوبى لبحيرة تشاد ، وقسم يضم كل من أودنى وكلابيرتون واللذين كانا عليهما التجول

غربا فى اتجاه نهر النيجر ، وكانا برفقتهما محمد الوردى M. El-Wordee وهو تاجر مسلم من فزان • وقد قادتهما رحلتهما تجاه مملكة كانو Kano التى كانت قد هزمت حديثا بمعرفة مسلمى الفولانى وقد تميز الشعب الفولانى بالوجاهة وبلون البشرة النحاسى ، وكان هؤلاء الفولانيون قد أسسوا امبراطورية خاصة بهم ، وفرضوا سيطرتهم على شعب الهوسا • وكانت المهارة المحترقة لأودنى مطلوبة فى ذلك الوقت بدرجة كبيرة • وكتب كلابيرتون يقول ما نصه : « لقد تحمل أودنى متاعب جمة اكثر مما تتحمله صحته ، وقد وصلت أخبار البعثة قبل مجيئها الى المدن والقرى التى مررنا بها ، لذلك أحضر لنا سكان هذه المدن والقرى جميع المرضى لكى نعالجهم » •

وكان العمل شاقا بالنسبة لأودنى الذى مات بمرض السل tuber culosis ، والذى قاومه بشجاعة منقطعة النظير • وقد حزن كلابيرتون عليه حزنا عميقا بصفته قائدا وصديقا •

ولقد برهن فقدان هذا الصديق على أنه ضربه عنيفة a severe trial فى أى مكان وزمان ، فبالنسبة لكلابيرتون فإنه كان صديقه وزميله فى السفر ، ويقول كلابيرتون « لقد كان أودنى يعمل تحت وطأة المرض ، والآن تركنى وحيدا بين شعب غريب ، ولكننى سأواصل تقدمى من خلال قطر لم تطأ قدما أوربية حتى الآن ، ففقدان أودنى كان خسارة كبيرة ذات تأثير قاسى الأقصى درجة » •

ولم يستطع كلابيرتون العودة فى ذلك الوقت ولكنه اضطر فى نهاية يناير عام ١٨٢٤ م ، الى الذهاب الى مدينة كانو المسورة ، وعاصمة المملكة ، ودخل كلابيرتون المدينة فى شىء من الأبهة pomp ، وكان مرتديا زيه البحرى ومتوقعا أن يستقبل ببعض مظاهر الحفاوة ، ولكنه حزن لخيبة أمله فيما وصفت به هذه المدينة • ويقول كلابيرتون ما نصه : « توقعت أن أرى مدينة مزدهرة وعظيمة ، ولكنى وجدت العكس من ذلك ، فقد

بلغ طول المسافة المبنية بالمنازل ربع ميل تقريبا ، وفى أجزاء كثيرة من المدينة انتشرت فى داخلها مجموعات منفصلة من البرك الكبيرة للميـــاه الراكدة • ويضيف كلابيرتون فى قوله « ليتنى وفرت متاعبى التى بذلتها فى التزين وأضاف بحزن أو بمرارة ruefully ما نصه : « فلم أر أى شخص يلفت رأسه نحوى ، ولكن الجميع قصدوا مصالحهم الخاصة ، وسمحوا لى بالمرور دون أى ملاحظة » •

وقد أدرك كلابيرتون أن مدينة كانو كانت مكان التقاء القوافل العربية القادمة من طرابلس ، وكان سوق الرقيق يتوسطها أو يمثل البؤرة أو يمثل مركز هذه المدينة • وبعد أيام قلائل رأى كلابيرتون هذا السوق محتشدا بأفراد من جميع أجزاء افريقيا ؛ من منطقة البحر المتوسط ، ومن جبال القمر ، ومن سنار ، ومن بلاد الأشانتى ، وهنـــا أدرك كلابيرتون مغزى عدم اهتمام أهل البلد بدخوله الى البلدة فى زيه البحرى • وقد تفحص كلابيرتون سوق كانو بأهتمام مصحوب بالرعب • ولاحظ فى هذه المناسبة أن العبيد المعدين للشحن كان يعنى بهم عناية خاصة ، فكانوا يفحصون من جانب المشترين المنتظرين كما لو كانوا حيوانات • وكان من نتائج هذه التجارة أن تفرقت الأسر بلا رحمة ، فلم يكن فى اســـتطاعة أى أم أن تحتفظ بأطفالها ، كما لم يستطع أى رجل أن يبقى على زوجته • وعلى الرغم من أن العبيد كانوا يعاملون معاملة حسنة فى أغلب الأحيان ، الا أنهم كانوا يهلكون بسبب العبودية الأبدية •

ولقد لاحظ كلابيرتون أثناء مروره من خلال مملكتى كانو وسكتو ، اللتين كان حاكمهما يحكم أيضا امبراطورية الفولانى ، أن جميع مدنهم كانت خالية من السكان بل ومهجورة ، لأن السكان كانوا يؤسرون ويباعون فى أسواق الرقيق ، وكان كلابيرتون قد تقرب من الحاكم المسلم الـــذى استقبله بكل ود • ويقول بيرتون لو أوقف هؤلاء الحكام تجارة الرقيق ، ففى هذه الحالة يكون فى امكانهم الاتجار مع بريطانيا فى السلع المربحة ،

لأن بريطانيا كانت قد ألغت تجارة الرقيق ، وعلى هـذا فلا يمكن لملك بريطانيا توقيع معاهدة مع أى حاكم لايزال يتجر فى الرقيق .

ولقد وافق الحكام الأفارقة على أن ينظروا هذه المسألة ، بينما كان كلابيرتون قد عاد الى انجلترا كى يحيط الحكومة (البريطانية) علما بذلك . وكان كلابيرتون قد طلب من الحاكم الرئيسى ، السلطان بللو ، سلطان سكوتو ، أن يسمح له بالتقدم الى نهر النيجر ، الـذى كـان يوجد على مسافة مسيرة أيام قلائل الى جهة الغرب . وكان السـلطان بللو رجل نبيل وكان مرتديا قميصا فضفاضا أزرق اللون مصـنوع من القطن ، وكان النصف الأسفل من وجهه مغطى بشال يمثل عمامته المصنوعة من الشاش الأبيض ، كما كان هذا السلطان شخصية لطيفة ، ومع ذلك كان جافا فى تصرفه لذلك لم يسمح للرجل الأبيض بالمسير الى النهـر (نهـر النيجـر) .

ولهذا فقد اضطر كلابيرتون الى التخلى عن مهمته وأن يلحق بدنهام ، الذى كان ينتظره فى كوكا Kuka القريبة من بحيرة تشاد . وقد عبـر الرجلان اللذان لم يكونا أصدقاء أبدا الصحراء مرة ثانية فى أمان وعادا معا إلى انجلترا ، ووصلا الى لندن فى شهر يونيو عام ١٨٢٥ م ، أى بعد ثلاث سنوات ونصف من تاريخ رحيلهما . وعلى الرغم من فشـل البعثة فى تحقيق واجبها الأساسى ، ألا أنها اكتشفت بحيرة تشاد ، وقد دحضت امكانية وجود اتصال بين النيجر والبحيرة ، وقد شاهد الرجلان شعوبا غريبة وبلادا جديدة ، ومدن كبيرة وطرق تجارية قديمة . وعلى هـذا ، فلم يعد الجغرافيون فى حاجة الى الأعتماد Rely on على لبيو الأفريقى فى معرفتهم للجزء الغربى من داخل افريقيا ، لأنهم فى ذلك الوقت ، كانوا قـد حصلوا على كل المعلومات الجديدة والهامة .

وبعد ذلك ، شرع دنهام عـلى الفور فى اعـداد كتاب بعنـوان « سرد للأسفار والأستكشافات فى شمال نيجريا »

Narrative of travels and discoveries in Norther Nigeria.

وفى هذا الكتاب أدمج inserted دنهام وصف كلابيرتون لرحلته الى كانو وسكوتو ، وبذل جهده ليبرز دوره الخاص فى البعثة ، على حساب كل من كلابيرتون وأودنى وبعبارة المؤلف :

«but he did his best to play up his own part in the expedition at the expense of Clapperton and Oudney's».

ولم يذكر فى كتابه هذا كشف كل من كلابيرتون وأودنى لنهر الشارى • وفى الوقت الذى كان فيه دنهام مشغولا بإعداد كتابــه ، كان كلابيرتون يعانى من تدهــور فى صحته ، ومع ذلك فلم تنهار معنوياته فكل تفكيره كان منصبا فقط فى العودة الى افريقيا كى يكمل (مهمته) •

وقد اضطرب الأكسندر جوردون لينج من أن كلابيرتون أو بعض المستكشفين الآخرين قد هزموه فى الســباق الى تمبكتو ، فضاعف من مجهوداته • وعندما كان فى انجلترا فى أجازة حصــل على التصريح اللازم لكى يقود بعثة من طرابلس Tripoli الى تمبكتو ، ومن تمبكتو يتتبع مجرى نهر النيجر حتى منبعه • وقد أبحر لينج فى الخامس من شهر فبراير عام ١٨٢٥ م ، وكان برفقته رجل زنجى يعمل خادما لــه والذى كان معه فى سيراليون من قبل ، كما اصطحب معه أيضا أثنين من الأفارقة من صناع المراكب فى غرب أفريقيا ، وقد قصد الأسكندر جوردون لينج من ذلك أن يبحر هابطا مع النهر مثلما فعل بارك من قبل • وقد تعطل لينج فى طرابلس عدة شهور ، وكانت هذه المدة كافية بالنسبة له كى يقع فى حب مع إيماوورينجتون Emma Warrington ، الفتاة الجميلة إبنة القنصل العام البريطانى ، الذى كان هو نفسه الراعى الأكبر للكشوف الأفريقية • وقد تزوج الأثنان فى الرابع عشر من شهر يوليو من نفس العام ، وبعد يومين من الزواج رحل لينج مع قافلة صغيرة تتضمن مترجم فضلا عن خادم وعدد من صناع المراكب • وفى هذا الصدد يقول لينج : « سأعمل أكثر مما عمل غيرى من قبل ، وأضاف يقول فى تباه أننى سأوضح بنفسى أننى رجل المهام العبقرى » وبعبارته :

«I shall do more than has ever been done before, he boasted' and shall show myself to be what, I have ever considered myself, a man of enterprise and genius».

ومع أن لينج كان متعجرفا arrogant ، ومغرورا Conceited ، الا أنه كان يختلف عن أودنى المتواضع وعن كلابيرتون الذى اعتبره لينج منافسه ، كما أنه كان شجاعا وذو عزيمة قوية • وقد اضطر لينج الى مواصلة الكشف والتجول على أوسع نطاق على الرغم من اشتعال الحرب بين القبائل المحلية • وبعد شهرين من مغادرته طرابلس كان لا يزال أمامه مسافة يبلغ طولها أكثر من ١٠٠٠ ميل كى يحقق هدفه • وكـــان لينج فى تلك الأثناء وحيدا ومشتاقا الى زوجته • وقد علم من الخطابات العديدة التى وصلت من (زوجته) عندما كان فى القرية المجاورة لواحة غدامس Ghadames ، بأن كلابيرتون كان قد وصـــل الى نقطة على الســـاحل (ساحل غرب افريقيا) ، والذى لم يعرفه لينج هو أن الشاب الفرنسى الذى يدعى رينيه كاييه René Caillié قد انضم فى السباق الى تمبكتو •

وانطلق لينج مرة ثانية ، وعبر الصحراء الى الجنوب ، وبعد ذلك كان عليه أن يصل الى واحة صالح فوصلها فى ديسمبر عام ١٨٢٥ م ، وكان أول أوربى زار واحة صالح ، كما أنه كان يثير فضول الأهالى • ولقد دعى مرة ليظهر على سطح المنزل الذى يعيش فيه فوجد مائة امرأة تحملقن بثبات اليه • هذا فضلا عن أن لينج كان هدفا للشك • وقد ازدحمت واحة صالح بالتجار القادمين اليها من الشمال الغربى لأفريقيا ، وقد اذاع أحـــد هؤلاء التجار قصة مفادها أن لينج كان فى واقع الأمر منجوبارك • وكان هذا التاجر الذى أذاع هذه القصة قد جرح فى وجهه بطلق نارى من مركب بارك ، لهذا أصر على قصته ، على الرغم من أن رحلة بارك الأخيرة قـــد انتهت ، ومضى عليها أكثر من عشرين عاما ، فضلا عن ذلك فأن لينج كان وقتها شابا صغيرا •

واستنتج لينج أنه لا يزال يوجد أعداء لبارك فى هذه المنطقة ، لهذا

كان من الخطر بالنسبة له محاولة الإبحار هابطا مع النهر (أى متجها نحو مصب هذا النهر) وعلى أية حال ، فأن تمبكتو كانت تعنيه أكثر من النهر • وفى هذا الصدد كتب لينج الى والد زوجته يقول « أنا لم أتواجد فى تمبكتو بعد ، ولكننى أحاول الأقتراب منها ••• أنا سوف لا أصل الى العاصمة الكبيرة قبل منتصف أو نهاية شهر يناير ، ولكن هذا فى حد ذاته كان ذات أهمية ضئيلة ، وسوف أعمل كثيرا ، بحيث أجعل رحلتى أكثر أهمية ، وذلك بالتقدم بهدوء وبرزانة من خلال هذا القطر ، بدلا من القيام بسباق مع كلابيرتون الذى يبدو أن هدفه فقط هو حرمانى من الكشف ••• » وعند هذه النقطة وصل كلابيرتون الى مملكة اليوروبا ، التى كان يقطنها شعب ودود وعطوف • وبينما كان كلابيرتون فى أقصى الجنوب من تمبكتو ، كـــان لينج فى أقصى الشـــمال منها (تمبكتو) • وكـــان لينج يحـــاول الوصول الى كانو وسكوتو ، ولم يحاول الوصول الى تمبكتو •

وعندما غادر لينج واحة صالح مع قافلة كبيرة من التجار ، كان يأمل فى أن تكون متاعب الرحلة قد انتهت to be over ، وفى هذه الفترة كان عليه أن يعبر الجزء الأوسط من الصحراء ، فكانت هذه المنطقة خالية من الواحات الكبيرة وتسكنها قبيلة الطوارق البدوية الشرسة • وفى أحـــد الليالى ، وبينما كان لينج نائما هاجم الطوارق المعسكر ، فقد جرح لينج فى البداية بواسطة طلق نارى ، وعندما قفز ليدافع عن نفسه ، ضرب ضربة مريعة بالسيف ، كما طعن thrust طعنات فى رأسه ورقبته وفى ذراعيه ويديه • وكان التجار قد هربوا عند أول علامة على بداية المتاعب ، وكان قد قتل كل من مترجم لينج وواحد من صانعى المراكب ، بينما جـــرح بجروح بسيطة كل من صانعى المراكب الآخر ، وقد حمل لينج والخادم على ظهر الجمل وهو ميت أكثر منه حى ، كى يسير مسافة تزيد على ٤٠٠ ميل على طول طريق الصحراء ، حتى وصل ومن معه الى مركز قيادة صديقه الشيخ سيدى محمد المختار الذى سمح للينج أن يمكث فى قريته حتى يشفى من جراحه • وفى تلك الأثناء ، أجتاح مرض الحمى الوبائى قرية

هذا الشيخ ، فمات من بين سكانها الشيخ نفسه ومترجم لينج ، بينما ظل الرجل الذى يقوم ببناء المراكب حيا يرزق والذى كان مرافقا للينج • وقد أصيب لينج نفسه بمرض الحمى ولكنه شفى منه ، وبعد أن تأخر مدة طويلة ، تمكن أثنائها من استمالة الشيخ الجديد الذى خشى علــى سلامة لينج من أن يدعه يواصل السفر • وقبل أن يغادر لينج منطقـــة هذا الشيخ الجديد فى أول أغسطس من عام ١٨٢٦ م ، كتب لينج الى والد زوجته خطابا ، أعطاه الى الجمال الذى كان عائدا الى طرابلس (طرابلس الغرب) وقد جاء بهذا الخطاب ما نصه :

« أنا الآن العضو الوحيد من أفراد البعثة الباقى على قيد الحياة ، وموقفى مرض للغاية ، وقد حصلت الآن عى تصريح للسفر الى تمبكتو ، ولكن ذلك على حساب كل الذى حققته ، لأنه لم يكن أمامى خيار غير ذلك ، وكنت قد قبلت ذلك Consented ، لأننى كنت مدركا تماما ، أننى اذا لم أقم بزيارتها فأن العالم سيبقى يجهل هذا المكان ، وأننى لا أدعى تحقيق المجد الزائف حينما أقول أن هذه المدينة لن يزورها أبدا رجل مسيحى بعدى وقد شفيت بسرعة ، ولكننى عرضة الآن الى آلام مرعبة فى رأسى وهذه الآلام نابعة من قسوة جرحى وأرسل تحياتى وحبى الى عزيزتى ايما التى أدعو لها أن تباركها السماء » •

وقد أقرض هذا الشيخ الشاب لينج حرسا مسلحا ، ففى الثالث عشر من شهر أغسطس ، وصل لينج منتصرا الى تمبكتو ، بعد أن قطع مسافة طولها ٢٦٥٠ ميلا ، ويعتبر الأوربى الأول بل والرحالة الأول ، الذى وصل فى العصور الحديثة الى هذه المدينة بمجهوداته الخاصة •

* هناك احتمال قوى يفيد أن بحارا أمريكيا يدعى بنجامين روز Benjamin Rose (الذى عرف أيضــا باســم روبرت آدمز Robert Adams) كانت سفينته قد ارتطمت بساحل غرب أفريقيا عام ١٨١٠ م ، وعندئذ أخذ الى تمبكتو كعبد ، وفيما بعد أطلق سراحه ، وأخــذ الى مراكش ، لكى يفتدى بمعرفة القنصل البريطانى ، ويرسل الى لندن . وهناك أخبر بنجامين روز بانكس الذى قابله بأن تمبكتو كانت مكانا بائسا . وتختلف الآراء ، فيما اذا كان روز قد وصل بالفعل الى تمبكتو أم أن ذلك مجرد اختلاق .

وكانت مدينة تمبكتو هذه بعيدة كل البعد عن مدينة أحــلام لينج ، فهى مدينة مملة وكئيبة باستثناء مساجدها ، وكانت منازلها مبنية من الطين ، كما لم يوجد لهذه المنازل أسوار لحمايتها ، أو لم يكن لها (أى لهــذه المنازل) دفاعات طبيعية • وكان سكانها من شعب الصنغى الذى يقطن فى منطقة النيجر ، وكان هذا الشعب يتعرض للسلب من جــانب قبيلة الطوارق التى تقطن الصحراء ، وكان لينج قد خاب أمله لذلك نجده لم يسمح لنفسه بمواصلة هذا الفشل ، فقد أمضى بالمدينة خمسة أسابيع ، ومن الواضح إنه قضاها فى التجول فى انحائها ، ولما كان خائفا من خطر تعرضه للهجوم من جانب الطوارق ، فأنه ذهب ليلا الى كابرا Kabra ، ميناء تمبكتو الواقعة على نهر النيجر ، وعلى بعد مسافة خمسة أميال منه •

وهناك معرفة ضئيلة عن كيفية قضاء لينج بقية الوقت ، فقد وصل خطاب واحد فقط منه الى القنصل العام فى طرابلس جاء فيه ما يلى :

« من المحتمل أن تخبرك هذه الرسالة المختصرة جدا ، بما أريد أن أخبرك به ، هذا فضلا عن اخبار عزيزتى ايما ، وعن وصولى ورحيلى من العاصمة الكبيرة لأفريقيا الوسطى ، فلم يعد لدى وقت كى أعطيك تقريرى عن تمبكتو ، ولكننى سأذكر لك باختصار شديد أنها التقت تماما مع كل توقعاتى بأستثناء حجمها (الذى لا يزيد فى الأتساع عن أربعة أميال فى المحيط) •

وفى هذا الوقت تخلى لينج عن أمله فى تتبع نهــر النيجــر بحيث يصعد معه حتى يصل الى منبعــه • لذا قرر الا يعــود من الطــريق الصحراوى الوعر ، ولكن كان عليه محاولة الوصول الى سيراليون والى ساحل غرب افريقيا ، لهذا التحق بقافلة هذا الشيخ الذى قدم لــه الحماية فى جزء من الطريق ، وبعد أن غادر لينج المدينة ، وقطع مسافة ٣٠ كيلو متر ، هاجم الشيخ وعبيده المسيحى الأوربى (لينج) وقتلوه فى منطقة منعزلة تسمى سهاب Sahab •

وفى تلك الأثناء ، كان لينج فى لحظة انتظار (أى لحظة مغادرته بلدة الشيخ الذى آواه) بحيث بدت عليه الشجاعة والجســـارة • وكان يرغب فى كتابة كتاب ، ولكن مذكراته لم تعينه على ذلك ، كما أن تقريره كان قد اختفى ، وهكذا ، فقد ترك لينج من خلفه معلومات قليلة جدا ، عن مساحة شاسعة من افريقيا المجهولة •

وفى الوقت الذى قتل فيه لينج ، كان كلابيرتون يتعقبه فى افريقيا منذ أكثر من عام ، وقد حمل كلابيرتون معه أوامر من الحكومة البريطانية تخبره بتأسيس علاقات صداقة بين بريطانيا والسلطان بللو ، سلطان سكوتو ، وأخذ معه أيضا الهدايا المناسبة وخطابا من الملك جورج الرابع (ملك بريطانيا فى ذلك الوقت) الى السلطان الأفريقى • وقد أحيـــط كلابيرتون علما بأن يضغط على السلطان ويتضح ذلك من الخطاب التالى : « أنه من أهم المزايا التى سيحققها السلطان أن يضع حدا نهائيا لبيع العبيد الى التجار المسيحيين (الأوربيين) وأن يعمل أيضا على منع القوى الأفريقية الأخرى من تسيير قوافل الرقيق التابعة لها من خلال أملاكه (أى أملاك السلطان بللو) وأن يخبره بالرغبة الملحة فى الإلغاء الكلى لهذه التجارة غير الإنسانية وغير الطبيعية ، وبمجرد فتح الطريق بين راكا Rakah الواقعة على النيجر وبين ساحل البحر (ساحل المحيط الأطلسى) ، فسوف يتسلم ما يرغبه من السلع التجارية وبأسعار أرخص عن الأسعار التى يشترى بها السلع التجارية التى تأتى اليه من خلال الطريق الطويل الذى يعبر الصحراء » •

وقد أخبر كلابيرتون بأن يجمع معلومات عن كافة أعمال تجـــارة الرقيق ، ويتضح ذلك من الخطاب التالى : « عليك أن تتبع مجرى ذلك النهر الذى عرف فى الماضى بأسم كابرا Kabra (ميناء تمبكتو) وعرف فى العصور الحديثة بأسم النيجر Niger فإذا كان هذا النهر مخالفا للأدلة Testimonies القديمة والحديثة ، فينبغى أن يوجد له انحناءة فى مجراه من جهة الجنوب حتى يصب هذا النهر مياهه بعد ذلك عند انحناءة البنين ، بدلا من اســـتمراره فى الجريان الى جهة الشرق ، ولو وجـــد

أنه يصلح للملاحة خلال مروره من مقاطعات السلطان ، أو وجد أى جزء منه يصلح للملاحة فمن المحتمل أن يؤكد الكشف الأهمية القصوى لتسهيل أهداف البعثة الحالية ، وفى المستقبل سيجعلنا ذلك نتعامل مع ذلك الحاكم » •

وأخيرا كان على كلابيرتون أن يكتشف بصفة شخصية منابع الأنهار التى تتدفق مياهها فى البنين والبيافرا ثم تصب فى خليج غينيا ، كما كان عليه أن يثبت وبطريقة عملية أنه لم يسمع من قبل بأن الميجور لينج قد أخبره بأنه أنجز ذلك الهدف ، كما كان على كلابيرتون أيضا أن يزور تمبكتو •

وكان بارك قد أعطى دليلا واضحا عن انحناءة النيجر التى توجد فى الجنوب ، ومع ذلك فأن تقريره لم يبرهن على ذلك • وقد اعتقد كلابيرتون أن نهر النيجر يصب مياهه فى خليج البنين ، كما لم يكن لهذا النهر اتصال ببحيرة تشاد ، ولكن الآخرين وبصفة خاصة السير جون بارو Sir John Barrow كان مقتنعا بأن الرحالة سيبرهنون على أن نهر النيجر هو نهر النيل •

وفى نوفمبر ، عام ١٨٢٥ م ، قام كلابيرتون على رأس بعثة من باداجرى Badagri الواقعة على خليج البنين (لمقابلة) السلطان بللو سلطان سوكتو ، وكان برفقته أربعة أشخاص من الأوربيين ، وقد تناقصوا فى خلال أسابيع قليلة الى واحد فقط وكان هذا الشخص هو الخادم الشخصى لكلابيرتون ، فكان شابا واسع الحيلة a resourceful young Cornish man يدعى ريتشارد ليمون لاندر Richard Lemon Lander وقد ضمت هذه البعثة أيضا باسكو Pascoe ، وهو رجل مسن من بلاد الهوسا ، وكان باسكو هذا يثير بعض المضايقات أثناء الرحلة ، ومع ذلك فقد ثبت أنه كان يقدم أعظم مساعدة تطلب منه فى أوقات الشدة أو فى الأوقات العصيبة •

وأثناء مرور بعثة كلابيرتون من خلال أراضى اليوروبا احتفى بهم

فى كل مكان بالغناء والرقص • وفى مدينة الواوا Wawa التى لم تبعد كثيرا عن مدينة بوســـا Bussa الواقعة عـــلى النيجر ، أقتفى أثر البعثـــة أرملـــة ثرية تـــدعى زومـــا Zuma ، فهى امـــرأة باشوشة وبدينة ، وقد كتب لاندر يقول : « تشبه زوما بالضبط برميل المياه » ومع ذلك فأن زوما هذه كانت كريمة للغاية ، فقد قدمت الأطعمة لأفراد البعثة ، فضلا عن أنها شملتهم بحبها ، وفى البداية حـــاولت أن تستميل لاندر ، الذى كان حديث عهد بفنون الغزل ، لهذا فقد أخذ المسألة على أنها فكاهة ، بحيث لم يبذل أى جهد لأبطال هذا المزح ، ولما تبين له أن زوما تأخذ المسألة بطريقة جدية ، رفضها رفضا قاطعا • لذلك فقد إتجهت زوما بعواطفها نحو كلابيرتون الذى خلص نفسه من هذه العواطف عن طريق مغادرته للمدينة على وجه السرعة • وبعبارة المؤلف :

«Zoma who was extremely generous with presents of food and offers of love, first tried her arts on lander, who was but a novice in the art of courtship, and imagining it to be altogether in jest, took little pains to spoil the fun by shrinking from it., when he realized that she was in earnest the young mangave her' a flat refusal; where upon she transferred her affections to clappertion, who extricated himself by leaving the town in a hurry.

وفى تلك الأثناء ، فأن النحس قد أصاب أفراد البعثة وبخاصة فى المدة الباقية من الرحلة • فكان كلابيرتون قلقا لأنه أراد أن يعرف حقيقة موت بارك ، فى كل من بلدة واوا Wawa وبوسا Bussa ، حيث غرق بارك ، ووجد كلابيرتون الناس فى هاتين البلدتين غير راغبين فى التحدث فى هذا الموضوع • وفى هذا الوقت وصل أفراد البعثة الى مدينة بوسا التى يزيد عدد سكانها عن ١٠٫٠٠٠ نسمة ، ومرض كل من كلابيرتون ولاندر بالدوسنتاريا ، وقد شفى كلابيرتون أولا ، وقام بحمل خادمه وعبر به المجارى المائية التى لم يستطع هذا الخادم أن يعبرها بسبب ضعفه وعدم مقدرته على السباحة • وبعد أن غادر أفراد البعثة بوسا عبروا نهر النيجر بواسطة معدية كومى Komie Ferry وسافروا جنوبا الى مسافة كبيرة ، واتجهوا بعد ذلك الى الشمال الشرقى متوجهين نحو مملكتى الزاريا Zaria

وكانــو Kano وقد سلك أفراد البعثة طريقا جيدا ، وفى الوقت نفسه كان لاندر Lander لايزال مريضا ، وفى كانو انقسمت البعثة الى قسمين ، ضم القسم الأول لاندر وباسكو اللذان مكثا فى الخلف ومعهما أمتعة البعثة ، وأما القسم الثانى فضم كلابيرتون الذى أسرع بمفرده الى سكوتو • وفى النهاية قابل السلطان مرة ثانية فوجده متورطا فى حرب مع حاكم بورنو ، وكان هذا السلطان بعيدا أيضا ومشغولا فى خططه العسكرية بحيث لا يمكنه أن يعطى أية معلومات عن العلاقات التجارية التى ستنشأ مع بريطانيا •

وقد عقد كلابيرتون العزم على تنفيذ تعليمات هذا السلطان ، وأدى فشل البعثة ، الى تحطيم روح كلابيرتون المعنوية • وأما لاندر فقد بدأ طريقه من كانو ، ووصل الى المكان الذى يتواجد فيه كلابيرتون ، فوجده مريضا وبائسا وزاد ضعفه يوما بعد يوم ، بسبب حرارة الشمس الشديدة •

وفى يوم رأس السنة ، من عام ١٨٢٦ ، كتب كلابيرتون فى تقريره ما نصه « لقد أعطيت خادمى ريتشارد جنيه انجليزى One Sovereign من الستة جنيهات التى تبقت معى ، وكان هذا الجنيه بمثابة هدية رأس السنة ، لأن ريتشارد كان يستحق هذا المبلغ ، ولم ير فى أية مرة من المرات أنه فى حاجة الى شجاعة رجل انجليزى ، وبعد ثلاثة أسابيع علم كلابيرتون بهجوم الطوارق على لينج ، ولكنه لم يعرف أن لينج قد مات من عدة شــهور مضــت •

وفى هذا الوقت ، كان كلابيرتون ضعيفا ، حيث كان يرقد طوال اليوم على السرير الذى أعده له لاندر والذى وضعه فى الظل خــارج الكوخ ، وبعد خمسة أيام متتالية كتب لاندر ، يقول « لقد كنت أحمل (كلابيرتون) على أذرعى من الكوخ الى السرير ، ثم أرجعه مرة ثانية عند الغروب » • وبعــد ذلك زاد عليه المرض وأصبح غير قادر عــلى الحركة ، وفى خلال الأسابيع الأخيرة من حياته عرف كلابيرتون أنه سوف يموت وكان يمزقه شعور بالفشل والقلق على مصير لاندر عندما يموت

هو نفســـه (كلابيرتون) • وعمل لانـــدر كل شيء حتى النهاية لكى يتمكن من تخفيف معاناة سيده ، فقام بتمريضه وإطعامه كما كان يمزح له لعدة ساعات حتى يخفف عنه شدة المرض وحرارة الحمى ، كما كان يقرأ له يوميا فى الإنجيل •

وعندما تحقق كلابيرتون من أن نهايته أصبحت وشيكة ، نادى على الشاب (لاندر) وقال له ما نصه « ريتشارد بعد وقت قريب سوف لا يكون لى وجود ، فأنا أشعر بالموت ، وغالبا ما هزنى الحزن » وقال ريتشارد « الله يرعى سيدى العزيز ، الذى سيعيش سنوات عديـــدة بعد ذلك » فقال كلابيرتون « لا تتأثر كثيرا يابنى العزيز فأنا أتوسل اليك ، لأنها ارادة الله ، وأنت لا تستطيع مساعدتى » •

وقد أخبر كلابيرتون لاندر أن يطلب من السلطان بللو Bello قرضا ليشترى به جمالا وطعاما ، وبعد ذلك كان عليه أن يلتحق بأية قافلة تتجه الى فزان ، فاذا رفض السلطان طلبه فعليه أن يرســل خطابا الى القنصل (البريطانى) العام فى طرابلس ، والذى سوف يرسل اليه المساعدة التى يحتاج اليها ، وأنه سوف يتأكد بأن لاندر سيعود بأمان الى انجلترا •

وبعد ثلاثة أيام ، أى فى يوم ١٣ من شهر ابريل عام ١٨٢٧ ، مات كلابيرتون بين أيدى لاندر • وبوقار شديد نكس لاندر العلم البريطانى The Union Jack ، ويقول لاندر ما نصه « عندئذ كشفت رأسى وفتحت الكتاب المقدس (الإنجيل) والدموع تنهمر من أعينى ، ومع ذلك بدأت أقرأ الترانيم المؤثرة الخاصة بالجنازة ، على جثمان سيدى المحترم والتى كانت الكنيسة البريطانية تقوم بها ، وفى نفس اللحظة كان العلم البريطانى يرفرف ببطء وبحزن على هذا الجثمان » •

ولم يكن يبلغ كلابيرتون من العمر أربعين عاما عند موته ولكن على الرغم من ذلك ، وبدون شك ، فأنه كان من أعظم الأشخاص الذين ساهموا فى الكشوف الأفريقية لسنوات عدة ، ومع ذلك فأن انجازاته لم تعط حقها • وكان دنهام مسئولا الى حد ما عن هذا الأهمال ، وكذلك السير جون بارو ،

الذى أصر على اعتقاده بأن النيجر هو نهر النيل ، رغم كل الدلائل التى تشير الى عكس ذلك •

وكان هناك أمر آخر يدعم صدق كلابيرتون هو أنه ترك خادمه لاندر يبذل قصارى جهده فى تحقيق ما فشل هو فى تحقيقه ، وكان لاندر هذا يتمتع بصفات ممتازة قوت من عزيمته التى لولاها لكان اليأس قد أصابه • وقد فقد لاندر سيده ، الذى قال فى حقه أنه كان بمثابة والده (أى والد لاندر) • وفى تلك الأثناء كان لاندر مريضا ومفلسا ، كما كان هو الرجل الأبيض الوحيد الذى بقى فى هذه المنطقة الشاسعة والمجهولة فى معظمها ، وكان صديقه الوحيد فى هذا الوقت هو باسكو ، أحد شيوخ قبائل الهوسا الذى طلب لاندر منه بكل شجاعة أن يمكث معه بدلا من أن يظل فى وطنه •

وكان لاندر أيضا واحدا من الأشخاص البارزين فى مجال الكشوف الأفريقية ، فكان قد ولد فى عام ١٨٠٤ م ، وكان الرابع من ستة أطفال لرجل يملك فندق فى كورنش Cornish ، وكان لاندر حفيدا لمصارع مشهور ، كما كان قصير الطول ، وذو شكل مربع ، وقوى مثل جده ، وكان يتميز بعقل ناضج ومتفتح ، وإنه شخصية ساحرة وجادة، ورغم أنه كان خادما منذ الحادية عشر من عمره ، الا أنه كان دائما يميل الى السفر • وقد رفض Turned down وظيفة بأجر كبير وفضل السفر الى افريقيا مع كلابيرتون •

والآن لن يتخلى عن الذهاب (الى غرب أفريقيا) مع أن كلابيرتون كان قد نصحه بالذهاب الى الشمال بدلا من المخاطرة فى الطريق الى الساحل الغربى • وأنه بعيدا جدا عن أن ينغمس فى توقعات حل أكبر مشكلة جغرافية موجودة ، والتى حيرت الأوربيين لمدة طويلة الا وهى التأكد من أن نهر النيجر يتصل بالفعل بالبحر • لذلك عاد لاندر الى كانو، وعندئذ توجه صوب الجنوب فى اتجاه فوندا Fundah الواقعة فى بلاد

النوب Nupe ، وهناك سمع الناس يتحدثون عن مدينة تقع على نهر النيجر *

وبعد أثنى عشر يوما من بدء الرحلة التى قام بها لاندر من مدينة فوندا ، هاجمته عصابة من المسلحين التابعين لأمير الزاريا Zaria وحاولت اعتقاله • ففى الظاهر كان على هذه المجموعة أن تحميه من حكام الفوندا ، الذين كانوا أعداء لسلطان مملكة سكوتو ولما تحقق لاندر من سوء نية هؤلاء المسلحين اضطر للتخلى عن بحثه ، واتخذ طريقه عائدا الى باداجرى ، وبصحبته باسكو الذى لايزال معه ، وكان على لاندر أن ينتظر سفينة تقله الى انجلترا •

وقد استغرقت هذه الرحلة سنتين ، منذ أن رسا لاندر وكلابيرتون فى باداجرى • وقد وجد لاندر هذا المكان مكتظا بتجار الرقيق المولدين (المهجنين) Half - Caste Slave traders الذين قدموا من البرازيل ، وكان هؤلاء التجار البرازيليين ، أعداء للبريطانيين ، وكانوا يسعون لتحطيم تجارة الرقيق الدولية • وأعتقد هؤلاء التجار البرازيليين أن لاندر من المحتمل أن يكون جاسوسا بريطانيا a British Spy ، لذا أقنعوا بسهولة أحد الشيوخ المحليين الذى كان يعيش أيضا على تجارة الرقيق بأن هذا الشاب (لاندر) يهدده فى رزقه •

وكان هذا الشيخ المحلى ، هو الذى يحض على التضحية البشرية ، ويشجع الأعمال العنيفة الأخرى ، لذا قرر أن يبعد هذا الدخيل بعيدا ، وأمر أن يظهر لاندر أمام الكبار ، ويتضح ذلك من النص التالى :

« أحتشد هؤلاء الكبار عند كوخ ضخم ••• وفى طريقى الى هذا الحشد تجمع مابين ٥٠٠ ، ٦٠٠ شخص ، بحيث أننى استطعت التقدم بصعوبة • وكان هناك عدد كبير منهم مسلح بالبلط Hatchets ، والأقواس

---

* فى الواقع أن فوندا هذه لم تقع على نهر النيجر ، ولكن تقع على رافده البنــوى .

والبسهام Arrows ، والحراب Spears ، وانتظروا خارج الكوخ bows ،
حتى خرجت • وحال دخولى الى الكوخ قدم الى هؤلاء الرجال وعاء ،
كان مملوءا ••• الى الربع بسائل شبيه بالماء ، وأمرنى هذا الرجل أن
أشرب هذا السائل ، قائلا « اذا كنت قد قدمت الى هنا لتقوم بأفعـــال
سيئة فأن هذا الشراب سيقتلك ، وأما اذا كنت لم تأت لفعل السوء ، فأن
هذا الشراب لا يؤذيك بسوء ، ولم يوجد أمامى حيلة أو وسيلة resource
تخلصنى من هذا الموقف ، فعلى الفور وبدون تردد شربت كل محتويات
الوعاء وجريت بسرعة الى خارج الكوخ من خلال الرجال المسلحين الى مكان
أمتعتى ، وهناك تناولت دواءا قويا وكمية من المياه الدافئة ، فعلى الفور
طرد هذا الدواء الذى تناولته كل محتويات معدتى ، ولم أشعر بأى مؤثرات
مؤلمة من هذا الطقس الدينى • وكان هذا الشراب من المزاق ، بل ومزاقه
غير مقبول ، وقد علمت أن هذا المشروب ثبت بصفة دائمة إنه قاتل » •

واندهش الرئيس المحلى بسبب بقاء لاندر حيا ، واعتقد فقط انه
من المحتمل أن يكون لاندر تحت حماية مقدسة ، وينبغى على لاندر نفسه
أن يزود هذا الرئيس بعناية أرضية • ولذلك حذر الشيخ لاندر بأن تجار
الرقيق ينتظرونه فى خارج هذا المكان ليقتلوه ، ونصحه بالا يخرج من
كوخه بدون سلاح • وفى خلال الشهرين التاليين انتاب لاندر خوفا على
حياته ، ولكنه انقذ بسبب وصول سفينة بريطانية أقلته عائدا الى انجلترا •
وقد صحب باسكو المخلص لاندر فى طريق العودة الى انجلترا ولكنــه
بناء على رغبته عاد الى وطنه افريقيا •

ولقد وصـــل لاندر الى انجلترا فى شــــهر ابريل عـــام ١٨٢٨ ،
أى بعد عام من وفاة كلابيرتون • وفى هذا الوقت كان الشاب الفرنسى
الجسور الذى يدعى رينيه كاييه R. Caillié والذى كان يكبر لاندر
بخمس سنوات ، قد حقق طموحه • وكان رينيه هذا إبنا لأسرة فقيرة ،
فقد تعلم فى مدرسة خيرية Acharity School ، وبعد ذلك تدرب على
الأعمال التجارية ، ولكن بعد ذلك كره (العمل التجارى) وشـــغل وقته

بالقراءة والتأمل • وقد كتب عن قصة روبنسون كروزو Robinson Crusoe في مذكراته يقول :

« لقد الهبت هذه القصة مشاعرى القومية ، وكنت عديم الصبر ، فكنت تواقا للقيام بمغامرات مثله (روبنسون كروزو) ، وكنت قد شعرت من قبل بطموح بحيث اجعل من نفسى شخصية بارزة ، وذلك بقيامى ببعض الأستكشافات الهامة لأن خريطة افريقيا لم أر عليها أشياء محددة بل بلاد وأفكار تحدها الصحراء ، أو حتى بدون حدود ، فقد أخذت هذا مأخذ الجد أكثر من أى شىء آخر » •

وفى سن السادسة عشر ، ترك رينيه تجارته ، وذهب الى البحر فى سفينة كانت متجهة الى السنغال • وهنـــاك علم بأن الكابتن جــــرى Captain Gray كان يتتبع طريق بارك حيث صعد مع نهر جامبيا • عندئذ شرع رينيه كابيه فى السير على الأقدام كى يلحق ببعثة الكابتن جرى ووصل كابيه الى نهر السنغال ، ووجد أن جرى غير قادر على الوصول الى دوتشارد Dochard ، عندئذ كان على بعثة جرى أن تتخلى عن مهمتها (وعاد رينيه كابيه بالتالى الى فرنسا) •

ولكن فى عام ١٨٢٤ عاد رينيه كابيه من فرنسا الى السنغال مع أنه كان فاقد الأمل • ولكن على الرغم من ذلك وصل السنغال وهناك زوده الحاكم الفرنسى لهذا الأقليم بالسلع والمؤن ومكنه هذا الحاكم أيضا من البقاء فى السنغال وقتا كافيا ليبدأ فى تعلم اللغة العربية ، كما كان عليه فى هذه الفترة أيضا أن يدرس الأحتفالات الدينية للمراكشيين ، وبعد ذلك سوف يتمكن رينيه كابيه من تهداة Lull غيرتهم وشكوكهم • وهكذا تمكن كابيه بسهولة من النفاذ الى مسافات بعيدة ، فى داخل افريقيا •

وكان لدى كابيه فكرة جريئة تتمثل فى أنه يسافر بمفرده ، وهو متنكر فى زى رجل ورع مسلم ، وعلى هذا الأساس ، فقد مكث فى السنغال ثلاث سنوات كى يتمكن من اتقان هذه الخطة • وكانت القصة التى دبرها

كابيه ، أو التى إختلقها تتمثل فى أنه كان قد ولد فى مصر من أبوين عربيين ، وأثناء الغزو النابليونى لمصر ، أخذه البحارة الفرنسيون وهو طفل الى فرنسا ، وهناك عمل كابيه خادما فى فرنسا عندما كـان طفلا ، ومع ذلك فأن سيده أحضره الى السنغال ومنحه حريته ، والآن يرغب فى أن يصبح مسلما ويتخذ طريق العودة الى مصر ، كى يبحث عن أسرته .

وقد أتقن كابيه التنكر ، وذلك بأرتدائه الزى العربى ، فضلا عن أنه أجاد العربية ، فعرف محتويات القرآن ، وألم بعادات المسـلمين . وفى عام ١٨٢٧ م التحق رينيه كابيه بقافلة كانت متجهة الى تمبكتو ، وقد صدم رينيه للوهلة الأولى ، وبخاصة عندما رأى مقبرة كل من الميجور بيدى Major Peddie ومقابر الأعضاء الآخرين الذين كانوا ضمن أعضاء بعثة النيجر المشئومة .

وعلى الرغم من بشرته البيضاء وأنفه المستقيم الذى جعله أكثر وضوحا الى الفولانيين الذين يتميزون بالبشرة النحاسية ، الا أنه تمكن من تهدئة شكوكهم وذلك عن طريق ورعه الواضح . ومع ذلك كان عليه أن يأخذ حذره ، بحيث لا يراه أحد أبدا عندما يكتب تقريره ، وهكذا ، وبمكر كان كابيه يضع أوراق بيضاء بين صفحات القرآن لكى يستخدمها فى كتابة مذكراتــه .

وقبل أن يصل كابيه الى الشاطىء الأيسر لنهر النيجر ، أصابه المرض والأنهاك بل وكان يعانى من تقرح فى قدمه ، لم يلتئم أبدا ، عندئذ كان عليه أن يدع القافلة تواصل المسير بدونه ، وظل لمدة شهور عديدة غير قادر على الحركة ، لأن الإسقربوط كان قد هاجم عظامه ، مثل منجوبارك من قبله ، فهو مدان بحياته الى شفقة سيدة عجوز كانت تقدم له الطعام ، بل وتقوم بتمريضه ، حتى أصبح قادرا على مواصلة رحلته .

واستغل رينيه فترة النقاهة فى تجهيز أفضل الوسائل التى تمكنه

من التقدم الى النيجر بحيث أنه كان يأمل فى الوصول الى تمبكتو المدينة الغامضة والتى كانت هدفاً رحلته •

وبعد السير لمدة شهرين كان كايبيه لا يزال ضعيفا وخاضعا لنوبات متكررة للمرض ، ثم وصل بعد ذلك الى أحد فروع نهر النيجر ، وعبر النهر بمعدية الى جزيرة جين Jenne • وهناك رحب به بعض الأثرياء الذين خدعوا Hoodwinked بتنكره وعملوا كل ما فى استطاعتهم كى يساعدوه فى طريقه • وفى نهاية مارس عـام ١٨٢٨ م ، ركب رينيه كايبيه مـركب عبيد كانت متجهة الى تمبكتو • وقد تبعت هـذه المركب مجرى النهر (نهر النيجر) لمدة ثلاثة أسابيع ، وفى صباح التاسع عشر من شهر ابريل من نفس العام ، القى كايبيه نظرته الأولى على الكابرا Kabra ، وهى ميناء تمبكتو • وقد استغرقت هذه الرحلة سنة بالضبط ، منذ التحاق كايبيه بالقافلة التى بدأت المسير من السنغال • وفى خلال هذه الفترة تمكن رينيه كايبيه من قطع مسافة طولها ١٥٠٠ ميل سار منها ١٠٠٠ ميل على الأقدام •

وعندئذ اتجه كايبيه الى تمبكتو فى اشتياق لرؤية عجائبها ، وكانت الحقيقة خيبة أمل محزنة • فبدت المدينة وكأنها لم تكن شيئا يذكر ، بل كانت عبارة عن كتل من المنازل الرديئة ، المبنية من الطين ، ولم ير كايبيه أى شىء فى جميع الاتجاهات ، ولكنه رأى سهولا للرمال المتحركة ذات اللون الأبيض ، الذى يميل الى الأصفرار ، وبينما هو فى حالته هذه فقد ملىء بالاعجاب لهؤلاء الرجال الذين شيدوا هذه المدينة فى الصحراء ، وانتهت خيبة الأمل الذى كان قد أصيب بها أولا •

وقد حمى كايبيه نفسه بسبب تنكره هذا ، فقد عومل على أنه ضيف ممتاز ، وسمح له بالذهاب الى أى مكان يرغب فى زيارته ، فتجول فى شوارع المدينة ، وزار المساجد وسـوق الرقيق • فلم تكن المدينة كبيرة ، ولا مزدحمة بالسكان ، كما كان يتوقع ، وكتب كايبيه يقول ما نصه :

« لم تكن المدينة كبيرة ، بحيث تتناسب مع شهرتها فلم يوجد هناك ،

مثلما يوجد فى جين ، حيث يلتقى الغرباء من كل أجزاء السودان ، وذكر رينيه كاييه أنه رأى فى شوارع تمبكتو الجمال فقط ، التى وصلت من كابرا Kabra وهى محملة بالسلع التجارية التى أحضرها الأسطول المتجمع Flotilla ، ورأى أيضا السكان يجلسون على الحصر بحيث يتبادلون الحديث ، كما رأى المراكشيين وهم نائمين فى الظل أمام أبواب منازلهم . وباختصار فقد بدأ كل شىء له مملا » .

واعتقد رينيه كاييه أن عدد سكان تمبكتو يتراوح فيما بين ١٠٫٠٠٠ ، ٢٠٫٠٠٠ نسمة . ولازال سكان تمبكتو ينتابهم الخوف من قبيلة الطوارق المفترسة Rapacious Tuareg . وقد علم رينيه كاييه عن موت لينج عندما كان فى مدينة جين ، ولم يتمكن كاييه من أن يتخلص من القلق على مصيره ، وعلى وجه الخصوص عندما استأجر لنفسه المنزل القريب من المنزل الذى كان يسكنه لينج ، ويتضح ذلك من قوله « فلقد كنت على دراية تامة بما يحيط بى من مخاطر ولم أستطع أن أبعد عن إحساسى انه يمكن أن يكتشف أمرى ، وفى هذه الحالة فأن مصيرى سوف يكون أقسى من الموت أو العبودية » .

ومن حسن الحظ فأن تنكر كاييه كان تنكرا جيدا ، حتى أنه تمكن من أن يخدع شيخ تمبكتو الذى أستقبله فى قاعة أستقبال ، وسأله عن كيفية معاملة المسيحيين له فى فرنسا infidel Christians ، وبعد أن قضى كاييه أربعة عشرة يوما فى مدينة تمبكتو غادرها دون أن يكتشف أمره حتى هذه اللحظة ، والتحق بقافلة متجهة bound الى مراكش . واعتقد أنه اذا عاد بمفرده الى الساحل الغربى فأنه لا يمكن لأى شخص أن يعتقد أنه زار تمبكتو .

وبلغ طول الرحلة التى قطعها رينيه كاييه عبر الصحراء ٩٠٠ ميل ، ويقول كاييه « أن العواصف الرملية قد أحاطتنا بطبقة سميكة من الضباب المظلم ، حتى أن معظم المسافرين المنهكين قد قاسوا من متاعب العطش .

واستمرت هذه الرحلة مدة ثلاثة شهور تقريبا ، قبل أن تدخل القافلة مدينة فاس Fez المراكشية • وكان كابيه لايزال متنكرا حتى هذه اللحظة ، وواصل مسيره الى طنجه حيث هرب على متن سفينة فرنسية • وقد قطع كابيه أثناء رحلته التى استغرقت ثمانية عشرة شهرا ، مسافة طولها ألفين وخمسمائة ميل ، قطعها فى أقليم شاسع غير مكتشف • وكان رينيه كابيه الأوربى الأول الذى زار تمبكتو وعاد حيا كى يتهيأ لكتابة تقريره ، وقدم كابيه وصفا جديدا لتمبكتو فى كتابه « رحلات من خلال وسط أفريقيا الى تمبكتو » «Travels through Central Africa to Timbuctoo» ، وقد حصل على مكافأة صغيرة منحتها له الجمعية الجغرافية الفرنسية ، كما استحق وسام الشرف وهو عبارة عن مطاش «a richly deserved Cross of the legion of Honour» ومات رينيه كابيه عام ١٨٣٩ م ، وكان عمره آنذاك أربعين عاما •

وفى نفس الوقت ، عاد ريتشارد لاندر Richard Lander الى (انجلترا) وكتب تقريرا عن مغامراته ، كى يضمه الى تقرير كلابيرتون الناقص ، وبعد أن أكمل ريتشارد لاندر تقرير كلابيرتون قـام بنشر التقريرين فى كتاب بأسم ، تسـجيلات البعثة الأخيرة للكابتن كلابيرتون «Records of Captain Clapperton's last Expedition».

وقد تلقى ريتشارد لاندر العون من أخيه الأصغر جون لاندر John Lander الذى تمرن ليصبح طباعا وجماعا لأحرف الطباعة فى جريدة كورنيش Cornish ، وكان جون لاندر الذى كتب عدة مقالات فى النثر prose ، وبعض قطع الشعر verse ، مهتما أكثر بالسفر عن أن يحيا حياة كاتب أو طباع • ويرجع الفضل الى أخيه ريتشارد لاندر فى حبه الى سـحر افريقيا • ولما طلب ريتشارد لاندر تصريحا رسميا يخول له السفر الى أفريقيا كى يحل مشكلة النيجر ، فأن جون لاندر رغم عدم محاولته السفر ، طلب أن يذهب مع شقيقه •

ولم توضع عقبات فى طريقهما (ريتشارد لاندر وأخيه جون) فقـد وضح على الفور أن جون لاندر كان شريكا مثاليا •

وفى يوم التاسع من شهر يناير عام ١٨٣٠ م ، أبحر الأخوان من ميناء بورتســموث Portsmouth ، وفى هذه المناسبة كتب رينتشارد لاندر الى وزارة المستعمرات البريطانية يقول « على أن أقضى على كل خطر وكل ازدراء وكل صعوبة من المحتمل أن تهدد وتعرقل تقدمنا » . وكانت التعليمات الصادرة اليه أن يتبع مجرى نهر النيجر للوصول الى نهايته ، ومعرفة امكانية أنه يصب فى البحر ، أو فى بحيرة تشاد ، وبعبارته :

«His instructions were to follow the course of the Niger, if possible to its termination, wherever that may be, either in the sea or in lake chad».

وقد رسا الأخوان على ساحل غرب افريقيا بحيث توقفا عند قلعة رأس الساحل وهما فى طريقهما الى باداجرى لأستئجار بعض الخدم الإفرقيين ، الذين كان من بينهم باسكو المسن ، والذى أحضر معه زوجتيه الأثنتين ، وفى باداجرى كان الأخوان البريطانيان غير مألوفين تماما ، حيث أن رينتشارد لاندر قد هرب من موت محقق ، وعلم الأخوان أن رئيس المنطقة كان يعد ضحية بشرية مكونة من ثلاثة مائة شخص . ولم يستطع الأخوان القيام بأى عمل من شأنه منع هذه المذبحة الجماعية ، وكان الأخوان قد سرا لأنهما تمكنا من مغادرة هذا المكان قبل أن تبدأ هذه المذبحة .

وقد سافرت البعثة بطريق البر تجاه النيجر ، واستخدمت فى ذلك الطريق القديم الذى قادها من خلال وطن اليوروبا . وقــد دهش الناس المحليون بدرجة كبيرة لرؤية أفراد البعثة وأحاطوا بالأخوين وهم يصيحون Shouting ويهللون بصوت مرتفع Squealing ، ولم يمنح السكان أفراد البعثة الراحة حتى عندما كان أفراد هذه البعثة فى مسيس الحاجة إليها ، وبخاصة عندما سقط الأخوان فريسة لمرض الملاريا . وكان الملك موجوداً فى العاصمة كاتونجا Katunga ، واستطاع أن يرى كيفية ما يعانيه أفراد هذه البعثة ، فأصدر أوامره الى الأيبو Ebo رئيس الحرس ، وقد جاء بهــذه الأوامر مــا يلى :

« أنه فى حالة قيام أى شخص سليط بمضايقتنا فى أى وقت ، فأن

الأيبو Ebo له الحرية فى قتل هذا الشخص الذى يضايقنا ، ومن المحتمل أن يكون لهذا الأعلان نتائج مرضية ، والسبب فى ذلك يرجع الى الخوف من الأيبو الجلاد العام الذى ينفذ العدل ، حيث كان فى نفس الوقت رئيسا للحرس ، لذلك فأن سكان كاتونجا Katunga قد أخفوا فضولهم وحبسوا أنفاسهم فى مساكنهم abodes » •

وعندما وصل الأخوان الى بوسا Bussa قابلا زوما الأرملة المشهورة القديمة Richard's Old Flame, the widow Zuma

وكانت زوما هذه المرة بدينة عما كانت عليه من قبل ، ولم تحمل ضغينة ill - will لريتشارد لرفضه لعروضها ، وشرحت زوما لريتشارد لاندر أنها قد تشاجرت مع رئيسها المحلى وهى الآن تعيش فى المنفى •

وقد قصد ريتشارد أن يسير مع النهر حتى يصل الى بوسا ، ولكنه واجه مشكلة كبيرة تمثلت فى كيفية توفيره للمراكب اللازمة وللمتطوعين اللازم تجنيدهم • وبعد أن تأخرت البعثة بعض الوقت ، تمكنت من شراء قاربين Canoes عن طريق المبادلة بعدد من أبر الخياطة ، ثم شرع الأخوان بعد ذلك فى الرحيل فى العشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٣٠ م • ولم يكن لدى البعثة أى فكرة على الأطلاق على المنعطفات التى تصادفها فى هذا النهر الكبير ، ولا عن المخاطر والمصاعب التى من المحتمل أن تقابلها •

وكانت أولى هذه المشاكل التى واجهتها تتمثل فى أن المياه قد تسربت الى المركب الكبير بدرجة كبيرة ، حيث أعيد تجديده فى آلاف الأماكن • واستخدمت البعثة هذين المركبين أطول مسافة ممكنة ، وبعد ذلك تخلت عنهما فى مقابل حصولها على مركب أصغر ، كان قد قدم اليها من شيخ رحيم a sympathetic chief •

وبعد أن بدأت البعثة مهمتها ، بدأت أول مشكلة تواجهها ، وقد تمثلت هذه المشكلة فى النزاع — الذى وقع بينها وبين أفراس النهر التى ظهرت فجأة — والذى لا يمكن تصديقه ، ويتضح ذلك مما يأتى : —

« ظهرت هذه الأفراس بالقرب منا ، فكـانت تخوض فى الميــاه (تطرطش) وتزأر (أى يسمع لها شخير) وتغوص جميعها من حـول المركب ، بحيث أصبحت البعثة معرضة لخطر وشيك . وانصب تفكيرنا فى كيفية تخويفهم ، وذلك بأن نطلق عليهم عياراً أو عيارين من الأسلحة ، ولكن كل ما حدث أن أصوات الطلقات النارية أخرجت من الميــاه ومن المستنقعات كثيرا من رفاقهم غير المتوحشين ، بحيث أصبحت الحيوانات على مقربة منا ، كما أننا أصبحنا فى خطر شديد » .

وقد دب الرعب الى (البحارة) boatmen وصاحوا بصوت مرتفع من أن هذه الدواب (أفراس النهر) سوف تقلب المراكب وأنهم سوف يغرقون عن آخرهم ، ولكن الأخوين تحدثــا بهدوء وبرزانة ، وحثــا البحارة عــلى التجديف بسرعة ، وحتى يتبع ذلك صوت صــادر من التجديف مما يدعو الأفراس الى المسير الى الأمام .

وعند ايجا Egga وهى مدينة تقع فى إقليم النوب Nupe الواقع على نهر النيجر ، هدد البحارة بالهروب ، وكانت مدينة الأيجا هذه واحدة من المدن الواقعة على حدود الهوسا ، وفيما وراءها يوجد قطر مســكون بقبائل متوحشة وهمجية ، وقال اللذين زارا هــذه المنطقة من قبل وهما باســـكو Pascoe ، ورجل آخر إنهما لا يستطيعان الذهاب أبعد من ذلك لخوفهما من أن يقتلا ، ولكن من المحتمل أيضا إنهما يتعرضـــان لخطر مساوى لذلك الخطر لو مكثا فى الأيجا ، لذلك إستمالهما الرجلان البيض (ريتشارد لاندر ، وأخيه جون لاندر) على البقاء معهما .

وبعد أيام قلائل أصبح خوفهم له ما يبرره فقد عسكرت المجموعة (البعثة) على شاطىء نهر النيجر وبالتحديد أسفل المنطقة التى يلتقى عندها نهر النيجر بفرعه البنوى ويتضح ذلك من النص التالى :

« لقد شاهدنا مجموعة كبيرة من الرجال كانت غالبيتها عــارية الأجسام ، تجرى بطريقة غير منتظمة ، نحو معسكرنا الصغير ، وكانت

ملامح هؤلاء الرجال غير مألوفة بالنسبة لنا • وكانوا جميعا مسلحين بأسلحة مختلفة ، منها البنادق القديمة الطراز Muskets ، والأقواس bows ، والسهام arrows ، والسكاكين knives ، والسيوف Cutlasses ، والأشواك barbs ، والحراب الطويلة Long Spears ، هذا فضلا عن أنهم كانوا يحملون معهم أدوات أخرى للتدمير instruments of destruction ، وكانت مجموعتنا أكثر انتشارا ولكن لحسن الحظ فأننا رأيناهم من مسافة قريبة قادمين الينا ، وكان لدينا الوقت كى نجمع رجالنا ، وكان تصميمنا أن نمنع اراقة الدماء كلما أمكن ذلك ، لأن عددنا كان قليلا ، وهذا يتيح لنا فرصة الهروب بأى طريقة أخرى ، لهذا لم نضيع لحظة واحدة من وقتنا • ورغبنا باسكو وجميع الناس التابعين الينا فى السير من خلفنا ، وذلك لمسافة قصيرة ، بحيث يحملون معهم البنادق والمسدسات Pistols • واشترطنا عليهم بكل دقة عدم اطلاق النيران اذا هم لم يبدأوا بأطلاق النيران علينا • وقد ثبت أن الرئيس كان واحدا من الوطنيين فشعرنا أن هؤلاء الرجال جميعا كانوا فى صحبته ، ومشيت أنا وشقيقى ببطء ، وبدون سلاح تجاه هذا الرئيس • وبينما كنا نقترب منه قمنا بعمل كل الأشارات والحركات التى يمكن عملها بأذرعتنا لنمنعه وشعبه deter من أطلاق النيران علينا • وكان هذا الشيخ يحمل معه خنجراً يتدلى الى جانبه وقوسا منحنيا وسهما مصوبا الى صدورنا • وعندما كنا على بعد ياردات قليلة من هذا الرئيس كان قد شد حبل القوس ، وبالفعل كانت هذه لحظة حرجة ، وربما كانت اللحظة التالية هى آخر لحظة فى حياتنا ، ولكن يد القدر منعت هذه الضربة ، وفى اللحظة التى كان فيها هذا الرئيس يجذب الحبل المميت اندفع نحوه الرجل القريب منه وشل حركة ذراعه ، وفى تلك اللحظة كنا نقف أمامه ، وعلى الفور رفعنا أيدينا الى أعلى فكل الرجال (رجال البعثة) أصبحوا كالأوراق المهتزة أو أصبحوا يهتزون كالأوراق • وقد نظر هذا الرئيس الينا ووجه نظراته الى وجوهنا ، وكان فى تلك الأثناء راكعا فى الأرض وبدأ الضوء الوامض ينبعث من عينيه السوداوين المتقلبة ، وكان كل

جسمه يهتز عن آخره • وبينما كنا نكابد التعذيب والخوف torture & timorous اللذين لم ينصرفا حتى أن تعبيرات ملامحنا وكل انفعالاتنا اختلطت بشىء غريب ، تمثل فى خفض هذا الرئيس لرأسه ، وبجسارة أمسك أيدينا الممتدة الى أعلى وانفجر فى البكاء ، ويعتبر هذا علامة من علامات الصداقة ، واصطحبتنا السعادة ، ولم تعد الحرب وسفك الدماء قائمة أكثر من ذلك • وقد ساد بيننا السلام والصداقة • وكان الشىء الأول الذى ينبغى عمله هو أن نقوم برفع الرئيس المسن من على الأرض ، وأن نوصله الى معسكرنا •

وفى البداية لم يستطع أفراد البعثة أن يفهموا ، بماذا كان الشيخ يحاول أن يخبرهم ، ولكن عندئذ ظهر رجل كان على دراية بلغة الهوسا ، وترجم ما يقوله هذا الرجل ، ففسر بأن هذا الرئيس لم ير من قبل رجالا بيض ، ، وخشى هذا الرئيس أن يكون هؤلاء البيض « أبناء السماء » Children of Heaven الذين سقطوا كى يثأروا منه بسبب ارتكابه لبعض الجرائم • وأسرع الأخوان ليؤكدا للرئيس المسن بأنهما لم يأتيا من مكان طيب كالسماء مثلما كان يتخيل ، وهنأنا أنفسنا بالأضافة الى تهنئة هذا الرئيس على أن هذه المسألة انتهت بسلام •

وكان لتصرفهما الرفيع الشجاع الذكى ، أثره بدون أدنى شك فى انقاذ حياة كل أفراد البعثة • وقبل أن تغادر البعثة قرية هذا الرئيس المسن قبلت بكل سرور هدية من الكولا وجوز الهند واليام ويرجع السبب فى قبول هذه الهدية الى نقص الأموال معها ، فأن ذلك جعل الأمر مستحيلا عليهما كى يقوما بشراء مزيد من الطعام • عندئذ شرعا فى بدء رحلتهما هابطين مع نهر النيجر • وكان كل شىء ساكن ومقفر Solitary ، وكانت البعثة قد سجلت ذلك فى تقريرها • ويقال أنه لا يمكن التمييز بين أصوات أفراد البعثة وصدى طرطشة المجاديف كما لم يسمع تغريد الطيور ، ولم يتمكن أفراد البعثة من رؤية أى حيوان ، وبدت شواطىء النهر مهجورة تماما ، وكان نهر النيجر العظيم صامت بعظمته •

وقبل مضى وقت طويل تحقق أفراد البعثة من أنهم يبحرون على مقربة من البحر (المحيط الأطلسى) • حيث أنهم وصلوا الى الأقليم الذى لم تعد بشرتهم البيضاء تجعلهم موضع شك ، ويعنى هذا أن هذه المنطقة كان يزورها التجار الأوربيين القادمين من الساحل الغربى • وفى الخامس من شهر نوفمبر رأى أفراد البعثة خمسين قاربا كبيرة قادمة نحوهم ورافعة الأعلام الأوربية وكانت هذه المراكب مسحوبة بواسطة الأفارقة الذين كانوا مرتدين زيا أوربيا • وتخيلوا أنهم سوف يستقبلون بمودة ، ولكنهم على الفور اكتشفوا خطأ تفكيرهم • وقام الأفارقة المسلحين بمهاجمة الرجلين البيض بسرعة واستولوا على كل أمتعتهما ، التى تضمنت جاكتة وحذاء رينتشارد الذى ذكر النص التالى :

« ففى نفس الوقت ، شوهد بعض الأشخاص الآخرين الذين أخذوا زوجة باسكو بعيدا ، وفقدت كل سيطرتى على نفسى ، وعزمت على أن أضحى بحياتى وهى أغلى شىء أمتلكه • وشجعت رجالى على ان يسلحوا أنفسهم بمجاديفهم ويدافعون عن أنفسهم حتى النهاية • وعلى الفور استعدنا زوجة باسكو ، وبمساعدة شخص آخر من رجالى سحبناها من قبضة الرجل الذى يمسكها • وفى نفس الوقت كان باسكو قد وجه ضربة الى رأس الرجل الذى كان يمسك بزوجته بأحد المجاديف المصنوعة من الحديد والخشب ، عندئذ أرداه فاقد الوعى ، ولم نره بعد ذلك » •

ولحسن الحظ فأن الأفريقيين لم يتسموا بالشجاعة ولكن جون لاندر الذى كان فى المركب الثانى ، كاد أن يغرق تقريبا فى وسط هذه الضوضاء •

وقد تعقب الأخوان (رينتشارد لاندر ، وجون لاندر) اللصوص بكل شجاعة ، ولكن بدون تريث الى مكان السوق المجاور لمدينة كيرى الواقعة على النهر • وبدلا من أن يستردان أمتعتهما نجد أنهما يقعان فى الأسر ، كما قيد أتباعهما الثمانية بالحديد ، وقد أرسل الأخوان هابطين مع النهر الى مدينة أيبو Ebo الكبيرة ، وهناك علما بأنهما وأتباعهما

سوف يدفعان فدية ، وقد توقعا أن كابتن السفينة البريطانية التى لم تكن راسية بعيدا عن نهر النون River Nun ، ســوف يدفع فدية مجزية بالنسبة لهما • وعند هذه النقطة كان هناك تاجر إفريقى أطلق على نفسه اسم الملك بوى King Boy ، وكان هذا الشخص قد طلب أن يقوم بدفع هذه الفدية ، وذهب الكنج بوى ومعه ريتشارد لاندر ليبحث عن السفينة البريطانية • وفجأة عرف ريتشارد لاندر أن كابتن السفينة موجود فى منطقة مياه المد والجزر ، بحيث سمع « تلاطم الأمواج على الشاطىء » «The sound of surf on the beach» وعندئذ تحقق أو أدرك أن نهاية بحثه قد اقتربت • وفى اليوم التالى ، الموافق الثامن عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٣٠ م ، دخل ريتشارد نهر النون The Nun المصب الرئيسى لنهر النيجر ، وفى تلك الأثناء رأى ريتشارد السفينة البريطانية ، عندئذ صعد على ظهرها ، فوجد أن أربعة أشخاص من طاقمها قــد ماتوا ، بسبب تأثرهم بمرض الحمى ، ووجد أن قبطان السفينة وأكثر من أربعــة من طاقمها مرضى • وفى ظل هذه الظروف الرهيبة ، رفض هذا القبطان أن يساهم بأى شىء فى هذه العملية المالية Transaction ، ويتضح ذلك من النص التالى :

« لم أسمع أبدا عن استعمال هذه الألفاظ المخجلة العنيفة والهجومية » • فقد قال قبطان السفينة البريطانية الراسية على ساحل المحيط الأطلسى الشرقى ما نصه : « تكون مخطئا لو توقعت أننى سوف اتعامل معك وأن أعطيك مطلبك (دفع حسابك ، لن أدفع شيئا) وقال ريتشارد لاندر ، لقد أصابتنى الدهشة بحيث أصبحت لم أستطع الرد ، بل وأصـــابنى الرعب ، بسبب هذا المسلك الذى سبب هــذا الفزع ، وانكمشت منه واستطعت بصعوبة أن أصدق ما سمعت حتى أن أذنى قد توقفت عن السمع بسبب تكرار نفس هذه الألفاظ ، وخاب أملى لهذا المسلك الهمجى من جانب شخص من أبناء وطنى ، فبقدر الأمكان لم استطع أن أصدق كل ما حدث ، بل وقهرتنى مشاعرى ، وكنت على أتم استعداد أن أغرق بحزنى وخجلى » •

وفى ذلك الوقت كان على ريتشارد لاندر أن يخبر الملك بوى بأنه لم يستطع دفع الفدية عندئذ وافق التاجر بكرم على التخلى عن مطلبه حتى ترسل النقود من انجلترا • وعلى هذا فأن الحكومة البريطانية سوف تقوم بدفع الكفالة (الفدية) وتسلم للملك بوى المبلغ نقدا ، بحيث يكون اكثر من الفدية The ransm - money • وفى نفس الوقت أخذ الأخــوان ريتشارد لاندر وجون لاندر وأتباعهما على متن السفينة البريطانية ، بحيث أنجهت بهم جميعا الى جزيرة فرناندوبو The Island of Fernando po ، ثم عادا بعد ذلك الى انجلترا عن طريق البرازيل التى وصلاها فى شهر يونيو عــام ١٨٣١ م •

ووافق يوم الثامن عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٣٠ م ، اليــوم الأول الذى رست فيه سفينة ريتشارد لاندر على الساحل الأفريقى ، فكان هذا اليوم يوما عظيما بالنسبة لتواريخ الكشف الأفريقى • فكان ريتشارد لاندر قد تتبع مجرى نهر النيجر ، كى يبرهن بأقناع عن أنه يصب فى جداول خليج البنين ، وبهذا أنتهى العمل من أطــول بحث ، فالأخوين أكملا معا ، وبأنتصار عمل بارك ولينج وكلابيرتون • ومن أجل القيام بكل هذا الكشف الهام لمجرى ومصب نهر النيجر ، كافأت الجمعية الجغرافية الملكية ريتشارد لاندر بالميدالية الذهبية

The first Gold Medal of the recently founded Royal Geographical Society.

وكانت الجمعية الجغرافية الملكية قد ضمت اليها فى ذلك الوقت الجمعية الأفريقية African Association المحتضرة • وبعــد ذلك كتب الأخوان مذكراتهما فى كتاب بعنوان : تقرير عن بعثة كشف مجرى ومصب نهر النيجــــر

«Journal of an Expedition to explore the course and termination of the Niger

وعلى الرغم من العنوان الضخم The pompous title ، الا أن هذا الكتاب

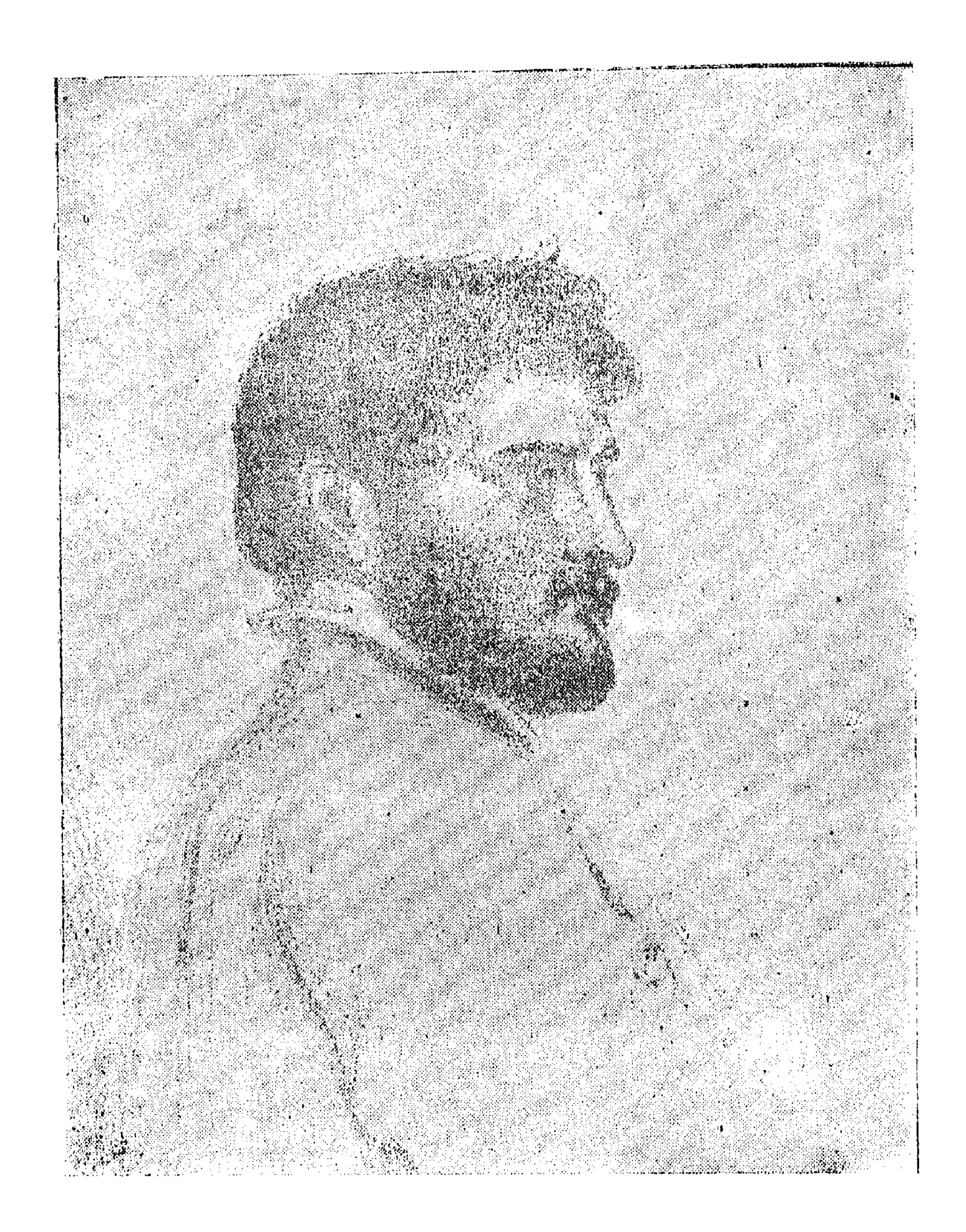
كان كتابا متواضعا وخفيفا ومسليا ، ويشتمل على مادة علمية على جانب كبير من الأهميـــــة •

وكانت المحاولة الثانية لتحرك الحكومة البريطانية هى كيفية استخدام نهر النيجر كطريق عام للتجارة مع داخل غرب افريقيا • ولكن فى ذلك الوقت كان جون لاندر لايزال يعانى من مؤثرات الرحلة السابقة ، ومع ذلك فقد حصل على عمل فى انجلترا ، بينما ذهب رتشارد لاندر كمرشد مع البعثة التجارية الأولى • ومن البداية ، فقد ســـار كل شىء بطريقة خاطئة ، فكانت هذه البعثة التجارية قد وصلت بصعوبة الى دلتا نهـــر النيجر قبل أن ينتشر مرض الحمى بين الرجال البيض • فالرؤســـاء وشعوبهم خافوا جدا من أن تدمر تجارتهم الخاصة ، وعلى هذا الأساس لم يقيموا علاقات صداقة مع البعثة التجارية ، أو بمعنى آخر أنهم عقدوا العزم على معاداتها • ورغم ذلك فأن ريتشارد لاندر ، كان لديه إيمانا قويا عن طيبة قلوب هؤلاء الناس ، ولكن عندما وصـــل أفراد البعثة التجارية الى مصب نهر النون The Nun mouth تصادمـــوا مع الملك جاكيت King Jacket ، وهو رئيس عديم الرحمة وكئيب • وقد أعطـــاه أفراد البعثة هدية من التمباك والخمور Rum التى قبلها بحقد ، وسمع أفراد البعثة هذا الرئيس يقول بلغته الخاصة To say in his own tongue أن الرجل الأبيض سوف لا يصل هذه المرة الى مدينة ايبو Ebo •

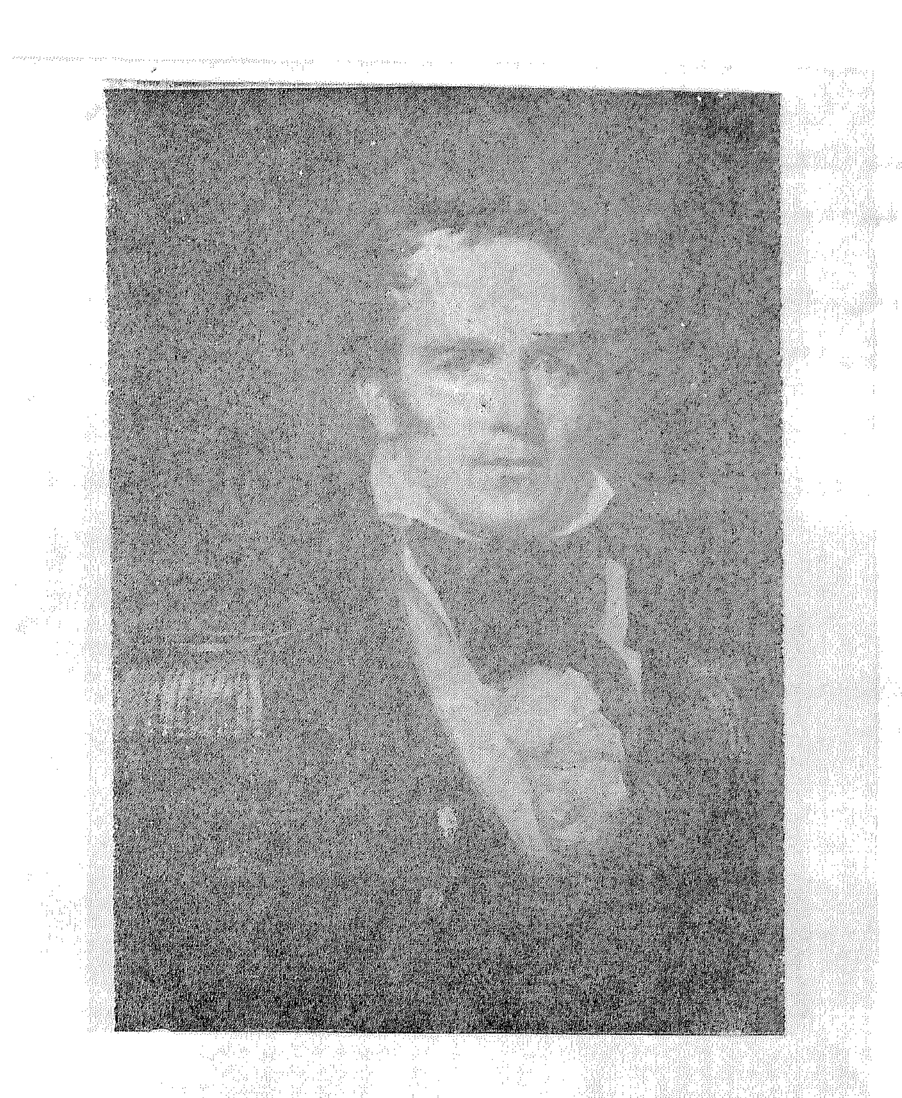
وبعد ذلك ، ألقى ريتشارد لاندر الضوء على التهديد (الـــذى تعرضت له البعثة التجارية من جانب الوطنيين) • فبعد أن سار أفراد البعثة مسافة طولها حوالى ٦٠ ميلا أطلق رجال القبائل المختبئين تحت أشجار شاطىء النهر النيران على مركب ريتشارد لاندر ، فأصابته هذه الأعيرة النارية بجروح ، ومع ذلك فقد زادت ثقته بنفسه للغاية ، ويتضح ذلك جليا من وقوفه فى المركب وتلويحه بقبعته ، وحاول فى يأس أن يقنع

البحارة بأن هذه الأعيرية النارية كانت صورة من صور التحية • وعلى الرغم من أن جرحه لم يكن خطيرا الا أنه تسمم Septic ، وعلى أثر ذلك مات المكتشف الشاب الواثق من نفسه ، ومات أيضا باسكو Pascoe عند النهر ، بسبب السم الذى دسه له الشيخ المحلى •

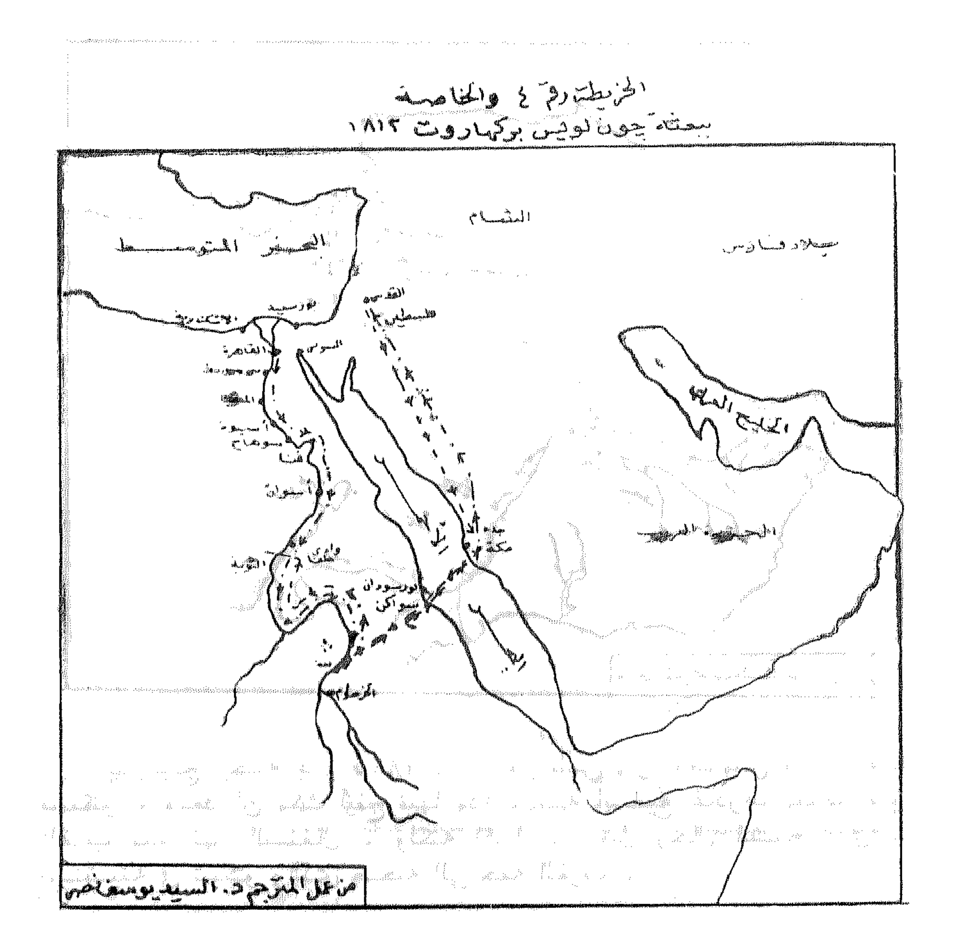
وكان ريتشارد لاندر قد مات قبل سن الثلاثين أى فى عام ١٨٣٤ م ، بينما عاش أخوه جون من بعده أربع سنوات فقط •



صورة المغامر جون لويس بركهاردت الذى جاء الى بلاد النوبة عام ١٨١٢ ، ليكتشف نهر النيجر من جهة الشرق . من اعداد المترجم .



صورة المغامر كلابيرتون الذى جاء الى غرب افريقيا ليكتشف بحيرة تشاد ومنابع نهر النيجر عام ١٨٢٢ . من اعداد المترجم .



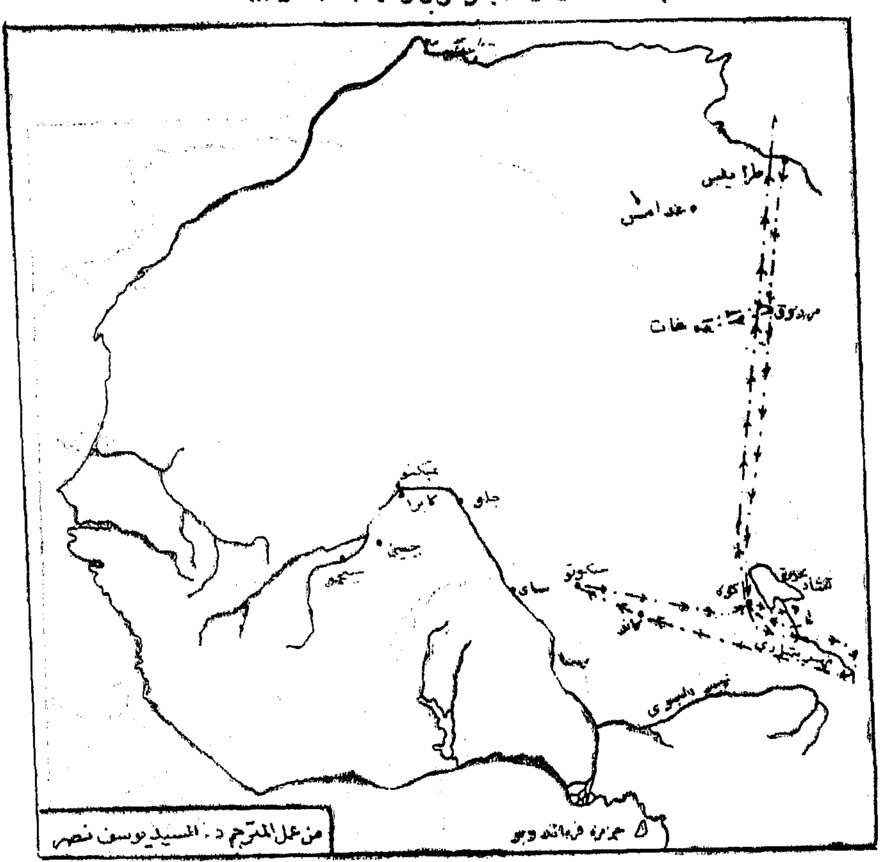
بدأ جون لويس بركهاردت رحلته عام ١٨١٢ من القاهرة ، ثم وصل الى مدينة شندى ، ومنها وصل الى سواكن ، ثم عبر البحر الأحمر الى مكة ، ثم سار شمالا الى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة ، ثم عاد من نفس الطريق فوصل الى بلاد النوبة ، وهناك لم يتمكن من اللحاق بأية قافلة متجهة الى غرب افريقيا ، ولكنه مات متأثرا بمرضه عام ١٨١٥ م وكان عمره آنذاك ٣٣ عاما .

الخريطة رقم ٥ والخامسة
ببعثة لينج عام ١٨٢٥



بدأ لينج رحلته عام ١٨٢٥ م من طرابلس مارا بغدامس فواحة صالح فتمبكتو ، وبعد أن مكث لينج فيها مدة خمسة أسابيع غادرها متجها صوب الغرب نحو نهر السنغال . ولكنه اغتيل من قبل رجال الشيخ الذى كان يستضيفه فى تمبكتو والذى صحبه الى جهة الغرب .

الخريطة رقم ٦ والخاصة
ببعثة أودنى وكلابرتون ودنهام عام ١٨٢٣

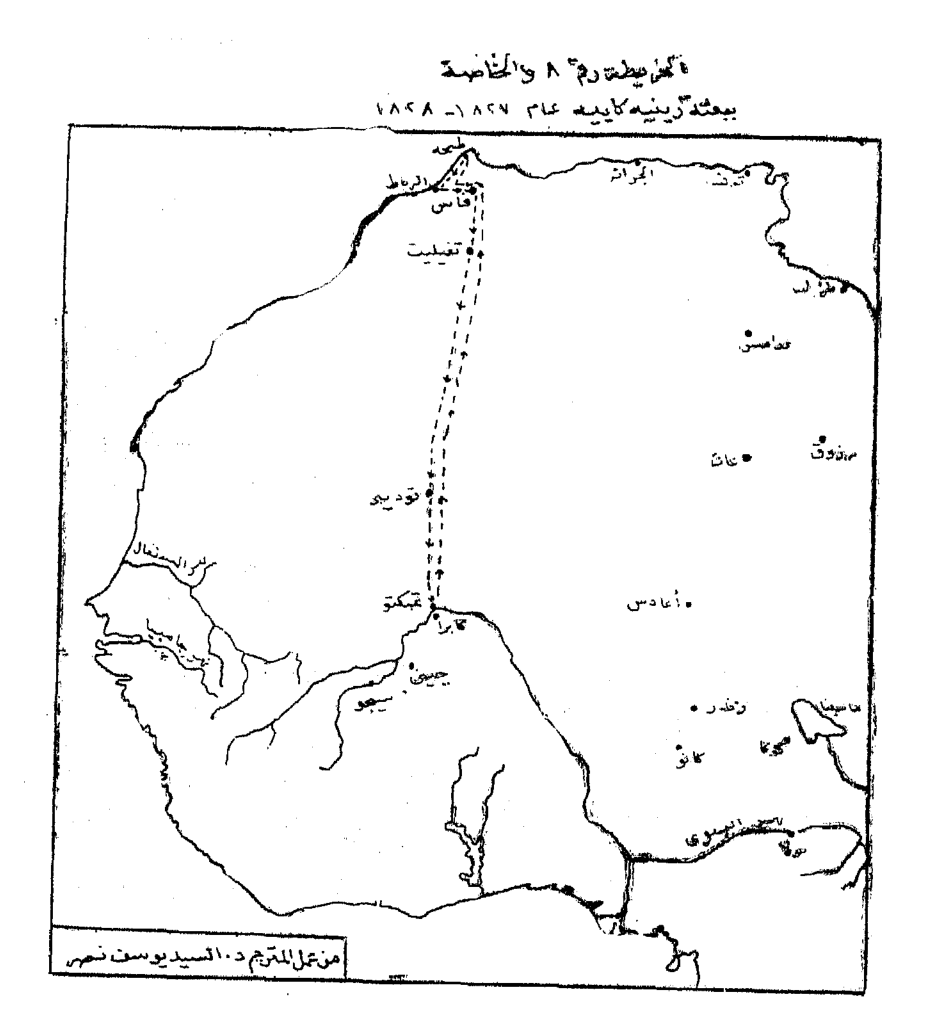


بدأت هذه البعثة مهمتها من طرابلس مارة بواحة مرزوق ثم تجولت فى المنطقة الواقعة بين مرزوق وغات ، وبعد ذلك وصلت الى بحيرة تشاد ، وعندها افترق افراد البعثة ، فذهب دنهام الى جنوب بحيرة تشاد ليكتشف أرض الماندار ، بينما ذهب كل من أودنى وكلابيرتون الى جهة الجنوب الشرقى ليكتشفا نهر الشارى . وبعد ذلك اتجها جهة الغرب ليكتشفا نهر النيجر . ومن هناك اتجها الرجلان الى كانوولكن مات أودنى قبل الوصول الى المدينة ، ومن بعدها وصل كلابيرتون الى سكوتو ، وبعد ذلك رحل الى كوكا حيث كان دنهام فى انتظاره ،وسافر الرجلان فى اتجاه الشمال عبر الصحراء الكبرى ، حيث وصلا الى انجلترا عام ١٨٢٥ م .

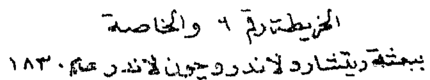


الخريطة رقم ٧ والخاصة
ببعثة كلابيرتون الثانية عام ١٨٢٥

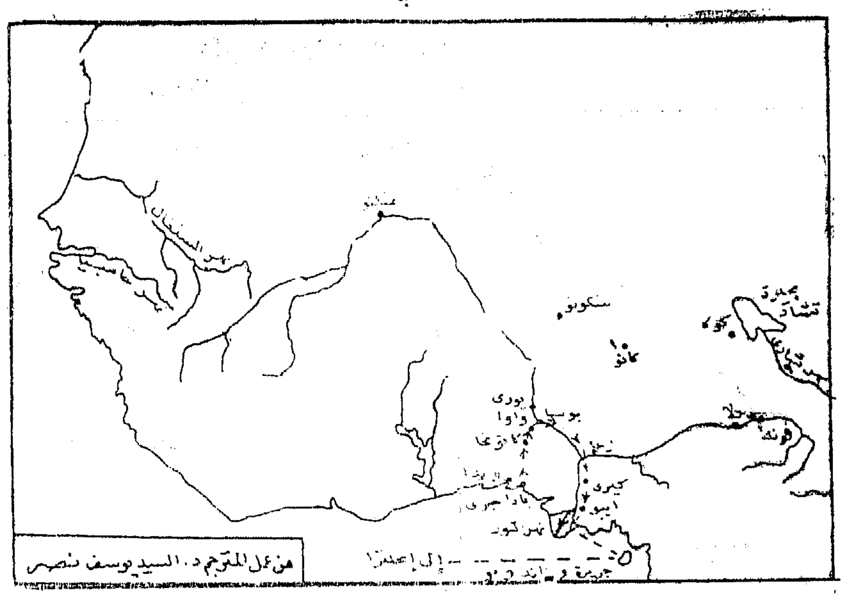
بدأت هذه البعثة مهمتها فى نوفمبر عام ١٨٢٥ ، من بلدة باداجرى الواقعة على خليج البنين ، ومرت بمدينة كاتونجا وواوا ، ثم وصلت الى بوسا ويورى . ومن هناك عبرت البعثة نهر النيجر واتجهت الى الشمال الشرقى أى الى مملكتى الزاريا وكانو . وبعد ذلك واصل كلابيرتون المسير الى سكوتو ، وهناك مرض ومات فى ١٣ من شهر ابريل عام ١٨٢٧ م . وبعد ذلك عاد لاندر من سكوتو الى كانو ، ومنها اتجه الى الجنوب نحو فوندا الواقعة على نهر البنوى ، ثم غادرها الى باداجرى ، ومنها سافر الى انجلترا على سفينة بريطانية فوصلها عام ١٨٢٨ م .



بدأ رينيه كاييه رحلته عام ١٨٢٧ من طنجه فالرباط ففاس فتفليت فتودينى فتمبكتو ، التى مكث بها أربع عشر يوما ، واستغرقت رحلته ١٨ شهرا ، قطع مسافة طولها ٢٥٠٠ ميل .



الخريطة رقم ٦ والخاصة
ببعثة ريتشارد لاندر وجون لاندر عام ١٨٣٠



بدأت بعثة كل من رينشارد لاندر وجون لاندر مهمتها فى يناير عام ١٨٣٠ ، من ميناء بورتسموث الى ساحل غرب افريقيا ، ومن باداجرى بدآ رحلتهما فمرا بمدينة كاتونجا وواوا ، ثم وصلا الى بوسا ، ومنها رحلا الى مدينة ايجا الواقعة فى اقليم النوب ، ومنها اتجهت البعثة صوب الجنوب فوصلت الى مدينة كيرى ومنها الى مدينة ايبو ، ثم دخلت البعثة بعد ذلك الى نهر النون وهو الفرع الرئيسى لنهر النيجر ، وكان ذلك عام ١٨٣٠ م . وبعد ذلك سافر افراد البعثة الى انجلترا فوصلاها عام ١٨٣١ م .

التعليق على الفصـــــل (٥)

من الملاحظ على هذا الفصل ، أنه يتميز بكثرة عدد صفحاته ، أى أنه أكبر حجما عن باقى فصول الكتاب ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن المؤلفة كانت قد ضمنته أكثر من رحالة ومكتشف ، سواء الذين كانوا قدموا من شمال افريقيا الى وسطها أم الذين قدمـــوا من جهة الغـــرب ، وكان من الأفضل أن تقسم المؤلفة هذا الفصل الى قسمين قسم تقصره على الرحالة القادمين من شمال افريقيا (من طرابلس ومصر) وقسم آخر تقصره على الرحالة القادمين من مراكش وجامبيا ، حتى يكون هناك تناسق بين فصول الكتاب .

وبعد ذلك علينا أن نوضح أنه على الرغم من فشل المحاولات الأولى التى قامت بها الجمعية الأفريقية ، ألا أنها لم تتوقف عن أرسال البعثات الكشفية الواحدة تلو الأخرى ، حتى تتمكن فى نهاية الأمر من الكشف الكلى عن هـــذه المناطق المجهولة من أفريقيا ، فأختارت الجمعية الأفريقية أول ما اختارت جون لويس بركهاردت John Lewis Burckhardt الذى بدأ مهمته الكشفية عام ١٨١٢ م .

وكان بركهاردت هـــذا قد بدأ مهمته من القاهرة ، متتبعا مجرى نهر النيل حتى وصل الى أسوان ، ومن هناك واصل المسير حتى وصل الى شندى ، التى قام بوصف سوقها (الذى سبقت الأشارة اليه فى تعليقى على الفصل الثالث) ، وتمكن بركهاردت أيضا من القاء الضوء على كافة النواحى فى البلاد التى مر من خلالها ، فكان قد زار آثار أسوان وسوق أسنا للابل ، ثم قام بوصف النيل فضلا عن مشـــاهدته للأماكن الخالية من الصخور ، وقد سجل ملاحظاته عن الهجمات التى قام بها المماليـــك ضد الشايقية ، وذكر أنه ليس أمام المماليك فى الحالة الراهنة الا واحدا من اثنين ، إما أن يوجهوا للصعيد ضربة يائسة وأخيرة اذا وانتهم الفرصة واحتمال نجاحهم فى ذلك ضعيف ، نظرا ليقظة محمد علي ، وأمـــا أن

يحاولوا الاستيلاء على ميناء من موانىء البحر الأحمر ، وهناك يعززون قواتهم بأمدادات جديدة وبخاصة من رقيق جورجيا ، لأنهم كانوا لا يقبلون بين صفوفهم غير هؤلاء الأفراد . وفضلا عن ذلك فأنه ألقى الضوء على أحوال سكان هذه المناطق من الناحية الأجتماعية والأقتصادية والسياسية (١) .

وبعد ذلك سافر بركهاردت الى الجزيرة العربية ، وهناك أسلم وأدى فريضة الحج وسمى نفسه « ابراهيم بن عبد الله » ثم عاد بعد ذلك الى النوبة ، حيث أنتظر قدوم أية قافلة متجهة الى تشاد ، ولكن لسوء حظه لم يعثر على أية قافلة ، وسبب ذلك يرجع الى أنه من المحتمل أن تكون القوافل المتجهة من النوبة الى غرب أفريقيا قد مرت أثناء الفترة التى قضاها فى الجزيرة العربية ، ومن المحتمل أيضا أن تكون هذه القوافل قد توقفت بسبب الأضطرابات السياسية التى سادت هذه المناطق ، وبسبب الهجمات التى يقوم بها المماليك ضد الشايقية ، وضد غيرهم من السكان وهذا احتمال ربما أن يكون قريبا الى الواقع ، ومن المرجح أيضا أن تكون طرق القوافل قد انتقلت الى جهة أخرى بعيدا عن هذه المنطقة ، وكان بركهاردت فى حالة من اليأس الشديد لأنه كان يخشى أن تتهمه الجمعية الإفريقية بالكسل والخمول . واستمر هكذا حتى وافته منيته عام ١٨١٧ م ، ودفن بمصر وانتهت مهمته بالفشل ، لأنه لم يلتزم بتعليمات الجمعية الأفريقية ، بل أنه أخذ يتجول فى بلاد النوبة والجزيرة العربية دون أن يحقق أية نتيجة (٢) .

ومن الواضح أن فشل بركهاردت فى الوصول الى نهر النيجر عن

---

(١) جون لويس بركهاردت ، ترجمة فؤاد أندراوس : رحلات بركهاردت فى بلاد النوبة والسودان ، ١٧٨٤ م ، ١٨١٧ م . القاهرة ، بدون تاريخ . من ص ١٠ وما بعدها .

(2) John Lewis Burckhardt : Travels in Nubia. Published By the Association For promoting the discovery of the Interior parts of Africa. London, 1819.

طريق النوبة ، جعل الجمعية الأفريقية تتجه الى تغيير خططها فقررت أن توفد عددا آخراً من البعثات الكشفية ، بحيث تسلك طريق غرب أفريقيا (البعض منها) بحثا عن منابع نهر النيجر الذى كان من المعتقد أنه يمثل أحد فروع النيل ، أو أنه هو النيل نفسه • ويسلك البعض الآخر من هذه البعثات طريق شـــمال أفريقيا بحيث تتجه الى مدينة تمبكتو الأسطورية • فقد جاء فى كتابات إبن بطوطة وليو الإفريقى أن مدينة تمبكتو كانت مدينة غنية بثرواتها الذهبية وبثقافتها ، بل ووصل الأمر الى القول بأن منازلها وقصورها كانت مبنية بالواح من الذهب • وقد آثار ذلك حفيظة الأوربيين الذين رغبوا بشدة فى الوصول الى هذه المدينة ، حتى أن الجمعية الفرنسية The French Geographical Society قررت منح مكافأة مالية لأول رحالة أوربى يصل الى هذه المدينة ثم يعود بعد زيارته لها حياً •

وقد وقع الأختيار على الرحالة الفرنسى رينيه كابييه الذى خاب أمله بعد وصوله الى مدينة تمبكتو التى وجدها على غير ما قرأ عنها فى الكتب بل وعلى غير ما سمع • فقد ذكر أن هذه المدينة كانت عبارة عن مجموعات من المنازل الرديئة المبنية من الطين والمســقوفة بالقش ، والى جوارها رأى كابييه سهولا للرمال المتحركة ذات اللون الأبيض المصفر ، ولكن رغم خيبة أمله فى رؤيته لهــذه المدينة ، الا أنه أعجب اعجابا شــديدا بالرجال الذين قاموا ببناء هذه المدينة فى هذه المنطقة المقفرة ، وقــد تجول رينيه كابييه فى شوارعها ، وزار مساجدها وسوق الرقيق فيها ، وكتب يقــول ما نصه :

« لم تكن تجارة المدينة كبيرة بحيث تتناسب مع شهرتها فلم يوجد فيها مــا يوجد فى مدينة جين » • ورأى كابييه فى شوارعها الابل وهى محملة بالسلع التجارية التى أحضرها أسطولها الصغير ، أى أن حركة التجارة فيها كانت مزدهرة • ورأى كابييه السكان وهم يجلسون على الحصر فى الشوارع ويتبادلون الحديث ، وشاهد أيضا المراكشيين نائمين فى الظل أمام أبواب بيوتهم ، عندئذ بدأ كل شىء بالنسبة له مملا • وذكر

كابيه أن عدد سكانها كان يبلغ ما بين ١٠٫٠٠٠ ، ٢٠٫٠٠٠ نسمة ، ولاحظ أن الخوف كان ينتاب سكانها بمجرد سماع اسم قبيلة الطوارق الهمجية ، التى يقطن ابناؤها الصحراء الكبرى .

واستغرقت رحلة كابيه الى تمبكتو ثمانية عشرة شهرا ، قطع خلالها مسافة طولها ٢٠٠٠ ميل ، وبذلك يكون كابيه الأوربى الأول الذى زار تمبكتو وعاد حيا .

وبعد عودة كابيه كتب كتابا عن تمبكتو بعنوان Travels through Central Africa to Timbuctoo . وقد منحته الجمعية الجغرافية الفرنسية المنحة المالية التى كانت قد وعدته بها . وبعد ذلك مات رينيه كابيه عام ١٨٣٩ ، وهو فى الأربعين من عمره .

ومما لا شك فيه أن رينيه كابيه قد أزاح الغموض عن هذه المدينة (تمبكتو) ، التى زادت شهرتها بعد كتابات كل من إبن بطوطه ، وليو الأفريقى .

وكان لينج قد أضاف بعد زيارته لهذه المدينة أنها مملة وكئيبة ، باستثناء مساجدها . وذكر أنه لا توجد فيها أية دفاعات لحمايتها . وذكر أيضا أن سكانها كانوا من الشعب الصنغى الذى يقطن منطقة النيجر ، فكثيرا ما يتعرض هذا الشعب للغزو والسلب من جانب قبيلة الطوارق .

ويمكن القول بأن الجمعية الأفريقية لم يكن لها الفضل فى كشف الغموض عن مدينة تمبكتو ، بل يرجع الفضل الى كل من رينيه كابيه ، ولينج الذى وصل اليها على نفقته الخاصة .

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الرحالة الذين أرسلوا عن طريق الجمعية الأفريقية ، أو الذين قاموا برحلات على نفقتهم الخاصة ، كانوا علي جانب كبير من الاخلاص فى العمل والمثابرة والتضحية . ولكن رغم

ذلك فأن درجة التضحية كانت تختلف من رحالة الى آخر . وفى الغالب وبدون استثناء فأنهم ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر ، فمنهم من مات فى افريقيا موتة طبيعية ، ومنهم من مات نتيجة لاغتيال القبائل ، أو نتيجة لتعرضـــه لمرض خطير .

ومن الملاحظ أيضا أن الجمعية الأفريقية لم تقم بهذه الأعمال حبا فى افريقيا وشعبها ، ولكن حبا فى البحث لمعرفة ما تحويه هذه القارة البكر من ثروات بشرية وطبيعية ونباتية وحيوانية ، حتى تفتح الطريق أمـــام بريطانيا بصفة خاصة ، والدول الأوروبية الأخرى بصفة عامة لاستغلال هذه الموارد . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كى تفتح هـــذه الدول الأوربية أســـواقا جديدة لها فى هـــذه المناطق الأفريقيـــة ، لتصريف الفائض من انتاجها الصناعى بين السكان الأفريقيين .

ولكن لنا أن نتساءل بالقول ، لماذا سبقت بريطانيا غيرها من دول أوربا فى مجال الصناعة ؟ والاجابة على ذلك هو أن الصناعة قد ظهرت فى بريطانيا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فى حين ظهرت فى فرنسا فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وفى ألمانيا فى الربع الثانى من النصـــف الأول من القـــرن التاسع عشر ، وفى بقية دول العالم بعـــد ذلك التاريخ (٣) .

ويمكن تعليل سبق بريطانيا فى مجال الصناعة الحديثة بالنســـــبة لأوربا ، الى أنها تقع على هامش أوربا ، فقد أثر هذا الموقع تأثيرا كبيرا على اقتصادياتها وتطور الحكم والحياة السياسية فيها ، فأنفصالها عن أوربا جعلها فى مأمن عن موجات الغزو ، التى كانت تجتاح أوربا من وقت لآخر ، ومنح شعبها قسطا كبيرا من الأمان ، بحيث مكنهم ذلك من متابعة

---

٣ ـــ دكتور أمين مصطفى عفيفى ، و د . أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ أوربا الاقتصادي . القاهرة ، ١٩٥٤ . ص ٢٠١ وما بعدها .

نشاطهم السياسى والأقتصادى دون ضغط واستبداد ، فشاع فى انجلترا جو من الحرية السياسية والحكم الدستورى (٤) .

زيادة على ذلك فأن انتاج انجلترا الصناعى يتميز بالتنوع والدقة والمتانة ، كما أنها حققت أرباحا طائلة من التجـارة الخارجية التى لم تنافسها فيها دولة أوربية أخرى ، وكانت لندن تمثل أكبر الأسواق المالية والتجارية ، فقد تجمعت فيها رؤوس الأموال ، بسبب ممارستها للتجارة الخارجية منذ القرن ١٦ ، وبسبب انشاء بنك انجلترا عام ١٦٩٤ ، الذى كان له أكبر الأثر فى زيادة رؤوس الأموال ، وفى تنظيم الأعمال الأقتصادية .

وقد ساهمت الأيدى العاملة فى هذه النهضة الصناعية فى بريطانيا ، بسبب تمتع انجلترا بالحرية السياسية والدينية ، حيث كانت انجلترا ملجأ للمضطهدين من الأوربيين ، فلجأ اليها الفلمنكيون من الأراضى المنخفضة والهجنوت من فرنسا . وامتازت هذه العناصر بنشاطها وحدة ذكائها ومهارتها فى الصناعة ، فقد أنشأت هذه العناصر المغضوب عليها فى أوربا صناعات كثيرة ومختلفة فى انجلترا ، منها صناعة المنسوجات الحريرية والتيلية والورق والأوانى الخزفية (٥) .

وكان من نتيجة ذلك أن بريطانيا كانت سباقة فى مجال الكشـوف الجغرافية الأفريقية ، ليس من أجل الكشف فى حد ذاته ، ولكن من أجل إيجاد مناطق نفوذ كى تجعل منها مناطق تجارية جديدة ، وخير دليل على ذلك أنه بعد أن أكتمل الكشف عن منطقة غـرب أفريقيا ، ونهر النيجر سارعت بريطانيا بأرسال بعثة تجارية كان على رأسها ريتشارد لاندر ،

---

(4) Shaikh, A. J. and Mannur. H. G. : A short Economic History. Delhi, 1971. pp. 3 - 16.

(٥) حسين كامل سليم : تاريخ أوربا الاقتصادى فى القرن التاسع عشر . القاهرة بدون تاريخ ، ص ص ١٨٦ — ١٨٩ .

الذى يرجع الفضل اليه والى أخيه جون لاند فى الكشف النهائى عن نهر النيجر ، وكان رينتشارد لاندر هذا على دراية تامة بهذه المناطق وبسكانها •ومن المعروف أن الهدف من هذه البعثة التجارية هو معرفة مدى صلاحية نهر النيجر للملاحة ، لاستخدامه كطريق نهرى تجارى ، هذا فضـــلا عن معرفة ما تحويه هذه البلاد من موارد أقتصادية هامة ، زيادة على معرفة الكثافة السكانية لهذه المناطق ، التى ستكون سوقا استهلاكيا لمنتجات بريطانيا الصناعية (٦) •

---

(٦) فيج جى ، دى ، ترجمة د . السيد يوسف نصر ، مراجعة د . بهجت رياض صليب . تاريخ غرب افريقيا . القاهرة . ١٩٨٢ ، ص ص ٢٥٠ — ٢٥٣ .

الفصل السادس

الرحلات فى شمال وغرب افريقيا

لقد فقد أفراد كثيرون حياتهم بسبب البحث عن نهر النيجر ، لذلك فأنه بعد موت ريتشارد لاندر تم تحذير المكتشفين ، بألا يضحوا بأرواحهم فى مخاطر غير ضرورية ، مع أنه كان لا يزال هناك مناطق لم تكتشف بعد فى منطقة النهر (أى نهر النيجر) وفى المناطق المجاورة لحدود الصحراء ، ولكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجد أشهر ثلاثة رحالة ، كان اثنان منهما من الألمان ، هما العالم هنريش بارث Scientist Heinrich Barth ، وجرهارد رولفس Gerhard Rohlfs الذى بدأ حياته فى افريقيا بالعمل فى الكتيبة الفرنسية التى تعمل بالخارج ، وأما الثالث فكان رجل فرنسى يدعى لويس جوستاف بنجر Louis - Gustave Binger

ولد هنريش بارث فى عام ١٨٣١ ، فى هامبورج Hamburg ، وأكمل دراساته فى جامعة برلين Berlin University ، وزار بعد ذلك أفريقيا للمرة الأولى . وفى عام ١٨٤٩ ، أنضم تحت رعاية البعثة البريطانية ، التى ارسلت لتقوم بكشف المنطقة الواقعة جنوب الصحراء ، وهناك زار الممالك الأسلامية ، وقد قاد هذه البعثة رجل انجليزى ، يدعى جيمس ريتشاردسون ، الذى كان برفقته أيضا رجل ألمانى يدعى لودويج أفرويج Ludwig Overweg

وكان بارث هذا شابا على قدر كبير من التعليم ، لهذا كان لديه مقدرة لتعلم اللغات Had a gift for Languages ، فقد تعلم الأنجليزية والعربية ، كما لم يكن لديه صعوبة فى اتقان لغات الشعوب الأفريقية المختلفة ،

He had nodifficulty in mastering the tongues of various African peoples

وكان قبل ذلك قد تجول فى أجزاء قليلة الأهمية من سوريا وآسيا الصغرى Asia Minor ، وكان بارث يعمل على تحقيق المعرفة أكثر من رغبته فى حب المغامرة ، التى دفعته الى الألتحاق ببعثة رينتشاردسون Richardson expedition • وكان قويا لدرجة كبيرة ، ومع ذلك فأنه كان مرنا ، ولكن عندما تدعو الحاجة الى الشدة كان عليه أن يثبت أنه يجمع بين الشجاعة وسعة الحيلة resourceful •

وكان رينتشاردسون يزيد على الأربعين عاما ، لذا فهو أكبر كثيرا من بارث وافروييج ، الذى كان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاما • وكان رينتشاردسون رجلا جاداً ، ومتخصصاً أصلا فى شئون الكنيسة ، (أى كانت مهمته نشر العقيدة المسيحية) ، فكان قد نزل الى طرابلس Tripoli عام ١٨٤٣ م تحت رعاية جمعية الأنجيل Under the aegis of a Bible Society ومنها سافر تجاه الجنوب الى واحة مرزوق Murzuk ، وكانت أهدافه محددة ، فهى تتمثل فى نشر المسيحية ، كما كان عليه أن يستبدل تجارة الرقيق بالتجارة المشروعة • وأما الأعمال الكشفية فلم يكن مكلف بها بصورة رسمية ، لهذا كان يقوم بكشف ما ترغب الحكومة البريطانية فى كشفه ، ويتضح ذلك من النص التالى :

« أنا مقتنع للغاية بأن السفر الى افريقيا ينبغى أن يلقى عناية خاصة ، ليس فى محاولة تحقيق السرعة ، ولكن ينبغى التقدم ببطء ، كما ينبغى أن نتحسس طريقنا ، ونؤمن أنفسنا ضد أية مفاجأة Surprise ، فعلينا أن نقلل ونحدد مناطق استكشافنا كى نسجل المسائل بصدق كلما أمكن ذلك ، ويمكن أن ننجز السفر فى افريقيا بنجاح لو تم خطوة خطوة piecemeal or bit by bit ، فهنا بعض الشيء وهناك البعض الآخر ، والآن نكتشف جزيرة ، وفيما بعد نكتشف خط على الساحل ، ثم نكتشف فيما بعد اقليما داخليا ، وبعد ذلك نكتشف إقليما صحراويا •••• وهكذا »

وعلى هذا ، فأن الحذر يلازم بارث الذى كان يرغب بصفة مستمرة فى أن يكون بعيدا هنا وهناك ، فكان قد غادر طرابلس فى بداية عـام ١٨٥٠ م فقد عبرت بعثته الصحراء ، ووصلت فى خلال شهر الى واحـة مرزوق • وقد خطط أفراد البعثة لمواصلة المسير تجاه الجنوب ، مارين من خلال غـات Ghat ، وأغادس Agades ، لكى يصـلوا الى مملكتى كانو Kano ، وبورنو Borno ، وفى النهاية وصلت البعثة الى غات التى كان قد زارهـا من قبل كل من أودنى وكلابيرتون عـام ١٨٢٢ م ، وفى الوقت الذى كان فيه بارث متعبا ونافذ الصبر انطلق بمفرده ليتسلق صخرة عالية ، ورغم ثقته بنفسه ، ألا أنه ضل طريقه فى أراضى رملية فى الصحراء ، بحيث ظل بمفرده لما يزيد على ٢٤ ساعة ، عانى خلالها آلام العطش ، فأضطر لفتح وريد to open a vein من جسمه وشرب البعض من دمه ، وكان سيهلك لو لم يعثر عليه أحد أفراد قبيلة الطوارق ، الذى بدافع انسانى حمله على ظهر جمله الى المعسكر ، وتساءل رينشاردسون متعجبا ، لقـد مكثت أنت يا بارث فى الصحراء ٢٨ ساعة بدون مياه ، لذا يمكن الأفـراد الجماعة أن تصدق بصعوبة إنك على قيد الحياة ، وقالوا أنه لا يمكن الأى فرد أن يحيا بدون مياه لمدة أكثر من ١٢ ساعة عندما يضل طريقـه فى الصحراء خلال حرارة الصيف •

وقد استوعب بارث الدرس • وكتب يقول :

« أنه من الملاحظ أن الأنسان الأوربى يفقد قواه بسرعة تحت وطأة هذه الظروف المناخية القاسية فى يوم واحد ، اذا لم يتناول طعامه العادى » وأضاف يقول بفخر يشوبه التواضع ، « ولكننى تمكنت من أن أظل على قيد الحياة لليوم الثانى » •

وقضى أفراد البعثة أسبوعا فى غات Ghat ، ولكن لم يمض وقت طويل على مغادرتهم غات ، الا وقـد أسرتهم جماعة من الطـوارق ، فأستولت هذه الجماعة على ثلث المؤن والأمتعة ، التى كانت بحوزة أفراد

البعثة قبل أن تطلق هذه الجماعة سراحهم • وبعد ذلك انقسمت البعثة الى قسمين ، قسم تحت رئاسة بارث الذى كان عليه الذهاب الى كانو ، وقسم تحت رئاسة رينتشاردسون الذى كان عليه الذهاب الى مدينة زندر Zinder ، الواقعة الى الشمال من كانو والخاضعة خضوعا اسميا الى مملكة البورنو ، وكان افرويج قد اتجه الى بحيرة تشاد ، واتفق أفراد البعثة على أن يلتقوا جميعا فى كوكا القريبة من بحيرة تشاد • وكتب رينتشاردسون بكآبة يقول ما نصه : « لقد ترك كل منا الآخر ، وهو يحمل معه بعض الانفعال • وقد تفرق هؤلاء الرحالة فى وسط أفريقيا ، وساروا فى طرق مختلفة divergent routes ، وكان من الصعب عليهم أن يضعوا فى حسابهم أنهم سوف يلتقون مرة ثانية » •

وكان رينتشاردسون هو الشخص الوحيد الذى فشل فى الوصول الى المكان المتفق عليه • فكان قد وصل الى زندر ، فى الرابع من شهر يناير عام ١٨٥١ م ، وهناك انزعج من التقاليد البربرية التى يعضدها السلطان المحلى والتى تتمثل فى معاملة العبيد • فكان السلطان هو الذى عين نفسه جلادا ، بحيث كان يقوم بقتل ضحياه ، وذلك بفتح شروخ فى صدورهم ، ثم يقوم بتمزيق قلوبهم واخراجها من صدورهم • وكانت عمليات الأعدام Executions مستمرة ، وفى هذا الجو الكئيب مرض رينتشاردسون ومات •

وفى تلك الأثناء ، وصل بارث الى مدينة كانو وهو فى حالة تعب شديد ، ولكن نزعته لخلق صداقات ولمعرفته باللغات جعلاه يستغيث بالأمير • وعندما انهى بارث فحصه للمدينة (مدينة كانو) ، قدم له الأمير هدية كانت عبارة عن ٦٠٫٠٠٠ كاوريز Cowries (الكاوريز عبارة عن عملة كانت تستعمل فى هذه المنطقة) ، وتمكن بارث بهذه النقود أن يشترى جمالا لتقله الى بورنو ، حيث كان يهدف من وراء ذلك الى استقصاء أحوال تجارة المملكة • وكانت رحلته مليئة بالمخاطر • لذا كتب بارث يقول فى هذا الصدد ما نصه « بالأمس كان الطريق معرضا لمهاجمة infested اللصوص robbers وكان لدى خادما واحدا فقط كنت أعتمد عليه ، فهو الذى كان فى حقيقة

الأمر يلازمنى عندما كنت على غير ما يرام ، أى عندما كنت لم أتمكن من النهوض من فراشى Couch ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت مملوءاً بالثقة »

وقد وصل بارث الى كوكا Kuka ، قبل شهر من وصول أفرويج Overweg اليها ، ولما علم بارث بموت ريتشاردسون ، تولى هو مسئولية قيادة البعثة ، وقام بتنفيذ فحصه لبحيرة تشاد • وكتب بارث عن خصائص Characters هذه البحيرة يقول ما نصه « من الواضح أن هذه البحيرة تتميز بالضخامة ، بحيث تتغير حدودها كل شهر ، لذلك يكون من غير الممكن رسم خريطة دقيقة لها ، وفى الواقع كنت قد رأيت فى هذا اليوم (يوم الرابع والعشرين من شهر أبريل عام ١٨٥١م) أن الأراضى التى تحيط بالبحيرة أراضى منخفضة وكلها مستنقعات ، وعلى الفور أصبحت مدركا ، أنه من المستحيل تماما القيام بعملية مسح شاملة لشواطئها ، حتى ولو سمحت لنا دول الأقطار المحيطة بها بالدخول الى منطقة البحيرة كى نتمكن من القيام بعملية المسح الشاملة » •

وأصبح بارث منزعجا بشكل متزايد عن افرويج الذى كان مريضا ومكتئبا بحيث رأى عليه علامات الاختلال العقلى • ومع ذلك فأن الرجل الشاب (بارث) رفض أن يتخلى عن مهمته ، وبدأ الاثنان معا فى الذهاب الى يولا Yola الواقعة الى الجنوب ، والتى تمثل المدينة الرئيسية لاقليم أداماوا Adamawa ، ومن هناك واصلا الرجلان طريقهما الى منابع نهر البنوى The upper waters of the Benue أكبر فروع نهر النيجر ، والذى كان جزءه الأسفل فقط هو الجزء المعروف ، وفى يولا كتب بارث يقول ما نصه :

« أن البنوى Benue تتدفق مياهه من الشرق الى الغرب ، فى مجرى عريض ، ويمر من خلال قطر مفتوح تماما ، ويوجد فى هذا القطر سلسلة متقطعة من الجبال الواقعة على مسافة بعيدة detached mountains, standforth »
ويضيف بارث فى قوله : لقد حددت الآن بعيناى وبكل وضوح

اتجاه وطبيعة هذا النهر العظيم ، فقد نظرت نظرات طويلة وصـــامتة على هذا المجرى ، ومرت بذلك لحظة من أسعد لحظات حياتى » •

ومن المحتمل أن يكون كشف أعالى البنوى مساهمة أســاسية من بارث فى مجال المعرفة الجغرافية ، وبعد ذلك كان يريد الذهـــاب بعيدا تجاه الجنوب ، ولكن حاكم اليولا رفض أن يدعه يواصل السفر • لذلك تتبع طريقه الى كوكا Kuka ، بحيث قام برحلة قصيرة الى الشمال من بحيرة تشاد • وترك أفرويج يواصل فحصه للبحيرة ، وبعد ذلك شرع بارث فى محاولة الوصول الى المناطق الواقعة جنوب باجرمى **Baghirmi** ، واكتشف بعد ذلك نهر شارى .Shari R الواقع فى بوجـــومان Baugoman ولم ير بارث أى شىء بالكامل رغم ما بذله من جهد وتنقيب فى تاريخ المدينة ، هذا فضلا عن بحثه عن ظروفها الحاضرة ، وقد لاحظ أن حاكمها كان عليه أن يدفع جزية سنوية تقدر بمائة من العبيد الى سلطان بورنو • عندئذ عـــاد بارث الى كوكا حيث وجد أفرويج مريضـــا ومختل العقل Raving mad • وبعد ذلك بفترة قصيرة مات أفرويج ، وظل بارث الأوربى الوحيد الذى ظل حيا ، ولكنه كان فى حالة ضعف تام Completely destitute •

واتخذ بارث من موت صديقه فلسفة له حيث أعلن ما نصه : « لقد عزمت على الفور فى الشروع للقيام برحلتى الى نهر النيجر ، لمعرفة بلاد وشعوب جديدة » • فلم يثبط موت افرويج من عزيمة بارث • وكتب بارث خطابا أرسله الى أهله جاء فيه ما نصه : ـــ

« وجدت قوايا تتضاعف فشعرت بأننى عملاقاً كبيراً وكنت غارقا فى أحلام تحقيق النجاح ، فى مهمة بارك المستكشف الوحيد الذى أكن لـــه أعجابا غير محدود » •

وبعد أن حقق بارث هذه الإنجازات وصلت اليه من انجلترا النقود والتعليمات التى تخبره بالتقدم على وجه السرعة نحو تمبكتو • فسافر

بارث عن طريق سكوتو وساى Say الواقعة على نهر النيجر • وفى سكوتو استقبله السلطان ، الذى أعطاه بارث عددا من الهدايا التى تضمنت زوج من المسدسات المرصعين ترصيعا ثمينا ، هذا فضلا عن منحه عباءة من الحرير الأحمر المخطط بخطوط صفراء ، وكذلك منحه بنطلون أحمر اللون ، وثلاث من العمائم ، وزوجين من أمواس الحلاقة ، ونصف دستة من المرايا ، وكان هذا السلطان هو ابن السلطان بللو الذى رفض الأهتمام بالمعاهدة التجارية مع بريطانيا والتى بسببها تحطمت مشاعر كلابيرتون الذى مات كسير القلب • وقد عبر بارث عن أســـفه بطريقة كلها تأثر عندما سمع عن الحادثة •

واقترب بارث من تمبكتو مارا من خلال الطريق الذى تبعه الرحالة الفرنسى العظيم رينيه كاييه René Caillié ، فقد فعل بارث مثلما فعل كاييه ، فقام بأرتداء الزى العربى مع أن هذا المسلك كان مخالفا لضميره ، ولكن بينما كان كاييه يهتم اهتماما كبيرا بالمحافظة على تنكره ، نجد أن بارث ، كان يعتمد على Rely on الشيخ باكى Bakcay ، وعندما دخل بارث المدينة كان منهك القوى ، وانتابه اليأس بسبب عدم وجود شيخها فيها • ولما علم أحد أبناء الشيخ بدخول كافر مسيحى (أوربى) A Christian infidel الى المدينة ، أشاع على أثر ذلك إشاعة مفادها أن هذا المسيحى هـــو فى الحقيقة ابن لينج ، وقد أقسم هذا الابن (إبن الشيخ) أنه سوف يقتل بارث • وفى أثناء هذه الأزمة مات هذا الرجل (إبن الشيخ) فجأة وفى غموض • وقد استقبل أتباعه موته بأنه علامة على التدخل الألهى ، وكدليل على أن بارث يجب الا يتعرض للأذى • وأرجعت العناية الألهية الشيخ الباكى El-Bakay ، الذى أتاح الفرصة لبارث بأن يقوم بعمل دراســـة متأنية عن المدينة ، وعلى الرغم من أن بارث كان يؤكد الدقة المتناهية The General Accuracy فى تقرير رينيه كاييه عن رحلته (أى رحلة كاييه) الا أنه لم يلبث أن علق بقسوة على عدم الدقة الكبيرة التى تميز بها تقرير كاييه • وكان بارث دائما كثير النقد للناس ، بخلاف منجوبارك ، فقـــد كان متسرعا فى توجيه النقد الى المستكشفين الذين سبقوه فيما يتعلق

بعدم دقة ملاحظاتهم ، وفى هذه المناسبة يقول بارث ما نصه « وبالأجمال on the whole فانه وصف شكل منازل تمبكتو وصفا جيدا ، وكان الخطأ الوحيد الذى ارتكبه فى تقديمه هو ذكره بأن منازل المدينة كانت تبدو متفرقة ومنعزلة ، وكانت شوارعها فى الواقع مغلقة تماما ، أى أن هـذه المساكن كانت تشكل بصفة مستمرة صفوفا متعرجة » •

فبقاء بارث على قيد الحياة ، جعله فى الواقع يتمكن من قضاء مدة طويلة تصل الى ثمانية شهور فى تمبكتو • وفى الواقع يرجع ذلك الى علمه والى مقدرته على تكوين صداقات بحيث أن الباكى Bakay كان مسرورا لمقابلته للرجل الأوربى ، الذى تمكن من قراءة القرآن ، والذى تمكن من مناقشة مفاهيم الأسلام Muslim Observances ، وكتب بارث ما نصه :

« أنا لم أتقدم الى الأمام ، دون أن أترك صديقا مخلصا من خلفى ، وهكذا تأكدت من أننى لو رغبت فى أن أقتفى أثر خطواتى السابقة ، فأننى من المحتمل أن أفعل ذلك بأمان » •

وبعد أن غادر بارث تمبكتو أبحر هابطا مع نهر النيجر الى مدينة ساى Say ، عندئذ سافر بالبر من خلال سكوتو الى بورنو ، ولازال حتى ذلك الوقت يحمل معه أنواعا مختلفة a ssortment من الهدايا المناسبة ، ففى كل مكان كـان يقف فيه stoping-place كان بارث يقدم مـرآة looking-glass الى أجمل أمرأة ، أما باقى النساء فكن يتسلمن منه أبر الخياطة • وفى مرة من المرات طلب من بارث أن يرتدى ملابسه الأوربية ، فأخرج من أمتعته بدلة سوداء ولبسها فأدت الى خلق فكرة غير محببة عن الزى الأوربى •

وكان قد وصل الى علم بارث أن بعثة بريطانية أخرى فى طريقها الى أواسط افريقيا ويرأسها عالم ألمانى شـاب هـو الدكتور أدوارد فوجيل Edward Vogel ، ولم يمض وقت طويل على مغادرته كانو الا وقد رأى شخصا ذو ملامح غربية يتقدم نحوه ، كان هذا الشخص رجل شـاب

ذو هيئة جميلة ، وكان مرتديا زيا مثل الزى الذى كان يرتديه بارث • فكان مرتديا على رأسه عمامة بيضاء ملفوفة بكثافة حول رأسه • وبرفقته أثنين أو ثلاثة رجال من السود ، كانوا ممتطين الخيول •

وقد أخبر أحد الأفارقة ، وهو خادم سابق لبارث بأن الرجل الشاب ، هو المستر فوجيل Vogel ، الذى أندفع نحو بارث بحيث أصابت الدهشة كل من الرجلين واستقبل كل منهما الآخر من على ظهر حصانه بحرارة شـــديدة •

وقد علم بارث أن فوجيل كان متضايقا لاعتقاده بأن بارث كان قد مات ، وإنه أرسل تقريرا الى أهله عن وفاته • وعندئذ قرر بارث أن يعود بنفسه الى الوطن كى يثبت أنه لا يزال على قيد الحياة ، ولم يمت بعد • وبعد ذلك تفرق الرجلان ، فكان على فوجيل أن يكمل اكتشافات بارث ، فاتجه الى جنوب بحيرة تشاد لكى يكتشف الأقليم الواقع بين البحيرة ونهر النيل • ووصل فوجيل أثناء رحلته عبر افريقيا الى بلدة واداى Wadai التى تقع فى ثلث المسافة من النيل • وهناك تم اغتياله • وبعد مقتله أرسل من أجله مالا يقل عن سبع بعثات للبحث عنه وايجاده•وقد نجحت بعثة واحدة فقط من السبع بعثات فى الوصول الى واداى ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة رجل ألمانى آخر يدعى فون بورمان Maurice Von Beurmann وفى عام ١٨٦٣ م أغتيل بورمـــان أيضـــا •

وفى هذا الوقت عبر بارث الصحراء ، الى واحة مرزوق ، ومنها الى طرابلس ومن الأخيرة وصل الى انجلترا ، وكان ذلك فى خريف عام ١٨٥٥ م ، بعد رحلة دامت lasting أكثر من خمس سنوات • وتعتبر هذه الرحلة سجل للتحمل البطولى ، حيث نتج عنها نتائج جغرافية عظيمة أو على جانب كبير من الأهمية • وفى عام ١٨٦٥ م ، كافأت الجمعية الجغرافية الملكية The Ryal Geographical Society بـــارث بميدالية الجمعيـــة Patron's Medal • وحتى ذلك التاريخ فلم تتبع كشوف بارث بجهود

كشفية أخرى ، حتى أن بارث ظل غير معروف للعامة ، ولكن فيما بعــد جذب الأهتمام والانتباه الى الاكتشافات الهامة فى جنوب افريقيا ، وذلك عن طريق كتابه « رحلات واكتشافات فى شمال ووسط افريقيا فى الفترة ما بين ١٨٤٩ ، ١٨٥٥ ، Travels and discoveries in North and Central Africa, 1849 - 1855. • وقد شرح بارث فى هذا الكتاب العمل الضخم الذى قام به •

وفى هذا الصدد يقول ما نصه « تضمنت سفرياتى منطقة شاسعة من هذا القطر الــذى يمتد فيما بين خطى عرض ٢٤° شمال وجنــوب خط الأستواء ، ويمتد كذلك فيما بين خطى طول ٢٠° الى الشرق والغرب ، بحيث تعتبر هذه المنطقة أعرض جزء فى القارة الأفريقية • وقد اشتملت رحلاتى أيضا على موضوعات كثيرة ومتنوعة • فبعد أن عبرت Traversed الصحراء الشاسعة التى تتميز بالتربة القاحلة والمناظر الكئيبة ، صادفت أثناء سيرى أراض خصبة بها أنهار كبيرة ، وصالحة للملاحة تمتد حتى البحــيرات الوسطى .Extensive Central lakes • وتتزين هذه الأراضى بأجمل أنــواع الشجر ، وتنتج أصنافاً مختلفة من الحبوب Producing various species of grain مثل الأرز rice ، والسمسم Sesame ، والفول السودانى ground - nuts ، الذى ينتج بوفرة غير محدودة ، وقصب الســكر Sugar - Cane ، الخ • علاوة على ذلك فأن هذه الأراضى تنتج القطن Cotton ، والنيلة Indigo ، ويعتبر معظم هذه الغلات سلعا تجارية ذات قيمة ، فكل أفريقا الوسطى Central Africa ابتداء من باجرمى Baghirmi فى الشرق ، وحتى تمبكتو فى الغرب ، غنيAbounds بهذه المنتجات • ولم ينسج الوطنيون الذين يعيشون فى هــذه المناطق قطنهم فقط بل كانــوا يصبغون القمصان التى يصنعونها صناعة محلية made shirts بالنيلة التى يزرعونها • وكان نهر النيجر ، هو النهر الذائع الصيت عندهم ، The far famed Niger ، والذى يعتبر منفذا لهذه المناطق ، وذلك بأستخدام

فرعه الشرقى البنوى Benue ، الذى تم اكتشافه بمعرفتى (بارث) ، وقد زودت الطبيعة هذا الفرع بمسطح مائى شاسع وصـالح للملاحة ، ويبلغ طوله فى داخل القطر ، أكثر من ٦٠٠ ميل • أما فرعه الغربى فتكتنفه الشلالات Rapids فى مسافة يبلغ طولها ٣٥٠ ميلا من الساحل • ولكن حتى عند هذه النقطة فأنه من المحتمل أن يكون صالحا للملاحة فى الحالة الراهنة حيث أننا اذا سرنا الى المنبع فأن النهر يمثل طريقا عاما للملاحة لما يقرب من ١٠٠٠ ميل فى قلب وسط افريقيا الغربية ، الغنى بكل ما ينتج »•

وكان بارث منتباه تماما بسبب ادراكه لأهمية انجازاته التى تمثلت فى رحلته الى تمبكتو • واكتشافه الأجزاء من نهر النيجر • ويتضح ذلك من قوله :

« ورغم أن مصير منجوبارك ظل غير محدد ، وغير معروف للعالم المتحضر ، الا أننى نجحت لدرجة كبيرة فى كل توقعاتى ، بحيث لم يعد تاريخ مقتله معروف فى كل هذه المناطق الشاسعة التى قام باكتشافها ، والتى كانت غير مكتشفة حتى أمام التجار العرب على وجه العموم ، بل وظلت غامضة أكثر من أى جزء آخر فى افريقيا • وفضلا عن ذلك كله نجحت أيضا فى تأسيس علاقات صداقة مع معظم الرؤساء الأقوياء القاطنين على طول النهر من ناحية منبعه ، وحتى المدينة الغامضة نفسها • لذلك لا يوجد مجال للشك فى الطريق الذى تعقبته بنفسى ، ومع ذلك فقد تركت مقدارا كبيرا من العمل لخلفائى من بعدى كى يطوروه • وكان لدى اقتناع بالشعور بأننى فتحت أمام المهتمين بالنواحى العلمية فى أوربا منطقة شاسعة من القارة الأفريقية المنعزلة عن العالم
A most extensive tract of the secluded African world.
فلم يقتصر العمل على هذه المنطقة المعروفة معرفة بسيطة فقط ، بل فتحت اتصالا منتظما بين الأوربيين وبين هذه المناطق كلما أمكن ذلك » •

وقد عاد بارث الى ألمانيا ، وبعد ذلك قام بنشر كتابه • وفى عـــام

١٨٦٣م عمل بارث استاذا للجغرافيا ، ومات بعد ذلك بسنتين two Years Later أى وهو فى الرابعة والأربعين من عمره . وكان بارث أثناء السنتين اللتين سبقتا موته يقوم بالسفر الى بلاد الشرق الأوسط .

ولقد مضى بعض الوقت قبل أن يتم تقييم وتقدير الأعمال الكشفية التى قام بها بارث . ولكن فى عام ١٨٩٠ م وصف مكتشف آخر يـدعى جوزيف تومسون Joseph Thomson عمل بارث فى كتابه الذى كتبه بعنوان منجوبارك والنيجر Mungo Park and the Niger ، يقول فيه ما نصه : « لم يسبق من قبل أن كتب عن حقائق جغرافية A rich harvest of Geographical وسلالية Thnographical ولغوية philological ، فى المجال الأفريقى كالتى كتبها بارث » .

وقبل ذلك بسنوات عديدة ،وعلى وجه التحديد عام ١٨٥٤م، أى فى أعقاب تقرير فوجيل عن موت بارث ،أرسلت بعثة الى افريقيا تحت قيادة قبطان بحرى يدعى وليام بلفور بياكى A Naval Surgeon, William Balfour Baikie ولكن هذه البعثة فشلت فى عمل اتصال مع بارث ، وتمكنت فقط من أثبات أن نهر النيجر وبعض فروعه مثل البنوى Benue كانت صالحة لملاحة السفن التجارية . وكان الأكثر أهمية من ذلك أن هذه البعثة أثبتت القيمة الحقيقية للكنين Quinine المانع للملاريا المخيفة Dreaded Malaria ، حيث أن البعثة قطعت رحلة طولها ٣٠٠٠ ميل الى منبع نهر البنوى ، دون أن يموت أى عضو من أعضائها متأثرا بمرض الحمى .

وبعد ذلك ، فقد اكتشف رحالة ألمانى آخر يدعى جيرهـارد رولفس Gerhard Rohlfs. ، مناطق شاسعة ومجهولة فى الشمال الأفريقى ، فقد بدأ هذا الرحالة عمله عام ١٨٥٥ ، عندما كان يبلغ من العمر ٢٣ عاما ، فكان قد التحق بالكتيبة الفرنسية التى تعمل فى الجزائر The french foreign legion in Algeria كمساعد صيدلى as an apothecary's assistant ،

وقد اشترك جيرهارد عام ١٨٥٧ فى الحملة الفرنسية التى أرسلت الى

افريقيا ، والتى كان من نتائجها هزيمة الكابيلى Kabylie ، وبعـد ذلك بخمس سنوات بدأ جيرهارد رولفس رحلاته الكشفية التى بدأها من طنجه Tangier ، متنكرا فى زى طبيب مسلم As a Muslim physician.

وفى الستة عشرة سنة التالية تجول جيرهارد رولفس فى مساحات شاسعة (من افريقيا) فزار فاس Fez ، ومراكش Morocco ، واتجه بعد ذلك فى مسيره الى الساحل الشمالى الغربى هابطا الى وادى سوس Wady Sus قبل عودته الى الداخل ، أى الى تفيليت Tafilet التى زارها رينيه كايبه René Clillié ، فى أثناء رحلة العودة من تمبكتو • وفى عـام ١٨٦٣ م ، حاول أن يعبر الصحراء الى تمبكتو ، ولكنه فشل فى ذلك ، وفى السنة التالية وبعد زيارته الى تفيليت Tafilet للمرة الثانية ، سافر الى الجنوب الشرقى ليكون الأوربى الأول الذى زار واحة توات Tuat وبعد ذلك بدأ العودة الى طرابلس عن طريق واحة غـدامس ، بحيث كان لينج قد اعتقل Detained فيها أثناء رحلته الى تمبكتو • وفى عـام ١٨٦٥ م ، عبر الصحراء من طرابلس وتقدم الى بورنو ، ومن بعدهـا توجه الى البنوى ، ثم هبط بعد ذلك مبحرا حتى وصل الى التقائه بالنيجر •

وبعد سنوات قليلة أى فى عام ١٨٦٩ م ، كان هناك فى نفس المنطقة الشاسعة ألمانى آخر يدعى ناشتيجال G. Nachtigal ، الذى بدأ رحلتـه من طرابلس ومنها نفذ الى الصحراء الكبرى حتى وصل بعيدا الى هضبة تبستى As far as Tibesti ، وهناك وجد طريقا جديدا يوصل الى كوكـا Kuka ، وتمكن هذا الرحالة من اكتشاف المناطق الواقعة فى الشـمال والجنوب الشرقى من بحيرة تشـاد ، وبدلا من أن يعبر الصحراء الى طرابلس ، عاد الى القاهرة مستخدما طريق واداى Waday الذى قتل فيه فوجيل • وتقع واداى فى اقليم دارفور التابع الى أقليم كردفان •

وفى عام ١٨٧٤ م ، وبعد أن قضى رولفس سنتين تجـول أثنائهما فى أثيوبيا قاد بعثة عبر الصحراء الليبية الى واحة سيوه ، وقد استغرقت

هذه الرحلة وقتا أقل من شهر • وفى عام ١٨٧٨ م ، ذهب رولفس مرة ثانية الى طرابلس ، وهناك خطط للذهاب الى واداى ، ولكنه فشل ، ولم يصل الا الى واحة الكفرة Kufra ، وتمثل هـذه الرحلة رحلته الرئيسـية والأخيرة ، والتى بسببها كان قد كوفىء بالميدالية الذهبية من قبل الجمعية الجغرافية الملكية For which he had already been awarded the patron's Medal of the Royal Geographical society.

وفى عام ١٨٨٥ م ، أى وهو فى سن الثالثة والخمسين عين فى وظيفة جديدة ، هى وظيفة قنصل عـام لألمانيا فى زنجبار ثم مـات بعد ذلك فى عام ١٨٩٦ م •

وبعد ذلك يأتى لويس جوستاف بنجر Louis Gustave Binger وهو ثالث المكتشفين الأساسيين ، والذى كان قد ولد فى عام ١٨٥٦ م ، وعاش حتى أصبح معمرا Lived to a ripe old age ، ومات فى عام ١٩٣٧ م • وكان بنجر جنديا ، وجاء فى بادىء الأمر الى افريقيا فى خدمة عسكرية • وكانت رحلاته التالية تهدف الى تحديد خطوط الحدود الدولية ، وفى الوقت نفسه أهتم لويس جوستاف بنجر بالكشوف الجغرافية أكثر من أهتمامه بضم هذه المقاطعة الى فرنسا • وكانت رحلته الأولى هى أهم رحلاته التى استمرت من عام ١٨٨٧ م ، وحتى عام ١٨٩١ م ، فقد قـاد هذه البعثة الى وطن مجهول ، يقع جنوب انحناءة النيجر • وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن وادى النيجر كان عريضـا للغاية ، ولكن أثبت بنجر عكس ذلك ، اذ أثبت أن وادى النيجر كان ضيقا تماما • وقد أثبت بنجر كذلك أن نهـر الفولتا ينبع بالقرب من مجرى نهر النيجر ، وتمكن لويس جوستاف بنجر أيضا من أن يدحض وجود سلسلة لجبل ضخم ، كانت قد ظهرت على عدد من الخرائط الموجودة فى ذلك الوقت ، وكان هذا القطر يمتد فى غير انتظام حتى يصل الى خط عرض ١٠° شمال خط الأستواء •

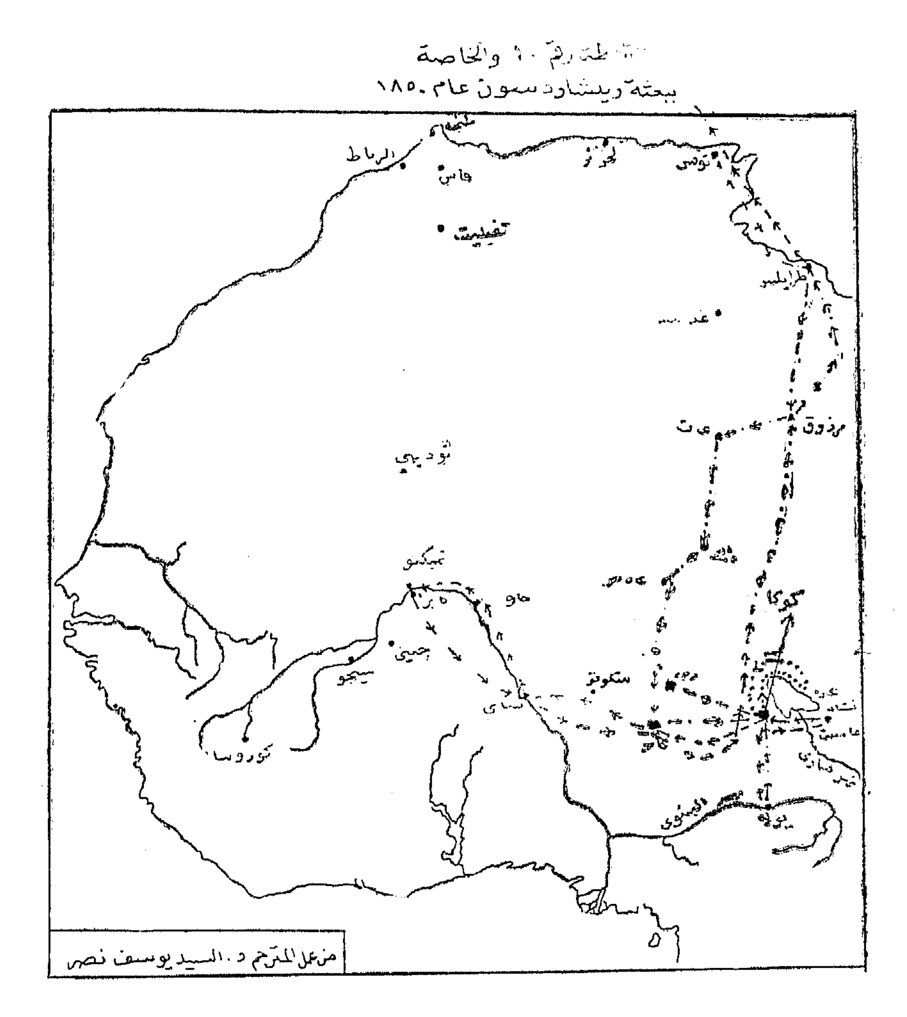
وقد كافأت الجمعية الجغرافية الملكية بنجر بالميدالية بسبب الكشوفات التى قام بها Binger was awarded the founder's Medal the Royal Geographical society for his discoveries.

وفيما بعد ، أى فى عام ١٨٩٢ م ، توغل لويس جوستاف بنجر فى داخل قطر مجهول وكبير جدا الى أكثر من ١٢٠٠ ميل • وكان بنجر يهدف من وراء ذلك الى اقـامة خط للحدود بين سـاحل الذهب البريطانى The British Gold Coast (غانا فى الوقت الحاضر) وبين ساحل العاج الفرنسى The French Ivory Coast ، وقد عين بنجر حاكما لساحل العاج عـام ١٨٩٣ م •

واكمل المكتشفون الآخرون كشوفات بنجر ، وعلى وجه الخصوص ، ما قام به رجل فرنسى يدعى مونتيل P. L. Monteil الذى بدأ رحلته من السنغال عام ١٨٩٢ م ، ثم عبر انحناءة النيجر عند سـاى Say ، وسافر الى بحيرة تشاد عن طريق سكوتو وبورنو ، وبعد ذلك عبر الصحراء من عنـد بحيرة تشاد متجها الى طرابلس •

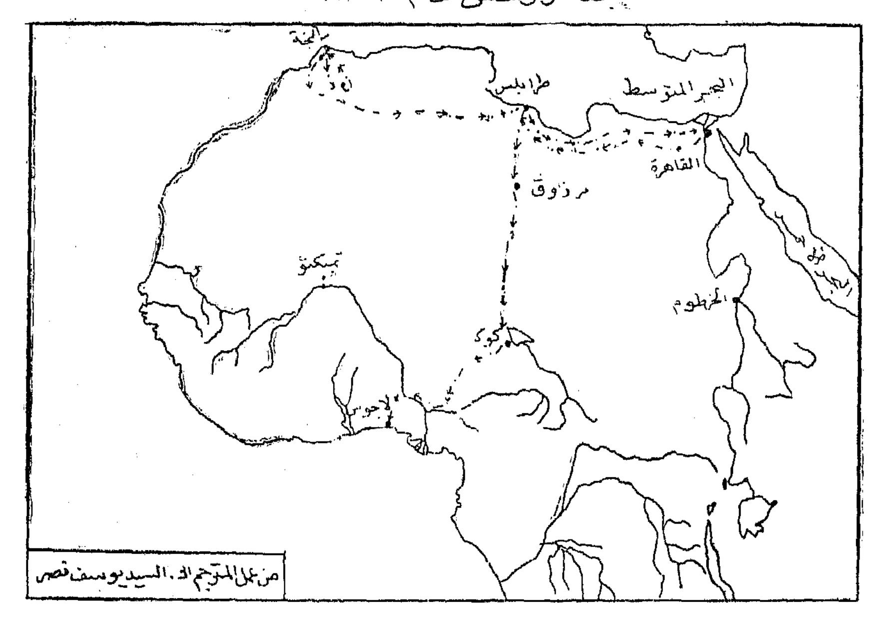
وحتى ذلك الوقت كان يوجد فى مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية ما يمكن القيام به ولكن بحلول هذا الوقت كانت الكشوف الجغرافية الأفريقية قد أفل نجمها ، بسبب تقسيم القارة الأفريقية International Scramble for Africa بين بريطانيا الدولة الأستعمارية ، وبين بقية القوى الأوربية الأخـرى (الرئيسـية) •

الخريطة رقم ١٠ والخاصة
ببعثة ريتشاردسون عام ١٨٥٠

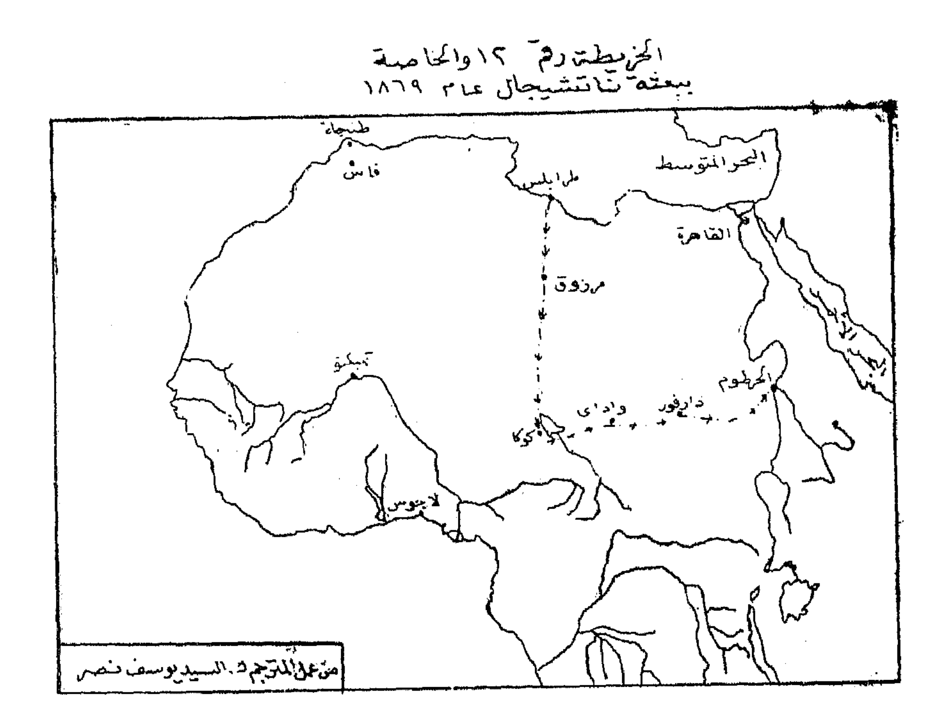


بدأت هذه البعثة مهمتها من تونس عام ١٨٥٠م ، فمرت بطرابلس واير وأغادس . ثم اتجه قسم منها برئاسة ريتشاردسون الى زندر ومنها يتجه الى كوكا . واتجه القسم الثانى الذى كان تحت رئاسة بارث الى كانو ، وبعد ذلك يلتقى أفراد البعثة فى كوكا ، ثم يتجه بارث بعد ذلك شمالا لكشف المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد . ولكن بعد ذلك وردت تعليمات الى البعثة من انجلترا تحثها على السفر من كوكا الى كانو فسكوتو فجاو فتمبكتو ، ثم تعود من نفس الطريق الى كوكا ، ومنها تتجه شمالا عبر الصحراء الكبرى الى انجلترا التى وصلتها عام ١٨٥٥ م .

الخريطة رقم ١١ والخاصة
ببعثة رولفس عام ١٨٦٢



بدأ رولفس رحلته فى الفترة ما بين ١٨٦٢ وحتى عام ١٨٧١ من طنجة ، ففاس ثم عاد الى طنجة ، ومنها اتجه الى طرابلس فمصر ، ثم مرة ثانية الى طرابلس ، ومنها اتجه جنوبا الى واحة مرزوق فكوكا ، ثم اتجه غربا وعبر نهر النيجر الى لاجوس .



بدأ ناشتيجال رحلته من طرابلس عام ١٨٦٩ ، واتجه جنوبا الى مرزوق ، ومنها اتجه الى كوكا ، ثم مر من جنوب بحيرة تشاد مارا ببلدة واداى ودارفور ، ثم وصل بعد ذلك الى الخرطوم عام ١٨٧٤ م .

التعليق على الفصل (٦)

فى هذا الفصل تناولت المؤلفة عددا كبيرا من الرحالة والمستكشفين ، ولكنها لم توضح بصورة كاملة دور كل رحال على حدة ، فى مجال الكشف الأفريقى ، بل نجدها تركز على ثلاثة أو أكثر فقط وأشارت مجرد إشارة الى باقى هؤلاء الرحالة الذين لا يقلون فى الأهمية عن غيرهم • فليس من المعقول أن يترك هؤلاء الذين جـــاءوا الى افريقيا ، دون ابراز دورهم مهما كانت قيمته •

وفضلا عن هذا ، فأنه كان يوجد هناك عدد آخر من الرحـــالة لم تتعرض المؤلفة اليهم نهائيا ، لا من قريب ولا من بعيد مع أن البعض من هؤلاء الرحالة أما أن يكون قد قام برحلة بمفرده أم قام برحلة من قبل حكومته ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر ، الرحلة الخاصة التى قام بها رينتشادسون الى افريقيا ، ثم بعد ذلك أختارته بريطانيا لقيادة بعثة أخرى الى الصحراء الكبرى نظرا لخبرته السابقة فى هذا المجال •

وزيادة عـــلى ذلك فأن المؤلفة لم تقم بتوضيح البعثات الألمانية والفرنسية بل تركت للقارىء التخمين فى هذا الموضوع ، واكتفت بعرضها لعدد كبير من الرحالة من مختلف الجنسيات ، مما يجعل القارىء فى حيرة من عدم معرفته لطبيعة هذه البعثات ، فهل هى بعثات رسمية ، أى أنها أرسلت من قبل حكومات أوربا أم هى بعثات غير رسمية ، يقوم بها أفراد مغامرون مثل لويس جوستاف بنجر Lowis - Gustave Binger وجيمس رينتشاردسون James Richardson فى رحلته الأولى ، وأدوارد فوجيل Edward Vogel وموريس فون بورمـــان Maurice Von Beurmann وجوزيف تومســـون Johseph thomson ، ووليام بلفور بياكى William Balfour Baikie ، وجوستاف ناشتيجال Gustav Nachtigal وبى • الى • مونتيه P. L. Monteil •

ولكن على الرغم من كثرة أسماء هؤلاء الرحالة الا أن المؤلفة لم تبرز الا دور عددا قليلا جدا منهم ، فقد ذكرت ذلك آنفا . لذلك رأيت أن أقوم بالقاء الضوء بإيجاز على الرحالة الذين لم تتعرض المؤلفة لتاريخهم ، ومن المعروف أن هؤلاء المنسيين كان لهم دورا لا يقل فى أهميته عن الـــدور الذى قام به غيرهم .

وكان من هؤلاء الرحالة الذين لم تتعرض لهم المؤلفة بالدراسة جون دافيدسون John Davidson الذى كان قد سافر من قبل ، وعلى نطاق واسع إلى أوربا الشرقية ، وإلى وسط وشمال أمريكا . وبعد ذلك وجه اهتمامه الى الصحراء الكبرى ، وكانت خطته أن يعبر الصحراء من خلال طريق القوافل ، الذى يمر من أرض موريتانيا الصحراوية Waste land ، ولكنه كان قد حذر من اختيار هذا الطريق بسبب الحرب القبلية ، ومع ذلك فلم يرجىء دافيدسون الرحلة put off بل بدأها عام ١٨٣٦ م ، من موجادور Mogador (تعرف فى الوقت الحاضر بأسم الساويرا Essaouira) الواقعة على ساحل مراكش وقد استغرقت هذه الرحلة ستة أسابيع . ولكنه لم يكملها لأن التجار العرب قاموا بقتله ، حيث أنهم خشوا على أن يكون مجيئه مقدمة لتدمير تجارتهم . وبعد ذلك أبدت بريطانيا اهتماما خاصا بطريق الصحراء وبصفة خاصة منذ السبعينات من القرن ١٩ .

ومن بعده قام جيمس ريتشاردسون James Richardson الـــذى ينتمى الى جمعية الأنجيل البريطانية A British Bible Society عام ١٨٤٥ م برحلته الأولى من طرابلس ، وتجول على نطاق واسع كرجل أوربى ، ففى البداية كان قد تقدم صوب الجنوب الغربى من واحة غيدامس Ghudamis ، ومنها اتجه الى الجنوب حتى وصل الى واحة غات Ghat . وقد تمكن من قطع مسافة طولها ٤٠٠ ميل . وفى غات قوبل جيمس رتشاردسون بحفاوة بالغة من قبل السلطان الذى أعطاه هـــدايا ليأخـــذها معه الى الملكـــة فيكتوريا . وفى تلك الأثناء سجل ملاحظات تفصيلية عن تجار الرقيق .

وبعد ذلك ، بدأ رحلة العودة الى ساحل البحر المتوسط ، ومن هناك سافر على متن سفينة الى لندن •

وقد قطع جيمس ريتشاردسون أثناء هذه الرحلة مسافة طولها ٧٠٠٠ ميل عبر الصحراء • وكان لتقريره آثار بالغة الأهمية وبخاصة بالنسبة لما يتعلق منه بالمعاملة القاسية التى كان العبيد يلقونها من قبل تجار الرقيق (النخاسة) • وقد حرك هذا التقرير مشاعر الناس فى بريطانيا بصورة فعالة ، ومن الجدير بالذكر أن المؤلفة لم تتناول هذه الرحلة ، بل تناولت الرحلة الثانية التى قام بها ريتشاردسون •

ونتيجة لهذه الرحلة أصبحت الحكومة البريطانية مهتمة اهتماما كبيرا بفكرة حصر طرق القوافل التى تربط بين واحات الصحراء وبين المدن الواقعة على الحافة الجنوبية للصحراء • وبعد عودة ريتشاردسون من رحلته بسنوات قليلة ، قررت الحكومة البريطانية ، ارسال بعثة رسمية وهى التى أشارت اليها المؤلفة لكشف هذه الطرق لكى تحصل على معلومات أكثر عن تجارة الرقيق • وكانت الحكومة البريطانية قد قررت أن يتولى ريتشاردسون رئاسة هذه البعثة والذى طلب أن تكون بعثته هذه على المستوى العالمى ، كما طلب أن يكون أعضاؤها أكثر تقدما فى مجال الكشف الجغرافى الأفريقى ، منه فى مجال المغامرات الرومانسية التى كانت تحدث فى الماضى •

وعندما علم السفير البروسى فى لندن بذلك اقترح على ريتشاردسون اسم شاب ألمانى يدعى هنريش بارث الذى كان له خبرة سابقة فى مجال الكشف فى الشرق الأوسط وفى شمال افريقيا ، وعندما سأل ريتشاردسون هنريش بارث أن ينضم الى بعثته وافق على الفور ، وبدأ هنريش بارث فى تدريب نفسه تدريبا جيدا ، كى يعد نفسه على تحمل مهام البعثة • وكان العضو الثالث فى هذه البعثة هو أدولف أفرويج Adolf Overweg ، وفضلا عن ذلك فقد ضمت هذه البعثة عددا آخرا من المرشدين والخدم ،

وكانت قد بدأت مهمتها عام ١٨٥٠ ، ويبدو أنها كانت معدة اعدادا جيدا •

وكان أفراد هذه البعثة قد حملوا معهم الى جانب الأمتعة والمؤن مركبا صغيرا ، كان الغرض منه استخدامه فوق مياه بحيرة تشاد • وبعد أن بدأت البعثة مهمتها دب الخلاف بين كل من (ريتشاردسون وبارث) لذلك انقسمت البعثة الى قسمين ، ضم القسم الأول الألمانيين اللذين سارا فى المقدمة ، ومن بعدهم بمسافة كبيرة سار القسم الثانى برئاسة ريتشاردسون ومعه البحار الانجليزى الذى كان قد قدم للعمل على المركب ، وفى المساء عسكرت البعثة فى معسكرين • وفى عام ١٨٥٠ م ، وصلت المجموعتان الى واحة مرزوق ، ومنها واصلتا السفر الى واحة غات Ghat وهناك قضت البعثتين عدة أيام خارج هذه الواحة ، حيث قرر بارث أن يتسلق جبل أدنين المجهول Mysterious Mount of Idinen ويحسب ما ذكر رجال الطوارق فأن هذا الجبل كان مسكونا بالأرواح الشريرة Inhabited by evil spirits ، وبعد فترة من المسير نفد الماء من بارث ، بل وضل طريقه ، وسقط على الأرض وهو شبه فاقد للوعى Semi Conciousness ، ولكنه نجح فى تجنب الخطر بسبب فتح أحد شراينه وشرب دمه ، وفى تلك الأثناء عثر عليه رجال الطوارق الذين أرجعوه الى افرويج •

وبعد ذلك اتجه ريتشاردسون الى بحيرة تشاد واتجه بارث الى كانو وكاتسينا • وكان الرجال الثلاثة قد اتفقوا على الالتقاء فى كوكا فى شهر ابريل عام ١٨٥١ م • وعلى الرغم من ذلك فلم يحافظ ريتشاردسون على موعد هذا اللقاء ، مع أن أفرويج كان قد وصل الى بحيرة تشاد ، وهو فى حالة منهكة ، بل وكان يعانى من الحمى ، وفى هذا الوقت كان بارث قد اكتشف المقاطعة الواقعة الى الجنوب الشرقى من بحيرة تشاد • وبعد أن كان عليه أن يستكشف البحيرة نفسها • ومكث بارث وأفرويج فى منطقة البحيرة ١٥ شهرا • وفى تلك الأثناء مات ريتشاردسون • ولما علمت الحكومة البريطانية بوفاته عينت بدلا منه بارث قائدا لهذه البعثة ،

وزودته بالأموال لكى يواصل سفره حتى يصل الى هدفه الثانى وهو مدينة تمبكتو • اذن يمكن القول أن الهدف من بعثة ريتشاردسون الرسمية كان الوصول الى بحيرة تشاد وتمبكتو •

وقبل أن يبدأ الرجلان رحلتهما مات أفرويج بسبب مرض الملاريا اذن يمكن القول أن البعثة فقدت من أعضائها اثنين هما ريتشاردسون وافرويج الذى كان عمره آنذاك ٢٩ عاما •

وبعد ذلك ، كان بارث قد تعرض لمرض الدوسنتاريا والحمى ، كما تعرض أيضا لفقده لكل من ريتشاردسون وأفرويج ، ومع ذلك فأنه قرر مواصلة السفر • ففى نهاية ١٨٥٢ م ، غادر بارث عاصمة البورنو ، بعد أن قضى ٣٢ شهرا فى الرحلة ، ابتداء من طرابلس • وفى سبتمبر عام ١٨٥٣ م وصل الى تمبكتو ووجدها فى حالة رخاء ، ولكنها لم تستعيد مركزها التجارى التى كانت تتمتع به فى التسعينات من القرن الخامس عشر وما قبله •

وفى بداية عام ١٨٥٤ م ، غادر بارث تمبكتو واتخذ طريقه تجاه الشرق الى بحيرة تشاد • وفى الطريق الى هذه البحيرة كان قد علم بأن الحكومة البريطانية قد أرسلت بعثة أخرى للبحث عنه ، وكانت هذه البعثة قد وصلت بالفعل الى بحيرة تشاد • وكان على رأسها أدوارد فوجيل A German Edward Vogel • وبعد مقابلة دامت فترة قصيرة سافر بارث بعدها الى كوكا ، وسافر فوجيل الى زندر وهى مدينة تقع على مسافة ٣٠٠ ميل غرب تشاد وكان عليه الانضمام الى بارث الذى سوف يبدأ رحلته الأخيرة عبر الصحراء الى انجلترا ، ولكن فوجيل غير رأيه واتجه صوب واداى الواقعة فى غرب السودان •

وفى النهاية عبر بارث الصحراء فى مايو ١٨٥٥ م ، رغم الحرارة الشديدة وتمكن من الوصول الى طرابلس • ومنها سافر الى لندن بعد أن مكث فى افريقيا خمس سنوات •

ومن بعد هنريش بارث يأت دور أدولف لودويج أفرويج Adolf Ludwig Overweg الذى عاش فى الفترة مابين١٨٢٣م،١٨٥٢،فهو مستكشف ألمانى ساهم فى كشف افريقيا • ففى عام ١٨٥٠ م ، التحق بالبعثة التى ضمت كل من جيمس ريتشاردسون وهنريش بارث ، وكانت هذه البعثة قد بدأت مهمتها من طرابلس متجهة صوب بحيرة تشاد ونهر النيجر وقبل أن تصل هذه البعثة الى بحيرة تشاد انفصل الرجال الثلاث عن بعضهم • ولما وصل أفرويج الى بحيرة تشاد قام بكشفها ثم مات بعد ذلك قبل أن يبدأ الرحلة الى تمبكتو والنيجر (١) •

ومن بعد أفرويج يأتى دور الطبيب وليام بلفور بياكى William Balfour Baikie ، الذى أرسله السير رودريك مارشيزون Roderick Murchison رئيس الجمعية الأفريقية عام ١٨٥٤ م الى افريقيا ، ليقوم بمعالجة أفراد البعثة التى أرسلت الى نهر النيجر عام ١٨٥٤ م ، وكانت هذه البعثة قد سارت مسافة طويلة مع نهر البنوى ، ويرجع الفضل كل الفضل فى عدم تعرض أفرادها الى المرض الى الطبيب بياكى الذى استخدم الكينين Quinine فى علاجهم ، فلم يمت عضو واحد من أفراد هذه البعثة •

وبعد عودة هذه البعثة الى لندن عاد بياكى الى النيجر عام ١٨٥٧ م ، وكان بصحبته كل من كروثر Samuel Crowther والملازم جلوفر Lieutenant Glover ، وكان الهدف من هذه البعثة هذه المرة هو التأكد من أن التجارة هى أحسن وسائل الإتصال مع السكان (الأفارقة) ، ولهذا قام كروثر بتأسيس أول مركز لأول بعثة تبشيرية مسيحية فى نيجيريا عند التقاء النيجر بالبنوى • واستقر بياكى مدة ست سنوات فى هذه المنطقة وكان يقوم خلالها بشغل وظيفة القنصل البريطانى ، بالإضافة الى أنه كان حاكما لمقاطعة النوب Nupe وفى تلك الأثناء ، كان بياكى يمارس مهنة

---

(1) Encyclopedia of discovery and Exploration, London, 1971. No. 3, pp. 58, 61, 82.

الطب ، كما أنه كان يمارس التجارة ، ومع ذلك فأن الحكومة البريطانية كانت قد أهملته وبخاصة فى بداية ممارسته لهذه الأعمال ، وعندما شعر بذلك رفض التعاون مع الحكومة البريطانية ، ولكن كان هـذا الرفض بطريقة مهذبة • وفى عام ١٨٦٤ م أصبح بلفوربياكى أفريقيا أكثر منه أوربيا ، ورأى بياكى أنه فى امكان الأوربيين أن يعيشوا فى افريقيا بدون تعرض لأى خطر على جنبات نهـر النيجر • وبعد ذلك مات هذا الطبيب الشاب فى سيراليون وهو فى طريق عودته الى وطنه (٢) •

وكان من الرحالة الذين ساهموا فى مجال الكشف الأفريقى جوزيف تومسون Joseph Thomson الذى عاش فى الفترة ما بين ١٨٥٨ ، ١٨٩٥ م • كان جوزيف هذا جيولوجيا اسكتلنديا ساهم فى كشف افريقيا • ففى عام ١٨٨٣ م ، قام تومسون برحلتين الى افريقيا ، لأن الجمعية الأفريقية الملكية كانت قد طلبت منه أن يستكشف طريق آمن يمر من خلال وطن المساى • لهذا كان عليه أن يبدأ رحلته من ساحل شرق افريقيا وحتى بحيرة فيكتوريا ، فكانت بعثته قد غادرت زنجبار فى مارس عام ١٨٨٣ م ، ووصلت الى بحيرة فيكتوريا فى شهر ديسمبر من نفس العام وعادت بعد ذلك الى الساحل فى مايو من العام التالى ، بعد أن كانت قد اكتشفت بحيرة بارنجو Baringo وجبل الجون Elgon Mountain ، وقد قام تومسون بعدد من الرحـلات الى افريقيـا كـان منها الرحلـة التى قـام بهـا فى الفترة مـا بين ١٨٩٠ ، ١٨٩١ م ، فكـان قـد سـافر الى الشـمال من نهـر الزمبيزى حتى وصل الى المنطقة الواقعة بين بحيرتى نياسا وبنجويلو ، وقد قطع أثناء هذه الرحلة ١٠٠٠ ميل فى اقليم مجهول ، وعقد اتفاقيات تجارية مع الشيوخ المحليين • وفى رحلته التالية كانت صحته قد تدهورت ومات وهو فى سن السابعة والثلاثين من عمره •

ومن بعده قامت امرأة هولندية تدعى المسز تنييه برحلة كشفية عام

---

(2) David Mountfield : Ahistory of African Exploration, London, 1976. p. 85.

١٨٦٩ من طرابلس ، وقد تكونت هذه البعثة من اثنين من البحارة الهولنديين ، وبعد ذلك التحقت بقافلة كانت متجهة صوب الجنوب ، فوصلت الى واحة مرزوق ، وربما يرجع السبب فى ذلك الى أن المسز تنبيه لم تكن على دراية بطريق الصحراء .

وبعد ذلك غادرت بعثة تنبيه واحة مرزوق فى طريقها صوب الجنوب ، وفى تلك الأثناء التقت هذه البعثة مع أحد شيوخ طوارق الحجار الذى استمالها لكى يقوم بحراستها حتى تصل الى واحة غات Ghat . وبعد مضى أيام قلائل على بدء الرحلة هاجمها هذا الشيخ ورجاله من الطوارق ، وقطعوا أحد أذرعها ، ومن المحتمل أن يكون السبب فى ذلك هو منعها من إستخدام مسدسها ، وظلت هذه السيدة ملقاة على رمال الصحراء فى حرارة الشمس الشديدة وهى تدمى ببطء حتى فارقت الحياة . ويقال أن السبب فى اغتيالها يرجع الى أن قافلتها كانت تحمل معها برميلين للمياه ، فأعتقد هذا الشيخ بأن هذين البرميلين كانا مملؤين بالذهب . فقد آثار ذلك رغبة هذا الشيخ فى التخلص منها والاستيلاء على هذين البرميلين . ومن المعروف أن المسز تنبيه كانت قد قامت قبل ذلك ببعثة الى منطقة بحر الغزال ، وقد نجحت فى الوصول الى هذه المنطقة ثم عادت سالمة .

وقد انتهت حياة المسز تنبيه هذه النهاية المفجعة فى الصحراء الكبرى ، نتيجة حبها فى الكشف والأرتياد ، ونتيجة لتحقيق الشهرة فى مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية ، ولكن أن دل هذا على شىء فأنما يدل على العزيمة الصادقة المخلصة ، حتى ولو كان وراء ذلك الرغبة الشخصية فى تحقيق المجد والرفعة .

وبعد ذلك يأتى دور المستكشف جوستاف ناشتيجال Gustav Nachtigal ، الذى عاش فى الفترة ما بين ١٨٣٤ ، ١٨٨٥ م والذى أوفد من قبل ملك بروسيا عام ١٨٦٩ ، لكى يوصل الهدايا الى سلطان بورنو ، فسافر الى فزان ، ومنها توغل فى الصحراء ، فأكتشف هضبة تبستى فى

الفترة ما بين ١٨٧٠ ، ١٨٧٤ • ومن هناك عبر ناشتيجال الصحراء الى منطقة بحيرة تشاد ، وواصل المسير حتى وصل الى دارفور وكردفان ، وبعد ذلك أتخــذ طريق النيل الى القــاهرة • وفى عام ١٨٨٢ م ، عين ناشتيجال قنصلا لألمانيا فى تونس ، وبعد سنتين زار غرب افريقيا ، فقد زار توجو والكاميرون بصفته نائبا للأمبراطور الألمانى •

ومن الرحالة الذين لم يلقوا الاهتمام من جانب المؤلفة ، الرحالة الألمانى جيرهارد رولفس Gerhard Rolfos ، وهو جندى ألمانى كان قــد أعد نفسه للسفر الى الصحراء فالتحق بالقوة العسكرية الذاهبة الى الجزائر عام ١٨٦٢ م ، وتنكر فى زى رجل دين • وبدأ رحلته الى داخل مراكش ، ومنها سافر الى واحة تفيليت ، وكان الأوربى الأول الذى زار هذه المنطقة منذ أن كتب رينيه كابيه تقريرا عنها • وكانت الرحلة الثانية التى قام بها جيرهارد رولفس أكثر طموحا ، فمن تفيليت تقدم رولفس صوب الجنوب الشرقى من واحة صالح الواقعة فى قلب الصحراء،وكان رولفس هذا يهدف من وراء ذلك الى زيارة تمبكتو ، ولكن مشروعه لم ينته بعد لأن نقوده كانت قد نفدت ، فأضطر الى التخلى عن هذا المشروع • وبدلا من ذلك اتجه شمالا مارا من خلال غدامس Ghidamis الى طرابلس ومنهــا الى ألمانيا •

وبعد ذلك نتحدث عن دور اوسكار لينز Oscarlenz الذى لم يلق الأهتمام من جانب مؤلفة الكتاب ، والذى كان عليه أن يعبر الصحراء من مراكش حتى يصل الى مصب نهر السنغال ، وهــذا الطريق كان مشــابها للطريق الذى اتخذه رينيه كابيه • وكان لينز أثناء هذه الرحلة يصطحب معه جماعة صغيرة من الأفراد ، واستغرقت هذه الرحلة ٤٠ يوما وصل بعدها الى تمبكتو التى قضى فيها ١٨ يوما ، وكانت هذه المدة من أحسن أيام حياته • وذكر لينز فى تقريره عن تمبكتو أنها لازالت مضمحلة مع أن الوضع السياسى فيها كان أقل توترا • وفى منتصف يوليو عام ١٨٨٠ م غادر لينز تمبكتو ، حيث وصل الى مركز فرنسى يقع على نهر السنغال •

فرنسا فى عمق الصحراء ، فكانت تتكون من ٦٠ ضابطا ، ومن ٤٦ جنديا ، ومن ٣٦ من رجال القبائل الأفريقية ، وكان الهدف من هذه البعثة القيام بعملية مسح وكشف للصحراء ولمنطقة الشمال الشرقى من جبال الحجار التى يقطنها طوارق الحجار الذين يكرهون الفرنسيين •

وكان نقص الماء بالنسبة لهذه البعثة يمثل المشكلة الكبيرة ، وزاد من خطر هذه المشكلة كثرة عدد أفراد البعثة ودوابها ، لهذا كانت الحالة ملحة للماء وزاد الطين بلة أن رجال قبائل الطوارق كانوا يرفضون تزويد البعثة بالمياه حتى يعرضوا أرواح أفرادها للخطر كى يتمكنون من القضاء عليها بعد ذلك فى سهولة ويسر •

وقد ألتقى عدد من رجال قبائل الطوارق بالكولونيل الفرنسى اكسافيه فلاتيه Colonel Paul Xavier Flatters وأخبروه أنهم سوف يأخذونه الى بئر مياه ، لكى يحصل على احتياجاته من المياه من هذه البئر ، وبالفعل اقتنع فلاتيه بما قالوه له وذهب معهم وبصحبته مجموعة صغيرة من رجال البعثة • وقد ترك فلاتيه من خلفه الملازم ديانوس Lieutenant Dianous الذى كان مسئولا عن المجموعة الرئيسية للبعثة •

ولكن لما وصل فلاتيه الى هذه البئر انقض الطوارق عليه وعلى رجاله مستخدمين فى ذلك الأسلحة النارية ، وقتلوا كل الأفراد ما عدا عدد قليل من الجمالة العرب Arab Camel-men، الذين هربوا عائدين الى المعسكر ، ولما سمع ديانوس عما حدث كان عليه مواجهة ما يطرأ من صعاب وبخاصة أثناء عودته الى الأوارجلا Ouargla ، ومعه بقية الأفراد الأحياء الذين كان ينبغى عليهم أن يبدأوا الرحيل سيرا على الأقدام ، لأن الطوارق كانوا قد شتتوا بعيدا ما تبقى من الأبل الخاصة بهذه البعثة •

وقد عاد الجميع من خلال الصحراء وهم فى حالة شديدة من اليأس • ومن ناحية أخرى كان رجال الطوارق يطاردون هذه البقية الباقية من البعثة الفرنسية ، فقتلوا ديانوس ومات معظم الرجال فى الطريق بسبب

الجروح والعطش والجوع ٠ وعند نفاد الطعام لجأ هؤلاء الأفراد الذين ظلوا على قيد الحياة الى تناول أجسام رفقائهم الموتى ٠

وقد أثرت كارثة بعثة فلاتيه على الــروح المعنوية للفرنسيين اذا خططت حكومة فرنسا ، كى تنشىء طريقا جديدا يمر من الصحراء ، ولكن مالبثت أن تخلت الحكومة الفرنسية عن هذه الفكرة ، لأنه كان من الصعب عليها أن تشق طريقا فى الصحراء الكبرى لأسباب مادية وطبيعية ، ولهذا ركزت اهتمامها فى الشمال فأستولت على تونس عام ١٨٨٤ ٠ وفى عــام ١٨٩٥ مدت نفوذها الى المنطقة الواقعة حول تمبكتو بما فى ذلك أجزاء كثيرة مما يسمى فى الوقت الحاضر بمحمية السودان الفرنسى ٠

ورغم كل هذه المحاولات التى قام بها الفرنسيون ، الا أن البعض منهم لم يفقد الأمل فى بســط النفوذ الفرنسى فى الصحــراء الكبرى ٠ ففى عام ١٨٩٨ م سنحت الفرصة الى فرناند فور لامى الذى رغب فى المجىء الى الصحراء الكبرى مرة ثانية ، وبخاصــة بعد أن ســمعت الجمعية الجغرافية الفرنسية French Geographical Society عن انجازات فورلامى فوافقت أن تقدم له العون لو كان فى إمكانه القيام على رأس بعثة بهدف كشف الصحراء الكبرى ، وبخاصة المنطقة الواقعة بين الجزائر والسودان ٠ وقد انتهز فورلامى هذه الفرصة ووافق على قيادة هذه البعثة ، وقد زود بقوة عسكرية تولى هو قيادتها ، وكانت هذه البعثة بمثابة جيش صغير ، وسلح أفراده بالبنادق والمدافع الصغيرة والمدافع الخفيفة ، وكان الهدف من إرسال هذه البعثة التى يمكن تسميتها بتجريدة حربية مهاجمة الطوارق ٠

وبعد ذلك انطلقت هذه التجريدة التى كانت تسير فى شكل طــابور طويل ، واتجهت صوب الجنــوب الى الهضبة الوسطى من الصــحراء والى جبال الحجار المخيفة ٠ وفى هذه المنطقة التقت هذه التجريدة بالطوارق الذين كانوا يتسلحون بالسيوف والحراب والبنادق ، لذلك لم يقم الطوارق بمهاجمة الحملة ، ولكنهم استخدموا ضدها الدهاء فرفضوا تزويدهــا

بالطعام والماء اللازم للجمال • عندئذ أندفع الفرنسيون من خلال المقاطعة الواقعـــة بين تسلين أجير Tassilin-Ajjer وبين جبال الحجار ، وكان من نتيجة ذلك أن فقدت الحملة فى أسبوع واحد أكثر مما يزيد على ١٠٠ جمل •

وفى هذا الوقت ، كان الفرنسيون قد قطعوا مسافة نصـــف الطريق الذى يمر عبر جبال الأير Air Mountains ، وعلى أثر ذلك ماتت كل الجمـــال ، وحرقت معظم الأمتعـــة ، ودفن مقـــدار كبير من الذخيرة Ammunition ولكن مع ذلك ، واصل الفرنسيون مسيرهم حتى إن أغلبهم كان يرتدى زيا عبارة عن خرق ، هذا فضلا عن أنهم كانوا فى حالة شديدة من الجوع ، وبعد صراع مرير من أجل التغلب على المسير فى هذا الطـــريق وصلوا الى مدينة زندر Zinder ، وبذلك تكون البعثة قد قطعت المسافة الواقعة بين السودان والجزائر • ولكن رغم ذلك فأن المحاولات التى قام بها رجال الطوارق لم تنته بعد • ومن زندر تحركت البعثة تجاه الشرق الى بحيرة تشاد ، وهناك تعرضت الى هجوم من جانب جيش قادم من مملكة البورنو ، ولكن الفرنسيين نجحوا فى تحقيق النصر على هذا الجيش فى موقعة كوسورى Kousseri التى اعيدت تسميتها بفورت لامى Fort - Lamy كتذكار للميجور لامى الذى قتل فى هذه المعركة • وقد وضح أن بعثـــة فرناند فورلامى المسلحة تسليحا جيدا قد عبرت الصحراء ، ولكنها لم تستطع التغلب على الطوارق ، وفى نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر ، لم يكن للفرنسيين سيطرة حقيقية على ممتلكاتهم فى الصحراء أو على قبائلها ، لذلك أصر الفرنسيون على أن الجيش يكون فى مقدوره أخضاع رجال القبائل ، لهذا نجد أنه فى عام ١٩٠١ م تولى ضابط فرنسى مسئولية الصحراء ، وعرف كيف يهدىء من غضب الطوارق ، ويحقق الأتصال بين الجزائر والسودان الفرنسى •

وكـــان هذا الضـــابط هـــو مارى جوزيف فرنسوا هنرى لابرين Marrie Joseph François Henri Laperrine

الذى أصبح قائدا ورئيسا لواحات الصحراء الكبرى ، فكان عليه أن يتولى فقط حراسة قواعد الصحراء ، فقام بتجنيد قوة من رجال قبائل الصحراء الذين كانوا أعداء تقليديين للطوارق ، وشكلهم فى ثلاث فرق كبيرة مزودة بالجمال ودربوا تدريبا جيدا ، كما زودوا بالأسلحة والمواد الغذائية • وبعد القيام بعدد من المناوشات الناجحة مع الطوارق بدأت فرق الأبل فى عبور الصحراء دون خوف من أى هجوم •

وفى مايو عام ١٩٠٢ ، وقعت معركة تحطمت فيها قوة طوارق الحجار • وعلى أثر ذلك أطلقت بعثة فرنسية النيران على رجال القبائل الذين كانوا عاقدين العزم على منع هذه البعثة من الأقتراب من واحة صالح المكان التقليدى لالتقاء شيوخهم •

ولذلك واصل الطوارق هجومهم الفعلى على القوافل الفرنسية التى كانت تسافر من خلال مقاطعتهم • لهذا وجه الفرنسيون فرقهم المكونة من رجال قبائل الصحراء ضد طوارق الحجار • وقد تمكنت هذه الفرق الفرنسية من هزيمة طوارق الحجار هزيمة منكرة فى موقعة تيت Tite •

وكانت فرق الجمال التابعة الى لابرين Laperrine تتكون الواحدة منها من عشرين جملا ، وقد مهدت هذه الفرق الطريق عبر الصحراء للاستخدام ، أى أن هذا الطريق أصبح معروفا ، بل ومنظما • وفى عام ١٩١٠ م ، أنشىء فى الصحراء خدمة بريدية منتظمة Regular postal service ، حيث كان البريد يمر عبر طريق تمبكتو الى جبال الحجار ، ثم يصل بعد ذلك الى واحة صالح والى واحة الجولا ثم يصل بعد الأخيرة الى الجزائر ، ولكى يجعل لابرين الحياة تدب فى الطريق الصحراوى أنشأ جمارك لتحصيل الرسوم الجمركية ، وهذا فضلا عن نقله للضباط الفرنسيين من فرق الجمال ، ووضعهم بين مجموعة من بدو الصحراء ، ولم يكن لهؤلاء الضباط مركز قيادة ، بل عاشوا مع جمالهم أينما توجد الأرض الرعوية • وفى عام ١٩٠٥ م ، عبرت جماعة صغيرة من مجموعات

لابرين الصحراء أربع مرات فى آخر فصول السنة دون أن تفقـــد رجلا واحدا أو جملا • وكان من الملاحظ فى الواقع أن الهزيمة الكبرى ممكن أن تحدث فى حالة عبور أفراد كثيرين للصحراء ، وفى هذه الحالة سوف يواجهون الموت دفعة واحدة ، ومن السخرية أن لابرين الذى عمل الكثير من أجل أن يضع الصحراء الكبرى تحت السيطرة الفرنسية مات هناك نتيجة لحادث مؤلم •

ففى عام ١٩٣٠ م ، كان لابرين على رأس بعثة رسمية مكونة من طائرتين كى يقوم بتأسيس خط جوى An air Route عبر الصحراء ابتداء من الجـــزائر وحتى دكـــار ، وفى مكـــان بالقرب من فورت بييربوردى Fort Pierre Bordes سقطت طائرة لابرين أثناء طيرانها بسبب نفـــاد وقودها ، فأرتطمت بالأرض وتحطمت وجرح كتف الجنرال لابرين جرحا خطيرا ، وكانت درجة الحرارة فى الصحراء تزيد على ١٠٠ درجة مئوية ، فى الوقت الذى كان لايوجد مع طاقم الطائرة الا قليل من الماء ، ورغم ذلك نجح ثلاثة من الأحياء من الموت وظلوا على قيد الحياة لعدة أسابيع ، وكانوا جميعا يأملون فى أن شخصا ما سوف يعثر عليهم • وكان لابرين قد زحف بعيدا عن حطام الطائرة ومات على الرمل • وبعد عشرة أيام وجدت جماعة من فرق الجمال جسم الجنرال ومعه اثنين نصف أحيـــاء The two half - dead Survivors

وبعد ذلك ننتقل الى الحديث عن دور المبشرين فى الصحراء الكبرى ، فمن المعروف أنه لم يكن للمبشرين دور فى كشف الصحراء الكبرى ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن العقيدة الأسلامية كانت راسخة فى هذه المناطق من الصحراء ، بل ووقفت هذه العقيدة الأسلامية سدا منيعا أمام المبشرين الأوربيين • ولكن الكاردينال لافيجرى Cardinal lavigerie ، وهو أسقف كاثوليكى رومانى ، رغب فى تأسيس سلسلة من المراكز الدينية فى واحات الصحراء الكبرى يعمل فيها الآباء البيض • وبالفعل بدأ فى ارسال هذه المجموعات من المبشرين ، ولكن اغتيلت الأولى منها عام ١٨٧٦ م •

وبعد تسع سنوات مات أكثر من ثلاثة مبشرين ، ربما بسبب تعرضهم لعداوة القبائل التى رغبت فى أبعاد هؤلاء البيض الذين لم يخف الباقين منهم ، ومع ذلك فلم ينجح قسيس واحدا فى العيش فى سلام بين قبائل الطوارق ، لذلك قرر الأب تشارلس دى فوكولد Father charles de foucauld — الذى كان زميلا للابرين فى المدرسة العسكرية فى باريس — عدم الذهاب مع جيش الصحراء ، وفضل أن يستكشف مراكش • وهناك أصبح له اهتمام متزايد بالحياة مع رجال قبائل البدو • وأخيرا قرر تشارلس أن يعيش حياة راهب فى الصحراء • فبنى لنفسه ديراً فى تمانراست Tamanrasset فى قلب وطن طوارق الحجار ، واستقر هناك وركز حياته فى الصلاة والتدريس لرجال قبائل الصحراء • فكان قد تعلم لغتهم فتمكن من ترجمة أشعارهم ، وألف قاموسا يضم بين صفحاته الكلمات الخاصة بلغة الطوارق • وكانت الصعوبة التى صادفته أثناء تواجده بين قبائل الطوارق صداقته للجنود الفرنسيين الموجودين فى الصحراء ، والذين كانوا مكلفين بفرض السيطرة على قبائل الطوارق •

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى شجع الأتراك رجال القبائل من الطوارق على الأنضمام الى الحرب المقدسة Aholywar ضد المراكز الفرنسية الموجودة فى الصحراء • ورغم ذلك فأن دير فوكولد الواقع فى تمانراست يبدو أنه كان قد تعرض للهجوم فى أحد الأمسيات حيث أطلق الرصاص على الأب دى فوكولد فسقط قتيلا ، لذلك حزنت أوربا على وفاته كمبشر •

ويشير اغتيال تشارلس دى فوكولد على نهاية عهد كشوف الصحراء • ومن المعروف كذلك أن الحرب العالمية الأولى كانت قد جلبت معها عصر السيارة والطائرة الى الصحراء ، بل والآلات التى كان فى امكانها غزو الصحراء والتى أنذرت بأختفاء قوافل الأبل • ومن المعروف أن الجنرال لابرين ، كان قد راح ضحية رحلة الطيران التى حدثت عام ١٩٣٠ م وكانت هذه الرحلة تتكون من طائرتين سقطت الأولى على الأرض وتحطمت ،

بينما واصلت الطائرة الثانية التى كان يقودها الميجور فيوليمن A Major Vuillemin الذى نجح فى إكمال الرحلة .

وكان موت لابرين ، قد حجب الرؤية عن أهمية نجاح الميجور فيوليمن لعبوره الصحراء . ولكن مع ذلك فأن عبور فيوليمن للصحراء الكبرى يعد النصر الأول لعصر الآلة فى شمال افريقيا .

وبعد ذلك بسنتين حدث العبور الأول للصحراء الكبرى بالسيارة فقد تتبعت مجموعة الستروون الفرنسية French Citron السير فى الصحراء الكبرى مستخدمة فى ذلك العربات ، فكانت هذه المجموعة قد غادرت ساحل البحر المتوسط فى شهر ديسمبر عام ١٩٢٢ ، ووصلت الى مدينة تمبكتو بعد شهر من بدء الرحلة . مع أن الأسكندر لينج كان قد قطع هذه المسافة فى أحد عشر شهرا ، كما أنه لم يكن فى امكان قافلة من الأبل السريعة أن تنجح فى قطع نفس هذه المسافة فى أقل من ستة أشهر . وقد أقنع نجاح بعثة الستروون الفرنسية الفرنسيين على أنهم فى الواقع قد غزوا الصحراء .

ويمكن القول أنه فى ذلك الوقت قد تم كشف الصحراء الكبرى بصفه نهائية ، ومع ذلك فلم تعد مسألة التغلب على مصاعب المناخ والتضاريس الأرضية مسألة سهلة . ولكن التاريخ الساحر للصحراء ، جعل الأجيال التالية تشغل نفسها بالقيام بالمغامرات ، ففى عام ١٩٣٣ اكتشف ضابط Lieutenant فرنسى يدعى بريتان Brenans نقوشا لهياكل انسانية ولحيوانات مرسومة على حوائط مدخل حصن صخرى فى تسالين أجير . كما وجد نفس هذا الضابط أسفل حوائط الحصن صخورا ملونة ، كانت تمثل أعمالا فنية مدهشة ، وقد فحصت هذه النقوش فيما بعد بمعرفة العلماء ، وكانت هذه النقوش تكون جزءاً من ثقافة الصحراء فى فترة ما قبل التاريخ . وتوضح هذه الصخور الملونة الأجناس المختلفة من الناس الذين كانوا يعيشون فى الصحراء ، كما توضح أيضا الأنواع المختلفة للحيوانات التى

كانت تتجول هنا وهناك • وتمثلت أهمية هذه الأشياء فى التلوين ، فقد وجدت صور للفيلة ، وهى تملأ خراطيمها بالمياه ، كما وجدت صور للخراتيت وأفراس النهر ، ولكل الحيوانات التى تعيش فى المناطق الأستوائية أكثر من معيشتها فى الصحراء • وقد تفحص الأثريون العصور التاريخية للصحراء ، واتخذوا من الكهف الملون الدليل على تأييد نظريتهم التى يرجع تاريخها الى حوالى ٤٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد • فقد كانت الصحراء الكبرى منطقة استوائية يوجد بها الأنهار والبحيرات والمستنقعات •

والى جانب هذا الأستقصاء التاريخى للفنون التى وجدت فى الصحراء ، فقد وجد فيها كشف هام وحيوى • ففى الخمسينات من القرن العشرين كان العلماء قد تنبأوا بوجود رواسب بترولية كبيرة ، كما تنبأوا بوجود الغاز والمعادن ، والدليل على ذلك أن شركات البترول من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا قد بدأت التنقيب عن البترول قبل أندلاع الحرب العالمية الثانية ، ففى خلال عامى ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ وجدت حقول بترولية كبيرة فى الصحراء ، فقد أصبحت هذه الصحراء واحدة من مناطق انتاج البترول الرئيسية فى العالم •

وكانت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فترة تغيير سياسى ، فمنذ عام ١٩٢٢ ظل جزء كبير من الصحراء تحت السيطرة الفرنسية •

ولكن فى الخمسينات من القرن العشرين تغيرت افريقيا من قارة مستعمرات محكومة من الأوربيين الى قارة مستقلة الأقطار • فمنذ عام ١٩٥٦ ، استقلت تونس وحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢ ، بعد حرب طويلة ومريرة After a long and bitter war •

وكان لشجاعة وتصميم المستكشفين الأوائل لأفريقيا مواهب غزيرة ساعدتهم فى مواجهة غزو بحار الرمال الكبيرة ، ولكن هل استكشاف المناطق المجهولة والغامضة سيستمر ولو بطرق أخرى ؟ نعم سوف يستمر الكشف

فى الصحراء بحثا عن مواردها ، فالصحراء بمســـاحتها الشاسعة تخفى موارد ضخمة هى فى حاجة الى جهد كبير ومتطور ، فهى فى الوقت الحاضر تحتاج الى رجال أعمـــال وسياسيين وعلماء وفنيين ومهندسين ، فهم جميعا سوف يستنبطون المشاريع الخاصة بتنمية هذه المنطقة الغنية ، وسوف تخضع انجازاتهم الى اسرار العصر العلمى التكنولوجى (١) •

(1) The Encyclopedia of discovery and Exploration, Exploring Africa and Asia. Garden City New York, 1973. pp. 457, 59, 61, 63, 69, 71, 74, 76, 80.

الفصل السابع

البعثات الكشفية فى جنوب وشرق إفريقيا

فى خلال مائة وعشرين عاما ، أى منذ أن أنطلق جيمس بروس عـام ١٧٦٨ م ، وحتى عام ١٨٨٨ م ، أصبح شرق ووسط أفريقيا معروفا للعالم الخارجى • ففى وقت واحـد ، تم اختراق الجانب الشرقى من القـارة الأفريقية من نقاط كثيرة • فقد بدأ بعض الرواد من الأوربيين توغلهم فى القارة من جهة الشمال صاعدين مع وادى النيل ، وبدأ البعض الآخر يتقدم من موانىء البحر الأحمر مارين من خلال أرض الصومال ، وأندفع البعض الآخر كذلك من جزيرة زنجبار الواقعة على مسافة بعيدة من السـاحل الى الداخل ، متخذين طريقهم نحو البحيرات العظمى الواقعة فى وسط افريقيا ، ووصل البعض من هؤلاء الرحالة الى نفس المنطقة قادمين من الجنـوب •

وقبل أن نواصل سرد قصة الكشوف الرئيسية فى هذه المنطقة فأنه من الضرورى القاء نظرة على اكتشاف الجزء الجنوبى من القارة ، فقد أعقب نهاية المستوطنات البرتغالية الساحلية فى القرن السادس عشر ، مجىء الهولنديين فى نهاية القرن السابع عشر الى الرأس (رأس الرجاء الصالح) ، وترتب على وصولهم الى هذه المنطقة أن تشتت السكان الوطنيين فى هذه المنطقة ، وكـان عدد من هـؤلاء الوطنيين من البوشمن Bushmen ، والهوتنتوت Hottentots ، وهم شعوب غير محبين للحرب • فقد هرب البوشمن الى المناطق الصحراوية ، بينما أخذ الهولنديون الغالبية العظمى من قبائل الهوتنتوت كعبيـد ، ومنعت شركة الهنـد الشرقية الهولنديـة المستوطنين الأوربيين من اقامة المستوطنات لمدة من الوقت ، وظل السكان

الأوربيين الذين يقطنــون منطقة الرأس يعيشــون فى اعــداد صغيرة ومع ذلك ، فقد كانت الشركة عاجزة عن منع الأفراد المستوطنين من النفاذ الى مسافات بعيدة فى الداخل • وهناك تصادم المستوطنون مع أفراد القبائل الذين يتحدثون لغة البانتو ، والذين كانوا ينتشرون من أواسط أفريقيا فى اتجاه الجنوب بحثا عن أراضى جديدة للمرعى ، وكان البعض من هذه القبائل هادىء الطبع ومسالم ، وكــان البعض الآخــر منهم يتميزون بالقسوة والميل للحرب ، بحيث أنهم كانوا يفترسون Preyedon القبائل الأضعف منهم ، كما كانوا يصطدمون بالمستوطنين الأوربيين •

واستمرت الكشوف رغم وجود هذه الصعوبات ، وفى نهاية القرن الثامن عشر ، أصبح هذا القطر ونهر الأورانج ، وبعض النقاط فيما وراء منطقة جنوب غرب افريقيا معروفة تماما •

وكانت الحروب النابليونية قد انفجرت عام ١٧٩٨ م فى أوربا ، ونتيجة لذلك فقد احتلت بريطانيا منطقة الرأس ، كى تحمى الطريق البحرى الى الهند ، وقد نصت على ذلك أيضا معاهدة السلام التى عقدت عام ١٨١٤م• أستاء البوير (Afrikanners) الذين ينحدرون من المستوطنين الأصليين والذين ينتمون فى الأصل الى الهولنديين من التدخل البريطانى وسيطرته ، ولذلك بدأ الكثيرون منهم فى الرحيل Trek بعيدا • وكان التاريخ التالى لجنوب افريقيا يمثل الصراع الذى نشــب بين بريطانيــا والبوير من ناحية ، وبين اثنين من الغزاة ، أحدهما أوربى والثانى من البانتو الذين زحفوا من الاتجاه المعاكس •

وفى عام ١٨٣٣ ، وصل التحرش أقصى درجة بين بريطانيا والبوير • ففى هــذا العام صــدر قانون بريطــانى يقضى بإلغاء تجــارة الرقيق Britain passed the Abolition of slavery Act ، كمــا يقضى بإطلاق سراح كل العبيد الذين يعيشــون فى الأمبراطورية البريطــانية ، بما فى ذلك مستعمرة الرأس ، ومن أجل ذلك فقد رصدت بريطانيا مبلغ

عشرين مليونا من الجنيهـات كهدية مطلقة وكتعويض لأصحـاب الرقيق فى مقابل خسارتهم • وتعتبر قيمة هذا المبلغ الذى قدم أكبر كثيرا عما تساويه قيمته فى الوقت الحاضر ، وبالطبع فقد منح البوير تعويضا بسبب فقدهم لعبيدهم ، وكان عـلى ملاك العبيد أن يتسلموا تعويضاتهم من لندن • وحيث أنهم كانوا لا يستطيعون ذلك فقد مرت التعويضات من خلال عملاء يتميزون بالجشع والاستهتار •وهكذا فأن التعويض عندما كان يصل الى أصحاب العبيد كان فى الغالب ضئيلا جدا ، وأجبر العبيد المحررين على العمل لدى أصحابهم السابقين كصبية وتحت التمرين لمدة خمس سنوات ، لذلك استمر بعضهم فى عمله بصفة دائمة ، ولكن الكثير منهم لم يكن مرغوبا فيه من قبل أسيادهم الذين رفضوا دفع أجورهم ، وببساطة تركهم أسيادهم ومصيرهم •

وكان عتق الرقيق من أحد الأسباب الرئيسية التى جعلت أعدادا كبيرة bulk من البوير تغادر منطقة الرأس فى أكبر حركة للهجرة A great trek عام ١٨٣٦ • فقد حاربوا معارك يائسة مع الزولو Zulu ، ومع قبائل أخرى محبة للحرب ، ولكن فى خلال سنوات قليلة فأنهم احتلوا مناطق شاسعة من الأرض امتدت صـوب الشمال الى مسـافات بعيدة حتى نهر لمبوبـو Limpopo River • وفى عام ١٨٥٢ م ، أسسوا مدينة الترنسفال ، وبعد سنتين أسسوا دولة الأورانج الحرة •

وقد اكتشفت التخوم الأولية لهذه المنطقة الضخمة بمعرفة المكتشف الكبير والمبشر دافيد لفنجستون David Livingstone ، الذى ولد عام ١٨١٣ م ، فى اسكتلندا من أبوين فقيرين ، ولكنهما كانا متدينين ، وقـد بدأ دافيد لفنجستون حياته بالعمل فى مصنع للقطن ، عندما كـان عمره عشر سنوات ، وفى أثناء ذلك كان يمارس دراساته فى مدرسة ليلية بعد الانتهاء من عمله اليومى • وكان يطمع فى أن يصبح طبيبا ومبشرا ، وفى سن الثالثة والعشرين كان لفنجستون قد أدخر نقوداً كافية كى يـدفع مصاريفه fees فى المدرسة الطبية •

وبناء علـى نصيحة مبشر مشهور هـو الدكتور روبرت موفـات Dr. Robert Moffat الذى عمل لسنوات عديدة لحساب جمعيـة لندن التبشيرية فى جنوب افريقيا ، اختار أيضا لفنجستون افريقيا كمجـال لاكتشافه • وقد استجاب لفنجستون بحماس لاقتراح الرجل المسن بأن عليه أن يعمل من أجل افريقيا اذا كـان مستعدا لمغادرة الأرض المحتلة (جنوب افريقيا) بحيث يتجه نحو الشمال •

ولقد وصل دافيد لفنجستون الى جنوب افريقيا عام ١٨٤١ م ، وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرين عاما ، وكان قوى البنية ، متـأنى فى حركته ، وبطىء فى حديثه ، وذو أسلوب هادىء وواضح ، ولديه شعور قوى نحو واجبه • وقد بدأ رحلته من مدينة كيب تاون Cape Town متجها صوب الشمال ، وقد قطع فى رحلته ما يزيد على مسافة ٥٠٠ ميل ، وكان يركب أثنائها عربة يجرها ثور ، وكان يتخذ طريقه صوب مستعمرة بعثة الدكتور روبرت موفات الموجودة فى كورمان Kuruman • وهناك بدأ لفنجستون على الفور فى دراسة لغة السيشونا Schuana ، واللغات الأفريقية الأخرى ، وتعلم كل ما استطاع تعلمه من تاريخ ، وتقاليـد الشعب الذى سوف يعيش بينه ، وهناك قابل مارى إبنة الدكتور موفات التى تزوجها لفنجستون بعد ذلك ، والتى لم تكن خيالية not Romantic ، بقدر ما كانت سيدة واقعية a matter of - fact lady ، وكانت بدينة قليلا ، وذات شعر أسود ، وكانت قوية ، ويقول لفنجستون هذه هى كل الصفات التى كنت أريدها ، وكانت مارى روبرت موفات زوجة مثالية لرجل اعتقد فى أن يكون رائداً لبعثة تبشيرية لها تأثير أكثر من تأثير رجل يذهب هنـا وهناك واضعا الإنجيل تحت ذراعه • ولم يوجد هناك صعوبة تقف أمام مارى نفسها ، فكانت تواجه المصاعب وتقف الى جوار زوجها ، بحيث عملت معه سنوات عدة أضطرت خلالها أن تجبر على البعد عن زوجهـا دون أية شكوى • وعندما فكر زوجها فى أنه من الأفضل اصطحابها وأطفالها الثلاثة عبر صحراء كالاهارى المرعبة ، وافقت مارى دون أدنى تردد •

وفى غضون سنتين من وصول لفنجستون الى مابوتسا Mabotsa قام ، ببناء مقر خاص لبعثته فيها • وتقع مابوتسا على مسافة ٢٠٠ ميل فى الشمال الشرقى من كورمان•وفى مابوتسا كاد لفنجستون أن يفقد حياته بسبب تعرضه لأسد ، ويقول فى ذلك مانصه : « بدون فخر أن هذا الأسد الذى يتناول لحم الانسان ويفزع أهل القرى ، قد أمسكنى من أحد أكتافى ، فأندفعنا سويا الى أسفل وبزمجرة مرعبة هزنى الأسد ، كما لو كنت فأرا بين مخالب كلب مرعب، وقد تسبب ذلك فى نوع من الرعب بحيث لم يكن هناك إحساس بالألم ، أو شعور بالخوف ، مع أننى كنت مدركا لكل الذى يحدث ، وقد قتل رجل افريقى مسلح بحربة هذا الأسد الذى جرحنى » وكان هذا الأسد قد أذى لفنجستون بدرجة كبيرة حيث أن جروحه كانت تلتئم ببطء ، حتى أنه ظل بقية حياته لا يستطيع تحريك ذراعه الأيسر وكتفه دون شعوره بألم حاد • وعندما سئول لفنجستون عن انطباعه عن هذه الحادثة ، أبدى ملاحظة مختصرة جاء فيها ما نصه :

« كان كل ما يهمنى أو يدهشنى هو من أى جزء سوف يبدأ الأسد فى التهامى أولا » •

ومع ذلك فقد كانت غرائز الريادة قوية لدى لفنجستون ، بحيث سمحت له بالبقاء فى مكان واحد مدة طويلة ولكن بعد أربع سنوات من بقائه فى مابوتسا ، اندفع فى اتجاه الشمال ، وأسس بنفسه مقرا لبعثته فى كوبولونج Kobolong ، الواقعة على الحافة الشرقية لصحراء كالاهارى Kalahari • وهناك مكث خمس سنوات وتعتبر هذه الفترة هى الفترة الحقيقية فقط للحياة العائلية التى تمتع بها هو وزوجته • وبعد ذلك انضم لفنجستون الى صيادين أوربيين عظيمين ، وعبر الجميع صحراء مقفرة وموحشة ، وأصبحوا بذلك هم الرجال البيض الأول الذين تقع أعينهم على بحيرة نجامى Nagami ، الواقعة على مسافة ٨٧٠ ميلا من شمال كورمان • وبعد سنتين عبر لفنجستون مرة ثانية الصحراء ، وكان يأمل فى ايجاد موقع مناسب بالقرب من البحيرة كى يؤسس فيه محطة لبعثته • وقد صحبته زوجته وأطفاله الذين كادوا يموتون جميعا من العطش •

وفى هذا الوقت ، فقد اقتنع لفنجستون بفكرة كشف مجرى مائى كبير ، تسير فيه المراكب من داخل افريقيا الى البحر (المحيط الأطلسى) ويجلب هذا المجرى المائى المبشرين والتجار من الساحل (الى الداخل) ، ولكن اذا كان للمسيحية أن تنتشر وتزدهر فى داخل القارة الأفريقية ، فأن عليه أولا إيجاد المناخ الصحى ، لكى ينشىء مركزا جديدا للبعثة ، ولكن خاب أمله لأنه وجد منطقة بحيرة نجامى Ngami منطقة غير صحية حيث تنتشر فيها الحمى ، وعلى أثر ذلك فقد اندفع لفنجستون مسافة بعيدة فيما وراء البحيرة ، فوصل الى شاطىء نهر رائع ، هـو نهر الزمبيزى Zambizi River . وتمثل هذه المنطقة قلب أفريقيا ، وكان الرجال البيض غير معروفين فيها .

وكان لفنجستون قد وصل الى نهر الزمبيزى عن طريق لينيانتى Linyanti موطن الماكولولو Makololo الذين أعجب بهم عن بقية قبائل البانتو الأخرى ، حيث كان له بعض التأثير عليهم ، وفى هذا الصدد يقول رؤساء القبائل من الماكولولو ما نصه : « نحن نحبك كما لو كنت قد ولدت بيننا » وأضافوا فى قولهم « أنت الرجل الأبيض الوحيد ، الذى أصبحنا نتعامل معه بطريقة عادية ، لذلك فأننا نرغب فى أن تتخلى عن الوعظ الدائم وعن الصلاة . فأنت ترى أننا لم نحصل أبدا على مطر بينما القبائل التى لا تصلى أبدا مثلنا يحصلون على المطر بوفرة ، وكان رد لفنجستون على أصدقائه من قبائل الماكولولو هـو درس فى كيفية استخدام ميـاه النهر فى رى أراضيهم » .

وفى أثناء رحلته شاهد دليل مؤلم على التدمير الذى تسببت فيه تجارة الرقيق التى يقوم بها العرب ، وكذلك تسببت فيه التجارة التى تتم بين القبائل بعضها البعض .

وكان العرب يندفعون الى أقصى أعماق القارة ، وبذلك كانوا يخربون ويدمرون مناطق شاسعة من هـذا القطر . وقد مزق السخط والشفقة

لفنجستون بسبب هؤلاء العبيد التعساء ، وقد أخذ على عاتقه أن يظهر هذا الجرح المفتوح على العالم ، واعتقد لفنجستون أن هذا يمكن حمله فقط بواسطة فتح هذا الوطن للمسيحية وللتجارة الشرعية Legitimate trade ولتحقيق هذا الهدف قرر لفنجستون القيام بعمل بحث يتطلب منه عبور القارة حتى يصل الى الساحل الغربى • وفى عام ١٨٥٢ ، أخذ لفنجستون أسرته الى مدينة كيب تاون ، ومنها أرسلها الى انجلترا • وبعد ذلك بدأ رحلته الى لينيانتى فى اتجاه الشمال وهناك جند سبعة وعشرين حمالا من شعب الماكولولو • وفى نوفمبر من عام ١٨٥٣ ، بدأ لفنجستون رحلته هابطا مع نهر الشوب Chobe. R. ، ومن بعده وصل الى نهر الزمبيزى ، ثم اتجه بعد ذلك صوب الغرب ، حتى وصل الى لواندا الميناء البرتغالى ، وقد استغرقت هذه الرحلة ، سبعة شهور من السفر استعملت القوارب فى الجزء الأصغر منها ، بينما الجزء الأكبر من هذه الرحلة فقد قطع سيرا على الأقدام • وفى النهاية وصل لفنجستون الى لواندا Loanda الميناء البرتغالى • وقد بلغ طول هذه المسافة التى قطعها لفنجستون ١٥٠٠ ميل • وكان من نتيجة ذلك أن أصبح لفنجستون ضعيفا بسبب تعرضه لنوبات الحمى المتكررة ، وقد تغلب لفنجستون على مخاطر عداء القبائل التى يمر من خلال أرضها ، بسبب صداقته لقبائل الماكولولو المخلصة له ، فتخلص بذلك من مخاطر الرحلة •

وفى لواندا ، كان فى امكان لفنجستون الأبحار الى انجلترا على متن سفينة بريطانية ، ولكنه رفض السفر ، وكان الهدف من هذا الرفض أن يعبر افريقيا من الغرب الى الشرق ، كى يطمئن على أن أتباعه من الماكولولو قد وصلوا الى وطنهم بسلام • واستغرقت رحلة العودة الى لينيانتى عاما واحدا ، ولكن بعد أن مكث فيها أسابيع قليلة للراحة انطلق الى الساحل الشرقى ، بعد قيامه برحلة قصيرة هابطا مع نهر الزمبيزى وتمكن أثنائها من مشاهدة بعض الشلالات الكبيرة • ويبلغ عرض النهر عند هذه النقطة ميلا واحدا تقريبا ، بحيث اختفى تلاطم المياه فى مجرى ضيق يبلغ عمقه مئات الأقدام • ولهذا السبب فان النهر فى هذه المنطقة كان مضطربا وهائجا ،

بحيث كان يسير فى مجرى عميق لمسافة عدة أميال ، تاركا أعمدة من البخار ، وسمى الماكولولو هذه الشلالات « بشلالات دخان الرعد » .

ويعتبر لفنجستون الرجل الأبيض الأول الذى رأى هذه الشلالات ، وسماها شلالات فيكتوريا نسبة الى الملكة فيكتوريا وتخليدا لذكراها .

ولمدة من الوقت تتبع لفنجستون مجرى النهر ، وكان يأمل من وراء ذلك أن يجد هذا النهر صالحا للملاحة ابتداء من الشلالات ، وحتى الساحل الشرقى ، وهكذا فقد اقترب لفنجستون بسهولة من الداخل ، وبعد أن ابتعد عن مجرى النهر اصطدم عندئذ بالشمال الشرقى ، وفشل فى البحث عن مكان بالقرب من الحواف الصحية وذلك لإنشاء مراكز للبعثة ، عندئذ عاد مرة ثانية الى الساحل ووصل الى تيت Tete وهى المستعمرة البرتغالية التى تقع على مسافة ٢٥٠ ميلا فى الداخل .

وبعد أن اتفق لفنجستون مع اتباعه من الماكولولو أن ينتظروا عودته من انجلترا أبحر هابطا مع النهر الى ميناء كويلمن Quilimane البحرى ، الذى يوجد فى النهاية الشمالية لدلتا نهر الزمبيزى .

ويعتبر مرور Passage لفنجستون لأفريقيا واحدا من أعظم الأنجازات فى تاريخ الكشوفات فقد قطع لفنجستون مسافة طولها ٦٠٠٠ ميل . وقد أبدى ملاحظات على هذه الرحلة التى استمرت حوالى أربع سنوات ، وكانت هذه الملاحظات دقيقة بحيث أنه فى السنوات التالية استطاع الفلكى الملكى Astroomer Royal أن يكتب ما نصه :

« كل ما فعله الرجل (لفنجستون) لم يسبق له مثيل ، فهل يمكنك الذهاب الى أى منطقة عبر هذه القارة على طول طريق لفنجستون ، وتحدد موقفك ، وتدون الملاحظات وتعتبر ملاحظات لفنجستون أدق ملاحظات قرأتها » .

وأبحر لفنجستون من كويلمان Quilimane الى أرض الوطن ، وكان

شغوفا لرؤية زوجته وأطفاله مرة ثانية ، لأنه كان قد غادر انجلترا منــذ خمسة عشر عاما مضت ، فكان قــد رحل منها مغامرا وعــاد اليها ليجــد نفسه بطلا قوميا ، ومع ذلك فلم يغيره النجاح الذى حققه • وبعد ثمانية عشر شهرا من التبجيل Laudation ، كتب السـير رودريك مارشيزون Sir Roderick Muchison رئيس الجمعية الجغرافية الملكية يقول ما نصه : « بعد كل مظاهر التشريف التى أضفتها عليه الجامعات والمدن ، فإنه لا يزال الرجل الأمين الوفى دافيد لفنجستون ، بعد عودته من أحراش افريقيا » •

وخلال هذه الفترة التى قضاها دافيد لفنجستون فى أرض الوطن ، كتب أول كتاب من كتبه الثلاثة ، وهو بعنوان Missionary travels وبالمثل كان الكتاب الثانى من الكتابين الآخرين بعنوان الزمبيزى وروافده The Zambesi and its tributaries ، وكان الثالث بعنوان last journal الذى نشر بعد وفاته ، وقد أدمج Packed ، مع معلومات جغرافية علمية قيمة ، وقد وصف لفنجستون بجدية فى هذه الكتب افريقيا وشعبها الذى أحبه كثيرا •

وقبل أن يرحل الى افريقيا للمرة الثانية عام ١٨٥٨ م ، كان لديه حماس فى ترغيب المبشرين من الشباب كى يلحقوا به فى محاولته فتح طريق للتجارة ونشر المسيحية • وقد عاد لفنجستون هذه المرة الى افريقيا ، وهو تحت رعاية الحكومة البريطانية كقنصل لبريطانيا فى بلدة كويلمن ، وزود بالتعليمــات الخاصــة بكشــف وادى الزمبيــزى والوقــوف على امكانيات استعماله كطريق عام High way • وفى هذا الوقت أحضر بصحبته مساعدين أوربيين كان من بينهم شقيقه ، وطبيب شاب ، وعالم فى علم النبات Botanist ، يدعى جون كيرك John Kirk ، الذى لعب فيما بعد دورا حيويا فى القضاء على تجارة الرقيق ، التى كان يقــوم بها العرب وبعبارته :

Abotanist named john kirk who was later to play a vital part in the suppression of the Arab slave trade.

وقد استغرقت بعثة الزمبيزى خمس سنوات تعرض لفنجستون خلالها لأقصى المتاعب ، وعلى الرغم من ذلك كانت البعثة تبدو ظاهريا على أنها تسير سيرا طبيعيا . وفى تيت Tete أعد لفنجستون مقرا لبعثته ، وكتب أحد مساعديه يقول ما نصه : « استقبل لفنجستون بحفاوة تذهل العقل من جانب أتباعه من شعب الماكولولو ، حيث اندفع الرجال منهم بحماس شديد فى الماء وغاصت أجسامهم حتى الأعناق ، كى يروا أباهم الأبيض ، ومسكوا بمركب لفنجستون حتى كادوا أن يقلبوه ، وحملوا الدكتور لفنجستون الى الشاطىء وهم يرددون الأغانى طوال الوقت لأن والدهم (لفنجستون) لا يزال عائشا لهم للمرة الثانية » . وفى أثناء هذه الرحلة حفظ لفنجستون وعده بترك أفراد الماكولولو ، كى يعودوا الى قبيلتهم . مع أنه جاءت لحظات رغب فيها بشدة ، الأبقاء عليهم معه لو كان ذلك ممكنا .

وعلى الفور بدأت متاعب لفنجستون ، فقد كان البرتغاليون الرسميون أول الأمر اصدقاء له ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أن كثيرا منهم بسبب الربح انغمس فى تجارة الرقيق ، وعندما تحقق من ذلك لام البرتغاليين بلهجة عنيفة . كما تحدث أيضا مع مساعديه الذين طلب منهم الطاعة العمياء unquestioning obedience وأن يكون لديهم قوة احتمال وعدم اكتراث بالمرض وأن يكونوا أقوياء ومن سوء حظ بعثة لفنجستون أن نشب صراع بين أفرادها ، وفى أغلب الظن كان هذا الصراع ينشب بين القائد (لفنجستون) وأتباعه ، وكان أخوه المحرك الرئيسى لهذه الصراعات . وكان كيرك من بين أفراد البعثة ، الذى يشبه لفنجستون فى صفاته . وعلى الرغم من اخلاصه الى الرجل الذى يكبره سنا (لفنجستون) الا أنه كان مدركا لفشله . وكان كيرك يدرك تماما أن السبب فى ذلك يرجع الى سنوات العزلة والوحدة التى كانت قد ألقت بثقلها على مزاج لفنجستون ، هذا فضلا عن ضعف قوته ، فالدكتور الذى كان سعيدا ومتساهلا مع كل الأفارقة أصبح فى ذلك الوقت عنيفا stiff عديم الصبر ، مع الأوربيين ، وكان فى بعض الأحيان مهموما وشارد الفكر ،

ويرجع السبب فى حزنه إلى موت زوجته التى ماتت بمرض الحمى عام ١٨٦٢ م وكانت زوجته من ضمن أفراد البعثة ، وكان موتها بمثابة كارثة بالنسبة للفنجستون ، بل وكان ضربة قاصمة لكل أفراد البعثة لأن رجاحة عقلها وتأثيرها كانا يلطفان من الاختلافات التى تحدث فيما بينهم .

وتراكمت أحزان لفنجستون بعد زوجته ، فقد خاب أمله عندما اكتشف أن نهر الزمبيزى غير صالح للملاحة لمسافات طويلة . لذلك لايمكن استخدامه كطريق عام يوصل لداخل القارة . ولكن على الرغم من ذلك فقد حققت البعثة نتائج ضخمة ، كـان منها أن كل من لفنجستون وكيرك كانا أول أوربيين تطأ أقدامهما منطقة نيسالاند (التى تعرف فى الوقت الحـاضر بملاوى Malawi) ، ومن النتائج أيضا أنه اكتشف بحيرة شيروا Shirwa ، وبحيرة نياسا Nyassa ، التى تعتبر واحدة من أكبر البحيرات الداخلية فى افريقيا ، واكتشف كذلك أراضى جيدة مرتفعة وممتدة لمسافات طويلة ، وهى تتمثل فى أراضى الشير Shire High lands ، واقتنع لفنجستون بجودة هذه الأرض وبخاصة اذا استخدمت فى زراعة القطن ، الذى سوف يقلل من تجارة الرقيق .

وفى كل مكان ذهب اليه كل من لفنجستون وكيرك كانا يشـاهدان أقصى الغارات التى يتعرض لها العبيد . وبالقرب من بحيرة نياسا وجدا الآلاف من الأفريقيين المشردين من الجوع والذين كانوا قد هربوا أمام القبائل القوية التى كانت تقوم بأسرهم ، وبيعهم الى تجار الرقيق العرب . وكان يشحن من ميناء زنجبار سنويا مالا يقل عن ١٩٫٠٠٠ عبد ، كانوا يجلبون من منطقة نياسا ثم يتجهون بعـد ذلك عبر المحيط الهنـدى الى أسواق الرقيق فى العالم ، وقدر لفنجستون أن العشر فقط من هؤلاء العبيد المأسورين كانوا يصلون الى الساحل الشرقى أحياء ، وكانت شواطىء البحيرة مغطاة بعظام الموتى . وقد تضمن كتاب لفنجستون ، المعنون بـ الزمبيزى وفروعه The Zambezi and its tributaries تحليلا خطيرا

عن تجارة الرقيق ، لذلك أوصت جمعية منتخبة من مجلس العموم البريطانى
A select committee of the British House of Commons
بأنه مهما كانت التكلفة فأنه من الضرورى ضم زنجبار والأرض الرئيسية المجاورة لها الى بريطانيا ، كما يجب الغاء الاسترقاق فى شرق افريقيا •

ولم يكن لفنجستون بالطبع الرجل الوحيد الذى دعا لتأسيس مراكز أو محطات مسيحية فى افريقيا • ففى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بدأ البوير فى الرحيل من جنوب افريقيا الى مسافات بعيدة (صوب الشمال) بسبب التدخل البريطانى ، واندفع المبشرون فى طريقهم نحـو الداخل ، ولم يكن هدفهم الأول هو الكشف بل التبشير فكان يوجد من بينهم بعض المبشرين المشهورين •

وقد كشفت قصة شرق افريقيا عن الرحلات التى قام بها اثنان من الألمان الشجعان ، هما جون كراف Johann Ludwig Krapf ، وجوهان ربمان Johann Rebman • وكان كراف ابنا لفلاح ، فقد ولد فى ويرتمبرج Wurttemberg عام ١٨١٠ م ، وكـان طفلا مـدللا عصبى المزاج ، وكثير التأمل ومجد ، وقد كرث معظم وقته فى قراءة الإنجيل • وقد زاد اهتمامه بعد أن قرأ رحلات (جيمس بروس) الكشفية لمنابع النيل • وتساءل بالقول هل يوجد هناك صحراء شاسعة لم تطأها أية قدما أوربية ؟! •
واستغرق فى التفكير عندما كان يتفحص خريطة افريقيا الشرقية ، وكان لايزال يتأمل هذه الحقيقة المدهشة فى الوقت الذى كان يستمع فيه الى محاضرة فى مدرسته عن الأعمال التى تقوم بها البعثات التبشيرية فيما وراء البحار ، وفى لحظة عرف كراف الشاب ماذا يريد أن يفعل : أنه سوف يكون رجلاً من رجال التبشير ، فسوف يبشر بالإنجيل فى الحبشة حيث كان بروس يفعل ذلك من قبل • وقد ترك المدرسة ليمارس دراسته فى كلية التبشير ببازل ، وبعد ذلك كـان عليه أن يلتحق بفرع الجمعية التبشيرية الكنيسة فى عدوه فى شمال الحبشة ، وبعد أن أمضى مدة قصيرة فى عدوه رحل الى أقصى الجنوب ليبشر بالمسيحية بين القبائل الوثنية فى شوا Shoa ،

فقد سافر كثيرا الى موطن قبائل الجالا Galla ، واعتقد خطأ أنهم يشغلون جزءا كبيرا من وسط أفريقيا ، وأن بعثته التى سترسل اليهم سوف تكون على درجة كبيرة من الأهمية ، وقد تلاحظ أن قبائل الجالا كانوا متغطرسين وأذكياء وأقوياء البنية وفرسان مهرة حتى أن النساء كن يجرين بجوار أو خلف أزواجهن وكتب يقول ما نصه : « لقد ساد الاعتقاد فيما بينهم بأن سير الرجل بجوار المرأة عيبا مهينا » •

وقاد كراف بعثته بجد ونشاط ولكن الشيوخ المحليون ناصبوه العداء • وفى عــام ١٨٤٣ م طرد من الوطن ، وغادر اثيوبيا وكان برفقته زوجته الفتاة الألمانية ، والتى كان كراف قد تزوجها فى العام السابق ، وكان قد زود بتعليمات تقضى بالذهاب الى زنزبار ، ومن هناك كان عليه أن يقوم بالبحث والوصول الى الأرض الرئيسية التى يمكن اتخاذها كمركز للبعثة • وفى الطريق وضعت زوجته طفلة ، ماتت أثناء الرحلة •

واستقبل كراف وأسرته بالحفاوة من جانب جالية أوربية صغيرة كانت تعيش فى زنزبار ، وذهب كراف لمقابلة السلطان (سلطان زنجبار) الذى كان ينحدر من أصل عربى ، والذى كان ثريا بسبب الأرباح التى حققها من تجارة الرقيق التى امتدت الى مسافات بعيدة فى المناطق الداخلية من شرق افريقيا • وكان للسلطان الرغبة الكاملة فى أن يواصل كراف تقدمه فى داخل القارة ، لهذا كتب له تصريحا على شكل جواز سفر جاء فيه :

« أن هــذا (الشخص) قادم من طرف السيد السلطان ســعيد : تحياتنا الى كل رعايانا وأصدقائنا ، وحكامنا ، وقد كتب هذا الخطاب من أجل الدكتور كراف الألمانى الجنسية ، فهو رجل طبيب يرغب فى تحويل العالم الى عبادة الله ، فعاملوه معاملة طيبة وكونوا فى خدمته فى كل مكان » •

وقد كان لهذا التصريح تأثيره بين قبائل النيكا Nyika ، والكامبا Kamba القاطنئين فى الأرض الداخلية • واستقرت أسرة كراف فى جنوب ممبسا • وقد حول كراف القبائل الوثنية الى المسيحية ، وفى الوقت نفسه

درس اللغة السواحيلية واللغات الأفريقية الأخرى • وكان يهدف من وراء ذلك الى اقامة سلسلة من المراكز التبشيرية تقع علــى خط مستقيم عبر القارة ، ابتداء من الشرق وحتى الغرب •

وكانت ممبسة مكانا غير صحى ، لذا مرضت زوجة كراف وطفله الوليد الجديد وماتا من الحمى ، واقترب هو أيضا من الموت ، ولكن رغم ذلك فلم تثبط عزيمته وحماسه Zeal التبشيرى : وفى عام ١٨٤٦ ، سر كثيرا بسبب وصول صديقه العزيز الذى طال توقع وصوله ، وكان هذا الصديق هو جوهان ربمان الــذى كــان يصغر كــراف بعشر سنوات وكان لديه نفس حماس كراف •

وجاء ربمان ، كما جاء من قبله كراف من مقاطعة ويرتمبرج Wurttmberg ، وكان قد درس فى كلية جمعية التبشير الكنسية فى لندن ، وفى وقت واحد تقريبا أصيب الرجلان بالحمى ، وعندما شفيا واصلا السير الى منطقة رابيا Rabia ، وهى منطقة صحية ومرتفعة • وبعد ذلك بــدأ الرجلان رحلتهما المدهشة من رابيا حيث ذهبا فى نفس طريق لفنجستون ، أى أنهما كانا يبحثان عن مواقع مناسبة تستخدم كمراكز للبعثة ، وحتى فى زهوة كشوفاتهما فأنهما لم ينســيا أن هدفهما الأول والأخير هو عملهمــا فى التبشير بالإنجيل •

وفى البداية ، كان على ربمان مواصلة السير وكانت كل أسلحته فى هذه الرحلة الإنجيل والشمسية ، هذا فضلا عن أنه أصطحب معه ثمانية من الحمالين غير المسلحين ، وبعد ذلك انطلق فى الرابع عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٤٧ م ، ولم يكن لديه فكرة عن طول المسافة التى يمكنه قطعها ، ولكنه فى خلال خمسة عشرة يوما أمكنه قطع مسافة بلغ طولها مائة ميل ووصل بعدها الى جبل كديارو Mount Kadiaro ، الذى لم يره رجل أبيض من قبل • وبعد خمسة أيام من بداية الرحلة عاد الى رابيا ، وهو يعانى من تقرح وتورم فى أقدامه ، وبخلاف ذلك فلم يكن هناك مخاطر تعرضت لها بعثته ،

وفى العام التالى شرع فى رحلة أطول ، بل وأكثر مغامرة وخطورة ، وكان ممثل السلطان فى هذه المنطقة « حاكم ممبسا » قلقا عندما علم بقـــدوم بعثة تبشيرية غير مسلحة ، وتخطط للسفر من خلال قطر مسكون بقبائل متوحشة ، بل تعيش فيه الحيوانات المفترسة • وقد حذر حاكم المنطقة ربمان من ذلك ، بقوله : — « لقد حذر هذا الحاكم ربمان من عدم صعود جبل كليمنجارو لأن هذا الجبل تسكنه الأرواح الشريرة ، والناس الذين يتسلقونه يذبحون بواسطة هذه الأرواح ، هذا فضلا عن أن أقدامهم وأيديهم تتصلب ، بل وتذر مساحيق أجسامهم فى النار وسوف يحل بهم كل أنواع المصـــائب » •

ولقد كان هذا التحذير محيرا بحيث جعل ربمان يصمم على أن يقف على حقيقة ما يعنيه ، وفى السابع والعشرين من شهر ابريل عام ١٨٤٨ م ، غادر ربمان منطقة رابيا ، وكان برفقته ثمانية من الحمالين ومرشد ، هذا فضلا عن الإنجيل الذى كان لا يفارقه ، وكذلك الشمسية • وهذا الوقت كان يوافق فصل الأمطار ، ومع ذلك وبرغم هطول الأمطار الشديدة ، الا أنه عبر منطقة جبال كديارو ، وفى خلال عشرة أيام عبر وطن الجاجا Jagga ، الذى يقع حول السفوح المنخفضة لجبال الكليمنجارو • وقد تعجب ربمان من المناظر الطبيعية الخلابة وتعجب من الجبال المتنوعة وتلالها ووديانها التى غطتها النباتات الكثيفة ، وواصل تعجبه بقوله : « أننى أتصـــور نفسى على جبال الجورا Jura Mountains ، القريبة من بازل والواقعة فى منطقة حول كانستات Cannstatt مسقط رأسه » •

وفى هذا الوقت وضحت علامات الإضطراب على الدليل الذى قـــال ما نصه : « أنتم هنا بدون أى شىء عدا الشمسية » وأضاف يشكو « فى الوقت الذى كانت البعثة تعسكر فيه تحت شجرة كنا فى حاجة الى خمسمائة بندقية لأن الخطر يكمن أساسا فى تلك المنطقة التى نعسكر فيها الآن ، حيث أن هذه المنطقة التى عسكرنا فيها هى احدى المناطق الرئيسية التى تتعرض للنهب من جـــانب قبائل الكوافى ، ومع ذلك كان ربمـــان يؤمن

بالقضاء والقدر fatalistic ، ثم أجاب بقوله : أن هذا من أمر الله ، وبعد ذلك ، انتحى ربمان جانبا وأخذ يقرأ فى الأنجيل •

ويمثل يوم الحادى عشر من نفس الشهر من عام ١٨٤٨ م ، تاريخ أكبر كشف انجزه ربمان • ففى صباح هذا اليوم شاهد جبال شاجا Chagga ، أكثر وضوحا من ذى قبل ، «حيث قال ففى حوالى الساعة العاشرة تخيلت أننى رأيت أحد قمم هذه الجبال مغطاة بسحب بيضاء تثير الحيرة • وكان دليلى قد أطلق على هذه القمم البيضاء التى شاهدتها البعثة اسم (Cold Beredi أى بارد) ، ولقد كانت واضحة تماما بالنسبة لنا ، ومع ذلك فأنه يبدو أنها لا تعدو أن تكون ثلوجاً » •

ولهذا فأن هذا المبشر التقى الذى لا يشاركه أحد الرأى ، أصبح الرجل الأبيض الأول الذى يرى قمة جبل كيبو الثلجيةThe snowy dome of kibo وهى أعلى قمة فى جبل كليمنجارو • وكان هذا الكشف بالنسبة له يعتبر واحدا من بين المظاهر الكثيرة التى من الله بها على الإنسان • ويقول ربمان أنه بعد أن جلس للراحة تحت شجرة أخذ يقرأ فى إنجيل باللغة الأنجليزية ، فى الفصل رقم CXI th psalm وهى النقطة التى وصل اليها فى قراءته فى نفس هذا الفصل • وقد ورد بالسطر السادس من نفس الفصل النص التالى « أن قوة شعبه تتمثل فى قوة أعماله ، وأنه سوف يعطيهم ميراث الوثنية » ويبدو من الملائم تماما فى هذه المناسبة التفكير فى المنظر العظيم لقمة الجبل الثلجية • والشىء الذى لم يتمكن ربمان من معرفته أصبح الآن يعرفه ، فقد فهم مغزى تحذير الحاكم : وهو أن الذين حاولوا أن يتسلقوا الجبل قد قتلوا ليس بواسطة الأرواح الشريرة ، ولكن بواسطة البرد القارس ، وأما الشىء الذى لم يتمكن من معرفته هو أن اكتشافه للجبل الثلجى الموجود فى خط الاستواء ، سوف يشعل فى الحال شرارة الجدل الحاد • وفى انجلترا سخر المستر ديبورج كولى Desborough Cooly ، وهو أحد أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية The Royal Geographical Society من تقرير ربمان فقال ما نصه :

« أن هذا التقرير يمثل أحد شطحات الخيال العقلى المبهرة ، لدى ربمان بحيث لا يؤيد ما ذكر بأى دليل محسوس ، بل وكذب المستر ديبورج أيضا الأدعاء القائل بأن الرجال قد ماتوا من البرد ، وأعتقد بأن هذا لا يعدو أن يكون قصة تحكى بجوار موقد للنار » •

ومكث ربمان فى المنطقة مدة كافية كى يعالج أقدامه الممزقة ، فضلا عن قيامه بتقديم الوعظ للوطنيين مستخدما فى ذلك تفسير العقيدة • (المسيحية) وبعد ذلك واصل طريقه الى جبل كديارو Kediaro. M. ، ومن هناك عاد الى رابيا مستخدما طريقا يتجه كثيرا الى الجنوب •

وفى نوفمبر من نفس العام استخدم مرة ثانية طريق شاجا Chagga وفى تلك الوقت سمع ربمان عن وجود منطقة مائية واسعة تقع فيما وراء جبل الكليمنجارو ،وعلى مسافة بعيدةمن موطن قبائل الإنيمويزى Unyomavezi (التى تعرف فى الوقت الحاضر بتنزانيا) ويمثل هذا البحر الداخلى بحيرة تنجانيقا ، وسوف يكون من الواضح أن هذه البحيرة ستكون ذات أهمية جغرافية عظيمة ، وتشير تقارير المبشرين الى الأهمية العظيمة فى فتح هذا القطر أمام المحاولات المسيحية • وقد حاول ربمان ولكنه فشل فى الوصول الى البحيرة ، وعاد الى رابيا بشق الأنفس ، وكان فى الوقت نفسه على هيئة هيكل عظمى متحرك بحيث أنهكته الحمى والجوع والتعب الشديد •

ولم يقم ربمان برحلات أبعد من ذلك ، بل فضل البقاء فى مركز البعثة ، يمارس الوعظ والأرشاد وترجمة الإنجيل • وهنا يجىء دور كراف ، ففى عام ١٨٤٩ ، وبعد الدراسة الأولية لسفوح جبال أوزامبارا Usambara Mountains ، التى تقع فى الجنوب الغربى من ممبسا ، قام برحلة كان الهدف منها هو البحث عن مواقع تستخدم كمراكز للبعثة ، ثم عاد بعد ذلك الى الشمال الغربى متعقبا طريق ربمان حتى أصبح جبل كليمنجارو على مرمى بصره • وقد عرف من رجال القبائل أنه على الرغم من أن الكثير

من الرجال قد هلكوا على الجبل ، الا أن عددا قليلا منهم قد نجح فى جمع بعض المواد قريبة الشبه من الفضة ، والتى عندما وضعت فى زجاجات تحولت الى مياه عادية ، ويقول كراف « أن بعض هؤلاء الذين ظلوا على قيد الحياة عادوا بأطراف متجمدة ، حيث وصفها الجهلاء بأنها من تأثير الأرواح الشريرة • وأضاف يقول « لقد أثار المستر كولى نقاشا يعارض فيه وجود مثل هذا الجبل الثلجى ، بل ويعارض فيه تقرير ربمان ، ولكن هذا النقاش تحول الى لا شىء ، وبخاصة عندما يشاهد الشخص بعينيه حقيقة لم يرها غيره من قبل » •

ونظرا للاقتناع الكلى بصحة تقرير ربمان اندفع كراف تجاه الشمال الغربى فى داخل موطن شعب الواكمبا Wakamba ، الذى يعرف فى الوقت الحاضر بكينيا ، ووصل كراف الى كيتوى Kitui فى نهاية نوفمبر ، وهناك علم من الرئيس كيفوى Kivoi حاكم تلك المنطقة ــ والذى قام بنفسه بزيارة منطقة شاجا Chagga ، وشاهد جبال الكليمنجارو ــ بأنه يوجد جبل آخر تغطى الثلوج قمته ، وتستغرق الرحلة اليه من كيتوى ستة أيام ، وسمى هذا الجبل بأسم كجنيا Kegnia ، ونصحه كيفوى أن يتسلق التل الذى يشرف على القرية وقال ما نصه « لو كانت السماء صافية فسوف تتمكن من رؤية الجبل » ولكن فى ذلك الوقت اختفى الجبل ، لأن هذا الوقت كان يصادف فصل المطر • ولكن فى الثالث من شهر ديسمبر عام ١٨٤٩ م ، وعندما كان كراف يغادر منطقة كيتوى ، قال ما نصه : « انقشعت فجأة السحب المطرة ، واستطعت أن أرى منطقة كجنيا Kegnia بوضوح جدا ، ولاحظت وجود بروزين كبيرين ، أو عمودين كما لو كانا يرتفعان فوق جبل ضخم يقع فى الشمال الغربى من كليمنجارو ، ومغطين بمادة بيضاء (الثلوج بالطبع) •

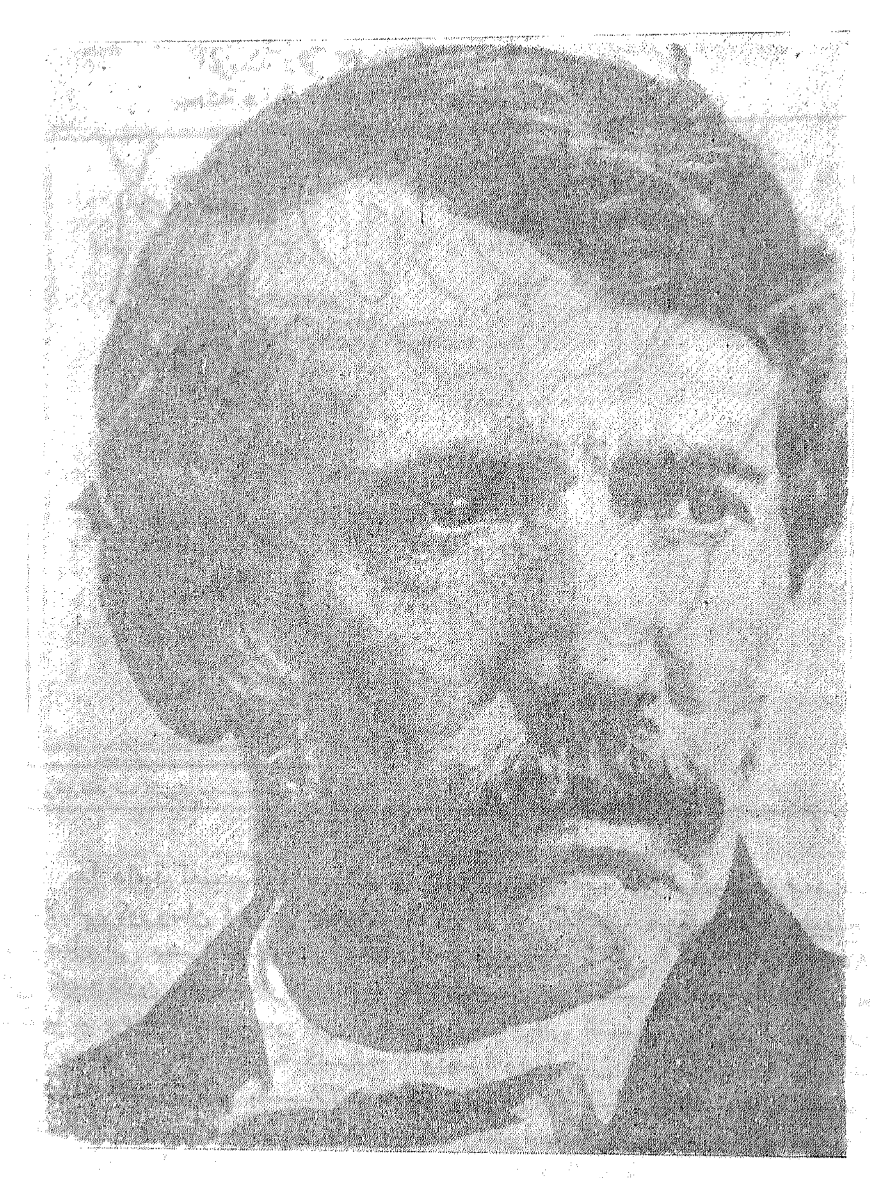
ومن أجل هذا ، فقد أنضم كراف الى زمرة المكتشفين العظماء ، وكرمته ألمانيــا بمنحـــه الميدالية الذهبية ، وأهدت فرنســـا كل من الرجلين الميدالية الفضية ، وعندما زار كراف انجلترا حاول أن يلفت نظر الجمعية التبشيرية الكنسية الى مشروعه الخاص بأقامة سلسلة من المراكز الخاصة

بالبعثات عبر افريقيا ، ولكن فى الواقع لم تلق اكتشافاته التأييد الكافى ، بل اهملت واستقبل الأمير كونسورت Consort كراف ، ولكنه رغم ذلك لم يكافأه رسميا ، على الرغم مما أضافه الى اكتشافاته السابقة ، فكان قد اكتشف جبل كينيا عن طريق مسح كل الساحل ، ابتداء من ممبسا وحتى رأس دلجادو الواقعة على حدود موزمبيق • ومع ذلك فلم يتأكد كشف جبل الكليمنجارو الا فى عام ١٨٦١ م ، وذلك عن طريق مكتشف ألمانى يدعى ك• ك فون دير ديكن K. K. Von der Decken ، الذى قام بزيارة هـذه المنطقة مرتين • وفى الزيارة الثانية تسلق الجبل حتى ارتفاع يصل الى ١٤٫٠٠٠ ألف قدم ، ولكنه فشل فى الوصول الى خط الثلوج • وبعـد ذلك بأربع سنوات انطلق تجاه جبل كينيا متتبعا مجرى نهر جوبا River Juba ، ولكنه طعن بحربة أودت بحياته فى مدينة بربرة التى تعرف بأنها أحدى مدن جمهورية الصومال •

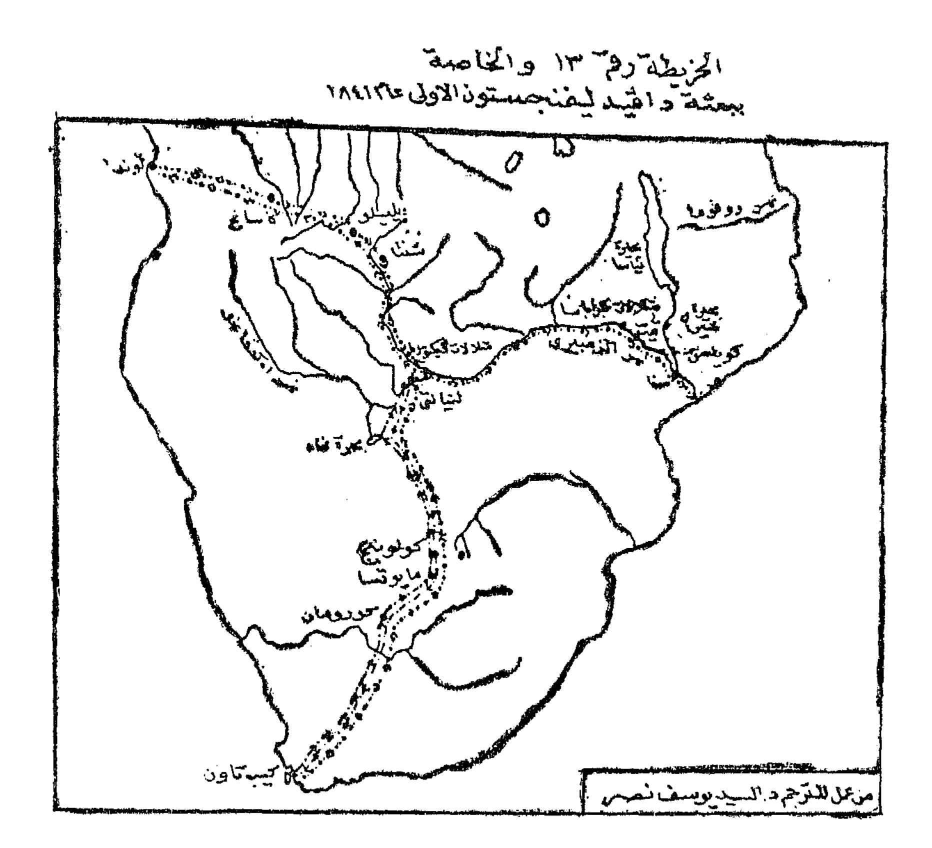
وقدم مبشر آخر يدعى إرهاردت J. J. Erhardt مساعدة الى كراف ، تمثلت فى مسح لهذه المنطقة ، وكان ارهاردت هذا زميلا لكراف ، لهذا كان قد انضم الى مركز بعثة كراف فى رابيا عام ١٨٤٩ م ، ورسم ارهاردت خريطة للمنطقة الواقعة بين الساحل وبين البحر الداخلى الواسع والواقع فى الأنيا مويزى Unyamwezi ، التى برهنت على قيمتها الكبيرة بالنسبة للمكتشين فيما بعد • وقد واصل ارهاردت رحلاته العديدة فى الداخل ، لكن كراف قام بمفرده برحلة كشفية أخرى ذات أهمية ، ففى يوليو عام ١٨٥١ م ، غادر كراف رابيا ومعه تصريح كى يقوم بتأسيس مركز جديد فى الأرض الجبلية فى كامبا ، الواقعة الى الشمال من طريق ربمان الأصلى ، والذى يوصل الى كليمنجارو ، وفى كيتوى انضم اليه الرئيس كيفوى ومعه عدد من رجاله • وقد تعرضت قافلتهم للهجوم من جانب قطاع الطرق Bandist المسلحين بالأقواس Bows ، والسهام Arrows ، وقتل كيفوى وهربت جماعته • وفى هذه المناسبة كان كراف يحمل معه بندقية فضلا عن شمسية ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا أكثر من أنه أطلق النيران فى الهواء • وبعد ذلك

هرب كراف الى أحد الملاجىء ، وتأكد أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر عن نهر تانا Tana • وقد وجد هذا النهر بطريقة عرضية ، ولم يكن مدفوعا فى ذلك بفضوله الجغرافى ، ولكن برغبته الملحة فى الماء لعطشه الشديد •

وعاد كراف الى وطنه الأصلى (ألمانيا) وهو فى حالة صحية متدهورة وهناك شفى جزئيا ، ومع ذلك فأنه تزوج للمرة الثانية واستقر فى موطنه ، وكرس جهده فى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغات الأفريقية • وعاد الى افريقيا مرات عديدة فزار رابيا حيث كان هناك ربمان وحيدا فى ذلك الوقت ، وكان قد أصابه العمى تقريبا ، ومع ذلك كان ربمان لا يزال يواصل العمل كسابق عهده ، وظل هذا الرجل الشجاع فى افريقيا بدون انقطاع ، ولو لمرة واحدة لما يقرب من ثلاثين عاما • وبعد ذلك عاد ربمان الى ويرتمبرج Wurttemberg بالمانيا عام ١٨٧٥ م ، ومات بعد ذلك بشهور قليلة بالقرب من منزل صديقه العزيز فى العمل كراف ، الذى ظل على قيد الحياة بعده لمدة خمس سنوات •

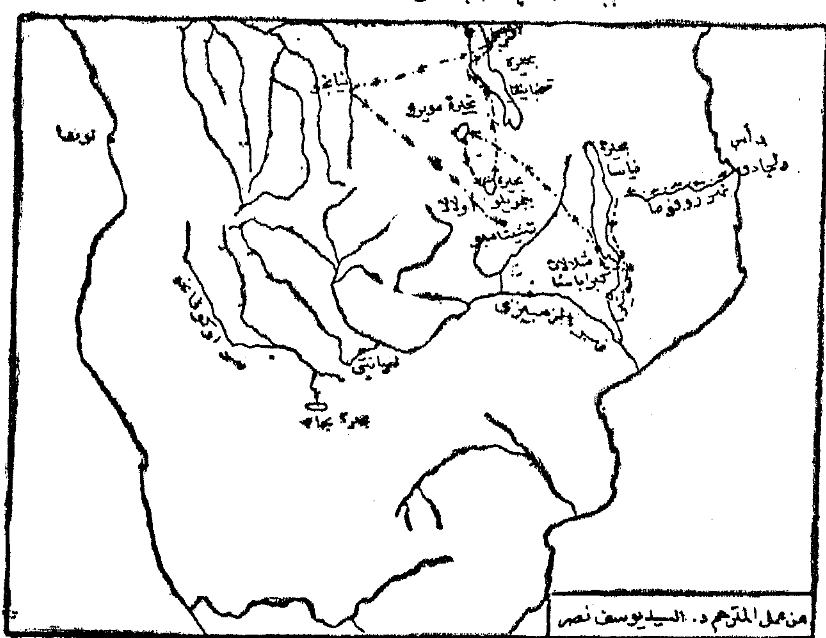


صورة المغامر الاستعمارى دافيد لفنجستون الذى جاء الى جنوب افريقيا عام ١٨٤١ ليكتشف منابع نهر الزمبيزى . من اعداد المترجم .



بدأ دافيد لفنجستون رحلته عام ١٨٤١ من كيب تاون ، واتجه بعد ذلك شمالا الى كورومان ، ومنها اتجه شمالا أيضا الى مابوتسا ، ومنها الى كولوبنج ، ثم وصل الى بحيرة نجامى . وبعد ذلك وصل الى لنيانتى ، ثم عاد عام ١٨٥٢ الى كيب تاون ، ومنها رحل ثانية الى الشمال مارا بنفس المناطق التى مر من خلالها . وعند لنيانتى عبر نهر الزمبيزى واتجه الى الشمال الغربى ، فمر بقرية شنتا وبحيرة ديليلو وقرية كاسانج ، وأخيرا وصل الى لواندا . وبعد ذلك عاد فى اتجاه الشرق فمر بشـلالات فيكتوريا وكبراباسـا وببلدة تيت المستعمرة البرتغالية ، ومنها وصل الى بلدة سنا ، وأخيرا وصل الى كويلمن الواقعة على ساحل المحيط الهندى الغربى . واستغرقت هذه الرحلة عاما واحدا ، وقـد قطع لفنجستون أثنائها مسافة طولها ٦٠٠٠ ميل .

الخريطة رقم ١٤ والخاصة
ببعثة دافيد لفنجستون عام ١٨٦٦م



بدأ لفنجستون رحلته الثانية من رأس دلجادو وسار مع نهر روفوما ، فوصل الى بحيرة نياسا ولكنه تعثر فى عبورها فاتجه جنوبا وواصل المسير بجوار شاطئها الغربى حتى وصل الى بحيرة مويرو ، ومنها اتجه جنوبا الى بحيرة بنجويلو . وبعد ذلك اتجه لفنجستون شمالا وسار مع الساحل الغربى لبحيرة تنجانيقا ، ثم عبرها بصعوبة ووصل الى بلدة أوجيجى ، وهناك أشيع عن موته . وبعد ذلك عبر بحيرة تنجانيقا ووصل الى بلدة نيانجو الواقعة على نهر لولابا ، ومنها اتجه الى جهة الجنوب الشرقى فوصل الى قرية تشيتامبو الواقعة فى منطقة أولالا حيث مات فى هذه القرية عام ١٨٧٣ م .

التعليق على الفصل (٧)

أشارت المؤلفة فى هذا الفصل الى عدد من الموضوعات الهامة ، تناولت البعض منها بأستفاضة ، وأهملت البعض الآخر ، بحيث لم تعطها قدرها من التفسير والتوضيح • لذا رأيت ، أنه من الضرورى توضيح هذه الموضوعات حتى تكون الصورة كاملة أمام القارئ العربى ، الذى يرغب فى معرفة تاريخ كشف افريقيا • ومما لا شك فيه فأن هذا العمل من جانب المؤلفة يعد قصورا ، ربما لاعتقادها بأن هذه النقاط التى سوف نشير اليها بعد قليل غير هامة ، وربما لاعتقادها بعدم وجود مجال لدراسة هذه النقاط •

فمن الموضوعات الهامة التى ذكرتها المؤلفة والتى لم تتناولها بشىء من التفصيل حتى تتضح الرؤية أمام القارئ ، عدداً من الموضوعات منها شرق افريقيا ، وقبائل البوشمن ، والهوتنتوت ، والبانتو ، والمساى ، والبوير ، وروبرت موفات وغيرها • لذا كان من الضرورى تناول هذة العناصر بشىء من التفصيل كل على حدة •

ومن الواضح أن شرق افريقيا ، يمثل أقطار كل من كينيا Kenya وتنزانيا Tanzania ، وأوغندا Uganda ، بل وأن هذه المنطقة تمثل هضبة شرق افريقيا ، التى يبلغ ارتفاعها ٣٫٠٠٠ قدم أو أكثر عن مستوى سطح البحر ، وتضم هذه الهضبة جبال روينزورى Ruwenzoris ، التى توجد فى الشمال الغربى من أوغندا ، وجبال القمر المغطاة بالضباب ، والتى يبلغ أرتفاعها ١٦٫٧٦٣ قدما ، وجبل كينيا الذى يبلغ أرتفاعه ١٧٫٠٥٨ قدما ، والذى يقع على مسافة أميال قليلة من خط الأستواء ، وهو مغطى أيضا بالجليد • والى الجنوب من جبل كينيا يوجد جبل كليمنجارو Kilimangaro ، الذى يبلغ أرتفاعه ١٩٫٣٢١ قدما وهو أعلى نقطة فى قارة افريقيا ، وجبل ميرو Meru ، الذى يبلغ أرتفاعه ١٤٫٩٧٩ قدما ، وجبال أبردار Aberdares ،

التى يبلغ ارتفاعها ١٢٫٠٠٠ قدم وجبل الجون Elgon الذى يبلغ ارتفاعه ١٤٫١٧٨ قدما .

وفى شرق افريقيا أيضا توجد مظاهر جغرافية متميزة ، نذكر منها على سبيل المثال بحيرة فيكتوريا ، الواقعة فى أوغندا ، والتى تعتبر ثانى أكبر بحيرة داخلية فى العالم . ومن هذه البحيرة يخرج أطول نهر فى العالم (نهر النيل) الذى يبدأ جريانه من أوغندا وحتى البحر المتوسط ، والذى كان له أكبر الأثر فى وجود الحضارة المصرية القديمة ، حتى أن أحد الكتاب الأجانب قال فى هذا الصدد : أن نهر النيل خلق مصر ، وبعبارته :

«The River Nile made Egypt»(1).

والى الشرق من هذه المنطقة توجد صحراء كالاهارى التى يقطنها شعب البوشمن ، الذى لم تتعرض المؤلفة له بشىء من التعريف ، ولكن يقول سلجمان أن البوشمن قد وصلوا من الشمال الى موطنهم الحالى فى جنوب افريقيا ، اذن من المحتمل أن يكن أسلافهم قد استوطنوا الشطر الأكبر من المناطق الاستوائية فى شرق افريقيا ووسطها الشرقى ، ويؤيد هذا الرأى اكتشاف ما تركه البوشمن فى تنجانيقا ، بل وفى أوغندا وجنوب السودان من رسومات على الصخور ، ومن بقايا لهياكل أجسام بل وأسماء لبعض الأماكن . وينقسم البوشمن الى ثلاثة مجموعات رئيسية هى على النحو التالى : المجموعة الجنوبية ، والوسطى والشمالية ، وتتألف كل منها من عدد من القبائل المنفصلة ، لكل منها لغتها الخاصة وأسمها الخاص .

وكانت المجموعة الجنوبية تحتل فيما مضى مستعمرة الكاب ، وهى فى حكم المنقرضة ، وأما المجموعة الشمالية فتتركز فى الشمال الشرقى

---

(1) Derek Town Send : Kenya Uganda, and Tanzania. London. 1969. pp. 7,9.

(*) أوغندا تعنى هنا كل منطقة شرق فى افريقيا فى ذلك الوقت .

من افريقيا الجنوبية ، وتعيش المجموعة الوسطى فى صحراء كالاهارى •
ويعتبر التنظيم الأجتماعى والطابع الثقافى للبوشمن بدائيا للغاية ، فهم يعيشون فى جماعات صغيرة ، تتكون الواحدة منها فى العادة من عدد يتراوح فيما بين ٥٠ ، ١٠٠ شخص ، وقد يرتبط عدد من هـــذه الجماعات برابطة اللغة فى الأسم فتكون قبيلة (٢) •

ويعيش البوشمن فى صحراء كالاهارى فى جنوب افريقيا ، فكانوا قد عاشوا فترة زمنية من قبل فى الجنوب ، فى أراضى خصبة وعشبية حيث يوجد الماء والصيد بوفرة ، فعاشوا حياة سعيدة قائمة على الصيد ، ورسم الصور الجميلة للحيوانات ، ولأنفسهم على الصخور ، وعلى جدران الكهوف ، ولازال البعض من هذه الرسومات موجودا ، بحيث يمكن قراءة القصص التى تحكى لنا تاريخ البوشمن •

وأخيرا تعرض البوشمن لزحف القبائل القاطنة فى الأجزاء الشمالية من افريقيا ، وفى الوقت نفسه تعرضوا من جهة الجنوب لزحف البيض القادمين من أوربـــا ، الذين قدموا لكى يقوموا بتأسيس المنازل وزراعة الأرض ، عندئذ اضطر البوشمن لمغادرة ديارهم حيث تشتت البعض منهم ، واستقر البعض الآخر فى صحراء كالاهارى التى لا يقطنها غيرهم ، لأنهم أرادوا العيش فى أمان ، مع أنهم كانوا يعيشون بلا مأوى ، فيكتفون بالعيش على الصيد وتناول جذور النباتات الصحراوية ، وكانوا يبنون منازلهم من الأعشاب ، وأغصان الأشجار ، وهم عراة تماما بأستثناء ستر عوراتهم ، كما أنهم يعمرون طويلا بسبب الحياة البسيطة التى يعيشونها ، فلا يوجد ما يعكر صفوهم ، فهم يكتفون بالقليل من الغذاء •

ويسمون أولادهم بأسماء مألوفة تتعلق بحياتهم المعيشية مثل نيوز

---

(٢) سلجمان • س • ج : السلالات البشرية فى افريقيا ، ترجمة يوسف خليل ، مراجعة د• محمد محمود الصياد ، القاهرة ، ١٩٥٩ م • ص ص ٢١ — ٢٤ •

Nuse وتعنى بيضة النعامة ، فعندما يولد الطفل لم يكن له شعر ، فيعتقد آباؤه بأن رأسه تشبه البيضة ، ومثل نوكسو Nxou ، ويعنى هذا الأسم وعاء الطعام «Nxou's name means bowl of food»(3).

وأما الهوتنتوت فيقترن أسمهم دائما بأسم البوشمن ، ويشبهونهم شكلا وثقافة ، مع أنهم تأثروا بعناصر ودماء غريبة عنهم ، بينما ظل البوشمن يحيون حياة الصيد ، والعزلة مفضلين ذلك عن اختلاطهم بغيرهم ، وقد أدى ذلك الى أن تظل سلالتهم نقية بحيث لم تتسرب اليها دماء أجنبية ،ويتميز الهوتنتوت بالقامة الطويلة الى حد ما ،وكانت الصفات الزنجية أكثر ظهورا مما هى عليه عند البوشمن ، كما أن رؤوسهم أكثر استطالة . ويرى سلجمان أن الهوتنتوت قد اختلطوا فى الوطن الأصلى بعناصر حامية . وكان لهذا الاختلاط أثره الثقافى أيضا فى اكتساب لغتهم خصائص مشتقة من لغات الحاميين ، مع أن اللغة بقيت من أسرة لغات البوشمن ذات الطقات ، ويرى سلجمان أن ذلك الوطن الأصلى يقع فى منطقة البحيرات .

ويبدو أن هجرة الهوتنتوت نحو الجنوب جاءت متأخرة عن هجرة البوشمن ، وقد اتخذوا طريقا أبعد الى الغرب ، فأخترقوا أعالى نهر الزمبيزى ووصلوا الى الساحل الغربى للقارة ، ثم انحدروا بعد ذلك جنوبا الى منطقة الرأس ، وبذلك يكونوا أول الوطنيين الذين صادفهم المستعمرون الأوربيون عندما نزلوا بتلك المنطقة .

وأما التوزيع القديم للهوتنتوت فكان يشمل الأطراف الجنوبية الغربية لمصب نهر كونين Kunene ، حيث استوطنوا المنطقة الواقعة جهة الشمال من شبه جزيرة الكاب ، وتوسعوا فى استيطانهم شرقا ، حتى وصلوا الى نهر كاى ، أما فى الوقت الحاضر فيوجد هناك بقايا موزعة فى أطراف هذا

---

(3) Carol Morse Perkins and Markin : I saw you from a far. London, -966. pp. 3 - 4.

الوطن الكبير ، وأما الجماعات المنظمة نوعا ما ، فأنها منحصرة فى إقليم محدود من افريقيا الجنوبية الغربية ، حيث تقطن المنطقة الواقعة الى الشمال من نهر الأورانج ، وهذا يدل على ما كان للهجرة الأوربية من أثر فى تضييق الخناق عليهم وزحزحتهم عن أوطانهم •

وينقسم الهوتنتوت الى عدد من الجماعات منها ، الناما ، والكورانا ، والجوناكوا • وكان سكان منطقة الرأس الذين يعيشون اليوم فى الجنوب الغربى من أفريقيا من جماعة ناما (٤) •

والى جانب شعب الهوتنتوت يوجد شعب البانتو ، الذى يكون أوفر عددا من الزنوج والأقزام والبوشمن والهوتنتوت • والبانتو كلمة أفريقية معناها الشعب ، ويستخدمها الأوربيون فى وصف جماعة ضخمة من القبائل ، مثل الزولو التى يتفرع منها المتابيلى والأنجونى والبشوانا والباسوتو ، والكيكويو ، ويتحدث البانتو فيما بينهم حوالى ٢٦٠ لغة مختلفة • وهم خليط من المسيحيين والمسلمين والوثنيين •

ولا يزال البانتو يقطنون أجزاء كثيرة من أفريقيا الشرقية ، فهم زراعيون ورعاة ، فعلى الماشية تقوم الحياة القبلية ، فهى لا تهىء لهم سبل العيش فحسب ، بل أنها تكسبهم مركزا فى القبيلة ، وغالبا ما تكون وسيلة للحصول على الزوجة ، وطبقا لقانون البانتو فالرجل الحق فى الاحتفاظ لنفسه بأى عدد من الزوجات (٥) شأنهم فى ذلك شأن أية قبيلة افريقية أو شعب افريقى •

وينقسم البانتو الى جماعات على أساس التوزيع الجغرافى ،

---

(٤) د• محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، الجيزة ، ١٩٦٥ • ص ص ٣٧ — ٣٨ •

(٥) كاثارين سافيدج ، ترجمة د• راشد البراوى • قصة افريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٣ • ص ٣٣ •

فالبانتو الشرقيون ينتشرون من أوغندا شمالا ، وحتى كينيا ، وتنجانيقا ، وروديسيا الشمالية ، ونياسا ، وافريقيا الشرقية البرتغالية ، (فى الماضى) وحتى شمال نهر الزمبيزى جنوبا • وأما البانتو الجنوبيون فيعيشون جنوبى نهرى الزمبيزى وكونين وتمثل هذه المنطقة اقليما واسعا يشتمل على شمال غربى روديسيا والأخدود الأفريقى ، هذا فضلا عن انتشارهم فى شمال غرب القارة وحتى غرب افريقيا والكاميرون الجنوبى (٦) •

وأما المساى فيعتقد الكثير من الناس أنهم قبيلة رومانسية ، وتعيش هذه القبيلة فى شرق افريقيا ، وتمتلك مساحة قليلة من الأرض،كما أنها تعيش فى أمن على طول الأخدود الأفريقى العظيم The Great Rift Valley الذى يمر من خلال تنزانيا وكينيا ، فهم لا يصيدون الحيوانات بالمرة أو يزرعون الحبوب ، ولكنهم يعيشون على اللبن والدم الذى يحصلون عليه من رقاب الأبقار الحية ، بحيث يمر من خلال غابة من البوص ويشربونه وهو دافىء • وهذا الغذاء جعل المساى معروفين بالقوة (٧) •

ويتميز رجال المساى بطول القامة والنحالة ، مع وجود ملامح لطيفة ، ويتميزون أيضا ، بالأنوف المستقيمة ، ويرتدون ملابس برتقالية براقة ، ويلبسون فى آذانهم حلقات معدنية لامعة ، ويصبغون شعورهم بصبغة حمراء ، وهم دائما يحملون الحراب • ويلبس النساء عقودا من الخرز بل ويلبسن أيضا فى أذرعتهن أساور معدنية ، وفى أرجلهن يلبسن الخلاخيل المعدنية ، وهذه الأشياء كانت مألوفة بالنسبة للنساء والرجال على حد سواء (٨) •

ويربى شعب المساى الأبقار التى تعتبر بحق المصدر الرئيسى للغذاء ، كما يربون الغنم والماعز ، ويأكل المقاتلون منهم اللحم فى الغابة ، لأنه

---

(٦) سلجمان . س . ج . ترجمة يوسف خليل ، المصدر السابق . ص ١٦٣ .

(8) Derek Townsend : Ibid. p. 18.

ممنوعا بالنسبة لهم ، والدليل على ذلك أنهم يركزون على تنـاول اللبن والدم ، اللذين يحصلان عليهما من الأبقار • ومن عاداتهم أن النساء يقمن ببناء المنازل ، وهن يرتدين الملابس ويتزين بكمية هائلة من الحلقات المعدنية ، بحيث تغطى قصبة الرجل والرقبة ، كما تغطى العقود الرقبة والصدر ويضفن أيضا الأصداف فى الشعر للزينة (٩) •

وأما عن المساكن ، فكانت عبـارة عن منازل تبنى من الأغصـان والأعشاب • فكان المنزل الواحد يبنى على مساحة كبيرة من الأرض ، تتوسطها حظيرة للماشية فى شكل دائرة ، فكان يخصص نصفها للماشية ، والربع الثالث لأبناء الماشية ، (العجول) والربع الأخير للأغنام • ومن حول الحظيرة كانت تقام الأكواخ للرجل ، ولنسائه ، وأبنائه وزوجاتهم ، بحيث يخصص لكل زوجة كوخ ، واذا كان للرجل أخوة متزوجين فأن المنزل فى هذه الحالة تزداد عدد أكواخه ، فتبلغ ما بين ٣٠ ، ٤٠ كوخا (١٠) •

وهذا عن المظاهر الطبيعية ، والشعوب التى تقطن منطقة شرق افريقيا ، ولكن بقى لى أن أعرض لأهمية ساحل هذه المنطقة • ترجع أهمية هــذا الساحل الى أنه كان مرسى لكل سفن العالم عبر العصور ، حيث كانت هذه السفن تأتى اليه من الهنـد ، والخليج العربى ، والصين والملايو فى كل فصول السنة ، ثم تعود بالتالى وهى محملة بالعاج وأسـنان الخرتيت والعبيد ، واستمرت التجارة تمارس فى هذه الغلات الثلاث الى أكثر من ألفى عام • وقد شيد العرب المستوطنات فى هذه المنطقة ، وكان من بقايا هذه المدن أو المستوطنات ، قسمايو Kismayo ، ولامو Lamu ، وممبسا Mombasa ، وكيلوا Kilwa وزنزبار Zinzibar ، وكانت هذه المدن

---

(9) Andrew Fedders. Maasai. London, 1973. pp. 19, 46.

(١٠) د. محمد عوض محمد : المصدر السابق . ص ١١٢ .

تمثل مراكز للمقايضة والمبادلة • وكانت القوة البحرية العربية قد سيطرت على المحيط الهندى مدة عشرة قرون • وفى تلك الأثناء مارس عرب عمان نظامهم السياسى والتجارى على هذه المنطقة • ومن المحتمل أن يكون الفرس قد شيدوا مدنا فى افريقيا منذ ألف عـام ، كما أن العرب الذين استوطنوا منطقة شرق افريقيا تزاوجوا مع الوطنيات ، وأنجبوا شعبا يتكلم اللغة السواحيلية التى يتكلمها كل سكان شرق افريقيا ابتداءا من النيل وحتى نهر الجوبا (١١) •

وبعد ذلك نتناول فى الحديث كيف وصل الهولنديون الى منطقة جنوب افريقيا The Cape of Good Hope • فمن المعروف أن الهولنديين وصلوا الى جنوب افريقيا عام ١٦٤٧ ، عندما تحطمت السفينة « هارلم » بالقرب من ساحل رأس الرجاء الصالح ، وكان من نتيجة ذلك أن قرر البحارة أن يقضوا عاما فى تلك المنطقة قبل التقاطهم • وفى تلك الأثناء نجح هـؤلاء الرحالة فى زراعة المحاصيل الغذائية ، التى كانت تكفى معيشتهم • ولما عادوا الى هولندا رسموا صورة براقة عن جنوب افريقيا ، لذلك قررت شركة الهند الشرقية ، إنشاء محطة لها فى رأس الرجاء الصالح ، لخدمة سفنها المتجهة الى الشرق الأقصى •

وفى عام ١٦٥٢ م بدأت مستعمرة الرأس فى الظهور بصورة صغيرة جدا تحت قيادة جراح يدعى فان ريبك ، الذى كان من بحارة هارلم الغارقة ، وكانت الأوامر الصادرة اليه تشير الى بناء حصن ، كما كان عليه القيام بزراعة حديقة فى أحسن الأراضى ، وأن يحتفظ بعلاقات ودية مع الوطنيين ، وكان المستعمرون الهولنديين يعملون فى خدمة الشركة ، بحيث لم يسمح لهم بمزاولة أى عمل خارجى • ولكن سرعان ما اصطدموا بالوطنيين من البوشمن والهوتنتوت ، ولكن ريبك استطاع أن يستخدم البوشمن عمالا وخدما •

---

(11) Elspeth Huxly : East Africa, London, 1941, pp. 12, 14.

وفى تلك الأثناء كان لا يوجد بالمستعمرة نساء من البيض ، فجاء بعض المستعمرين بنساء من الهتنتوت ، بحيث أطلقوا على أطفالهم أسم الملونين بمنطقة الرأس (١٢) ٠

وفى عام ١٦٥٧ وصل من هولندا تسعة من أفراد الطبقة الوسطى ومعهم زوجاتهم ، ولم يكن هؤلاء من خدم الشركة ، ولكنهم كانوا قد أرسلوا على شرط أن يطيعوا قوانين الشركة ٠ وسرعان ما جاء فى أثرهم مستوطنون آخرين من أوربا ، ففى ذلك العصر كان الهجنوت الفرنسيين المسيحين من البروستانت موضع اضطهاد شديد ، فهم الذين كانوا قد خرجوا فى عهد الأصلاح الدينى على الكنيسة الكاثوليكية ، واعتنقوا المذهب البروتستانتى ، وكانوا قد رفضوا فى حزم نبذ هذا المذهب ، وقد توجه بعضهم الى امريكا بحيث استقروا فى نيو امستردام وبنسلفانيا وغيرها ، وهناك مارسوا عبادتهم بحرية ، وكان البعض منهم قد ذهب الى انجلترا وبراندنبرج فى شمال ألمانيا ، وأقام غيرهم فى الأراضى المنخفضة ورأت شركة الهند الشرقية الهولندية الفرصة متاحة أمامها للاستفادة من هؤلاء المهاجرين المجدين ، فعرضت على مائتين منهم أن تدفع لهم نفقات الرحلة الى رأس الرجاء الصالح ، اذا وعدوا بخدمتها مدة خمس سنوات ، فكانوا كسبا للمستعمرة ، بسبب معرفتهم لزراعة الكروم ، فضلا عن مهارتهم فى مهنة الزراعة ٠ وكان الأطفال الهجنوت والهولنديين يذهبون الى نفس المدارس ، وسرعان ما تعلموا أن يفهم بعضهم البعض ٠ وحرم عليهم استعمال اللغة الفرنسية ، ولذلك تكلموا اللغة الهولندية ، وبالتدريج فقد شقت بعض الألفاظ الهولندية طريقها الى لغة الحديث ، التى كانت مزيجا من اللغتين ، فأطلق على هذه اللغة الجديدة اسم الأفريكانية Afrikaans التى أصبحت فيما بعد اللغة التى يستخدمها الهولنديون فى جنوب افريقيا حتى اليوم ٠

---

(١٢) كاثارين سافيدج : ترجمة د. راشد البراوى : قصة افريقيا جنوب الصحراء ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ص ٨٣ — ٨٥ .

وفى عام ١٧٠٠ م ، كانت مدينة الرأس عاصمة المستعمرة التى تشبه الكثير من المدن الهولندية ، ففيها بنيت قلعة وكنيسة من الخشب ، ومخزن للمحصولات ، ولم يعتبر البيض المولودون فى جنوب افريقيا أنفسهم من الهولنديين أو من الفرنسيين ، أنما نظروا الى أنفسهم على أنهم افريكانو فقط •

وكان الفلاحون الأقوياء يعرفون بأسم البوير الذين تكونت منهم ، ومن رجال الطبقة الوسطى جماعات الكوماندوز (الفدائيون) ، وهى وحدات مقاتلة سريعة الحركة ، وكانت مهمتها حراسة الحدود والماشية •

وفى منتصف القرن الثامن عشر ، كانت السيادة قد انتقلت من أيدى الهولنديين الى الانجليز ، وفقدت شركة الهند الشرقية الهولندية الكثير من تجارتها ، وأشرفت المستعمرة على الأفلاس ، وتعب الأفريكانو وبدأوا يسيرون فى داخل البلاد الواقعة وراء الحدود ، وكلما تقدموا التقوا بقبائل البانتو وتاجروا معها ، وأطلق الهولنديون على هؤلاء الوطنيين ، كلمة (الكفير)ومعناها بالعربية غير المؤمن • وفى عام ١٧٧٩ نشبت حرب الكفير ، فأنتصر فيها الكوماندوز من البوير على أعدائهم وأسسوا جمهورية مستقلة عن مستعمرة الرأس ، يمتد حدها الشمالى بطول نهرى السمك والأورانج •

وفى تلك الأثناء كان نابليون يعد الخطط لغزو مصر ، لكى يمد نطاق أمبراطوريته الى الشرق الأقصى ، وكان من الضرورى بالنسبة لبريطانيا أن تحافظ على حرية طرقها التجارية الى الهند • ومن أجل الحيلولة دون وقوع مستعمرة الرأس فى أيدى فرنسا ، أبحرت السفن الحربية الانجليزية فى عام ١٧٩٥ الى ميناء مدينة الرأس ، وأنزلت عددا من قواتها ، وسرعان ما تغلبت هذه القوات على مقاومة الأفريكانو ، الذين كانوا يتسلحون بأسلحة بسيطة ، وخلال السنوات العشرين التالية عاشت المستعمرة فى تمزق ، وتعددت جنسية الدول التى سيطرت

عليها ، فقد أعادها البريطانيون الى أصحابها لفترة وجيزة ، ولكن سرعان ما استولى عليها البريطانيون عام ١٨٠٦ ، بسبب ما كانوا يشعرون به من قلق من ناحية نابليون •

ولكن بعد فرار نابليون من جزيرة البا وهزيمته فى موقعة ووترلو ، ثم سجنه بعد ذلك فى جزيرة سانت هيلانة الصغيرة ، الواقعة على مسافة قريبة من ساحل افريقيا الغربية ، قام أسطول من السفن الحربية البريطانية بأعمال الدورية فى المحيط الأطلسى الجنوبى ، لمنع أية محاولات يقوم بها أنصار بونابرت لانقاذه • ولكن على الرغم من أن البوير كانوا يكرهون الشركة الهولندية الشرقية ، الا أنهم أصبحوا الآن أشد كرها للحكم الجديد (حكم بريطانيا) •

وبعد عام ١٨٥٢ م ، أى بعد نزول المستعمرين الأول عند رأس الرجاء الصالح بمائتى عام ، أعترف البريطانيون ، وعن غير رضا بأستقلال جمهوريتى الترنسفال ودولة الأورانج الحرة اللتين أنشأهما البوير (١٣) •

أما عن المبشر الأسكتلندى روبرت موفات فقد أسس عام ١٨٢٠ م مركزا للتبشير فى كورومان فى بتشوانا لاند ، وفى ذلك الوقت كانت الحدود الشمالية لمستعمرة الرأس يحميها خط من الحصون ، بحيث لم يجرؤ الا عدد قليل من البيض على اجتيازه ، كما لم يتوغل أحد أيضا فى أرض الملوك السود • لهذا بدت إرسالية كورومان فى نظر الكثيرين من الناس ضربا من الجنون ، ولكن روبرت موفات كان يشعر بأن هذا واجبه ، لذلك عمل مع القبائل المجاورة ، بحيث كان له تأثير على مزيليكازى وغيره من زعماء المتابيلى ، بفضل شجاعته وحكمته • ولما كان مزيليكازى يرغب فى مصادقة رجل أبيض ، دعا موفات لزيارته فى قريته الواقعة فى بولاوايو لاستشارته فى عدة أمور • وبعد المقابلة

---

(١٣) كاثارين سافيدج : نفس المصدر • ص ص ٦٠ — ٦٣ •

رفض مزيليكـــازى أن يتنـــازل عن عـــدد من زوجـــاته ، وأن يعتنق المسيحية (١٤) •

وكانت بعثة موفات الخطوة الأولى فى نشر المسيحية بين القبـــائل الوثنية ، وقد اقتصر نشاطها على منطقة الجنـــوب الأفريقى ، كمـــا أن موفات لم يكن لـــه دور كشفى يستحق الذكر • وأما بالنسبة لدافيـــد لفنجستون فقد كان له دور بارزا فى مجـــال الكشف ، وفى مجـــال نشر العقيدة المسيحية ، ويتجلى ذلك فى قيامه بنشر مبـــادىء الأنجيل بين الشعوب الأفريقية ، وبخاصة الوثنية منها ويتضح ذلك من هذا النص :

«Livingstone purpose's in going to Africa had been to spread the word of God among the African people (15).

ولكن على الرغم من ذلك ، فأن مهمـــة لفنجستون لم تقتصر عـــلى نشر العقيدة المسيحية فحسب ، بل قام بالتجول فى الكثير من الأقطـــار الأفريقية وبخاصة فى جنوب أفريقيا ، فقد شـــاهد الموارد الأقتصـــادية لهذه الأقطار والمثلة فى الحاصلات الزراعية والسلع التجارية والمعادن ، لهذا نجد لعابه يسيل أمام وفرة هذه الخيرات ، فنسى مهمته السامية المثلة فى نشر العقيدة المسيحية ، وتحول الى داعية ، يدعو الى الأستعمار ، أى أنه طلب من بريطانيا وبصورة رسمية أن تستعمر جنـــوب افريقيا ، وبالفعل استجابت بريطانيا لدعوة رجل الدين هذا • أذن يمكن القول بأن هـــذه الدعوة الدينية لم تكن دعوة صادقة خالصـــة ، بل كانت دعـــوة من أجل التستر خلف الدين ، وذلك للوصول الى هذه المناطق ، والدليل على ذلك أن لفنجستون بعد أن تجول فى جنوب القارة وقام بعبورهـــا من الشرق الى الغرب ، ثم من الغرب الى الشرق ، طلب من بريطانيا أن تقوم بتحقيق

---

(١٤) كاثارين سافيدج ، ترجمة راشد البراوى : نفس المصدر • ص ص ٨٦ — ٩١ ، ٩٣ •

(15) Elspth Huxley : Encyclopedia of discovery and Exploration the challenge of Africa. London., 1971. pp. 63, 71.

هدفين ، أولهما نشر المسيحية ، وهذا فى الواقع ليس ذات أهمية ، فهـذا المطلب كان يقصد به الوصول الى القارة ، ومعرفة ما تحويه من موارد • وقد تحقق ذلك بالفعل على أيـدى الاستعمارى الأسكتلندى دافيـد لفنجستون •

وتمثل الهدف الثـانى فى فتح طريق للتجارة بين بريطانيا وجنـوب افريقيا ، وهذا الهدف فى الواقع كان يمثل دعوة استعمارية صريحـة ، ويتضح ذلك من النص التالى :

«In an address at cambridge University livingstone conclude : «I beg to direct your attention to Africa ... which is now open. Don't let it be shut again ! I go back to Africa to try to make an open path for commerce and for christianty» (16).

واذا كان لفنجستون قد نجح فى كشف منـابع نهر الزمبيزى ، وفى عبور القارة من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق ، فأن كل من [illegible] John Ludwig Krapf ، وجوهان ربمان قد نجحا أيضا فى الكشف النهائى عن جبال شرق افريقيا ، التى ظلت تمثل لغزا حقيقيا ، بل وكانت رمزا للخرافات والأساطير ، بحيث اعتقد الوطنيون بأنها مكان سكنى للأرواح الشريرة ، فكـان من المعتقد أن أى شخص يـذهب اليها كان من الصعب عليه العودة مرة ثانية • ومما لا شك فيه فأن هذين الرجلين قد أزاحا الغموض وبصورة نهائية عن جبال كليمنجارو ، وكينيا ، وعن الأخدود الأفريقى ، ولكن مع ذلك فلم يكن لهما دور بارزا فى المساهمة فى الكشف عن منابع النيل ، وذلك لأنهما لم يتمكنا من الوصول الى منطقة أعالى النيل ، ربما للعوامل الطبيعية التى تكتنف هذه المنطقة •

وعلى أثر هذه الأستكشافات ، أسرع سـيسل رودس الى منطقة جنوب افريقيا • وكان سيسل رودس هذا قد ولد عام ١٨٥٣ م ، حيث

(16) Elspeth Huxley Ibid. pp. 63, 71.

كان ينتمى الى أسرة انجليزية من الطبقة المتوسطة • وكانت أسرته هـذه تعيش فى بيشوب استورت فورد Biship Stort Ford • وفى السنة السادسة عشرة من عمره ، أرسل الى جنـوب افريقيا ليلتحق بأخيـه هيربرت Herbert • وكان سيسل يعتقـد فى أنه يوجد هناك أحسـن مناخ مشمس وصحى فى العالم ، ولكن فيما بعد كان له تأثير هام فى مجرى تاريخ جنوب ووسـط أفريقيا • فقد عمل هو وأخيه فى زراعـة القطن فى اقليم ناتال ، ولكن المحصول كان رديئا • وفى عـام ١٨٧٣ ذهبا ليجربـا حظهما فى حقول المـاس الموجودة فى كيمبرلى ، وعاش معا فى معسـكر للتعدين ، وكان هـذا المعسكر مزدحما بعمـال التعدين الذين أتوا لتجربة حظهم أيضا ، وكان الجميع يعيش تحت وطأة ظروف قاسية ، وبعد ذلك عاد سيسل رودس الى انجلترا ليكمل دراسته فى جامعة أكسفـورد • وبعد ثمانية سنوات عاد الى أفريقيا ، وكان هدفه هذه المرة العمل على مد نفـوذ بريطانيا الى أجزاء كثيرة من افريقيا • وكـان حلمه فى أحد الأيام أن تتوحد كل افريقيا تحت العلم البريطانى ابتداء من مدينة كيب تاون فى أقصى جنوب القارة الأفريقية ، وحتى مدينة القاهرة فى الشمال ، وأن صح القول الى مدينة الاسكندرية •

وبعد ذلك انتخب رودس عضوا فى برلمان كيب تاون ، وعلى الفور أصبح واحدا من أقوى الرجال فى جنوب أفريقيا ، وقد مكنته هذه الظروف من القيام بتأسيس جزء من الأمبراطورية البريطانية فى القارة الأفريقية ،وكان من الضرورى على رودس أن يتوسع صوب الشمال (١٧) فقـام بتشكيل فرقة من الرواد فى جنـوب القارة بحيث يستقر أعضاؤها هناك كأول مستوطنين • وكانت هذه الفرقة تبلغ مائتى من الرجال تقريبا ، وتكلفت شركة الهند الشرقية البريطانية بالانفاق عليها • وكان البعض من أعضاء هذه الفرقة من المزارعين ، وأصحاب المحلات والبنائين ، وكـان البعض الآخر من رجال التعدين والجزارين والخبازين ، وقد عمل سيلوس Selous

(17) Guy Winchester - Gould : Rhodesia. London, 1970. p. 17.

صياد الفيلة المشهور مرشدا ودليلا لهذه الفرقة ، وكان سيلوس هـذا قد زار من قبل هذا القطر ، وعرف لوبنجولا Lobengula معرفة جيدة ، وبالاضافة الى ذلك ، فإنه وجد الى جانب هـذه القوة قوة أخرى كـانت تتمثل فى قوة بوليس الشركة ، فكانت هـذه القوة تقوم بمصاحبة الرجال لحمايتهم من هجوم محتمل من جانب الماتابيلى Matabele ، أو من جانب الماشـونا Mashona

وفى يونيو عـام ١٨٩٠ ، تجمع أعضاء هـذه الفرقة الرائـدة فى بتشوانا لاند الشمالية (تعرف فى الوقت الحاضر ببتشوانا لاند) الواقعة على حدود الماتابيلى • ومن هناك بدأت البعثة مهمتها الخطيرة صـوب الشمال • وقد واجهت البعثة الصعاب منذ بدأت الرحلة ، فلم يكن يوجد هناك طرق ممهدة ، فقد وجد فقط أدغال كثيفة وجبال وأنهار تفيض بالمياه ، كما كانت توجد فيها الحيوانات المفترسة بوفرة ، فضلا عن وجود قبائل معادية ، زيادة على انتشار حمى الملاريا •

وقد امتطى أعضاء البعثة الخيول ، ومن خلفهم كانت تسير العربات المشحونة بالأمدادات التى تجرها الثيران • وكان من الضرورى تمهيـد طريق للثيران يمر من خلال الأدغال ، وعندما كانت العربات تصل الى أى نهر عميق ، كانت الأمدادات تفرغ منها ثم تقوم الثيران بعبور النهر ، وهى تجر العربات فارغة ، وعلى الجانب الآخر يعاد شحن جميع الأمتعة • وكان من حسن الحظ أن التماسيح لم تقم بمهاجمة أى فرد من أفراد البعثة ، ربما لخوفها من هذا الحشد من الأفراد ، وربما لأنها كانت قد تعودت على مثل هذه المناظر • وعندما عسكرت البعثة بالليل ، اتخذت العربات شكل دائرة محكمة لكى يحتمى فى داخلها الرجـال والدواب من خطر مهاجمـة الحيوانات البرية المفترسة بل ومن مهاجمة المقاتلين من الوطنيين •

وفى أثناء الرحلة قام أعضاؤها ببناء بعض الحصون ، كان منها حصن

تولى Tuli ، الذى أسس عند نقطة البداية ، وحصن فيكتوريا الذى أسس عند نهر لمبوبو وسمى بهذا الأسم تشريفا للملكة فيكتوريا •

وبعد فترة راحة قصيرة قاد سيلوس الفرقة الى مسافة أبعد • وأخيرا وصل الرجال المتعبين Weary الى النهاية destination ، وهناك وقفوا على تل مسطح يشرف على سهل متسع • وفى اليوم التالى الموافق ١٢ من شهر سبتمبر عام ١٨٩٠ م ، رفع العلم البريطانى The Union Jack على هذه المنطقة ، وكان رفعه يمثل حادثة هامة ، بل وكان علامة بارزة على الاحتلال الأوربى للأرض التى أصبحت تعرف بأسم روديسيا • وهناك أسس حصن سليزبرى Salisbury نسبة الى رئيس الوزراء البريطانية • وفى الوقت الحاضر ، أصبح حصن سليزبرى أكبر مدينة ، تمثل عاصمة روديسيا (فى الماضى) •

وباحتلال البتشوانا لاند ، كان الدور الأول لحلم سيسل رودس Cecil Rhodes قد تحقق ، فقد توحدت هذه المنطقة تحت الحكم البريطانى • وعندئذ اعترف بروديسيا الجنوبية ، وبنياسالاند بأنهما من الممتلكات البريطانية • وبتحقيق هذا النصر ، أصبح سيسل رودس فى نفس السنة رئيس وزراء لمستعمرة كيب تاون Cape Town Colony (18) .

وهكذا فيمكن القول بأن دافيد لفنجستون لم يكن مبشرا ، فحسب بل كان استعماريا صرفا ، بل وأنه اتخذ من نشر العقيدة المسيحية ستارا ، يخفى من خلفه أطماع بريطانيا فى استغلال هذه الثروات الدفينة •

وأضيف هنا أن بريطانيا كانت تساند من جانبها هؤلاء المغامرين ، وبخاصة بعد أن فقدت مستعمراتها فى العالم الجديد ، فمن المعروف أن مستعمراتها فى العالم الجديد كانت تمثل سوقا استهلاكية بالنسبة

---

(18) Guy Winchester - Gould. Op. Cit pp. 20 - 23.

للسلع الصناعية البريطانية الزائدة عن حاجة سكانها • فبعد نجاح الثورة الأمريكية في نهاية القرن الثـامن عشر ، خسرت بريطانيا بذلك هـذا السـوق ، وكان عليها عندئذ البحث عن سوق جديد ، فلم تجد أمامها الا السوق الأفريقى • ولكن السؤال المطروح هو كيف تصل بريطانيا الى هذا السوق ؟ الاجابة على هذا السـؤال تكمن في أن بريطانيا أتخذت عـدة اجراءات يتمثل أحداها فى ارسال المغامرين الى افريقيا ، لكى يقـومـوا بالكشف عن المناطق المجهولة ، هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كـان عليهم أيضا الوقوف على ما تحويه هذه المناطق المجهولة من ثروات طبيعة ، ونباتية وغيرها ، ويعرف هذا من وجهة نظرى بأسم الأستعمار السلمى ، أما الأجراء الثانى الـذى اتبعته بريطانيا فيتمثل فى محـاربة الرق فى افريقيا ، وفى الحقيقة أن هذه المحاربة لم تكن حقيقية ، ولم تكن من أجل تحرير الإنسان الأفريقى من العبودية ، بقدر ما كانت وسيلة تحقيق بريطانيا من خلالها رغبتها فى الوصول الى قلب افريقيا لكى تستغل موارد هـذه القـارة •

وقد زاد من اهتمام بريطانيا بهذه القضية (الاستعباد) أنها لم تعد فى حاجة الى استخدام رقيق أفريقيا فى العمل الزراعى أو الصناعى ، لأنه لم يعد لها مستعمرات فيما وراء البحار ، تكون فى حاجة الى مثل هذه الأيدي العاملة الرخيصة بل الأيدي المجانية • ولكن لو شاء القدر وتمكنت بريطانيا فى تلك الفترة « نهاية القرن ١٨ ، وبداية القرن ١٩ » من ايجاد عالم جديد آخر ، وكان هذا العالم الجديد فى حاجة الى أيدى عاملة من افريقيا ، فوالله ما نادت بريطانيا بوقف هذه التجارة على الأطلاق •

وقد شجعها على تبنى دعوة الغاء الرق أيضا ، أن الصناعة فى بريطانيا فى ذلك الوقت (القرن ١٩) أصبحت متقدمة بل وأدى ذلك الى أن حلت الميكنة الزراعية محل الإنسان فى الزراعة •

ومن أجل ذلك أتخـذت بريطانيا عدة خطوات منها ، أنها وضـعت

أحدى أساطيلها البحرية لمراقبة سواحل افريقيا الغربية ، وذلك للقيـام بتفتيش السفن الأوربية التى تحمل رقيقا ، ولكى يكون لها الحق فى ذلك ، فقد عقدت معاهدة مع دول أوربا عرفت بمعاهدة التفتيش المتبـادل Reciprocal Search Treaty وقـد وافقت عليهـا بعض الدول الأوربية وعارضتها بعض الدول الأخرى (١٩) •

ومن الأجراءات التى اتخذتها بريطانيا أيضا ، أنها وضعت أسـطولا فى المحيط الهندى كى يراقب تجار الرقيق فى شرق أفريقيا ، ومن المعروف أن دافيد لفنجسـتون قد طلب ذلك فى مذكراته • وبذلك تكون بريطانيـا قد أحكمت سيطرتها الفعلية حول القارة الأفريقية •

ولكن بقى عليها أن توسع نطاق هذه السيطرة شمالا حتى بورسعيد ، فضلا عن وصول نفوذها الى داخل القارة الأفريقية ، لكى تهيمن بذلك على مصادر الثروة والمواد الخام فى هذه القارة •

ولكن السؤال الآن كيف تصـل بريطانيا الى قلب القـارة الأفريقية ؟ الأجابة على هذا السؤال ، أنها وجدت ضالتها فى خديو مصر « أسـماعيل باشا » ، لأن مصر فى ذلك الوقت ، كانت أقوى دولة أفريقية يمكن الاعتماد عليها ، فكانت بريطانيا قد اتهمت مصر بأنها لم تعمل من جانبها على وقف تجارة الرقيق ، لهذا دعت بريطانيا مصر الى المساهمة فى وقف هذ التجارة ، فعقدت معاهدة فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ بين الدولتين عرفت بمعاهدة الغاء الرقيق فى افريقيا (٢٠) • ويرجع السبب وراء لجوء بريطانيا الى عقد مثل هذه المعاهدة مع مصر الى عدم إثارة الدول الأوربية الأخرى ضدها •

وبهذه الوسيلة تمكنت بريطانيـا أولا ، من التدخل فى شـئون مصر

---

(١٩) فيج دى جى ، ترجمة د. السيد يوسف نصر . تاريخ غرب افريقيا • القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢٩ وما بعدها •

(٢٠) انظر نص هذه المعاهدة فى كتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا فى القرن ١٩ . للمترجم •

الداخلية ، وثانيا ، تمكنت من الوصول الى اواسط افريقيا أى أنها أصبحت تمارس جميع أنشتطها تحت اسم مصر التى انتهى الأمر بأحتلالها عام ١٨٨٢ م .

ومن الواضح إن بريطانيا اختارت المناطق المكتظة بالسكان فى افريقيا ، ولم تختار الأماكن نادرة السكان ، حتى تكون لها أسواق استهلاكية رائجة ، فأستولت فى غرب افريقيا على غانا ، وسيراليون ، وفى شرق افريقيا على كينيا وأوغندا وجزء من الصومال ، وفى الشمال الشرقى من افريقيا استولت على مصر . وبالتأكيد فأن هذه المناطق هى المناطق المكتظة بالسكان ، وهى التى تصلح لأن تكون أسواقا استهلاكية على جانب من الأهمية . ومما لا شك فيه أن المناطق المكتظة بالسكان هى المناطق الخصبة التربة ، بل والوفيرة المياه . (المترجم) .

الفصل الثامن

لغز النيــل

كان لدى لودويج كراف Ludwig Krapf ، أمل كبير فى حــل أكبر لغز ، ألا وهو معرفة مصدر النيل • ولكن لم يتحقق له هــذا الأمل الا فى عام ١٨٥٣ م ، حال مغادرته منطقة رابيا Rabia ، وكان قد قابل أثنــاء وجوده فى القاهرة أحد الرجال الذى كان له دور فى حل هــذا اللغز ، وقد زوده هذا الرجل بمعلومات خاصة يصف فيها جبال كليمنجارو Kilimanjaro Mountains ، وجبــال كينيا Kenya Mountains ، والبحر الداخلى (من المحتمل أن يكون هذا البحر أحد البحيرات الإســتوائية) الــذى كان ربمان Rebmann قد فشل فى كشفه (بحيرة فيكتوريا) •

وكان هــذا المكتشف هو ريتشارد بيرتون Richard Burton ، الذى أشتهر يومــا ما بترجمته لقصة « ألف ليلة وليلة » حيث كتب عنه أحد أصدقائه الشعراء والذى يدعى سوينبرن Swinburn يقول « أن بيرتون كان شخصية غريبة الأطوار ، خيالى ، وسىء الحظ ، وتبدو عليه الطيبة ، ومع ذلك فأنه كان يميل الى الشر • وقد ولد بيرتون عام ١٨٢١ م ، وكان والده يعمل ضابطا بالجيش ، وكان فى صباه متهورا ، وغير منظم ومشاكس وقد قضى جزءا من تعليمه فى فرنسا ، حيث كانت أسرته تعيش هنــاك ، وبعد ذلك ذهب الى جامعة أكسفورد • وفى خلال حياته مارس عدة أعمال منها عمله جندى ، ومكتشف وعالم للآثار ، ومؤلف ، فضلا عن أنه كـــان واحدا من كبار علماء اللغة والترجمة فى عصره •

وفى أثنــاء خدمته فى الجيش الهندى تعلم اللغة الهندوســتانية ، وعدداً آخراً من اللغات الهندية ، ولكن اهتمامه الأساسى كان ينصب على تعلمه اللغة العربية ، التى بدأ يتعلمها بنفسه فى جامعة اكسفورد • وقــد

استفاد به الجيش (الجيش البريطانى) فى أعمال المخابرات ، وأحب بيرتون هذا العمل السرى المحفوف بالمخاطر . فكان يتنكر فى زى تاجر ويرتدى لحية ، وشعرا مستعارا ، بل وكان يدهن جلد جسمه بالحنة . وبعد أن تعرض لمرض الكوليرا أصيبت أحدى عيناه بمرض خطير . وعلى أثره سرح من الجيش ، وذلك لعدم صلاحيته ، وبعد ذلك عاد الى انجلترا ، وهناك لم يكن له أمل فى الحصول على وظيفة ، بل عكف على الكتابة ، فكتب عدة كتب عن الهند تضمنت وصفا لشعوبها وعاداتهم وتقاليدهم ، كما تضمنت مغازلاته للفتيات الهنديات البالغات سن الرشد ، واللاتى قابلهن هناك . وأثناء أحدى زياراته لفرنسا لاحظ فتاة شقراء جميلة ، فى سن التاسعة عشر ، وعندما نظر اليها بعين فاحصة وقعت هذه الفتاة فى حبه بجنون شديد . وكانت هذه الفتاة تدعى ايزابيل أروندبل Isabel Arundell ، وقد أخبرت ايزابيل أروندبل أختها حرفيا بما نصه « أن هذا الرجل سوف يتزوجنى » .

وقد تأجل الزواج حتى عام ١٨٦١ م ، بسبب معارضة والدة ايزابيل . ومع ذلك فقد كان كل من بيرتون وايزابيل سعداء سعادة غامرة قبل وبعد الزواج . وكان على ايزابيل أن تتحمل سنوات من البعد عن زوجها ، لأن بيرتون لم يكن يسمح لأحد بالتدخل فى مشروعاته . وعندما تقابلا أول مرة كان مشغولا فى وضع خطة لبعثة سرية . وبحلول عام ١٨٥٢ م ، كان قد ترك لحيته تنمو ، بل وحلق شعر رأسه ثم تنكر . وكان هدفه من وراء ذلك الوصول الى مكة المدينة الأسلامية المقدسة التى كان المكتشف جون لويس بركهارت قد زارها قبل ذلك بحوالى ٤٠ عاما .

وحيث أن مكه كانت محرمة على غير المسلمين فقد أمضى بيرتون شهرا فى مدينة الإسكندرية مارس خلاله تعلم اللغة العربية ، بل وأتقن تنكره كطبيب مسلم ، وقد حقق بهذا نجاحا كبيرا ، حتى أن أحد مرضاه عرض عليه الزواج من أبنته . وبعد ذلك ذهب بطريق النيل الى القاهرة

(وهناك قابل كراف وكشف له عن هويته الحقيقية) وقـــال إنه لا يمكنه تصور مدى الأهمية التى يضفيها النيل على حياته • وبعد أن قضى عدة أسابيع فى المدينة مكة ـــ التى زارها من قبله جون لويس بركهاردت والتى كان بيرتون قد وصل اليها متخفيا ـــ مارس أثنائها شعائر الصلاة المعقدة وأثناء تأديته لشعائر الحج المبرور ، تمكن من فحص الحجر الأســـود الموضوع فى الكعبة الشريفة ، والذى من المعتقد أن جبريل عليه السلام كان قد أحضره من السماء الى سيدنا ابراهيم عليه السلام •

وقـــد قضى بيرتون أسبوعا فى مكه ، وفى طريق عودته كتب كتابـــا بعنوان « الحج الى المدينة ومكه » ، وكـــان كتاباً كلاسيكيا ، حـــاز قبولا كبيرا للغاية • وبسبب نجاحه فى التنكر ، فأنه تشجع على الفور وللمـــرة الثانية فى الأعداد لمغامرة خطيرة ، كـــانت تتمثل هـــذه المغامرة فى القيـــام بزيارة الى مدينة هرر الجبلية ، التى تقع بين إثيوبيا وجمهورية الصـــومال الحالية • وتعتبر هـــرر موطن الصـــوماليين المسلمين المتعصبين ، والتى كانت غير معروفة الى الأوربيين ، وطبقا للمعتقدات التى كانت سائدة بين أهلها فأن دخول أى كافر اليها يفقدها قدسيتها •

ومع ذلك فقد تمكن بيرتون من دخـــول المدينة (مدينة هرر) متنكرا فى زى تاجر عربى متعلم ، وممتطيا بغلا أبيض ذو لجام مزخرف ، وقـــد شملته الحماية بسبب حضوره لدى الأمير الذى كـــان متكئا على أريكة وممسكا بيده سيفا عربيا كـــان بارزا من تحت وسادته • وكـــانت حجرة الاستقبال مزينة بالأسلحة والسلاسل ، وآلات التعذيب ، وكـــان الأمير محاطا بحرس من المحاربين أنصاف العراة • وقد حملق الأمير بشـــك فى بيرتون ، وذكره ذلك بأسطورة تهديد قدسية المدينة • واعتقد بيرتون أن كشف أمره يعنى بالنسبة له الموت ، لكن بعد مدة طويلة وسكون ممل مد الأمير يده بلطف الى بيرتون ، وابتسم ابتسامة لطيفة فى وجهه ، وقال بيرتون ما نصه : « أن هذه الإبتســـامة بالنسبة لى كانت بمثابة نجدة » وكان هذا تعليقا مقتضبا لبيرتون • وبعبارته

«This smile, I must own, was relief was Burton's Laconic Comment».

وأضاف بيرتون يقول أنه على استعداد لمواجهة أسوأ الإحتمالات •
وأن جو العمل فى داخل القصر كان على أية حال مطمئنا •

وقد تبع ذلك أيام من القلق والتوتر ، لأن الأمير كان يشك فى بيرتون لهذا كان بيرتون مراقبا من جواسيس الأمير • ومع ذلك فقد تمكن بيرتون من القيام بعمل دراسة مفصلة عن المدينة وشعبها • ولكن عندما اتضح أن بيرتون لا ضرر من وجوده فى القلعة ، فأن الحارس المحلى الذى كان يرافقه ، عامله معاملة طيبة ، وعند هذا شعر بأنه كما لو كان قد انتشل من الموت •

وبعد ذلك انضم بيرتون الى أعضاء بعثته التى كانت تتكون من رجل انجليزى يدعى جون هانتج سبيك ، الذى كان يعمل مساحا وجيولوجيا ، وعالم نبات ، وكان يصغر بيرتون بست سنوات ، وكانت عيناه زرقوان ، ويميل لون شعره وشعر لحيته الى السمرة المصفرة ، ويختلف فى مظهره وشخصيته عن بيرتون • وقد عاش أسلافه لعدة أجيال فى منطقة سومرست Somerset الواقعة فى غرب (بريطانيا) وعاش فى شبابه عيشة حرة طليقة An open Air life ، وكان يفضل صيد الطيور عن الذهاب الى المدرسة He is preferring, birds - nesting and hunting to school.

وقد خدم فى الجيش البريطانى فى الهند ، وقضى أجازاته فى القيام برحلات صيد طويلة Huntingbig - Game فى جبال الهيملايا •
والآن فقد اتخذ طريقه الى شرق افريقيا ، كى يجمع عينات من الحيوانات النادرة والطيور ، وعندما التقى سبيك ببيرتون فى عدن ، تخلى عن خططه الخاصة ، وضم جماعته الى الرجل الذى يكبره سنا (وهو بيرتون) •

وبعد ذلك أوكلت قيادة البعثة الى بيرتون الذى كان قد اكتشف من قبل بلاد الصومال • وفى الأيام الأولى من هذا الأندماج ، أعجب سبيك بقيادة بيرتون بدرجة كبيرة • ولكن بعد الرحلة الأولى حدث احتكاك بين الرجلين نتيجة للتناقض بين تصرف كل من بيرتون المتغطرس

Arrogant ، والمتكبر Swashbuckling ، وبين سـبيك المتحفظ للغـاية ، Extreme reticence • وقد زاد هذا الخلاف بسـبب حادثة اليمـة ، تتمثل هذه الحادثة فى أنه فى ابريل عام ١٨٥٥ م ، عسـكر الرجلان عـلى حافة مرتفعة فى ميناء بربرة الواقع على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، وفى أثناء الليل هاجمت عصابة من الصوماليين أفراد البعثة ، وهرب الحارس المحلى وهو فى حالة من الفزع ، وقتل أحد أعضـاء البعثة ، وكذلك ضرب أفراد هذه العصابة سبيك بالحجارة ، التى كـانت تصوب اليه تصويبـا جيدا ، وقـد تحرك سبيك تلقائيا للخلف فى اتجاه خيمته • ولكن بيرتون صاح بالقول لا تخطو أية خطوة للخلف يا سبيك ، حتى لا يعتقد الأعداء أننا نتقهقر ، وحثه على معاودة الهجـوم ، ولكن (سبيك) سقط عـلى الأرض بسبب تكرار الضربات الموجهة اليه بعصا الحرب ، وبعد نهوضه طعن طعنات قوية ، فى رجليه ويديه سقط على أثرها على الأرض • وفى الوقت نفسه طعن أحد الرماة بيرتون بحربة فى فكه ، فنفذت من الجانب الآخر ، وعلى أثر ذلك شق طريقه بصعوبة نحو الشاطىء ، وهناك انتزع بعض التجار البريطانيين الحربة من فك بيرتون الذى جرح جرحا خطيرا ، بحيث ظل يتألم طوال حياته ، وبدت عليه الكآبة والتشاؤم الى الأبد • وعلى الرغم من الجروح التى أصيب بها سبيك ، الا أنه ومعه واحد من الإنجليز الذين ظلوا على قيد الحياة ، قـد صارعا التعب حتى وصلا الى الساحل • وكان (سبيك) مجروحـا فأعاقه ذلك من القيام بمزيـد من الكشوف • وعلى هذا كان على البعثة العودة الى الوطن (بريطانيـا) • وكان سبيك فى تلك الأثناء مريضا مرضا عقليا وجسمانيا ، كما أنه لم ينس أبدا أن بيرتون قـد أتهمه بطريق غير مباشر بالجبن • وعلى الرغم من أنه لم يقل شيئا من هذا ، فى ذلك الوقت ، الا أن الأتهام كان سببا فى تشويش تفكيره •

ورغم المرارة التى عاناها سبيك من بيرتون ، الا أنه كان على استعداد الى أن يضم جماعته الى بيرتون مرة ثانية • ففى نهاية عـام ١٨٥٦ م ،

وبعد أن خدم كل من الرجلين فى حرب القرم The Crimean War ، عادا بعـد ذلك الى افريقيا ، فقد أرسلتهما هـذه المرة وزارة المستعمرات البريطانية The British Foreign office ، والجمعيـة الجغرافيـة الملكية The Royal Geographical Society ، وكانت التعليمـات التى تلقياها تقضى بأن يكتشفا المصدر الحقيقى للنيل • وكان عليهما أن يبدآ رحلتهما الأولى الى بحر أوجيجى (بحيرة أوجيجى) Ujiji ، وكان بحر أوجيجى هذا عبارة عن بحيرة مجهولة شاسعة المساحة ، وغير معروفـة الحجم ، وكان من المأمول فيه أن يكون هذا هو هدفهم ، وبعد ذلك يكـون فى الأمكان الذهاب الى جهة الشمال للبحث عن بحيرة أخرى كان قـد أشيع عن وجودها • وعندما كان بيرتون فى هرر سأل عـددا من الأسئلة الخاصة بالنيل ، وفى القاهرة تحدث كراف إليه عن النيل ، وعن جبال القمر الغامضة • وكان كراف مدركا للأدعاءات التى أطلقها كل من الأباء بيز Paez ولوبو Lobo وجيمس بروس • وقـد اقتنع كراف بهذا الدليل الوارد فى التقارير الدقيقة للجزويت ، وعلى الرغم من أن كراف كـان يعتقـد فى أن بروس كان مخطئا فى مبالغاته ، ألا أنه مع ذلك اعتقد وبصفة أساسية فى أن بروس كان على علم بالحقيقة • وبعد مرور ٩٠ تسعين عاما تقريبا عـلى المغامرات التى قام بها بروس فى الحبشة ، بدأ الجغرافيون فى النهـاية يشكون فى أنه من المحتمل أن يكـون بروس على صـواب فيما أورده • وبالطبع ، وكما رأينا فأن بروس رأى منبع النيل الأزرق ، وليس المجـرى الأصلى parent stream للنيل الأبيض • ولم يكن اكتشاف جميع منابع النيل الأبيض قـد تمت ، ولم يتمكن الجغرافيون بعد من معرفة ما اذا كان لهذا النيل منبع أو أثنين •

وعندما وصل بيرتون وسبيك الى زنجبار قابلا المبشر Missionary جوهان ربمان Johann Rebaman ، الذى حذرهم من أن الطريق الـذى ينويان اتخاذه من ممبسا وحتى الداخل محفوفا بالخطر بسبب وجـود قبائل المساى المحبة للحرب Warlike ، لذلك قرر كل من بيرتون وسبيك

بدلا من ذلك أن يبدآ رحلتهما من باجا مايـو Bagamayo التى تقع عـلى الساحل الغربى للمحيط الهندى والتى تكون أكثر قربا من الجنوب •

وقـد تأخر كل من بيرتون وسـبيك فى باجامايو مدة ستة شـهور ، بسبب إعداد الحمالين وشراء المؤن ، وأتمام الشفاء من نوبة حمى شديدة ، وقضى بيرتون نقاهته فى تعلم اللغة السواحيلية ، التى يتحدث بها السكان فى الداخل ، ولكن سبيك الـذى لم يستطع التحدث بالعربية ، أو بأى لغـة أجنبية أخرى لم يتمكن من التعـرف على أى أشخاص ، الا عن طـريق الأشارات ، فقد جعله هذا مفعم بالشك ، ليس فقط فى العرب والأفارقة ، ولكن أيضا فى بيرتون الذى أرتاب فى أنه يتآمر ضده (أى ضد سبيك) • وفى خلال تلك الرحلة التى قطع فيها الرجلان مسافة طولهـا ١٠٠٠ ميل الى الداخل ، دب الكره والخلاف فيما بينهما ، لأن سبيك الذى كان فيما مضى معجبـا ، بل ومدين بالإحترام لبيرتون ، نظر اليه الآن على أنـه إنسان ديكتاتورى ومتعجرف ، وفى الوقت نفسه نظر بيرتون الى سبيك على أنه كئيب وكتوم •

وحتى لو أنهما بقيا أصدقاء وعلى أحسن ما يرام ، فأن الرحلة كانت صعبة للغاية • فالحمالون استمروا فى هروبهم ، وكان من الممكن أن تكون دواب الحملة قد نفقت بسبب مرض ذبابة ـ تسىتسى tse - tse fly ، وكان المكتشفان أنفسهما يتألمان بسبب لدغات الحشرات الأخرى • هذا فضلا عن أن الآلات العلمية التى كانت لديهما ، ومعظم مهماتهما كانت قد فقدت ، كما لم يكن لديهما فائض فى الملابس سوى ما يرتديانه ، حتى أن هـذه الملابس كانت قد تمزقت بسبب مرورهما وسط الأشواك ، لذلك كان عليهما أن يرتديا ملابس صنعت من قماش البطاطين • وبعد ذلك واصل الرجلان مسيرهما من خلال الطريق الساحلى الذى يوصل الى بلدة طابورة الواقعة فى وسـط تنزانيـا فى الـوقت الحـاضر وكانا قـد مرا من خلال منطقة ساحلية مليئة بالأدغال الكثيفة ، والموجودة فى وسـطها ، كما وجد بها مستنقع عميق ملىء بالطمى ، ومغطى بجذور سميكة للأشجار ،

كما وجد أيضا ما يربو على ثلاثة سلاسل جبلية • وقـــد أصيب الرجلان (سبيك وبيرتون) بمرض الحمي حتى أن بيرتون أصبح ضعيفا بحيث لم يعد يقوى على السير ، واستغرقت هذه الرحلة الى بلدة طابورة ١٣٤ يوما ، قطعا خلالها ٦٠٠ ميلا ، وهناك (أى فى طابورة) أكد التجار العرب أشاعة مفادها أنهم سمعوا من قبل عن عدم وجود بحيرة واحدة ضخمة فقط ، كما توضح خريطة ارهاردت Erhardt's Map ، ولكن يوجد العديد من البحيرات ، منهم اثنتان كبيرتان ، ومن المرجح أن تكون هـــذه البحيرات متصلة بنهر ، ولكن لا أحد يعرف ما اذا كانت متصلة بالنهر من عدمه •

وقـــد قرر بيرتون أن البحيرة القريبة هى هدفهما الرئيسى ، وقبل وصولهما اليها بمدة طويلة ، كان بيرتون قد أصيب بالحمى التى منعته من السير ، بل وكان يحمل على (نقالة) Litter ، هذا فضلا عن أصابتهما بمـــرض فى أعينهما حتى أن سبيـــك أصبح أعمى بصفة مؤقتـــــة • اذا فأنهما صارعا معا المشقة طـــوال الرحلة التى يبلغ طولها ٤٠٠ ميل ، وفى العاشر من شهر فبراير عام ١٨٥٨ م ، سجل بيرتون بالعين المجردة خط الأفق ، الذك يلامس الحافة الذهبية للبحيرة ، وقـــد تسلقا حافـــة التل الصخرى ونظرا الى أسفل من خلال ســـياج من الأشـــجار ، ورأى بيرتون شىء ما يلمع من خلال خط الضوء الذى يقع أسفله ، فسأل مرشدهما العربى عن ذلك فأجاب المرشد بالقول ما نصه : « أن هذا فى رأيى هو الماء ، وأضاف أنه فى الواقع بحر أوجيجى (بحيرة تنجانيقا) • فمن قمة التـــل بدت صغيرة وغير هامة ، والسبب فى ذلك يرجع الى أنهما (بيرتون وسبيك) رأيا ركنا فقط من البحيرة ، وفى تلك الأثنـــاء رغب بيرتون فى العـــودة ، وعلى وجه السرعة ، وكان يرى من وجهة نظره الكشـــف عن بحيرة نيانزا Nyanza أو البحيرة الشمالية • وكيفما كان الحال ، فقد تقدم ياردات قليلة ، وفجأة وبصورة كلية برز أمام أعينه منظرا ملأه بالأندهاش والبهجة ،
«The whole scene suddenly burst uppon myview, filling me with admiration and delight ...»

وكان بيرتون وسبيك من الأوربيين الأوائل اللذين اكتشفا أكبر بحيرة

فى العالم ذات مياه عذبة ، وتمثل هذه البحيرة فوهة بركانية ذات لون أزرق جميل تقع وسط صخور رملية صفراء • وفى هذه اللحظة تبدد الأندهاش من عينى سبيك وكتب من قمة القرن الشرقى من البحيرة يقول « لا يمكن لأى فرد سوای أن يرى جمال وبهاء بحيرة تنجانيقا » •

وقـــد نزل الرجلان الى أسفل التل ووصلا الى مستعمرة أوجيجى ، الواقعة عـــلى الشاطىء الشرقى للبحيرة ، وهى عبارة عن قريـــة ضخمة مزدحمة بالأكواخ ، ويوجد بها ســـوق للرقيق ، ملىء بالأطعمة الطـــازجة المعروضة للبيع ، والممثلة فى اللبن والدجاج والبيض والخضروات • وكان كل من بيرتون وسبيك قلقين بسبب كشف هـــذه البحيرة ، وبخاصـــة عندما أخبرهما بعض تجار العبيد العرب بأنهما زارا الناحية الشمالية من البحيرة وشاهدا نهرا ضخما هو نهر الروسيزى Rusizi الذى يخرج من البحيرة وقد جعل هذا المكتشفان يعتقدان فى أن النهر هو نهر النيل ، ومع هـــذا ، فقد حذرهما التجار من أنهما ربما لا يعودان أحياء مرة ثانية ، لأن القبائل التى تقطن على الشاطىء المقابل كانت من آكلى لحوم البشر Connibals ، وتلك التى تقطن فى أقصى الشمال من البحيرة من آكلى لحوم البشر أيضا بل وأكثر توحشا •

وعلى الرغم من هذا التحذير ، الا أن بيرتون وسبيك أستأجرا قاربين وبعض البحارة boatmen ، الذين قاموا بالتجديف لهما عبر البحيرة ، وقد ساروا جميعا على طول الشاطىء الغربى ، وكتب بيرتون يقول ما نصه : « أن القبائل التى كانت تقطن بجوار الشاطىء كـــان من الواجب فحصهم كما لو كنت اتفحص لحم الجزار The light of buttcher's meat, ، ولكن لم نتعرض من جانبهم لأى أذى • ولقد مكث الرجلان فى قرية ليست بعيدة عن نهاية البحيرة الشمالية ، وهناك قابلا التجار العرب الذين رأوا نهر الروسيزى Rusizi ، والذين أصروا على أن هـــذا النهر يدخل البحيرة أى يصب فى البحيرة ولا يخرج منها ، وكان فى امكان بيرتون الذهاب الى هناك لكى يتأكد من هـــذه الرواية Statement ، ولكن البحارة انزعجوا عندما

سمعوا أن هذه القبائل كانت من آكلى لحوم البشر ، لذلك أصروا على العودة وعدم مواصلة المسير ، لهذا فقد عادوا الى أوجيجى دون التوصل الى حل لمشكلة النيل •

وكان بيرتون لا يزال مريضا ، لذا أقترح التخلى عن تكملة الرحلة والعودة الى الساحل ، ولكن سبيك الذى كا نقد شفى بصره ، رغب فى تنفيذ التعليمات الخاصة بكشف البحيرة من جهة الشمال ، وطبقا للاشاعة التى أطلقت فأن هذه البحيرة كانت أكبر من بحيرة تنجانيقا • لذلك وافق بيرتون على الأنتظار ، بينما يذهب سبيك بمفرده لمحاولة الكشف عن هذه البحيرة • وقد اقتفت البعثة آثار الأقدام أو الطريق الذى سلكاه من الساحل الى طابورة ، وبعد ١٦٠ يوما من السفر المدهش فى سهولته ، وصل سبيك الى شواطىء البحيرة الضخمة لدرجة أنه قال مؤكدا أنه من المحتمل أن هذه البحيرة تمتد الى آخر العالم ، وأنه فى الواقع كان قد اكتشف أكبر بحيرة فى افريقيا ، التى تعتبر بحرا داخليا مساحته ٢٦٫٠٠٠ ميل مربع ، فمن الإشاعات والأدلة التى جمعها سبيك أصبح الاعتقاد أن هذه البحيرة التى سماها بحيرة فيكتوريا كانت تمثل المصدر الرئيسى للمجرى الضخم للنيل ، والتى كان الأب موسى Father Moses ، قد طاف فوق مياهها فى مغامراته الأولى ، وبخاصة عندما حاول الأبحار فى النيل ، وبعبارة المؤلف

that floated father Moses on his first adventurous sail the Nile.

وبالتأكيد فأن سبيك قد نجح فى حل هذه المشكلة الخاصة بالنيل ، فقد كان طموح ملوك العالم الأول يتمثل فى حل هذا اللغز (الكشف عن النيل) ولكن مع ذلك فلم يثبت سبيك بالدليل القاطع كيف أنه تمكن من فحص قسم صغير فقط من النهاية الجنوبية للبحيرة ، وأخيرا عاد منتصرا ليخبر بيرتون بأنه اكتشف منبع النيل ولكن بيرتون شك فى قوله تماما • حيث لم يوافقه على اقتراحه الذى يقول أنه ينبغى عليهما عمل فحص كامل لهذه البحيرة ، ولكن بيرتون قال بأصرار ينبغى علينا العودة الى أرض

الوطن • وأضاف طبقا لما ذكره سبيك أنه حالما يستردا صحتهما تماما ويحصلان على المال اللازم فأنه فى هذه الحالة يمكنهما العودة سويا لأنهاء رحلتهما (الخاصة بالكشف عن منابع النيل)

وقد أصبحت الآن العلاقات بين الرجلين أكثر انهيارا عما كانت عليه من قبل • وفى أثناء رحلة العودة الى الساحل ، كان سبيك مريضا لدرجة كبيرة بحيث أنه وصل الى حالة الهذيان ، بينما كان بيرتون يقوم بتمريضه ، وكان عليه أن يسمع هذيانه بسبب مرضه المزمن بالحمى • وفى تلك الأثناء كان سبيك يهذى ويتهم بيرتون بدون سبب بأنه لا يحتمل العمل ، ولا يعضده فى مهمته ، وقد وجه سبيك السباب الى بيرتون ، بسبب رفضه للاعتقاد بما قاله من أن بحيرة فيكتوريا تمثل المصدر الرئيسى للنيل ، ودار فى تفكيره اتهام بيرتون الضمنى له بأنه جبان •

وقد استغرقت رحلة العودة أربعة شهور حتى وصل الرجلان الى الساحل ، وبذلك تكون هذه الرحلة قد استغرقت أقل من عامين • وفى ذلك الوقت قرر سبيك الذى تحسنت صحته العودة مباشرة الى أرض الوطن ، بينما بيرتون الذى كان مشتت الذهن ، وضعيف الجسم ، قد قرر البقاء لعدة أيام فى عدن • وفى الظاهر بدأ الصديقان وكأنهما على ما يرام وبموجب ما قرره بيرتون فأن سبيك قد تعهد أن ينتظر وصول بيرتون الى لندن، كى يقوما معا بتقديم تقرير مشترك الى الجمعية الجغرافية الملكية •

وطبقا لما حدث فأن بيرتون قد وصل الى لندن متأخرا أثنى عشر يوما عن سبيك ، فوجد سبيك قد قام فعلا بتقديم تقرير عن كشوفاته ونظريته ، الى السير رودريك مارشيزون Roderick Murchison رئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، وبناء على طلب السير رودريك مارشيزون ، فقد قام سبيك بالقاء محاضرة على أعضاء الجمعية الجغرافية • وقد ترك سبيك أثرا طيبا كان من نتيجته أن التمويل اللازم للبعثة الثانية التى ستذهب الى بحيرة فيكتوريا ، قد جمع له • وقيل إنه لو وجد منفذا عند نهايتها الشمالية ، فمن المحتمل أن يكون هذا المنفذ هو النيل ،

وعليه أن يتتبعه حيثما يتجه وحتى نهايته • وسوف تشير هـذه البعثة الى أرض غير مكتشفة • وكان من المأمول فيه أن يضع سبيك نهاية الى مشكلة النيل كما كان عليه أيضا أن يكتشف المكان الحقيقى لجبال القمر • ومن قبل كان كل من بيرتون وسبيك قـد اختلفا حول موقع هذه الجبـال ففى الوقت الذى اعتقد فيه سبيك أنها تقع فى المنطقة السفلى الواقعة قرب الطرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا ، قرر بيرتون أنها تقع فى أقصى الشمال الشرقى ، أى بين بحيرة فيكتوريا ومنطقة أعالى النيل •

وكان الرجل الثانى فى قيادة هذه البعثة بعد سبيك هو صديقه الكابتن جيمس جرانت Captin James Grant الضابط السـابق فى نفس الفرقة التابعة للجيش البريطانى فى الهند • وكان جرانت رجلاً لطيفا ومتواضعا ، كما كان فى نفس سن سبيك ، فلم يطلب أبدا لنفسه قيـادة البعثة ، كما أنه لم يطلب أيضا إدعاء بالشرف أو المجد •

وقـد اقترح بيرتون الذى لم يدع الى هذه البعثة أن يكون هناك بعثتان تبدآن من نقطتين مختلفتين ، ولكن لم يؤخذ برأيه • وفى الواقع كافأته الجمعية الجغرافية بالميدالية ، ومن الواضح أن الجمعية كـان لها اهتمام كبير بكشف سبيك لبحيرة فيكتوريا أكثر من اهتمامها بكشـف بحيرة تنجانيقا • ونتيجة لهذا التصرف من جانب سبيك فقد أضير بيرتون ، وغضب غضبا شديدا ، وكان غضبه يمكن أن يكون أكثر لو علم أن سبيك فى أحاديثه العامة والخاصة كان يقلل من إنجازاته وقدراته الشخصية •

وفى نهاية عـام ١٨٥٩ م نشر سبيك سلسلة من المقالات التى من خلالها أكد أهمية كشفه الخاص ، بل وقلل من أهمية كشف بيرتون ، وقـد أخطأ سبيك التقـدير الخاص بالموقع الحقيقى لبحيرة فيكتوريا عـلى الخريطة ، وأدعى أن النهر الذى سمع عنه ولم يره ، من المحتمل أن يكون نهر النيل ، وأصر على أن جبال القمر المحيرة ، كانت فى الحقيقة السلسلة

الواقعة بالقرب من بحيرة تنجانيقا • ومن ناحية أخرى بقى بيرتون ثابتا على رأيه الذى يقول «أن جبال القمر كانت جبالا ذات قمم ثلجية ، تقع فى أقصى الشمال والشرق من بحيرة تنجانيقا » •

وكـــان الخلاف على موقع جبال القمر واحدة من نقط الخلاف بين بيرتون وسبيك ، فكان بيرتون الذى يعتقد فى وجود أربع بحيرات كبيرة فى وسط أفريقيا ، يأمل فى أن يثبت أن بحيرة تنجانيقا هى مصدر النيل • وفى كتابه المعنون بـ « منطقة البحيرة فى وسط افريقيا » Jake Region's in Central Africa ، الذى نشر عام ١٨٦٠ م ، والذى لم يجازف بيرتون فيه بتأكيد ادعائه ، كما أنه فى نفس الوقت لم ينكر هـــذا الادعاء ، وفى سياق إستيائه من سبيك أتهمه بأنه غير ملائم للقيام بأية عمل آخر ، ولكنه (سبيك) يصلح فقط للقيام بالأعمال الثانوية ، وانتقد بيرتون السرعة التى ظهر بها سبيك أمام الجمعية الجغرافية البريطانية ، وفى هذا الصدد يقـــول بيرتون :

« لهذا فأنه من الواجب إتخاذ الأجراءات لضمان حقـــه فى العمل الذى بدأه » •

وكان كل من سبيك وجرانت قد غادرا بريطانيا الى افريقيا قبل أن يظهر كتاب بيرتون ، ومن المعروف أن لفنجستون كان فى افريقيا قبل ذلك الوقت فى منطقة بحيرة نياسا Nyasa ، وقد ترك بيرتون تقتله الكآبـــة والغضب ، فكان قد أنفق مقدارا كبيرا من أمواله ، من أجل مغامرته فى أفريقيا ، وهـــو فى ذلك الوقت كان فى حاجة الى عمل ، وكانت الوظيفة الوحيدة التى عرضت عليه هى وظيفة بسيطة أقل من مستواه ، وهى

(*) فى عام ١٨٨٩ م ، تم كشف جبال القمر بمعرفة المكتشف هنرى مورتون استانلى ، الذى قال أنها تقع فى الشمال والغرب ، وتمثل هذه الجبال سلسلة رونزورى Ruwenzori ، ويبلغ ارتفاع قممها العالية حوالى ١٧٫٠٠٠ قدم • ويمكن مراجعة ذلك فى ص ١٥٠ من الكتاب الأصلى •

وظيفة قنصل بريطانيا فى جزيرة فرناندوبو الأسبانية ، وهى الجزيرة التى كان قــد أبحر منها منذ ما يقرب من ثلاثين عاما كل من لاندر وأخوه •

وكره بيرتون جزيرة فرناندوبو ، لذلك أخذ يواصل كشفه لدلتا نهر النيجر ، فقد تسلق جبال فيكتوريا التى كــانت حتى ذلك الوقت تمثل سلسلة من الجبال غير المدرجة ، والتى تقع فى منطقة الكاميرون ، أى فى جنــوب نيجريا ، وفى سياق تعليق بيرتون على ذلك قــال : « لابد أن أكون الأول ، فــأن ذلك يعنى كل شىء بالنسبة لى ، أمــا أن أجىء فى المؤخرة ، فأن ذلك يكون شيئا غير عاديا » وواصل بيرتون كشوفاته فى كل مكان من المنطقة التى يعمل بها كقنصل لبريطانيا ، فقد سجل قدرا كبيرا من المعلومات القيمة عن هذا البلد وعن تقاليد شعبه •

وفى ذلك الوقت كان كل من سبيك وجرانت يتعمقان فى سفرهما ، فقد سلكا الطريق القديم الموصل الى طابوره ، وبعد ذلك توغلا جهة الشمال فى داخل ممالك مجهولة فى أوغندا ، وقد قابلهما رومانيكــا Rumanika ، ملك مملكة كراجوى Karagwe بحفاوة كبيرة ، وكان رومانيكا هذا يملك عددا كبيرا من الزوجات اللائى كن مشهورات بأحجامهن ، واللائى كن يعيشن جميعا عــلى اللبن ، لذلك كن كبيرى الحجم ، حتى أنهن كن لا يســتطعن الوقوف بأســتقامة ، ولكنهن كن يرتمين على الأرض مثل الحيوانـــات •

وقد أصيبت أحد أرجل جرانت بالتسمم لذلك بقى فى كراجوى ، بينما واصل سبيك المســير الى مملكة بوجندا ، الواقعة على الشاطىء الشمالى من بحيرة فيكتوريا • وكان يحكم مملكة بوجندا هذه الملك ميتسا Mutesa ، الذى كان يتميز بطول القامة ووجاهة الشكل ، وكان يحلق شعر رأسه بأستثناء تركه خصلة منه تتوســط رأسه • وكان شعر هــذه الخصلة لطيفا ، كما أنه كان يلف جسمه فى عباءة جميلة مطرزة بخيوط جلدية مدبوغة ، وكان يضع حول عنقه وحول أسفل أرجله صــفوفا من

الخرز ، كما كان يلبس خاتم فى كل أصبع من أصابع يديه ، وفى أبهام قدميه ، وكان يتميز بالأسلوب اللطيف ، مع أنه كان طاغية فى سلوكه • وكتب سبيك فى يومياته يقول ما نصه : « أن صاحب الجلالة (الملك ميتسا) لم يقنع بأى شىء أبدا ، حتى أن رعاياه كانوا يزحفون أمامه على الأرض مثل الدود الصغير » وكان ميتسا يفزع أو يتضايق من الحياة الرغدة التى يعيشها شعبه فى بلاده • وعندما قدم سبيك بندقية الى ميتسا ، أخذها منه ، وأعطاها بالتالى الى خادم من خدمه الخاص ، وأمره أن يذهب الى الخارج ، وأن يطلق النيران على أحد الرجال خارج الفناء ، وعلى الفور ، عاد هذا الخادم وأعلن بكل فخر عن نجاحه • فسأله ميتسا ، هل فعلت كل ما أوكل اليك جيدا ؟ فأجاب الخادم بالقول ، أن المطلوب قد تم بطريقة ممتازة • ومع هذا فلم يجرؤ أى أنسان أو يتجاسر بالسؤال عمن قتل وهويته والا فقتل مثله •

ولا يمثل موت أحد الرجال من رعية الملك ميتسا ، أى شىء بالنسبة له ، فأفراد رعيته كانوا يعذبون ويقتلون بأستخفاف حتى يشبع نزواته • ولم يعد ذلك بالأفراد ، ولكن يعد بالمئات ، وقد ارتكب ميتسا أفظع الأفعال وأشنعها نتيجة لتأثير السحر والشعوذة والأطباء والدجالين ، ويذكر سبيك بهذه المناسبة أن ميتسا كان فى بعض الأحيان يقتل ما يزيد على ٢٠٠٠ ضحية • ورغم كل هذه الأعمال البربرية ، الا أن بوجندا Buganda كان لها حضارة خاصة ، فكان الملك مطلق السلطة ، بحيث توجد تحت رئاسته سلسلة من الممثلين لكل منهم مسئولياته الخاصة وسلطاته • فلا يستطيع أى شخص أن يعترض على المرسوم الملكى ، ولكن على الرغم من ذلك فأن الملك ميتسا كان له القدرة على التصرف بطريقة لبقة كما كان لديه احساسا بالعدل ، إلا أنه والغالبية العظمى من حاشيته كانوا يمارسون الأسلوب الهمجى الذى مارسه أسلافه من قبل •

وقد قضى سبيك ثلاثة شهور فى بلاط ميتسا قبل أن ينضم الى جرانت ، الذى كان لا يزال يعرج ، ولكنه مع ذلك ، كان فى صحة

جيدة • وقد بدأ كل من سبيك وجرانت الرحلة من كراجوى Karagwe ، حيث عبرا النهر المعروف بنهر كاجيرا Kagera الـذى يصب فى بحيرة فيكتوريا ، ولا يتدفق منها ، وكان كل من سبيك وجرانت قـد عرفـا أنه لم يكن النيل ، وذلك لأنهما عندما كانا فى بلاط ميتسا علمـا عن وجود نهر كبـير آخر يقع فى الشرق من نهر الكـاجيرا ، بحيث يخـرج من البحيرة • ولقد جعلهم هذا يقرران بالقول ، أن هذا النهر هو نهر النيل ، لهذا تجرأ الرجلان على تتبعه • وكان ميتسا على مضض من أن يدعهما يواصلان الرحلة ، ولكنهما فى ١٧ يوليو ١٨٦٢ م حصلا على موافقتـه (ميتسا) ورحلا مع قافلة ، ومعهما حرس (من المحتمل أن يكون ميتسا هو الذى منحهما إياه) وبعد يومين من المسير أنفصلا كل من جرانت وسبيك ، فذهب جرانت صوب الغرب متجها الى مملكة البونيورو Bunyoro ، وذهب سبيك صوب الشرق تجاه النهر ، حيث كان مصمما أن يصل اليه بمفـرده •

وإذا خاب أمل جرانت (فى مهمته) فأن ذلك يرجع الى أن سبيك حرمه من فرصة الوصول الى الهدف الذى طال انتظاره ، وأنه لم يفصح عن ذلك أبدا ، ومع ذلك فقد ظل جرانت على ولائه لصديقه ولكن بطريقه نظرية ، وفيما بعد وعندما سئول جرانت أن يفسر تصرف سبيك غير العادى نحوه ، قال ما نصه :

« أننى تخيلت إننى سأظل رغم ذلك ملازما لسبيك » •

وقـد تمكن سبيك ، ومعه الحرس الخاص به من الوصـول الى النيل ، عنـد منطقة أورونـدوجانى Urondogani ، وكان ذلك فى ٢١ يوليو من نفس العام ، وتقع أورندوجانى هذه على مسافة ٤٠ ميل من خروج

من نفس العام ، وتقع أورندوجانى هذه على مسافة ٤٠ ميلا من خروج

« وقفت على حافة النيل ، وكانت المناظر الطبيعية جميلة فى جملتها ، ولا يوجد شىء يجاوزها فى هذا المجال ، أنه انجاز كبير وذو مغزى مؤثر ،

تمثل فى كشف منطقة شاسعة ، يسير من خلالها مجرى هايج ، يبلغ عرضه ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ياردة ، وتتناثر فى بعض أجزائه الجـزر الصغيرة والصخـور » •

وتتبع سبيك النهر صاعدا مع مجراه ، وفى ٢٨ من شهر يوليو عبر التلال ، وعبر كذلك منطقة مستطيلة من الحشائش الكثيفة ، فضلا عن عبوره لقرية كبيرة مكتظة بالسكان ، كانت قـد دمرت من قبل بواسطة الفيلة ، وبعد ذلك ، وصـل الى نهاية الرحلة ، وقـد كوفىء على العمل الـذى أنجزه • وبعد ذلك وصل سبيك الى الشلال الذى من خلاله يبرز النهر من الشاطىء الشمالى للبحيرة • ويضيف سبيك فى قوله ، ما نصـه : « ورغم هذا الجمال فأن المنظر كـان على غير ما توقعت ، لأن سـطح البحيرة كـان محجوبا عـن الرؤية بسبب قمة تل ، وبسبب الشلالات التى يبلغ عمقها ١٢ قدما ، ويبلغ عرضها ما بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ قدم ، حيث كانت تمزقها الصخور ، وكـان هذا المشهد وهدير المياه يثيران أى شخص لساعات طويلة ، وكا يقفز آلاف المسافرين للصيد الى التلال بكل قوتهم ، فكان الصيادون من قبائل الواسوجا Wasaga ، والواجاندا Waganda ينزلون من مراكبهم ، ويأخذون أماكنهم على الصخور ومعهم العصيان والخطاطيف (صنانير الصيد) ، وذلك لصيد أفراس النهر والتماسيح التى ترقد نائمة على سطح المياه ، كما كانت توجد المعديات التى تستخدم عند الشلالات أثناء العمل ، كما أن الماشية كانت تقاد لتشرب من عند حـافة البحيرة ، ويشكل هذا كله ـــ بالإضافة الى منظر القطر الطبيعى ، والتلال ذات القمم البيضاء التى تنمو الأشجار على مدرجاتها العليا ، والتى تنمو الحدائق على منحدراتها السفلى ـــ أن يصبح الوطن صورة جميلة يرغب أى شخص فى مشاهدتها • وفى هذا الوقت ، كانت بعثة سبيك قـد أنجزت مهامها ، ويقول سبيك ما نصه : « لقـد رأيت النيل الرئيسى دون أدنى شـك ، يخرج من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، وقـد تنبـأت بأن البحيرة

(فيكتوريا) تمثل المصـدر الكبير للنهر المقدس ، الـذى زاره المفسر الأول لعقيدتنا الدينية ،

Which Cradled the first expounder of our religious belief.

وقـد أطلق سبيك على هذه الشلالات شلالات ريبون Ripon falls الذى تولى رئاسة الجمعية الجغرافية الملكية بعد اللورد جرى L. Gray عندما كانت بعثة سبيك تواصل مهامها •

وبعد شهر التحق سبيك بجرانت فى البونيورو Banyaro ، التى كـان يحكمها ملك يسمى كامرازى Kamrasi ، الذى تحفظ على كل من سبيك وجرانت لعـدة أسابيع فى شبه أسر • وهناك علما بوجود بحيرة تقع فى الشـمال الغربى من بحيرة فيكتوريا ، ويبدو أنه من المحتمل أن تكون هـذه البحيرة المصـدر الثانى للنيل ، وعلى الرغم من ذلك فأن سبيك لم يقم بأية محاولة لاكتشافها ، فبدلا من ذلك ، إتجه الى الشمال صوب غندوكرو ، التى كانت تمثل محطة لتجار الرقيق العرب فى النيل الأبيض فى السـودان ، وهناك كـان ينتظر الحمالين الجدد والمؤن ، وفى هذا الوقت كان سبيك قـد فقـد كل أمتعته ، وكان هو وجرانت فى حالة تعب ، فقيامهما برحلة تقليدية فى بلاد مجهولة تماما ، كانت تعرض حياتهما للخطر •

وقـد استغرقت رحلة كل من سبيك وجرانت الى غندوكرو ثلاثة شهور ، وعندمـا أدرك الأثنان النهر ، حاولا أن يهبطا معه ، ولكنهمـا أجبرا على العودة بطريق البر بسبب الشلالات ، وكـان عليهما التقدم بصعوبة الى الأمام سيرا على الأقدام • وبعد ذلك وصلا الى غندوكرو فى ١٣ من شهر فبراير عام ١٨٦٣ م ، أى بعد سنتين ونصف تقريبـا من بدء الرحلـة •

ولقـد أنتاب الغضب الشديد سبيك ، بسبب قلـة عدد الحمـالين والنقص فى المـؤن ، فبدلا من ذلك قابل سبـيك دون توقع مكتشـف

بريطانى آخر ، كـان هـذا المكتشف صيادا قويا ، ورحالة ، هـو السير صمويل هويت بيكر Sir Samuel White Baker الذى كان مشهورا بالكشف الجغرافى •

وفى ذلك الوقت ، كان بيكر يبلغ من العمر ٤٢ عاما ، فكـان قـد عـاش بضعة سـنوات فى سيلان حيث قادته رحلات الصيد الى أعماق قطر مجهول • وبعد أن قضى فترة فى انجلترا توفيت خلالها زوجته ، ولكن لم يمنعه ذلك من متابعة السفر ، ولما سافر الى المجر ، قابل هناك فتاة مجرية تدعى فلورنس فـون سـاس Florence Von Sass فأعجب بيكر بهـا وتزوجها ، وكانت فلورنس نحيلة كالولد ، ولكنها كانت فتـاة جميلة ، تصغر بيكر بخمسة عشر عاما • وبعد ذلك ذهب بيكر وزوجته ليكتشـفا فروع النيل ، التى تنبع من الحبشة ، وعلم هو وزوجته بأن رجلين من البيض قد احتجزا فى منطقة أعالى النيل ، فأعتقد بيكر على الفـور بأنهما سبيك وجرانت ، وعندئذ خشى أن يكونا قـد ماتا ، لذلك قـرر مغادرة الحبشة والذهاب الى غندوكرو ، حتى يتمكن من مقابلتهما عند بدء رحلتهما الى الشمال • وقـد بدأ رحلته الى أعالى النيل على رأس ثلاث سفن كـان على متنها ١٠٠ مائة رجل ، وقـد واجه بيكر صعاب جسيمة ، بسبب السفن ، وبسبب الرجـال الذين ثبت أنـه لا يمكن الأعتمـاد عليهم والذين كانوا يهددون بالتمرد • ومع ذلك كان بيكر رجل مسيطر ، فكان مستعدا لاستخدام لكماته ، ولكن السلام كان يعم بعد تدخل زوجته المرأة الشجاعة الساحرة النموذجية ، والتى كانت زوجة لرجل حاد الطبع ، وكان بيكر شديد الاعجاب بهدوئها ، ونشاطها المتواصـل • وقد كتب ذلك فى مذكراته يقول ما نصه : « لقد امتلكت قدرا كبيرا من الهدوء ، بحيث كيفت نفسها على السفر فى أفريقيا » كما كتب فى مذكراته أيضا المعنونة بـ « البرت نيانزا : الحوض الكبير للنيل
Albert N'yanza : Great Basin of the Nile.
ما نصه « أن مسـز بيكر لم تكن ذو صوت مرتفع ، ولم يكن أيضـا

صوتها منخفضا ، وبخاصة فى لحظة توهمها بالخطر ، فكانت اشارة من يدى كافيــة لها » •

وفى الخامس عشر من شهر فبراير عــام ١٨٦٣ م وصل بيكر وزوجته الى غندوكرو ، وفى تلك الأثناء كتب بيكر يقول « اندفع رجالى بجنــون الى مركبى وهم يعلنون أن رجلين من البيض كانا قد قدما من البحــر ، وتساءلت هل من الممكن أن يكونا هما سبيك وجرانت ؟ وبعــد ذلك مشيت بعيدا ، وعلى الفور قابلتهما بفرح وابتهاج من أجل انجلترا العريقة ، فكانا قد قدما من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، أى من البحيرة التى ينبع منها نهر النيل • والآن فأن الغموض الذى استمر لعهود طويلة قــد انتهى ، وقد وجد بيكر سبيك رجلا هزيلا جدا ، ولكن فى الواقع كان فى حالة جيدة للغاية ، فكان سبيك قد سار كل الطريق ابتداء من زنجبار ، وحتى هــذه المنطقة ، وكــان جرانت يرتدى ملابس قديمة ، مع أنها كــانت ذو قيمة ، وكانت ركبتاه عاريتين وبارزتين من خلال بقايا بنطلونه • وكــان هــذا البنطلون قــد مزق بطريقة كبيرة ، وبدأ على جرانت التعب والإجهاد ، ولكن على الرغم من ذلك فقد كــان فى أعين كل من سبيك وجرانت بريق يوضح الروح العالية التى قادتهما خلال هذه المناطق •

وقــد تحرك سبيك بصعوبة بسبب مــا لاقاه من مصاعب أثنــاء الرحلة • وكتب سبيك يقول ما نصه : « قلت بصعوبة ما هــذا الفرح ، لم نعد قادرين على الحديث بسرعة ، فكان من المتفق عليه أن نلتقى مرة ثانية ، وبالطبع كنا ضيوفا على (بيكر) الذى أحاطنا علما بكل شىء ، فقد أخبرنا بموت أمير كنسورت The Prince of Consort ، وأخبرنا أيضا عن الحرب الضارية فى أمريكا • « وقال بيكر لقــد جئت الى هنــا لرعايتكما ، ويأمل كما قال مازحا أن يجدنا عند خط الإستواء فى وســط المتاعب ، التى كان عليه أن يساعدنا فى إيجاد حل لها •

وفى الحقيقة كان بيكر يود القيام بعمل مستقل فى الكشوف الجغرافية ،

وتساءل بيكر بالقول : « ألم يبق لى مكان فى سلم المجـد أتوج بـه • وبعد ذلك تحدث سبيك عن البحيرة التى لم تكتشف بعـد ، كما تحدث عن نظريته التى يمكن أن تبرهن على أن هذه البحيرة هى المنبع الثانى للنيل • وقـد أعطاه سبيك خريطة للمنطقة التى من المرجح أن توجد هذه البحيرة فيهـا ، وعندئذ قـال سبيك لبيكر وداعـا • وقـد بـدأ كل من سبيك وجرانت رحلتهما الأخيرة فى اتجاه الشـمال تاركين بيكر مستغرقا فى البحث عن البحيرة الجديدة •

وفى شهر مارس عام ١٨٦٣ م ، غادر بيكر وزوجته غندوكرو بعد أن إضطر الى السير مع قافلة صغيرة تابعة لزمرة سيئة السلوك من تجـار الرقيق ، ويرجع ذلك الى أنه لا يوجد أى شخص آخر على دراية بهـذا القطر ، الذى سوف يمران من خلاله غير هذه الزمرة ، وقد اشتكى التجار الى بيكر بقولهم أن كل قطر يمرون من خلاله قد يتحول الى خلية نحل ، وأنه لم يعد لديهم خطة عمل أو عزيمة • ولما كان بيكر لسوء الحظ يعتمد عليهم فى تحركاته ، فأنه شبه نفسه بحمار أكثر منه مكتشف يمتطى صهوة جواده ، الذى يذهب به بعيدا أثناء الكشف •

وفى شهر فبراير وصل بيكر وزوجته الى عاصمة الملك كامرازى ، ملك البنيورو Bunyoro ، الذى رفض السماح لهما بمواصلة المسير الى البحيرة ، ولكنهما تناقشا معه ، ومن مركز قوة فى لقاء بينهم تقدم كامرازى صوب بيكر ليستولى منه على زوجته الحسناء ، على شرط أن يمنحه أى شىء يطلبه ، ولكن بيكر غضب (من هذا العرض) أو من هذا التصرف من جانب كامرازى وقال مانصه :

« لو كانت هذه المرحلة هى نهاية البعثة ، لكان تصميمى فى هـذه الحالة هو وضع نهاية لكامرازى ، وعلى الفور أخرجت مسدسى بهدوء ، ووجهته نحو صدره من على بعد قدمين فقط ، ونظرت اليه بازدراء ، وبدون خوف ، وأخبرته أننى لو لمست الزناد فلن يستطيع كل رجاله إنقاذه ، ولو

تجاسر على تكرار هذه الأهانة ، فأنني سأقتله على الفور ، وبطبيعة الحال كانت زوجتى قد شعرت بجرح كرامتها ، فنهضت من مقعدها ، وهى فى حالة جنون من نتيجة ما حدث فى تلك اللحظة • وقــد القت عليه زوجتى حديثا باللغة العربية ــ ولكنه لم يفهم كلمة واحدة مما قالته ــ وهذا ما كان يدور بخاطر ميدوسا الرقيقة ، لذا قد تبعتها بخطبة أخرى أو بكلمة أخرى من شعرها ، وكانت ميدوسا هذه قد توقعت حدوث مثل هذه الاهانات الى مخدومتها ••• وبشجاعة أيضا دعت الى الهجوم على كامرازى ، وقامت زوجتى بالترجمة قدر استطاعتها للكلمة التى ألقتها ميدوسا من قبل • ومهما يكن من أمر ، فان تلك الحادثة الصغيرة مع إمراة بريطانية لها حريتها قد أخجلت كامرازى • وقال ما نصه « لا يمكننى أن أقول شيء سوى أننى أعبر عن دهشتى ، وأنه يجب أن تغضب يا بيكر لانه لم يكن لدى أية نية للاساءة لك عندما عرضت عليك أن تعطينى زوجتك ، فأننى سوف أعطيك زوجة اذا طلبت ذلك ، وأننى أعتقد أنه لن يكون لديك أعتراض إذا طلبت منك ذلك لهــذا يجب الا تثير مشكلة من ذلك ، فــاذا لم ترغب فى هذا فأرجو أن تعتبر الموضوع منتهيا ، وأننى لن أطلب ذلك منك مرة ثانية ، وعندئذ ، تقبلت هذا الاعتذار العملى وأصررت على الرحيل » •

وبعد ذلك رحل بيكر وزوجته يرافقهما حرس يتكون من ٣٠٠ رجل من رجال كامرازى ، الذين تناقصوا يومــا بعد يــوم ، حتى بقى منهم إثنى عشر شخصا فقط • وكــان على هذه المجموعة الصغيرة أن تعبر النهر عند النقطة التى تغطيها الحشائش المائية بصورة كثيفة ، حيث أن هذه النباتات المائية كانت تشكل سدا طبيعيا عائما ، هذا فضلا عن وجود نباتات مائية كثيفة كانت قد كونت معبرا طبيعيا عائما • وبعد ذلك تقــدم بيكر وجماعته ، وطلب من زوجته أن تتبعهم • ولما قطع بيكر ربع مسافة الطريق نظر من خلفه ، ولكنه انزعج ، لأنه رأى زوجته تغرق ببطء بين النباتات المائية Weeds ، وقــد تشوه وجهها ، وأصبح لونه أرجوانى ، وبينما كــان بيكر ينظر اليها شاهدها تسقط فى الماء كما لو كان قد أطلق

عليها الرصاص ، وفى دقيقة واحدة كان بيكر الى جانبها ، وبمساعدة رجاله تمكن من سحبها ، كما لو كانت جثة هامدة ، من خلال النباتات المائية ، بحيث جعلوا رأسها فوق سطح الماء (حتى لا تحبس أنفاسها فتتعرض للموت) : لأن حملها كـــان من المستحيل ، كما كان من الممكن أن يغـــرق الجميع خلال النباتات المائية •

هذا فضلا عن أن فلورنس قد تعرضت لضربة شمس Sun-Stroke وعندما وصلوا الى الجانب الآخر للمستنقع وضعوا فلورنس على حمالة ، وحملوها وهى فى حالة محزنة أو يرثى لها ، حيث كانت موضوعة عـــلى ظهرها ، وهى عبارة عن جثة هامدة ، وقـــد سار بيكر بجانب الحمالة وكانت زوجته فى حالة من القلق والتمزق •

ومع ذلك فقد واصل بيكر المسير ، خلال يوم كامل ، مارا من خلال أرض جدباء ، وعبر المجارى المائية والغابات الكثيفة ، حتى وصل الى أعماق المستنقع ، وكذلك عبروا جميعا من فوق التلال المدرجة ، واندفعوا من خلال الأودية التى تنمو فيها نباتات البردى الطويلة ، وكانت فلورنس أثناء ذلك تهتز من فـــوق الحمالة ، مثل الريش الأسود الخاص بعربـــة نقل الموتى •

وقـــد سهر بيكر ليلة بعـــد ليلة ، لأن زوجته كانت تواصل هـــذيانها ، حيث كانت فى حالة غير طبيعية ، كمـــا أصبحت حادة المزاج • وفى أحـــد الليالى ، اعتقد زوجها أنها ســـتموت ، ولكنها بدأت تشفى من مرضهـــا مع أنها بقيت مريضة وضعيفة حتى نهاية الرحلة • ويقول بيكر ما نصه « الله وحده هو الذى يساعدنا ويمد لنا يد العون » وأضاف بيكر فى قوله « أننى فى غاية الإمتنان فى هذه اللحظة ، ولكننى لم أستطع التعبير » •

وأخيرا إقترب بيكر وبعثته من البحيرة ، وبعـــد عدة سنوات كتب يقـــول ما نصه : « لقد كافحت من أجل الوصول الى منابع النهر ، وكانت أحلامى الليلية خلال هـــذه الرحلة الشاقة ، توضح لى أننى سوف أفشل

بصفة مستمرة ، ولكن بعد عمل كبير وشاق ، وبعد مثابرة ، أصبح الحلم حقيقـــة « The cup was at my very lips » وفى هـــذة اللحظـــة شربت من المنبع المجهول قبل أن تغرب عنه شمس نفس اليوم • وقـــد تعطل كشف هـــذا المستودع الطبيعى الكبير ، الذى يرجع تاريخه الى بدء الخليقة كل هذا الوقت •

وبعد ذلك ، وفى الرابع عشر من شهر مارس عام ١٨٦٤ م • عبرت بعثة بيكر وادى عميق يقع بين التلال وكافحت حتى صعد أفرادها الى الجانب الآخر منه ، وأسرعوا الى القمة ، وفجأة تحقق المجد ، فهناك كان يوجد بحر يشبه الزئبق يقع بعيدا ، فهو عبارة عن مسطح مائى واسع ؛ أى بحر لا حدود له ، إلا خط الأفق ، ويقع هذا البحر فى الجنـــوب والجنوب الغربى ، كما أنه يلمع لتعرضه لأشعة الشمس وقت الظهيرة ، وفى الغرب وعلى بعد ٥٠ أو ٦٠ ميلا ، تنتصب الجبال الزرقاء فى حضن البحيرة والتى يصل إرتفاعها الى حوالى ٧٠٠٠ قدم من مستوى سطح المــــاه •

ويقول بيكر « لا يمكن وصف الإنتصار فى هذه اللحظة فأنها لحظة تعتبر مكافأة لنا على كل عملنا فقد ظفرت بمنابع النيل » وبعبارته :
England had won the sources of the Nile.

وأضاف بيكر فى قوله ما نصه : « منذ وقت طويل فقد رتبت لإقامة ثلاث حفلات ، لكل رجالنا على النمط الأنجليزى ، تشريفا لهم على الكشف ، ولكن بسبب إنفعالى الشديد ، فأن حفلات التكريم هـــذه قـــد ضاعت سدى » ، وبدلا من ذلك فقد قام بيكر بمساعدة زوجته فى النزول من فوق التل الى حافة البحيرة لتشرب ويشرب هو معها نخب الإنتصارات Toast من ماء هذه البحيرة ، التى أطلق عليها بيكر اسم بحيرة البرت تكريما الى زوج الملكة فيكتوريا • وكتب بيكر فى هذا الصدد يقول ما نصه :

« تمثل بحيرة البرت وفيكتوريا مصدرين للنيل » وبعبارته :
The victoria and Albert Lakes are the two sources of the Nile.

وكان بيكر على خطأ عندما فكر فى أن بحيرة البرت تمتد الى مسافة شاسعة نحـو الجنوب ، مع أنه فى الواقع كان قد وصل قريبا جدا من نهايتها الجنوبية ، وذكر أن ميـاه البحيرة تأتى اليهـا عن طريق نهـر السمليكى The Semliki River الذى يربط بحيرة البرت بالبحيرة التى لم تكتشف بعد ، والتى عرفت بأسم إدوارد Lak Albert Edward وقد أضاف بيكر حلقة مهمة الى اكتشافات سبيك ، تتمثل عـلى وجـه الدقة فى كشفه لبحيرة البرت التى لم تكن معروفة من قبل • لهذا رغب بيكر فى الاعتقاد بأن البرت ، تمثل المصدر الثانى للنيل • فهـذه البحيرة تحصل على مياهها من بحيرة أدوارد ، وذلك عن طريق نهر السمليكى ، ومن بحيرة فيكتوريا عن طريق نيل فيكتوريا ، الذى عرف على خريطة سبيك بأسم (نهر سومرست) والذى يدخل بعد ذلك الى النيل الأبيض ، الذى يخرج من النهاية الشمالية لبحيرة البرت ، والتى تحصل على مياهها من بحيرة فيكتوريا ، فلا سبيك ولا بيكر رسم خريطة متكاملة عن مجرى النيل ، فهذا العمل ترك لهنرى مورتون ستانلى •

وقـد أنهك المرض ونقص المؤن زوجة بيكر ، ولكن رغم ذلك فقد عملا معا وواصلا الإبحار على طول الشاطىء الشرقى للبحيرة فى قوارب بدائية ، وسارا لمدة ثلاثة عشر يوما حتى وصلا الى بلدة ماجونجو Magungo ، الواقعة عند رأس البحيرة وعند مدخل النيل الفيكتورى اليها ، وقـد سافرا معا الى مسافة قصيرة (يبدو أنهما صـعدا فى النيل الفيكتورى) مندفعين كتماسـيح النهـر Crocodile - infested ، وبعـد ذلك وصـلا الى شلال ضخم ، وفى هـذا الصدد كتب بيكر يقول ما نصه : « أن هـذا الشلال أكبر ، شلال فى النيل ، وتشريفا لرئيس الجمعية الجغرافية الملكية المرموق ، فقدا أطلق بيكر اسم هذا الرئيس على هذا الشلال ، فعرف بسم شلال مارشيزون The Murchison falls ، لأنه كان أهم شىء فى كل مكان فى مجرى النهر • وعندئذ وبعد مخاطر ومغامرات عدة ، وصل بيكر عائدا هو وزوجته الشجاعة الى غندوكرو ، بعـد غياب دام سنتين ونصف السـنة •

وفى القاهرة ، وهما فى طريق عودتهما الى أرض الوطن (بريطانيا) علم بيكر بأن الجمعية الجغرافية الملكية كافأته بالميدالية الذهبية من أجل إنجازاته ، ويتضح ذلك من النص التالى : « لقـد أنجز بيكر كشـوفا عظيمة على نفقته الخاصة فى داخل افريقيا ، فقـد زود بعثته بالأدوات اللازمة على نفقته الخاصة ، كى ينقذ كل من سبيك وجرانت بل ويحاول بكل نبل أن يكمل كشـوف الرحالتين •

وقد حصل بيكر أيضا على لقب إنجليزى شرفى ، وعلى ألقاب أخرى ، وقـد نشرت كتبه على التوالى فى أعـوام ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ م ، وهى على النحـو التالى :

The Albert N'yanza, The Great Basin of the Nile, And the Nile tributaries of Abyssinia ....

وتقرأ كتب بيكر مثل معظم أنواع كتب الاثارة وقصص المغامرة ، فكانت هـذه الكتب مألوفة جدا •

وفى عام ١٨٦٣ م ، وعندما شرع بيكر وزوجته فى الكشف عن بحيرة البرت عاد كل من سبيك وجرانت الى انجلترا واستقبلا بالحفـاوة ، وعادت الى الأذهان المشكلة التى كانت بين كل من سبيك وبيرتون والتى تتمثل فى أن سبيك لم يتبع مجرى نهر النيل تجـاه الشمال ، ابتداء من بحيرة فيكتوريا ، مع أن بيرتون كان يعد نفسه للقيام بهذا العمل حتى يهدم نظرية سبيك ، التى تقول أن مصدر النيل يتمثل فى بحيرة فيكتوريا ويرجع ذلك الى كبر حجمها وأهميتها •

وفى أغسطس عام ١٨٦٤ م وبعد ما يربو على العام من عودة كل من سبيك وجرانت ، وصل بيرتون الى لندن ، وكان لكل من سبيك وبيرتون مناصريه ، وقد أثيرت القضية على أساس أن يتناظر الرجلان على الملأ ليوضح كل منهما نظريته • فكان هنـاك اقتـراح بأن يرأس الحـوار لفنجستون الذى تصادف وجوده فى لندن ، فى ذلك الوقت ، ولكن لم يتحقق

ذلك لأن لفنجستون إقتنع بأن سبيك كان على خطأ ، لأنه اعتقد أن النيل يحصل على فيضانه ليس من بحيرة فيكتوريا ، ولكن من مكان بعيد جهة الجنوب ، وأن سبيك المتعب قد أدار ظهره الى المصادر الرئيسية للنيل فالنهر الذى شاهده عند شلالات ريبون لم يكن نهرا كبيرا كى يقارن بنهر النيل وبعبارته •

«Poor speke he wrote has turned his back uppon the real sources of the Nile.»

وقد أعد لحوار ثان بين بيرتون وسبيك رتبته الجمعية البريطانية التى تعمل على تقدم العلوم ، بحيث تعقد هذه المناظرة فى مدينة باث Path ، وكان بيرتون بكل تأكيد يريد المساهمة فى هذه المناظرة ، وعند عودته علم بأن سبيك كان يتجول ، ويقول لو ظهر بيرتون على المنصة فى مدينة باث فأننى سأركله ، فأجاب بيرتون على هذا بالقول حسنا ، فهذا سوف يدعم نظريتى ، وسوف يدعم الله موقفى • وبعبارته :

«If Burton appears on the platform at Bath, I will kick him, well replied Burton that settles it. By God he shall Kick me.

ولقد أعد بيرتون بمجهوده الخاص خريطة فى شكل كروكى ليبرهن بها على دحض نظرية سبيك ، وقد ظهر على هذه الخريطة بحيرة تنجانيقا ، والمجارى التى تغذيها ، والتى كانت تمثل المصدر الرئيسى للنيل ، ووضح على هذه الخريطة ببساطة الموقع المفترض لبحيرة فيكتوريا • كما وضح أيضا عليها نهر روسيزى The River Rusizi ، الذى تتدفق مياهه من بحيرة تنجانيقا الى جهة الشمال ، وتصب فى بحيرة البرت • ومن الممكن أن نتذكر أن بيرتون وسبيك حاولا أن يريا النهاية الشمالية لبحيرة تنجانيقا ولكنهما لم يتمكنا من رؤية النهر بأنفسهما من أنه يصب فى البحيرة (تنجانيقا) ولم يخرج منها ، وهذا يعنى أنه لا يمكن أن يكون هذا النيل • وكان بيرتون فى ذلك الوقت على استعداد ، لأن يصدق أن هذه المعلومات كانت معلومات مزيفة • ووضحت خريطته أيضا المنفذ الذى يخرج من

بحيرة البــرت ، ويتجـــه فى تدفقــه الى غندوكرو ، وعـــلى هــذا أعلن بيرتون ، أنه فى الإمكان البرهنة على أن هذا هو النيل الحقيقى •

وقد وصل بيرتون وزوجته الى مدينة باث ، وكانت زوجته تحاول أن تحسم الخلاف بين زوجها وبين سبيك ، وفى اليوم السابق على المناظرة عقد إجتماع أولى فى مقر الجمعية البريطانية ، وقد التقى فى هذا المكان كل من بيرتون وسبيك وجها لوجه كى يفوز واحد على الآخر ، ولاحظ بيرتون أن منافسه بدا عليه التعب والضيق • وقد بدأ الأجتماع ورأى بيرتون شخصا ما يشير الى سبيك من نهاية الصالة أو القاعــة ، فوقف سبيك صائحا وهــو يقول ما نصــه : « أنا لا يمكننى الإستمرار فى هــذه المناظرة ، وفجأة ترك القاعة » • وفى اليوم التالى ، وعندما وصل بيرتون الى مقر الإجتماع من أجل هذه المناظرة الكبيرة ، علم بيرتون بأن سبيك قد مات ، فكان قد خرج فى رحلة صيد فى هذا الصباح ، وعندما كــان يتسلق حائطا فى هــذه اللحظة إنطلقت رصاصة من بندقيته فقتلتــه على الفــور •

وقد إعتبر موت سبيك قضاء وقدرا ولكن كثيرا من الناس اعتقدوا أن سبيك قتل نفسه خوفا من مواجهة منافسه بيرتون • وفى الواقع ، فأن حقيقة الأمر ظلت مجهولة ، لأن جرائت الصديق المخلص لسبيك لم ينطق بأى كلمة ضده • وقد حضر جنازة سبيك كل من السير رودريك مارشيزون ، ودافيد لفنجستون ، وعند موته كان يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، وتمثلت هذه المأساة فى أنه كــان على حق فى كل ما قال ، ومع ذلك فأنه لم يســتطع أن يبرهن على ذلك ، وقد خلدت الكشوف الضخمة الخاصة بسبيك على مسلة جرانيتية ، ترتفع فى حديقة كنسنجتون بلندن London's Kensington Garden ونقش عليها نص يقول : « ذكرى سبيك وفيكتوريا ونيانزا والنيل » •

وقد استمر الجدل حول مصادر النيل بعد موت سبيك ، وقد تمسك بيرتون بعناد بنظريته الخاصة حتى دمرت بمعرفة العمل الذى قام بــه

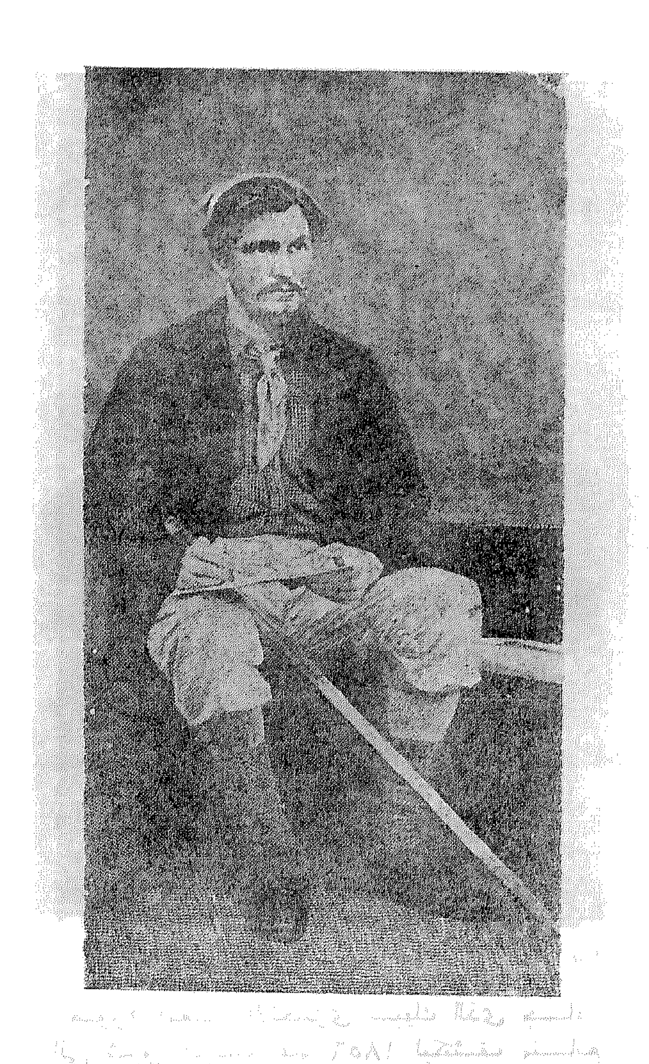
ستانلى • وبعـــد ذلك لم يذهب بيرتون الى وسط افريقيا ، بل أنه واصل السفر والكتابة والترجمة التى من أهمها ترجمته الواقعية لقصـــة ألف ليلة وليلة ، والتى حققت له الثراء والشهرة ، وفى عام ١٨٨٦ م تسلم نيشان الفروسية البريطانى ، وأن كانت هذه الجائزة قد جـــاءت متأخرة نظير إنجازاته الكشفية • وأخيرا مات بيرتون عـــام ١٨٩٠ م ، وبالتأكيد وضع بين عظماء مستكشفى افريقيا ، فضلا عن أنه كان عالما وكاتبا ، بل وشخصية بارزة ، وبعبارة المؤلف :

He certainly ranks among the greatest of Africa's explorers and as ascholer and writer, he is outstanding.

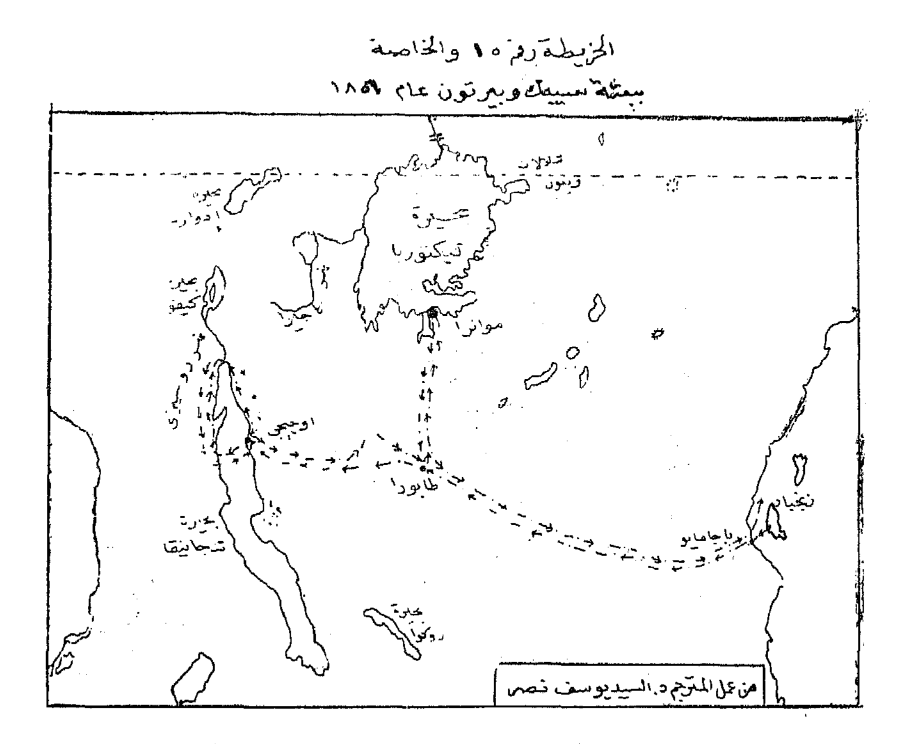
صورة المغامر بيرتون الذى جاء الى منطقة شرق افريقيا عام ١٨٥٦ ليكتشف منابع النيل الأبيض .
من اعداد المترجم .



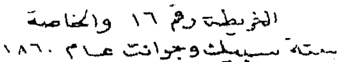
صورة المغامر الانجليزى سبيك الذى جاء الى شرق افريقيا عام ١٨٥٦ ليكتشف منابع نهر النيل . من اعداد المترجم .

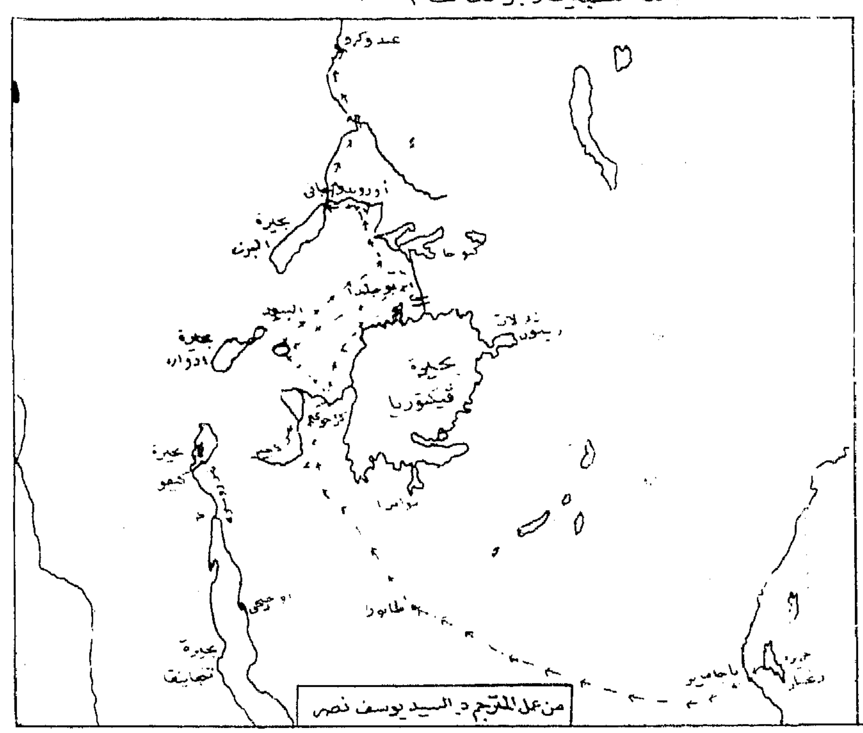


صورة المغامر البريطانى الذى جاء الى شرق افريقيا عام ١٨٦٠ ليكتشف منـــابع نهر النيل . من اعداد المترجم .



بدأ كل من سبيك وبيرتون رحلتهما من زنجبار فباجامايو ، ثم وصلا الى طابورة ، ومنها وصلا الى أوجيجى ، ثم سارا شمالا ، ثم عادا الى المدينة مرة ثانية ، وبعد ذلك عبرا البحيرة وسارا فى اتجاه الشمال حتى وصلا الى نهر روسيزى ، ثم عادا صوب الجنوب ، وبعد ذلك عبرا البحيرة الى أوجيجى ، ومنها سارا الى طابورة ، ومن طابورة سافر سبيك بمفرده تجاه الشمال فوصل الى بلدة موانزا ، ثم عاد الى طابورة حيث كان بيرتون ينتظره ، ثم سافرا معا الى باجامايو ، ومن هناك سافر سبيك الى انجلترا وسافر بيرتون الى عدن .


الخريطة رقم ١٦ والخاصة بحملة سبيك وجرانت عام ١٨٦٠



بدأت بعثة سبيك وجرانت مهمتها من زنجبار فبلدة باجامايو ، ثم اتجهت نحو الغرب فوصلت الى طابورة ، وبعد ذلك اتجهت صوب الشمال الغربى مارة من غرب بحيرة فيكتوريا ، ثم مرت ببلدة كراجوى ، ثم عبرت نهر كاجيرا ، ومن بعد عبوره انقسمت البعثة الى قسمين ، قسم تحت رئاسة جرانت الذى اتجه الى الغرب فوصل الى منطقة البنيورو ، وقسم برئاسة سبيك الذى اتجه صوب الشمال ، ثم اتجه جهة الشرق فوصل الى شلالات ريبون الواقعة عند مخرج نهر سومرست من بحيرة فيكتوريا . وبعد ذلك عاد سبيك الى البنيورو لمقابلة جرانت ، وعندئذ اتجه الرجلان الى الشمال حتى وصل الى غندوكرو فالخرطوم فالقاهرة فانجلترا .

التعليق على الفصل (٨)

تناولت المؤلفة فى هذا الفصل عددا من الموضوعات أو النقاط ، التى تعتبر على جانب من الأهمية . فقد تناولت بايجاز دور كل من بيرتون وسبيك فى هرر ، عندما كانا يقومان برحلة خاصة . ثم تناولت بعد ذلك بشىء من التفصيل بعثتهما الرسمية التى قاما بها من بلدة زنجبار ، متوجهين الى قلب القارة الافريقية ، كما أنها أشارت أيضا الى دور السير صمويل هويت بيكر ، وكشفه لبحيرة النيانزا ، ولكنها فى نفس الوقت أهملت دوره الكشفى لمنطقة نهر العطبرة ، لدرجة أنها لم تشر الى هذا الدور مجرد اشارة ، كما أهملت وعن قصد ودون أدنى شك دور مصر الكشفى فى عصر محمد على ، وكذلك فى عهد خلفائه من بعده ، مع أن هذا الدور الكشفى المصرى كان له أهمية كبيرة للغاية بالنسبة لافريقيا وكذلك بالنسبة لأوربا .

ولذلك كان لزاما على أن أقوم بتوضيح وتفسير بعض النقاط التى وردت فى هذا الفصل ، والتى لم تقم المؤلفة بتوضيحها ، ومن هذه النقاط دور مصر الكشفى فى منطقة النيل الأبيض وبحر الجبل ، ودور صمويل بيكر فى كشفه لمنطقة نهر العطبرة ، هذا فضلا عن القاء الضوء على مدينة زنجبار لما لها من أهمية فى تلك الفترة ، حيث أنها كانت بمثابة نقطة انطلاق بالنسبة للرحالة والمكتشفين .

فمن المعروف أن مصر فى عصر محمد على كانت قد أرسلت ثلاث حملات كشفية ، فى الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ م ، ولكن لنا أن نتساءل بالقول لماذا تأخر كشف النيل حتى بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر ، مع أن الكشف عن منابع هذا النهر كانت من أهم الدوافع وراء دخول مصر الى بلاد السودان وما وراءها ؟ نقول أن السبب فى هذا التأخير يرجع الى أن قوات محمد على عندما وصلت الى بلاد السودان عام ١٨٢٢ م ، طلب منها الوالى (محمد على) أن تحتفظ بالأراضى

التى أستولت عليها ، ولا تتخطاها وكانت هذه البلاد تضم فى غرب السودان اقليم كردفان ، وفى شرقه القلابات والقضارف وكسلا ، وأميديب ، وتضم فى الشرق أيضا سواكن ومصوع وهما الميناءان اللذان أجرتهما مصر من السلطان العثمانى طوال حياة محمد على باشا . ويرجع ذلك أيضا الى أنه طلب من قواته أن تتمركز فى مواقعها الأولى حتى تسترد أنفاسها ، وتستعوض ما فقدته من أفراد ومعدات ومؤن ، بعد ذلك كان من الممكن أن تواصل سيرها صوب الجنوب ، ومن المرجح أيضا أنها توقفت عند هذه الحدود ، حتى تقوم بكشف وارتياد للمناطق التى وصلت اليها ، لكى تقف على ما تحويه هذه البلاد من معادن . وبالفعل كانت هذه القوات قد قامت بفحص كل الجبال الواقعة فى غرب السودان حتى تستغل ما فيها من معادن ثمينة كالذهب ، ولكنها بعد أن قامت بهذا الفحص لم تحصل على أية كمية من الذهب تستحق الذكر سواء أكان ذلك فى غرب السودان أم فى منطقة فازوغلى . ومن الأسباب أيضا أن محمدا عليا طلب من قواته ألا تتعدى هذه المناطق التى تمت السيطرة عليها ، لأن بقية قواته الأخرى كانت تخوض حروبا ضارية فى بلاد اليونان ، فمن الصعب عليه أن يفتح جبهتين فى وقت واحد ، هذا فضلا عن أنه طلب من قواته أن تقوم باستغلال الثروة الحيوانية والنباتية فى السودان . لهذا قرر أن تظل قواته فى مواقعها ولم تواصل مسيرها صوب الجنوب .

وبعد أن تكتلت الدول الأوربية ضد محمد على فى غرب آسيا ، وتأكد أن نفوذه لم يعد يقوى على الاستمرار هناك وقتا طويلا قرر منذ عام ١٨٣٩ أن يرسل أولى حملاته الكشفية الى أعالى النيل لكى تقوم بالكشف عن منابع نهر النيل التى ظلت غير معروفة للعالم مدة طويلة [١] .

وتعتبر الحملات التى أرسلت فى عصر محمد على أولى الحملات التى وصلت الى هذه المناطق ، فقبل وصولها لم يجروء أوربى واحد على

---

(١) د . السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٨١ ص ٨١ وما بعدها .

الدخول اليها تحت أى ظرف ، وذلك لعدم معرفة الطريق الذى سيسير فيه من خلال هذه المناطق ، هذا فضلا عن أن هذا الطريق لم يكن مأمونا من جانب القبائل النيلية ، والدليل على ذلك انه فى الفترة السابقة على القرن التاسع عشر ، كانت جهود الرحالة الأوربيين ورجال التبشير منصبة على منطقة النيل الأزرق ، وذلك لقربها من منطقة الشمال الأفريقى ، كما أن هذه المنطقة كانت عامرة بالسكان .

وكانت الحملات المصرية الكشفية التى أرسلت فى عصر محمد على ، قد توغلت فى الداخل حتى وصلت الى بلدة غندوكرو أى الى خط عرض ٤٣َ ، ٤° شمال خط الاستواء ، وعند هذا الحد لم تتمكن هذه الحملات من مواصلة السير لأسباب عدة ، منها ضحالة مياه النهر وبخاصة فى منطقة بحر الجبل ، فمن اسم هذا النهر يتضح فيما يبدو انه ينحدر من منطقة جرانيتية ، ومنها كذلك عدم صلاحية المراكب المصرية للسير فى هذه المياه ولكن كان من الممكن اعداد مراكب تصلح لذلك ، ثم تقوم مصر بنقلها مفككة الى منطقة أعالى النيل ، وهناك يتم تركيبها من جديد . وفى هذه الحالة يمكن استخدامها على ميـاه النيانزا . وهذا ما حـدث بالفعل فى عصر اسماعيل . ومن المصاعب التى صادفت حملات محمد على نقص المؤن والمعدات اللازمة لهذه الحملات حتى تتمكن من مواصلة السير ، فضـلا عن ذلك فإن والى مصر أصبح فى سـن لم تسمح له بمزاولة طموحاته التوسعية حتى أن صحته لم تمكنه من مزاولة نشاطه العادى ، زيادة على أن معاهدة لندن التى أبرمت عام ١٨٤٠ ، ثبطت من عزيمة والى مصر ، حيث أنه خشى أن تتصـدى له الدول الأوربية مجتمعة لتوسـعاته فى أفريقيا ، وان كان ذلك لم يحدث الا فى عصر اسماعيل ، وبخاصة من جانب بريطانيا ، ثم تلتها كل من ايطاليا وفرنسا وألمانيا .

ولكن على الرغم من ذلك فإن الحملات المصرية الكشفية التى أرسلت فى عصر محمد على الى أعالى النيل فى الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، كانت قد حققت نتائج على جانب كبير من الأهمية ، منها أنها فتحت طريقا جديدا

للتجارة بين شمال السودان وجنوبه ، فهذه التجارة لم يكن لها أى أثر يذكر قبل هذه الحملات بسبب العداء المستحكم بين السكان فى الشمال والسكان فى الجنوب ، وأيضا بسبب عدم استقرار الأمن فى هذه المناطق ، فلا يمكن للتجارة أن تزدهر فى ظل ظروف غير مستقرة •

وزيادة على ذلك فإن هذه الحملات قد زودت بعدد من العلماء الأجانب من أمثال سابتييه الفرنسى ، وفيرن الألمانى وغيرهم • وكان هؤلاء الرحالة قد كتبوا تقارير على جانب من الأهمية تضمنت وصفا شاملا لخط سير هذه الحملات • فقد جاء فى تقرير فيرن وصفا دقيقا للمناطق التى مرت الحملة من خلالها ، فأشارت هذه التقارير الى الظواهر الطبيعية من أشجار وسهول ووديان كما أشارت الى القبائل التى تقطن بجوار شواطىء النيل بل وحددت أماكنها وأسمائها •

وكان من أهم هذه القبائل البقارة والشلك والدنكا والنوير والبامبارا والبحور والكيك والعلياب ••• الخ ، كما تعرضت تقارير هؤلاء العلماء الى عادات وطباع سكانها ، وطرق معيشتها وأنظمتها السياسية • وكان من نتيجة ذلك كله أن عرف العالم هذه القبائل المجهولة عن قرب بعد ما كان يجهل مجرد السماع عنها ، كما ورد بالتقارير وصف لشواطىء النهر وأعماقه واتساعه ، كما ورد بها أيضا وصف للحيوانات والطيور التى تعيش على جنبات النهر [٢] •

وعلى الرغم من النتائج التى حققتها الحملات المصرية فى هذا المجال وفى تاريخ مبكر أى فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، الا أن مؤلفة هذا الكتاب تناست هذا الدور ، بل ولم تشر اليه مجرد اشارة ، فلولا هذا الدور ما تمكن كل من سبيك وجرانت والسير صمويل بيكر من المجىء الى هذه المناطق ، والمسير من خلال هذا الطريق ، والوصول الى ما وصل اليه هؤلاء الرحالة غير الرسميين من نجاح • ولكن لم تكتف مؤلفة هذا الكتاب

---

(٢) راجع د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ م •

بعدم الاعتراف بدور مصر فحسب بل أنها نسبت هذا الدور العظيم الى الرحالة الأجانب ، متناسية أن هؤلاء الرحالة كانوا يحصلون على تصاريح من مصر تخول لهم التقدم صوب الجنوب ، بل وكانت هذه التصاريح تضمن لهم الحماية والرعاية ، وبخاصة فإن مصر فى هذه الفترة ، كانت تؤمن ايمانا راسخا بتشجيع العلم ونشر الحضارة فى ربوع هذه الأجزاء المجهولة من افريقيا •

وقد ذكرت سابقا أن المؤلفة كانت قد عرضت فى سياق حديثها لدور صمويل بيكر ، الذى ولد عام ١٨٢١ ، والذى كان ينحدر من سلالة ربابنة بحريين وأصحاب مزارع فى المستعمرات • وكان والده غنيا يمتلك سفنا ويدير مصرفا وشركة للسكك الحديدية ، ومع ذلك فإن بيكر كان شغوفا بالصيد فى المناطق المجهولة • ويتميز بيكر بالأعين الزرقاء والجسم الصلب واللحية الكثة • وكان قد تزوج من أبنة قس انجليزى • وعندما سافر الى سيلان أنشأ هناك مجلة زراعية ، هذا فضلا عن أنه عمل مديرا للانشاءات فى شركة للسكة الحديد فى حوض الدانوب • وكان يحب الصيد بصورة بالغة ، فاصطاد الفيلة فى سيلان والدببة فى البلقان • وفى السبعينات من القرن التاسع عشر ذهب الى افريقيا مع زوجته الشابة بعد أن ترك أبنائه الأربعة من زوجته الأولى عند أحد أقربائه فى انجلترا كى يتعرف على ما فيها من أحراش وحيوانات تغرى بالصيد ، لهذا فكر أن يضيف للصيد شيئا آخراً ، ألا وهو القيام بالكشف عن منابع النيل [٣] •

ولكن عندما جاء بيكر الى افريقيا لم يتقدم صوب الجنوب مباشرة ، ولكنه ذهب الى منطقة نهر العطبرة عام ١٨٦١ ، وتجول فيها ، وقد جـاء بتقريره عن هذه المنطقة انه كان يسودها الجفاف بسبب عدم هطـول الأمطار ، باستثناء وجود بعض المستنقعات التى تتخلل مجرى النهر ، وأضاف بيكر أن هذه المستنقعات كانت مزدحمة بالأسـماك والتماسـيح الكبيرة ، والسـلاحف المائيـة وأفراس النهـر والطيـور البريـة ،

---

(٣) الآن مورهيد : النيل الأبيض • ترجمة محمـد بدر الدين خليـل — القاهرة ، ١٩٦٥ ص ٨٧ •

وأضاف بيكر فى تقريره أيضا أن هذه المنطقة كانت غنية بالأخشاب الجافة التى كان من الصعب على الانسان اختراقها penetration الا بعد حرقها ٠

ويضيف بيكر انه بعد أن فاضت مياه النهر فى يوم ٢٣ يونيو من عام ١٨٦١ ، بسبب هطول الأمطار الغزيرة على الهضبة الحبشية ، تحول هذا النهر الى مسطح مائى هائل يبلغ عرضه حوالى ٥٠٠ ياردة ، ويتراوح عمقه فيما بين ١٥ ، ٢٠ قدما ، وكان العرب القاطنين هذه المنطقة يطلقون عليها اسم أرض اللبن والزبد ، وذلك لخصوبتها وكثرة المراعى فيهـا ، فكانوا يربون فيها أعدادا كبيرة من الماشية ، وجاء بتقرير بيكر أيضا عن هذه المنطقة انه يكثر فيها الأودية التى كان منها وادى ستيت وهو وادى عميق لوجوده بين المنحدرات الغربية لهضبة الحبشة ، ومنها وادى النجر الذى تقطنه قبيلة الجعليين Jalyn ، وأضاف بيكر أن نهر العطبرة يوجد له عدد من الروع منها فرعه ستيت ، وسـالام Salam ، وروبان ، وهو أحـد فروع نهـر ستيت ، ونهر عنجريب Angareb ، ونهر الرهاد ، ودنـدر ٠ وكان من أهم القبـائل التى تقطن نهـر العطبرة قبـائل التكرورى والبـازى ، وكان البعض من هذه القبائل موالية لملك الحبشة ، لذلك كانت تمثل مصدر قلق للادارة المصرية فى السـودان ، حتى أن ملك الحبشة كان يعتبرها درعا قوية لحماية حدود بلاده المجاورة للأملاك المصرية فى السودان ، وكان بيكر قد مكث فى منطقة نهـر العطبرة عاما واحـدا [٤] ٠

وعلى الرغم من هذا الدور البارز الذى قام به بيكر فى منطقة نهر العطبرة الا أن مؤلفة الكتاب لم تشر اليه مجرد اشارة ، بل أنها أغفلت هذا الدور الذى لا يقل فى أهميته عن دور بيكر فى منطقة أعالى النيل أثناء قيامه برحلته الخاصة التى رافقته فيها زوجته المجرية فلورنس فان سـاس ٠ فمن المحتمل أن مؤلفة هذا الكتاب لم تعتبر نهر العطبرة من ضمن منابع

---

(٤) د ٠ السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القـرن التاسع عشر ٠ القاهرة ، ١٩٧٩ ص ص ٧١ ـ ٧٢ ٠

النيل ، فربما اعتبرته خورا صغيرا لا يمثل شيء بالنسبة لتزويد النيل النوبى بكمية من المياه لها شأنها ، ومن المرجح أن تكون المؤلفة قد ركزت على منابع النيل ، لذلك اعتبرت نهر العطبرة قد تم كشفه بواسطة جيمس بروس ، ولكن يمكن القول بأن نهر العطبرة هذا يمثل على أقل تقدير أحـد الفروع الصغيرة للنيل .

وكانت مؤلفة هذا الكتاب قد ذكرت فى مؤلفها هذا اسـم زنجبار ، ولكنها لم تشر اليه ، كى توضح للقارىء أهمية هذه الجزيرة ، حتى ولو كان هذا التعريف فى هامش كتابها . لهذا فإننى سأقوم بإلقاء الضوء على هذه الجزيرة بصورة موجزة لـما لها من أهمية تاريخية فى نواح عديدة .

وتعرف جزيرة زنجبار بجزيرة التوابل Spices ، وهى تقـع على مسافة ٤٠٠ ميل جنوب خط الاستواء ، وعلى بعد ٢٠ ميلا من ساحل تنجانيقا ويبلغ طولها ٥٠ ميلا ، وعرضها ٣٤ ميلا ، وتبلغ مساحتها ٦٤٠ ميلا مربعا ، ومن أهم محاصيلها القرنفل الذى يبلغ عدد شجيراته ٤ مليون شجرة فى ذلك الوقت ، وتمثل نسبة انتاجها من هذا المحصول ٥٧٪ بالنسبة للإنتاج العـالمى . وتبلغ المساحة المزروعة منه ٨٠ ألف فدان ، وتصدر زنجبـار أيضا جوز الهند ، والأخشاب والكاكاو (٥) .

ولقد وصف أحد الزوار الذين زاروا زنجبار ، أنها أحسن جزيرة فى المحيط الهندى ، فكانت معروفة لكل الرحالة ، مع أنها تقع بين خطى عرض ٤ً ، ٥ً ٣٠ً ٦° ، فتتميز بتلالها الصغيرة التى يبلغ ارتفاع الواحدة منهـا حوالى ٤٤٠ قدما . ويفصل الجزيرة عن شرق افريقيا ممرا مائيا يبلغ طوله ٢٤ ميـلا (٦) .

وكانت زنجبار مسموعة الإسم فى العالم ، فكانت ميناء تسعى اليـه

(٥) د . فيليب رفـلة : الجغرافية السياسـية لافريقيا . القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٣٣ .

(6) Carveth wells : Introducing Africa. United States of America, 1954. p. 158.

السفن التى تمخر المحيط الهندى • وقد أحصى بيرتون عدد المراكب التى كانت راسية فى مينائها بـ ٦٠ مركبا عربيا ، كانت قد قدمت اليها من المحيط الهندى ، فضلا عن ست سفن تتبع كل من أمريكا وفرنسا وألمانيا ، وقد مرت هذه السفن من حول رأس الرجاء الصالح The Cope of Good Hope وكانت هذه السفن تأتى الى زنجبار لكى تشحن بالكوبال ، وجوز الهند والعاج والجلود والشطة والعنبر وشمع العسل وأسنان فرس البحر ، وقرن الخرتيت • وقد ذكر بيرتون الذى زارها عام ١٨٥٦ ، أن عدد سكانها كان يبلغ حوالى ١٠٠ر٠٠٠ نسمة • وكانت تتميز بالطرق الرديئة المتعرجة التى لا يكاد عرضها يتجاوز عشرين قدما • وكانت هذه الجزيرة تزخر بزنوج نصف عرايا ، وعرب وهنود وفرس وسواحليين ، وكانت الماشية والحمير تشق طريقها بين السكان ، وكان المتسولون يشحذون من المارة ، وكانت الفواكه والخضر تطرح للبيع على حصر من الخوص •

ومن المناظر المألوفة أيضا أن العبيد كانوا يطوفون بكل شارع رجالا ونساء وأطفالا ، سواء من استأنستهم سنوات الاستعباد ، أم من الذين وصلوا لتوهم من داخل القارة ، ومنهم من كان نصف مجنون أو نصف ميت ، بسبب الجوع وسوء التغذية ، وكان مظهر هؤلاء العبيد أقرب الى الحيوانات المتردية فى الشرك منه الى المخلوقات البشرية العادية •

وقد وصف توماس سى قائد سفينة البحوث البريطانية تيرنيف التى زارت زنجبار عام ١٨٨١ م ، هذا المشهد بقوله « ينتظم العبيد فى صف يبدأ بالأصغر ، وينتهى بالأكبر حجما وسنا فى خير مظهر ، وقد نظفت بشرتهم ودهنت بزيت جوز الهند ، وطليت وجوههم بخطوط حمراء وبيضاء ، ويعتبر هذا مظهرا من مظاهر الأناقة ، وازدانت أيديهم وأنوفهم وآذانهم وأقدامهم بفيض من الأساور الذهبية والفضية والجواهر ، وعلى رأس هذا الطابور المؤلف من الجنسين من كافة الأعمار من السادسة وحتى الستين يسير الشخص الذى يمتلكهم ، وخلف هذا الطابور وفى كل جنب من جنباته يسير اثنان أو ثلاثة من عبيده المستأنسين ، وهم مسلحين بسيوف وحراب ، وذلك لحراسة هذا الطابور •

وبهذا النظام يبدأ الموكب السير فى السوق والشوارع الرئيسية ، وفى تلك الأثناء يتغنى المالك بصفات العبيد ، وبالأسعار العالية التى عرضت عليه ، فاذا استهوى أحدهم متفرجا ، وقف الصف فورا ، ثم تبدأ عملية الفحص التى لا مثيل لها من حيث الدقة فى أية سوق للماشية ، وعندما يتأكد الراغب فى شراء العبد من إنه ليس هناك ما يعيبه فى الكلام والسمع ، وانه خال من المرض يشرع فى فحص جسمه ، فيتفقد أولا فمه وأسنانه وأثدائه ، بعد ذلك يأمر الشارى ، العبد بأن يسير أو يجرى مسافة ليتبين خلو قدميه من العيوب ، ثم يجرد بعد ذلك من النفائس اذا تم الاتفاق على الثمن ، ويسلم لمولاه الجديد » (٧) .

وقد قسمت مدينة زنجبار الى ١٨ حيا ، كان لكل منها اسمه الخاص به ، وكان مقر الحاكم يتوسط هذه الأحياء (٨) .

وأما جزيرة بمبا التى لم تتعرض لها المؤلفة بالدراسة أيضا ، فإنها تنفصل عن قارة افريقيا بواسطة قنال يتراوح عرضه فيما بين ٣٥ ، ٤٠ ميلا ، وتبلغ مساحتها ٣٨٠ ميلا مربعا ، وتقع شمال زنجبار بمسافة ٥٠ ميلا ، وقد زارها عدد قليل من السفن ، لأنها لا تمتلك ما تمتلكه زنجبار من موارد . وتبلغ درجة الحرارة فى الجزيرة ما بين ٧٠° ، ٨٠° درجة فهرنهيتية ، كما أن الظروف المعيشية فيها كانت أكثر بهجة بسبب الرياح السائدة . التى تحيطها ففى الجنوب الغربى تهب رياح موسمية أخرى ، ابتداء من نوفمبر أو ديسمبر وحتى مارس .

وترجع الوفرة النباتية فى جزيرة بمبا الى فصلين من الأمطار ، أولهما فصل الأمطار الغزيرة ، الذى تسقط أمطاره حوالى منتصف مارس حتى نهاية مايو أى تسقط الأمطار قبل بدء هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، بينما تسقط أمطار الفصل الأقل مطرا ، قبل بداية الرياح الموسمية

---

(٧) الآن مورهيد : ترجمة محمد بدر الدين خليل ، النيل الأبيض ، القاهرة ، ١٩٦٥ ص ص ١٥ — ١٨ .

(8) Zoe Marsh and G. W. King Snorth. : A history of East Africa. Cambridge 1954. p. 158.

الشمالية الشرقية ، أى ابتداء من أكتوبر وحتى ديسمبر ، ويبلغ المتوسط السنوى للمطر فى جزيرة بمبا أكثر من ٧٠ بوصة فى كل الفصلين (٩) •

وبعد هذا العرض عن جزيرة زنجبار وبمبا ، يمكن القول بأن المؤلفة قد تناست كذلك أن تذكر عددا من الرحالة والمغامرين الذين وصلوا الى افريقيا قبل هؤلاء الرحالة الذين تحدثت عنهم ، وتناولتهم بالدراسة ، فمن المعروف أن البعض من هؤلاء الرحالة المنسيين كانوا قد دخلوا الى قلب افريقيا عن طريق النيل ، بصحبة حملات محمد على الكشفية ، هذا فضلا عن وصول عدد آخر منهم الى نفس هذه المنطقة فى أعقاب الفتح المصرى للمنطقة الاستوائية ، وكان هدف هؤلاء الرحالة القيام بمحاولات كشفية للنيل • ومما لاشك فيه فإن هؤلاء الرحالة المنسيون قد لعبوا دورا لا بأس به فى مجال الكشوف الجغرافية الافريقية وبخاصة فى منطقة جنوب السودان ، فكان معظمهم قد وصل الى بلدة غندوكرو ولكنهم لم يتخطوها لظروفها الطبيعية ولعدم استقرار الأمن فيها ، بينما وصل البعض الآخر منهم فى تجواله الى منطقة بحر الغزال • وعلى هذا فقد كانوا سباقين بل وروادا فى هذا المجال ، مثل كل من بيرتون وسبيك وجرانت وصموييل بيكر •

وكان من هؤلاء الرحالة المنسيين الذين رافقوا حملات محمد على باشا ، والذين لم تشر اليهم المؤلفة ، فردريك كايو Cailliau والطبيب الرسام ريشى Ricci وليتورزك Litorezc ، الذى اشترك مع كايو فى عمل الأرصاد الفلكية ، واعداد البحوث الجغرافية ، وكورنر الانجليزى ، وزميله كونستانت Constant وزوكولى Zuccoli وسيجاتو Segato وهما من الايطاليين ، وانجلش English وبراديش وهما من الأمريكيين ، وهاى Hay وهوشت Hoscht اللذين وصلا الى الخرطوم عام ١٨٣٤ م

---

(9) Norman. R. Bennett : A history of the Arab State of Zanzibar. London. 1978. pp. 1-3.

وأدولف لينان الذى سمى فيما بعد باسم لينان دى بلفون Linant de Bellefond والذى قام برحلة الى النيـل الأبيض ، فاعتبر أول أوربى استطـاع الصعود فى هـذا النهـر ، وكان لينان هـذا قد وصل الى اقليم الشلوك الواقع عند خط عرض ١١° ، ٣٠َ أى عند جزيرة أبا • وفى الفترة ما بين ١٨٢٨ م ، ١٨٣١ م ، تمكن الكاشف ابراهيم من القيام برحلة الى بلاد الشلوك الواقعة على جانب النيل الأبيض ، كما توغل فى بلاد الدنكا ، فوصل فى سيره الى ما وراء الخط العاشر من خطوط العرض الشمالية • وفى نفس الوقت زار اللورد بردهو Prudhoe سنار والخرطوم ، كما زارها أيضا العالم الطبيعى الألمانى ادوارد روبل Ruppel الذى قطع قبل ذلك بأربعة أعوام المسافة الواقعة بين بلدة الدبة والأبيض ، فكان أول أوربى دخل كردفـان •

وفى الفترة ما بين ١٨٢٩ ، ١٨٣٤ م ، كشف كادلفين Cadalvene وبروفيرى Bruevery ، وأدمون كومب Combos ، جهات النوبة وصحارى بيوضة ، ومنطقة البشاريين ، وبعض أقاليم السودان الشرقى ، حتى شاطىء البحر الأحمر ، وكان من بين هؤلاء الرحالة الذين استفادوا من هذا التشجيع فى الفترة التالية الرحالة الانجليزى هوسكنس Hoskins ، والبرنس بوكلرمسكاو Puckler-Muskau الألمانى الجنسية ، وآرثر هولرويد Holrayed واجناتيس بالم Ignatius Pallme من الانجليز • كما ذهب الى جبال فازوغلى وسنار وكردفان من قبل محمد على ، كلا من النمساوى رسيجير Russegger والايطالى بوريانى Boreani ، وذلك للتنقيب عن معدن الذهب ، ومنهم الفرنسى برون روليه Brun Rollet ، الذى وصل الى منطقة أعالى النيل فى أعقاب حملات سليم ، والذى كتب عن جغرافية المنطقة الواقعة حول غندوكرو وبحر الغزال ، واستطاع أن يكشف مسافات بعيدة من هذا النهر ، الذى اعتبره انه يمثل مجـرى النيل الرئيسى ، وفى منتصف عام ١٨٤٧ م ، وصل الى مصر أعضاء البعثة الكاثوليكية الذين اتخذوا طريقهم الى الخرطوم لتأسيس مراكز للتبشير بين الزنوج فى جهات النيل العليا ،

واستطاعت هذه البعثة برئاسة الدكتور اجنانز كنوبلخر Knoblecher ، أن تنشىء بعض المراكز التبشيرية فى أعالى النيل الأبيض ، وحول غندوكرو ، وكذلك فى منطقتى السوباط والنيل الأزرق • ومما لاشك فيه ، فإن أعضائها كانوا قد أسدوا خدمات جليلة للعلم حتى أن الرحالة سبيك قال ما نصه : « وقد احتفظ المبشران النمساويان كنوبلخر وديوك Dooyak بجداول تبين درجات الرطوبة فى هذه البقاع على مدار السنة ، كما أنهما قد أعدا سجلات واقعية بالارصاد الجوية ، وقد تم ذلك بدقة عظيمة ، وباسلوب علمى منظم » وقال جلبرت Gilbert فى هذا الصدد ما نصه : « ان ما قام به هؤلاء من أسفار بين الشعوب الهمجية ومن انشاء مركز جديد للتبشير فى سان كروا St Croix فى بلاد قبائل الكيك الواقعة عند خط عرض ٧° شمال خط الاستواء ، ســاعد مساعدة قيمة فى جمع المعلومات المفيدة عن القــارة الافريقية » فقد استمر أعضاء هذه البعثة التبشيرية يعملون بهمة ونشاط حتى أوائل عام ١٨٦٠ م ومع ذلك فانهم لم يستمروا طويلا ، بل اضطروا للانسحاب من هذه المناطق ، بسبب ما أثاره تجار الرقيق من قلاقل وبخاصة فى الفترة ما بين ١٨٥٢ ، ١٨٥٧ م •

ولم ينته الأمر برحيل المبشرين ، بل واصل الرحالة مجيئهم الى افريقيا فى أعقاب حملات محمد على أيضــا ، وكان من هؤلاء الرحــالة الفريد بينى Alfrid Peney الفرنسى الجنسية ، الذى كان قد أعد مشروعا يتضمن القيام برحلة الى بحيرة فيكتوريا ، وقد حصل هذا الرحالة على موافقة الحكومة المصرية ، التى تكفلت بنفقات هذه الرحلة ، وبعــد ذلك ذهب بينى ومعه التاجر المالطى ديبونو Debono فوصلا معا الى غندوكرو فى ديسمبر عام ١٨٦٠ م ، ولمــا سمعا عن وجود أنهار فى الجهة الغربية صمما على زيارة بلاد النيامبارا للوقوف على حقيقة هذه الأنهار ، فقد تمكنا من كشف جزء من اقليم بحر الغزال ، وبعثا بنتيجة كشوفهما الجغرافية فى تلك الجهات الى الخرطوم ، كما أرسلا الى الخرطوم أيضا مجموعة من نباتات هذا الاقليم ومعادنه • وكتبا عند عودتهما الى غندوكرو فى فبراير عام

١٨٦١ م رسالة الى رئيس المجمع العلمى المصرى كيونج بك Koenig تحدثا فيها عن رحلتهما من الخرطوم الى غندوكرو ، ثم أوضحا فيها زيارتهما لبلاد النيامبارا ، وبعد ذلك اعتزم بينى السير فى بحر الجبل الى ما وراء غندوكرو ، ففى عام ١٨٦١ غادرت بعثته غندوكرو متوجهة صوب الجنوب ، ولكنها ما لبثت أن قفلت راجعة بسبب ما اعتراها من صعوبات فى الطريق • وكان ميانى Maini الايطالى الجنسية قد فشل من قبله فى القيام بمثل هذه الرحلة • وفى ابريل عام ١٨٦١ م ، زار بينى هذا بلاد اللاتوكا Latuka والبارى وجمع معلومات جغرافية عن هذين الاقليمين وشعوبهما وبعد عودتهما توفى بينى فى غندوكرو فى شهر يوليو من نفس العام •

ولم يتوقف قدوم الرحالة الأوربيين فى أعقاب الفتح المصرى عند هذا الحد ، بل أنهم واصلوا مجيئهم الى جنوب السودان ، أو الى أية منطقة كانت مصر قد فتحتها من قبل • فقد جاء ليجيان Legean الى السودان الشرقى وكردفان ، ومن الأخيرة وصل الى غندوكرو ، وكتب عن حياة شعوب نيام نيام القاطنين فى منطقة بحر الغزال • كما زار غندوكرو أيضا عام ١٨٦٠ م ، كل من الألمانيين هارتمان Hartman ، وزميله أدلبرت Adelbert ، والبارون هارنيبه Harnier الذى زودنا بمعلومات على جانب من الأهمية عن حملات الرقيق التى كانت تخرج من غندوكرو ، كما شاهد ومن معه الحملات التى كانت تخرج منها أيضا لتقوم بالكشف عن منابع النيل ، هذا الى جانب البلجيكى برسنيير Pryssenaere ، والماركيز انتنورى Antinori اللذان سارا فى النيل الأزرق وبحر الغزال لكشفهما ثم جاء المكتشف الايطالى كارلو بياجا Piaggia وزيمله ميانى Miani وكذلك جاءت الى منطقة بحر الغزال فى الفترة ما بين عام ١٨٦٣ ، ١٨٦٥ المسز تنيبه Tinné ، وكذلك جاء جون بشريك Petherick الى نفس هذه المنطقة ، وكان بياجا قد قام بأول رحلاته فى النيل الأبيض عام ١٨٥٣ ، واستطاع بعد محاولات ثلاث قام بها فى أعوام ١٨٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ من الدخول فى نهر السوباط ، كما أنه زار بلاد نيام نيام الواقعة فى اقليم بحر الغزال •

وكان من نتيجة أعمــال هؤلاء الرحالة الأوربيين ، الذين جاءوا الى أواسط افريقيا فى أعقاب حملات محمد على ، والذين تجاهلتهم مؤلفة هذا الكتاب ـ أما لكونهم رحالة غير مهمين ، وأما لأنها لم تتمكن من جمــع معلومات كافية عنهم ، واما لأنها لم تقتنع بمجهوداتهم الكشفية ـ قد لعبوا دورا لا يقل فى أهميته عن الدور الذى قام به كل من سبيك وبيرتون وجرانت وصمويل بيكر ، بل وربما أن هؤلاء أمدونا بمعلومات غزيرة عن نباتات وطيور وحيوانات المناطق التى زاروها ، وكنا نحن بل وكان العلماء معنــا فى مسيس الحاجة الى معرفتها ، كما أمدونا بمعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لكل القبائل التى مروا من خلال أراضيها [١٠] .

ويرجع نجاح هؤلاء الرحالة المنسيين الى ما قدمته لهم على اختلاف جنسياتهم الادارة المصرية فى السودان ، والتى أخذت على عاتقها نشر الأمن والأمان فى ربوع المناطق التى أصبحت خاضعة للسيادة المصرية ، كما أنها كانت تزود هؤلاء الرحالة بما يلزمهم من حمالين ومرشدين وغير ذلك .

وفى هذا الصدد قال أحد الرحالة الأجانب ما نصه : « انه أصبح فى امكان الرحالة الذين أولاهم محمد على باشا رعايته الوصول فى تجوالهم بســلام حتى الى جبال دارفور » وأضيف انه بعد أن تم لمصر بســط نفوذها فى منطقة أعالى النيل كان فى امكان أى رحالة أوربى أن يجىء من الاسكندرية الى هذه المنطقة من وسط افريقيا دون أن يمسسه أى سوء ، ودون أن تتعرض حياته للخطر ويرجع الفضل فى ذلك الى انشاء المحطات العسكرية العديدة التى قامت مصر بانشائها على طول مجرى نهر النيل ، والتى كان من واجبها القضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، ونشر الأمن فى ربوع هذه البلاد . كما يرجع ذلك الى العمران والمدنية التى ساهمت مصر

---

(١٠) د . محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ص ١٢٥ ـ ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ـ ١٣٨ .

بدون أدنى شك فى ادخالهما الى أواسط افريقيا . وخاصة بعد الحملات التى أرسلتها فى عهد الخديو اسماعيل ، والتى لم تتناولها مؤلفة هذا الكتاب بشىء من التفصيل مع أن الفضل كل الفضل يرجع الى هذه الحملات المصرية فى كشف لغز النيل ، لأنها كانت حملات حكومية منظمة ، فكانت مصر قد أرسلت حملتين عسكريتين إحداهما بقيادة صمويل بيكر ، الذى سبق له أن زار منطقة نهر العطبرة وبحيرة ألبرت نيازنزا عام ١٨٦١ ، فعندما التقى به الخديو اسماعيل فى حفلة افتتاح قناة السويس اتفق معه على ضرورة قيامه بقيادة حملة عسكرية كشفية ، كان من أهم أهدافها الكشف النهائى عن منابع النيل ، والغاء تجارة الرقيق ، التى أصبحت منتشرة فى هذه الجهات ، وبخاصة بعد أن وصل اليها الأوربيون فى أعقاب حملات مصر الكشفية فى عهد محمد على ، كما انه كان على هذه الحملة تيسير الملاحة فى نهر النيل ، وبخاصة بين شمال السودان وجنوبه ، هذا فضلا عن انشاء عدد من المحطات العسكرية على طول خط سيرها ، وكان الغرض منهـا العمل على نشر السيادة المصرية وتدعيمها فى هذه البلاد ، زيادة على العمل على استتباب الأمن (١١) .

ولم تكتف مصر بهذا العمل الكشفى الذى قامت به ، ولكنها أرسلت بعثة كشفية أخرى تحت قيادة غوردون باشا الذى كان على دراية تامة بالقيام بمثل هذه المأموريات ، فبعد أن اكتملت حملة غوردون غادرت الخرطوم فى ٢٢ مارس عام ١٨٧٤ . ومن المعروف أن هذه الحملة قد أعدت اعدادا جيدا عن الحملة السابقة . وبالفعل يمكن القول بأن هذه الحمـلة كانت قد تمكنت من الكشف النهائى عن منابع النيل ، بل ووضعت نهاية فعلية لهذا اللغز الذى ظل يحير العلماء طوال التاريخ .

ولكن على الرغم من ذلك فان مؤلفة هذا الكتاب لم تشر الى هاتين

---

(١١) د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى القـرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، الفصـل الثالث .

الفصـــل التاســـع

كيف وجـــدت لفنجســـتون

فى عام ١٨٦٩ م ، وبعد وفاة سبيك بخمس سنوات عاد بيكر الى افريقيا ، وكان فى هذه المرة يعمل فى خدمة الحكومة المصرية ، أى انه كان حاكما عاما لمنطقة حوض النيل الاستوائى • وكان بيكر الانجليزى الأول الذى تولى وظيفة رفيعة من قبل الحكومة المصرية ، وقد تلخص واجبه فى أن يضع القطر الواقع الى الجنوب من غندوكرو تحت السيادة المصرية ، كما كان عليه أيضا أن يعمل على القضاء على تجارة الرقيق ، بحيث تحل محلها تجارة منظمة ، وقد وجد بيكر أن هذا الاجراء سوف يورطه فى حرب ليس فقط مع تجار الرقيق ، ولكن أيضا مع كباريجا ابن كامرازى الذى خلف والده كملك للبونيورو Bunyoro وفى نهاية فترة وظيفته التى بلغت أربع سنوات نجح بيكر فى طرد تجار الرقيق من منطقة حوض النيل الواقعـــة جنوب غندوكرو ، وأسس هيكل للادارة المصرية التى تولاها من بعـــده الجنرال الشهير غوردون • وعاش بيكر حتى عام ١٨٩٣ م ، وعند وفاته كان يبلغ من العمر ٨٢ عاما ، وكانت زوجته فلورنس المحببة اليه موجودة الى جواره •

وقد ذكر عن بيكر فى افريقيا انه كان رجلا قويا وذو بأس مع أنه كان يشك فى أمر نفسه • وكان له عدد من النقاد ، منهم المكتشف الألمانى وعالم النبات الدكتور جورج شوينفرث Dr. George Schweinfourth الذى اعتقد فى أن الطريقة التى اتبعها بيكر فى طرده للنخاسة أدت الى ضرر أكثر منه اصلاح • وكان شوينفرث قد فحص بدقة مسألة النخاسة ، ومن المحتمل أن يكون بيكر قد طرد النخاسة من منطقة واحدة ولكن التجار بكل بساطة كانوا ينقلون نشاطهم الى منطقة أخرى •

وفى الفترة ما بين ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ م ، تفحص شوينفرث روافد النيل العليا واعتقد أن كل من بيكر وسبيك لم يعبرا عنها تعبيرا كافيا رغم أهميتها • وفى الواقع تنحصر القيمة الأساسية لعمل شوينفرث فى كتابه المعنون بـ : « قلب افريقيا The Heart of Africa » فقد نشر هذا الكتاب فى انجلترا عام ١٨٧٣ م ، وكان هذا الكتاب قد أعطى صورة واضحة وجلية عن الوطن الذى مر شوينفرث من خلاله ، وفيما بعد زيد عمل شوينفرث بواسطة ألمانى آخر يدعى الدكتور وليام جونكر William Junker الذى مد مجال نشاطه الى روافد النيل •

وفى هذه الفترة ، وفى مناسبة تأبين سبيك ألقى السير رودريك مارشيزون خطابا فى الجمعية الجغرافية الملكية ، أعلن فيه عن اقتراحه الخاص بارسال لفنجستون مرة ثانية الى افريقيا ، فى محاولة لحل المشكلة ذات الأهمية الخاصة بالمجارى المائية فى وسط افريقيا • وكان لفنجستون هذا مسرورا وتواقا لهذه الفرصة التى ستتيح له الكشف عن مصدر النيل نفسه ، وقد برهن على أن نهر لولابا River Lualaba الذى تتدفق مياهه من جهة الشمال هو النيل •

وكانت خطة بعثة لفنجستون الأخيرة ، والتى بدأت فى عام ١٨٦٥ م ، الكشف عن كل من منطقة سقوط الأمطار الخاصة بالنيل (أى المنطقة الاستوائية) والكنغو والزمبيزى • وكتب لفنجستون يقول ما نصه : « آمل فى أن أصعد مع نهر روفوما Rovuma River أو أصعد مع بعض الأنهار الأخرى الواقعة فى الشمال من رأس دلجادو Delgado ، هذا بالاضافة الى قيامى (لفنجستون) بعمل آخر يتمثل فى أننى سوف أسير على طول النهاية الشمالية لبحيرة نياسا ، كما أسير كذلك من حول النهاية الجنوبية لبحيرة تنجانيقا ، لكى اتحقق بنفسى من منطقة تجمع مياه الأمطار الموجودة فى هذا الجزء من افريقيا •

وكان هذا العمل من جانب لفنجستون يمثل خطة طموحة مع أنه لم

يكن فى حالة تمكنه من تنفيذ ذلك • وعند بدء هـذه الرحلة التى ضمت بين أعضائها اثنين من الأفارقة يدعى أحدهما سوزى Susi ، ويدعى الآخر أمودا واللذين كانا قد رافقا لفنجستون الى منطقة الزمبيزى وكان معه أيضا اثنين من الصبية كان لفنجستون قد أنقذهما من أيدى تجـار الرقيق فى منطقة النهر Shire High Lands وكان أحدهما يدعى شوما Chuma والذى ظل مرافقا للفنجستون حتى النهاية • وفى كل مكان كان الحظ النحس يتعقب لفنجستون • فقد ثبت أن الحمالين كانوا غير راغبين فى العمـل حيث أنه لا يمكن الاعتماد عليهم ، هذا فضـلا عن أن التجار العـرب أصبحوا فى عداء مع لفنجستون ، زيادة على أن الغضب كان قد انتابه بسبب قسوة تجار الرقيق مع عبيدهم وبسبب رؤيته لمذبحة لم يستطع هو منعها من الوقوع ، فازداد حزنه أكثر فأكثر ، وفى نفس الوقت انهارت صحته ، بل وكانت محفوفة بالمخاطر ، بسبب فقدانه لصندوق أدويته ولكن رغم ذلك فقد أصر على مواصلة العمل ، وخطط بأن يتخذ طريقه صاعدا مع نهـر روفوما ، ولكن عندما حان الوقت لعبور بحيرة نياسا ، لم يجـد أحـدا ليساعده فى عبورها فاضطره ذلك الى المسير حول الطرف الجنوبى لهـذه البحيرة ، وبعد ذلك اتجه صوب الشمال الغربى فى اتجاه بحيرة تنجانيقا • وفى نهاية هذه الرحلة وصل الى بحيرة مجهولة تعرف باسم بحيرة مويرو Lake Mweru الواقعة بالقرب من رافد نهر لولابا The Lualaba River وفى نفس الوقت اكتشف لفنجستون بحيرة بانجويلو Banfiweolo Lake ، التى تقع الى الجنوب من بحيرة مويرو ، وعلى مسافة ٨٠ ميلا ، وتتصل بها عن طريق نهر مجهول • وعند الشاطىء الغربى لبحيرة تنجانيقا ، كافح لفنجستون بكل قوة حتى تمكن بعد ذلك من عبورها الى بلدة أوجيجى Ujiji ، وهناك مكث بها ، لأنه كان لا يستطيع أن يتقدم الى الأمام خطوة واحدة ، وفى هذا الوقت أشاع الحمالون الذين كانوا قد هجروا البعثة اشاعات عن موته • وقد وصلت هذه الاشاعات الى انجلترا ، وهناك وجدت وسائل الإعلام البريطانية الفرصة ملاءمة (الصحافة البريطانية) وبخاصة

جريدة النيويورك هيرالد لترسل محررها اللامع هنرى مورتون ستانلى الى أواسط افريقيا ، لكى يتحقق من صحة اشاعة موت لفنجستون من عدمه •

ويعتبر ستانلى ، بكل المقاييس من أعظم مكتشفى افريقيا ، وبالطبع فان أعماله كانت مدهشة ، فقد حقق النصر منذ طفولته على الخـــوف الذى يمكن وصفه بالقصص التى وردت فى روايات تشارلز دكنز The novels of Charles Dickens وكانت أخطاؤه نتيجة مباشرة لتصميمه على الحياة • وقد ولد ستانلى عام ١٨٤١ م فى مدينة دينبج Denbigh فى مقاطعة ويلز ، وكان ابنا غير شرعيا لريفى Cottager يدعى جون رولاندس John Rowlands الذى أعطى اسمه لستانلى • وقد مات أبوه هذا بعد مولده بمــدة ليست طويلة ، وذهبت أمه الى لندن ، كى تبحث عن عمل كخادمة وتركته فى رعاية أقارب لهــا ، حيث أودع فى الخامسة من عمره فى اصلاحية للأحـــداث Workhouse كانت تابعة لأبروشية • وكان لهذه الاصلاحية مدرسة من النوع الردىء School of bad Sort ولقى الشاب جــون رولاندس طوال التسع سنوات التى قضاها فى الاصلاحية الضرب والقسوة من جانب ناظر هذه المدرسة ، الذى كان نصف مجنون ، والذى أنهى حياته فى المنزل الخاص بالمختلين عقليا • وكان ستانلى معذبا حتى فى قمة شهرته بسبب ذكريات الماضى ، وبسبب حادثة كانت قد حدثت له ، فقد تمثلت هــذه الحادثة فى أن واحدا من أصدقائه ، وهو الطفل الذى وصفه استانلى بأنه ملك جمال المدرسة قد مات فجأة ووضع فى مستودع الجثث بالمدرسة • فزحف جون رولاندس ومعه واحدا أو اثنين من الأولاد الآخرين الى داخل هذا المستودع ، حيث كان يرقد جسم صديقهما ثم عادا ومعهما الملاءة التى كان يغطى بها جسمان الولد الميت • ونتيجة لذلك فقــد أصابهما الرعب والفزع ، بسبب اللكمات والضربات التى تعرضا لها من جانب المسئولين عن هذا المستودع •

ولقد احتمل رولاندس كل هذه الظروف الفظيعة حتى بلغ ســن الخامسة عشر من عمره وبعد ذلك تمرد على هذه الأوضاع ، ولكنه هــدد

بالجلد مرة أخرى ، حتى أن رئيس المدرسة القاسى عاقبه بالضرب المبرح ، وازاء هذه الظروف اضطر ستانلى الى الهروب من اصلاحية الأحداث ، حيث قفز من فوق حائطها ، واستقبله أقاربه وهم على مضض لأنهم كانوا لا يرغبون فى استقباله • لهذا غادر ستانلى دينبج الى ليفربول Liverpool حيث كان عبئا ثقيلا على خالته المتزوجة ، وهناك وجد عمل فى أحـــد المحلات (دكاكين) •

وكان ستانلى يتقاضى أجرا ضئيلا للغاية من هذا الدكان • وكان هذا الأجر لا يكفيه لذلك التحق وهو فى سن الثامنة عشرة بسفينة أمريكية ليعمل عليها خادم As Cabin boy وكانت الحياة على ظهر هذه السفينة قاسية لدرجة أنها كانت مشابهة تقريبا للحياة التى كان ستانلى يعيشها فى اصلاحية الأحداث ، وفى نيو أورليانز At New Orleans حصل ستانلى على مرتب أقل من المتفق عليه ، فاضطر ازاء ذلك الى الهرب ورغم ذلك فقد أصبح العمل ضروريا بالنسبة له ، لذلك نجده يقترب بجرأة وبرقة من رجل غريب ، ويسأله عن عمـــل ، وكان هذا الرجـــل الغريب يعمـــل سمسارا للقطن Cotton broker ولم يكتف هذا السمسار فقط بايجاد عمل لستانلى ، ولكنه اصطحبه الى منزله ، وأعطاه اسمه الجديد ، هنرى مورتون ستانلى Henry Morton Stanly وقد قضى ستانلى الشاب سنتين فى العمـــل ، وفى أثنائهما سافر مع والده الجديد فى مهمة تجارية • وبعد ذلك مات ستانلى الكبير تاركا من بعده ستانلى الشاب الذى لم يكن متبنيه بطريقة شرعية أو رسمية ، وحيدا وبدون توجيه •

وعندما انفجرت الحرب الأهلية (الأمريكية) جند ستانلى فى الجيش الاتحادى ، وقد أسر فى موقعة شيلو Shiloh ، وأثناء تبادل عمليـــة الأسرى وافق ستانلى على الالتحاق بالجيش الاتحادى ، ولكنه فى هـــذا الوقت وقع فريسة للمرض ، ولكنه بمجرد أن شفى من مرضه ، سرح من الخدمة العسكرية ، وفى خريف عام ١٨٦٢ م ، أبحر ستانلى الى انجلترا ، وحضر فجأة الى منزل أمه ، ولكنه أبعد على الفور ، وبذلك ازداد شعورا

بالمرارة ، من أسرته أكثر من قبل ، وكذلك من الوطن الذى نبذه ، ونتيجة لذلك عاد مرة ثانية الى أمريكا • وبعد قيامه برحلات بحرية عديدة التحق بالأسطول الاتحادى ككاتب سفينة ، وفى أثناء البعثات التى كانت ترسل ضد حصن فيشر Fort Fisher أرسل ستانلى برقيات Despatches الى الجرائد وكان محررو هذه الصحف يقبلون البرقيات ويقومون بنشرها •

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، أخلى سبيل ستانلى من الخدمة فى الأسطول (الأمريكى) ، وبعد ذلك قرر أن يعمل كل وقته صحفيا ، وبسرعة نجح فى هذا العمل • وفى عام ١٨٦٨ م ، التحق ستانلى بهيئة جريدة النيويورك هيرالد ، وقد عهد اليه بأمر لفنجستون ، وكان هذا واحد من الأعباء الهامة العديدة التى تولاها ستانلى ، وقد رتبت هذه المهمة الى ستانلى فى باريس بمعرفة جيمس جوردون بنيت Gordon Bennett المدير وابن صاحب الجريدة ، وفيما بعد وصف ستانلى مقابلته مع بنيت فى كتابه المشهور والمعنون بـ « كيف وجدت لفنجستون How I found Livingestone? فكان قد دار حوار بينه وبين بنيت جاء فيه :

« فى أى مكان تعتقد فى وجود لفنجستون يا بنيت ؟ فأجاب بنيت بقوله ، فى الواقع لا أدرى يا سيدى ، ثم سأله ستانلى ، وهل تعتقد انه حى ، فأجاب بنيت بالقول ربما يكون حيا ، وربما يكون ميتا • فقال ستانلى : « حسنا أنا أعتقد انه على قيد الحياة ومن الممكن أن نجده وأنا سأذهب كى أرسل لك يا بنيت بخبر العثور عليه فأخرج بنيت ألف من الجنيهات وأعطاها الى ستانلى ، وقال بنيت الى ستانلى وعندما تذهب الى هناك أى الى افريقيا للبحث عنه فسوف أعطيك ألف أخرى من الجنيهات ، وعندما تنفقهما فسوف أعطيك ألف ثالثة ، ولما تنتهى من انفاقها فسأعطيك ألف رابعة ، وهكذا فعليك يا ستانلى أن تجد لفنجستون وبعبارته :
«Find livingstone»

وعندئذ كان لدى ستانلى مبلغا غير محدد من المال ، ولكن قبل أن

يتوجه ستانلى للبحث عن لفنجستون فى أدغال افريقيا ، صدرت اليــه التعليمات بحضور الافتتاح الرسمى لقناة السويس ، ثم بعد ذلك كان عليه أن يصعد مع النيل لكى يكتشف كل ما يستطيع كشفه من المناطق التى قامت بعثة السير صمويل بيكر بكشفها فى أعالى النيل ، وكان عليه كذلك أن يزور أورشاليم ، واستانبول والقرم ، وبحر قزوين وايران ومن هناك يذهب الى الهنـــد .

وأضاف ابن صاحب الجريدة يقــول :

« بعد أن تذهب يا ستانلى الى الهند يكون فى امكانك الذهاب وراء لفنجستون ومن المحتمل أن تسمع بأن لفنجستون فى طريقه الى زنزبار ، ولكن اذا لم يحدث شىء من هذا ، فعليك الذهاب الى داخل افريقيا لكى تجده اذا كان على قيد الحياة وارسل أى أخبار عن استكشافاته كلما تمكنت من ذلك ، وفى حالة ما تجده ميتا ، فأرسل كل الأدلة الممكنة الخاصة بموته . فهذا هو المطلوب . وانتهى الحوار بين الاثنين ، وقال بنيت لستانلى : « ليلتك سعيدة ، والله معك ، عندئذ قال ستانلى الى بنيت ليلتك سعيدة ، وأضاف ستانلى متساءلا بالقول : « ما تستطيع الطبيعة أن تفعله فسوف أفعله ، فمأمورية كهذه سأقوم بها وسيكون الله معى » وبعبارته :

«What it is in the power of nature to do I will do, and on such an errand as Igo upon, God will be with me.»

وبأمانة منقطعة النظير فقد أنجز ستانلى كل المسئوليات التى أوكلت اليه ، فأرسل برقيات الى جريدة النيويورك هيرالد وقد مضى أكثر من ١٤ شهرا على يوم السادس من شهر يناير عام ١٨٧١ م ، وهو اليوم الذى قابل فيه ستانلى بنيت ففى تلك الأثناء كان ستانلى قد وصل الى زنزبار ، كى يبدأ بحثه وقد مكث بعض الوقت عند القنصل الأمريكى لأنه كان يعتبر نفسه أمريكيا تماما ، وكان ستانلى جادا فى الحصول على أخبار جديدة ، حتي انه رفض أن يذيع خططه الي جــون كيرك John Kirk ، الذى كان

يعمل فى ذلك الوقت قنصلا لبريطانيا فى زنزبار • وكانت القافلة التى التحق بها ستانلى كبيرة ، ومعدة اعدادا جيدا ، وسار ستانلى فى خط مستقيم أثناء فصل المطر ، وكانت خطواته سريعة ، أى انه كان أسرع من لفنجستون وبيرتون وسبيك • وفى الثلاثين من نفس الشهر ظهر ستانلى فى صـــورة رائعة ، حيث انه كان منظما بدرجة كبيرة فقد قاد رجاله بطريقة حازمة • ففى كل صباح كان يوقظ قافلته بالفرقعة التى يحدثها كرباج حمـــار السيد العظيم (أى ستانلى) والتى تشبه طلقات المسدس • وبعبارته :

«Every morning he roused the caravan with a crack like a pistolshot, of the Great Master's donkey Whip»

وقال ستانلى : « لم يكن هناك وقت أمام الأفراد (الحمالين) ، الذين يريدون الهرب » وأضاف فى قوله : « انه عندما يكون الطين مبلل بالمــاء ، ففى هذه الحالة يصبح لينا ، ويصبح تماسكه الطبيعى هشا ، مما يساعد ذلك على الكسل ، بين الرجال ، لهذا فان استعمال الكرباج خلف ظهر الحمالين خير وسيلة لاعادة نشاطهم • وفى أحيان أخرى يؤدى ذلك الى نشاط مكثف » • وكان الشخصان الأوربيين أعضاء بعثة ستانلى غير مقتنعين بهذه الرحلة ، حيث ماتا فى الطريق ، لأنه لم يكن لديهما المقدرة على مواصلة المســـير الشـــاق •

وكان تقرير ستانلى الذى يريد كتابته فى شكل كتاب عند عودته ، كان دراميا ومثيرا للعواطف ويتضح ذلك من قوله :

« لا يستطيع رجل أو رجال أحياء ايقافى عن القيام بهذا العمل ، ولكن الذى يمنعنى هو الموت فقط ولا حتى هذا الموت ، فأنا لن أموت ، فأنا لن أموت ، فأنا لا أستطيع أن أموت فكل شىء لا أعرفه يخبرنى بذلك ، أنا لا أعرف ماذا يكون هذا ، فشىء ما يخبرنى هذه الليلة ، بأننى ســأجده (لفنجستون) و ••• وسف أكتب عنه أكثر فسوف أجـــده ، أجده ، فحتى بالكلمات الملهمة اننى أشعر بسعادة كبيرة وبخاصة عندما أقوم بصلواتى ؟ فسأنام هذه الليلة بهدوء •

ولم يمنع الموت ستانلى ، (من تحقيق هدفه) • فمن المعلومات التى تلقاها ستانلى أن لفنجستون كان على قيد الحيـــاة ، وكان موجودا فى أوجيجى ، وهناك وفى حضور حشد كبير من الناس حدث هذا اللقاء الشهير ، وفى هذا الصدد كتب ستانلى يقول : « عندما تقدمت لملاقاته لاحظت انه شاحب اللون ، ويبدو عليه الارهاق ، وكان ذو لحية رمادية ، ومرتديا طاقية زرقاء ، ومن حولها رباط من الخيط المذهب الفاتح ، ومرتديا أيضا صديرى ذو أكمام حمراء ، وبنطلونا من الصوف الخشن ، وبعدئذ جريت مسرعا نحوه وقد أصابنى الخوف من هؤلاء الدهماء وعانقته • وكان هو الانجليزى الوحيد من بين هؤلاء الدهماء ، وكنت لا أعرف كيف يستقبلنى لفنجستون ، لهذا فضلت أن يكون الجبن وعزة النفس شيئين طيبين ، فسرت عن عمد نحـــوه (لفنجستون) وخلعت قبعتى وقلت يا دكتور لفنجستون هل تعرف من أكون أنا ، قال لفنجستون نعم ، وكان فى تلك الأثناء يبتسم ابتسامة رقيقة وخلع طاقيته باستخفاف فوضعت على رأسه طاقيتى محل طاقيته ، ووضع هو طاقيته على رأسى ، وتعانقت أيدينا ، وقلت بصوت مرتفع ، أشكر الله يا دكتور ، أن سمح لى بأن أراك ، فأجاب لفنجستون بقوله : « أنا ممنون فأنا هنا وسوف أحتفى بك » •

وقد قضى ستانلى أربعة أشهر مع لفنجستون حيث انتعشت صحته ومعنوياته بسرعة • وكانت هذه الشهور كلها بالنسبة لستانلى شهور ذكريات فهو الذى تعلم كيف يحب ويحترم الرجل الذى يكبره سنا • فوجد فيه صورة الأب المثالى • وبدأ لفنجستون مغرما باستانلى مع أنه كان يختلف عنه فى الشخصية تماما فكان لفنجستون أبوى Paternal وكان غاية فى الصبر مع أتباعه من الأفارقة بينما كان استانلى الرجل الذى يثق ثقـــة لا حدود لها فى سمو الرجل الأبيض على الملونين ، فبذلك كان رجلا غير حساس ، بل وكان دكتاتورا ، وكان من تسليته على سبيل المثال أن يتذكر المحادثة التى سمعها ، والتى دارت بين خدم لفنجستون وبين خدمه ، وهذه المحادثة على النحـــو التالى :

« يقول أحد خدم ستانلى مخاطبا واحدا من خـــدم لفنجستون ،

سيدكم الذى يدعى لفنجستون يخاطبكم بالقول يا خدمى ، لهذا فهو رجل طيب ، بل أنه رجل طيب جدا فهو لم يضربكم ، لأنه طيب القلب ، ولكن سيدنا (ستانلى) فهو رجل حاد الطبع قاسى مثل النار » •

وفى فترة الشهور التى قضاها ستانلى مع لفنجستون سأله ستانلى عن استكشافاته ونظرياته ، وسأله أيضا اذا كان قد اكتشف النهاية الشمالية من البحيرة (بحيرة فيكتوريا) التى ادعى بيرتون أن نهر الروسيزى Rusizi River يخرج منها ، فأجاب لفنجستون على هذه الأسئلة بأنه لم يفعل ذلك ، لأنه كان معتقدا أن نهر لولابا Lualaba River يقع فى الجنوب الغربى وعلى مسافة بعيدة (من بحيرة فيكتوريا) ومن الممكن اثبات انه هو نهر النيل ، وليس من الممكن أن تكون بحيرة تنجانيقا مصدرا للنيل • فنصحه ستانلى بالقول حسنا ، لو كنت مكانك يا لفنجستون لكنت اكتشفت بحيرة تنجانيقا ، قبل مغادرتى هذه المنطقة فأنا سأكتشفها ، وأحل كل الشكوك حول هذا الموضوع •

ولقد وافق لفنجستون على ما قاله ستانلى ، وعلى أثر ذلك ركب الرجلان فى قارب صغير متوجهين الى النهاية العليا للبحيرة (بحيرة تنجانيقا) فاكتشف لفنجستون على الفور أن بيرتون كان مخطئا : لأن كل من بيرتون وسبيك أخبرا أن مياه نهر الروسيزى Ruisizi تتدفق نحو الجنوب فى البحيرة • وهكذا فلم يكن هناك اتصال بالنهر الرئيسى الذى تتدفق مياهه نحو الشمال • كما لم يعرف نظام الصرف فى هذه المنطقة •

وقد تجاسر لفنجستون على العودة الى نهر لولابا Lualaba River كى يكمل عمله ، وبخاصة بعد أن زاد اعتقاده بأنه على حق ، ورفض لفنجستون أن يصطحب ستانلى الى انجلترا ولكنه أعطى ستانلى كل تقاريره ، كما أن ستانلى أعطاه الحمالين والمؤن من مخزونه الخاص • وقد تضمنت تقارير لفنجستون خطابا الى جريدة النيويورك هيرالد ، وفى هذه التقارير كان لفنجستون قد قدم وصفا للمذبحة الدموية التى قام بها

تجار الرقيق ضد المئات من الناس فى منطقة نيانجوى Nyängwe الواقعـة على نهر لولابا ، وكذلك قدم وصفا عن الفظائع التى تورط فيها تجار الرقيق فى منطقة أوجيجى ، وذكر لفنجستون انه بسبب انتشار العبودية فى أوجيجى ، ينبغى أن يؤدى هذا الى القضاء على تجارة الرقيق فى ســاحل شرق افريقيا • وكتب لفنجستون يقول ما نصه : « اننى أعتبر ذلك مسألة هامة بل لا أبالغ عندما أقول ، انها مســألة أهم بكثير من الكشف عن كل مصــادر النيل » •

ولازال لفنجستون مصمما على اكتشافه لمنابع النيل حتى ولو كلفه ذلك العودة نحو الجنوب أكثر من مرة ، وفى هذا الصدد كتب لفنجستون يقول ما نصه : « من الضرورى التغلب على هذه المشكلة لكى أتمم عملى ، ومع ذلك فلم يحدث هذا بعد ، وبعبارته : «It was not to be Halted » وفى شهر أبريل عام ١٨٧٣ م تعطل لفنجستون بسبب المرض المميت الذى تعرض له فى المنطقة الواقعة بالقرب من قرية أولالا Ilala ، القريبة من بحيرة بانجويلو Bangweolo ففى الصباح الباكر لأحد الأيام وجد الخادمان المخلصان سوزى Susi وشوما Chuma سيدهما لفنجستون فى وضعه الذى تركاه فيه فى الليلة السابقة راكعا بجوار سريره ، بحيث كان واضعا وجهه بين يديه ، كما لو كان يصلى أو يتوسل الى الله ، ولكنه فى الحقيقة كان ميتــا •

وعندئذ بدأت نهاية الرحلة لهذا البطل « رحلة لفنجستون » • فقام كل من سوزى وشوما ومعهما ستين شخصا من الرجال الشجعان ، بدفن قلب سيدهما تحت شجرة وبعد ذلك قاما بتحنيط جثته ، ولفها بحيث جعلوها شبه ربطة من الملابس ، لأنهما كانا مدركين ، أنهما سوف يتصارعان مع القبائل التى تعتقد فى أن الجسم الميت يكون رمزا لسوء الحظ ، أو لكارثة متوقعة ، لهذا حمل هذان الشخصان هذا الحمل المربوط (جثة لفنجستون) والمدعم بالأعمدة الخشبية وبدآ رحلة السفر التى يبلغ طول مسافتها ١٥٠٠ ميل ، ابتداء من النقطة التى بدآ منها ، وحتى ساحل شرق افريقيا • وقد

استغرقت هذه الرحلة ما يربو على عشر شهور • ورغم ذلك فلم يتخلى كل من سوزى وشوما عن الجثمان ، حتى وصلا الى باجامايو Bagamoyo وهناك سلما الجثة الى المسئولين البريطانيين فى زنزبار •

وقد نقل جثمان لفنجستون الى انجلترا ، وفى الثامن عشر من شهر أبريل عام ١٨٧٤ م ، دفن فى مثواه الأخير ، فى كتدرائية وست منستر بلندن London's West minster Abbey وقد لعبت قصة لفنجستون دورا هاما بين هؤلاء الذين حملوا الراية من بعده ، من أمثال ستانلى ، وكيرك وجاكوب وين ريت Jacob Wain Wright الذى كان واحدا من هؤلاء الرجال الذين حملوا الجثمان طوال الرحلة العجيبة الى الساحل •

وقد كتبت العبارة التالية على مقبرة لفنجستون « تخليدا لذكراه » وهى على النحو التالى :

« يمكث هنا جثمان دافيد لفنجستون من أجل ما قدمت يداه من أعمال فى البر والبحر فضلا عن ذلك فهو المبشر Missionary والرحالة Traveller والخير Philanthropist » • وكان لفنجستون قد ولد فى ١٩ مارس عام ١٨١٣ م فى بلنتير Blantyre ، بمقاطعة لانكشير Lankshire • ومات فى اليوم الأول من مايو عام ١٨٧٣ م ، فى قرية تشيتامبو Chitambo بمنطقة أولالا Ulala •

وقد وضع تمثال للفنجستون بملابسه التى وصفها به ستانلى ، أمام الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن ، وهو بمثابة تكريم لهذا الرجل الذى قضى ثلاثين عاما من حياته فى كشف افريقيا ، محاولا بذلك تحويل Convert القبائل الافريقية الى العقيدة المسيحية ومع أنه كان قد فشل

فى الكشف عن مصادر النيل ، الا انه سخر عمله ضد العبودية وقد دعمت هذه الحملة التى قادها لفنجستون ضد العبودية من جانب السير جون كيرك Sir John Kirk ، وقد أسفر عن حملته هذه اجبار سلطان زنجبار على منع تصدير العبيد من كل مكان من أملاكه فى شرق افريقيا حتى أن هذا السلطان قد قام بغلق سوق الرقيق فى بلاده الى الأبد .

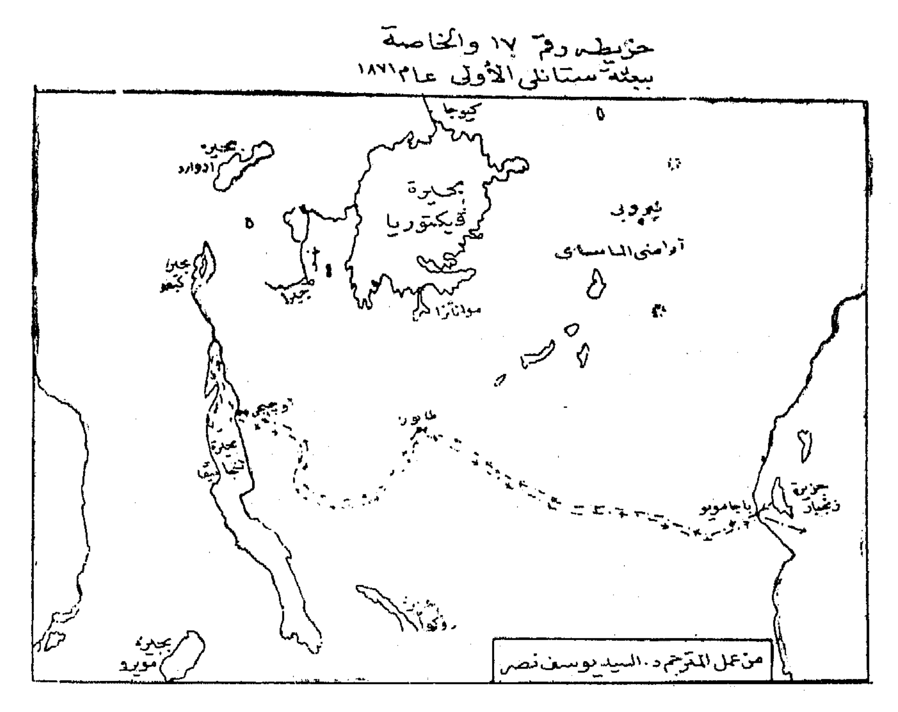


صـورة المغامر الألمانى الدكتور يونكر الذى جاء الى منطقة بحـر الغزال عام ١٨٧٧ م وذلك لاكتشاف أنهار هـذه المنطقة ، وجمـع بعض عينـات من نباتاتها وطيورها وحيواناتها .



صــورة الأميرالاى بروت بك الذى عمل فى خدمة الحكومة المصرية فى عصر الخديو اسماعيل ، وقــد اكتشفت المنطقة الممتــدة من ام درمان وحتى الأبيض عام ١٨٧٥ . من اعــداد المترجم .

حزيطه رقم ١٧ والخاصة
بيعثة ستانلى الأولى عام ١٨٧١



بدأ ستانلى رحلته من زنجبار ، ثم مر بمدينة باجامايو وطابوره ، ومنها اتجه غربا الى بحيرة تنجانيقا ، فوصل الى مدينة أوجيجى ، وكان الهدف من هذه الزيارة البحث عن دافيد لفنجستون الذى أشيع عنه أنه مات فى بلدة أوجيجى ، ومن هناك طاف الرجلان على سطح مياه بحيرة تنجانيقا من جهة الشمال .

التعليق على الفصل (٩)

أغفلت مؤلفة هـذا الكتاب دور كل من الألمـانيين دكتـور جورج شوينفرث ، والدكتور يونكو الذى قدم الى افريقيا عـام ١٨٧٦ م على رأس بعثة كشفية لكشف الجزء الداخلى من خور بركة ، والذى ظل غير معروف فترة طويلة من الزمن . وكان يونكو قد اتخذ طريقه من السويس عبر البحر الأحمر ، حتى وصل الى جدة ، ومنها الى سواكن . وفى ذلك الوقت كان الطريق الى الخرطوم معطلا بسبب الحرب الحبشية المصرية . وقد وصف يونكر خور بركة بأنه عبارة عن نهر مخيف ، وبخاصة فى زمن الفيضانات ، وبعد زمن الفيضانات يجف بسبب تسرب مياهه الى البحـر الأحمر ، لذلك كان الأهالى يحصلون على المياه من الآبار ، ومن بعد توكر يتجه هذا الخور من الجنوب الى الشمال مع وجود بعض الانحناءات التى تعترض مجراه ، ويتسع مجراه العلوى عن مجراه السفلى ويعتبر هـذا الخور الحد الطبيعى والسياسى لقبائل بنى عامر وهدندوه [١] .

وفى نفس العام (١٨٧٦) م واصل يونكر مسيره الى الخرطوم ، ومن هناك قرر السفر الى نهر السوباط الذى يوجد على شاطئيه القرى التى يقطنها عددا من القبائل النيلية ، التى تمارس نشـاطها البشرى فى الزراعة البدائية والرعى [٢] .

وفى نفس العام اتجه الدكتور يونكر الى منطقة أعالى النيل وهناك تجول فى منطقة بحر الجبل وبحر الغزال . وكان يونكر قد كتب تقريرا عن هذه المناطق جاء فيه انه تمكن من اثبات أن نهر الجت Jet الموجود فى منطقة المكاراكا ، هو عبارة عن نهر صغير يتجه نحو الشمال ولم يكن هو المجرى العلوى لنهر الرول Rohl ، وتحقق كذلك من وجود كل من نهر

---

(١) د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن ١٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٧٣ — ٧٤ .

(2) Dr. Junker : Voyages Dans L'Afrique Equatoriale. Bul. Soc. Kh. Geog. No. 7. pp. 20-26.

أوليه Ouelle ، الذى اكتشفه شوينفرث ونهر أروفيما Aruvima الذى اكتشفه ستانلى ، واكتشف يونكر أيضا عددا من الأنهار الأخرى ، منها نهر ايرو Eirro ، أحد فروع نهر الرول ، والمجرى العلوى لنهر تونج Tondj . هذا فضلا عن انه بدد الرأى الذى كان سائدا ، والذى أطلقه جيسى عام ١٨٧٦ م ، والذى كان يقول انه يوجد نهر يخرج من الجزء العلو لبحر الجبل ، بحيث يتجه نحو الغرب ولكن يونكر بعد أن تجول فى هذه المنطقة لم يجد أى نهر يخرج من المجرى العلوى لبحر الجبل، كما كان يدعى جيسى [٣] .

وأما الدكتور شوينفرث الذى قضى الفترة ما بين سنة ١٨٦٩ ، ١٨٧١ م فى منطقة بحر الغزال ، كان قد شاهد الغابات والمستنقعات والمجارى المائية كما أنه زار منطقة الأزاندى ، وقبائل نيام نيام [٤] .

هذا فضلا عن أن هذه المؤلفة أغفلت عددا من الرحالة الذين لا يقلون فى الأهمية عن هؤلاء الرحالة الذين لقوا اهتماما كبيرا من جانبها . وكان من هؤلاء الرحالة برون روليه ، الذى جاء الى افريقيا فى الفترة ما بين ١٨٤٥ ، ١٨٥٢ ، وتجول فى منطقة النيل الأبيض ، وبحر الغزال ، واستكشف معظم تلك البلاد ، كما كان يقوم بنقل العاج وريش النعام من هذه المناطق الى أوربا [٥] . ومنهم أيضا جون بتريك الذى عمل مهندسا للتعدين فى عصر محمد على ، فعندما سافر الى السودان للتنقيب عن الفحم ، وجد نفسه على مقربة من بحر الغزال فهناك قام بعدة جولات فى هذه المنطقة فى الفترة ما بين ١٨٤٧ ، ١٨٥٩ ، ووصل فى تجواله الى بلاد الأزاندى . وبعد ذلك عاد الى انجلترا عام ١٨٥٩ م [٦] . ومن هؤلاء أيضا الرحالة دى مالزاك الذى جاء الى منطقة بحر الغزال ، ولكنه توفى بسبب تعرضه لمرض

(3) Junker : Sept ans de Voyages dans l'Afrique Central Vol. 2. p. 634.

(٤) نفس المصدر ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) دراسات فى النيل ص ٥١ .

(٦) هرست : النيل ، ترجمة حسن أحمد الشربينى ص ٢٩١ .

الحمى • ومنهم كلينزنيك الذى غادر الخرطوم عام ١٨٦١ م متوجها الى منطقة بحر الغزال ، ووصف شواطىء هذا البحر بأنها ضحلة ويكثر بهـا البوص والنخيل ، وكان من الصعب عبورها الا فى فصل الجفاف ، ويضيف كلينزنيك بأن نهر الجور أحد فروع بحر الغزال كان صـالحا للمـلاحة ، ابتداء من منبعه وحتى مصبه ، وتميزت هذه الشواطىء بكثرة تعاريجها ، وكان من الصعب عبورها الا فى فصل الجفاف ، وشاهد فى هذه المنطقـة الكثير من الغابات والأحراش والينابيع ، وبعض البرك التى تتكون مياهها من الأمطار ، وأسس كلينزنيك زريبة على طريق القوافل المبتدىء من نيام نيام ، وحتى حفرة النحاس بحيث اتخذها مركزا تجاريا (٧) •

ومن الواضح أيضا أن مؤلفة هذا الكتاب أهملت وبدون أدنى شـك الاشارة الى عصر اسماعيل ، أزهى العصور الكشفية فى افريقيا ، والتى تضمنت كل من منطقة غرب السودان وشرقه ، وافريقيا الشرقية وأعـالى النيل •

وأما بالنسبة لغرب السودان ، فقد أرسلت مصر فى ٢٠ ابريل عام ١٨٧٥ م بعثة كشفية بقيادة كولستون بك ، وقد بدأت هذه البعثة مهمتها من القاهرة حتى قنا • ومنها عبرت الصحراء الشرقية الى برنيس الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى • وهناك التقى كولستون ببردى ، وبعد أن تجول الرجلان معا فى منطقة برنيس ، قاما بوصف المظاهر الطبيعيـة لهذه المنطقة ، ورسم كولستون خريطة لخط سيره ، ومن برنيس اتجـه كولستون الى أبى حمد ، ومن هناك عبر وبعثته النيل الى بلدة الدبة ، ومنها اتجه الى بلدة بارة فالأبيض وكان كولستون قد ألقى الضوء على كل المظاهر الطبيعية لهذه المنطقة • ومات كولستون فى الأبيض ، وبعد ذلك التحقت بعثته ببعثة بروت باشا التى كانت متجهة الى مدينـة الخرطوم • ومن المعروف أن بعثة بروت كانت قد بدأت مهمتها من الخرطوم عام ١٨٧٥ م •

---

(7) Heugline. V. : Travel in the Sudan in the Sixties, S.N.R. July, 1892, January 1893, V - XXIV, pp. 158-59.

وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين الخرطوم والأبيض ، وقد رسم بروت عددا من الخرائط لهذه المناطق التى مر من خلالها •

وفى ١٩ فبراير عام ١٨٧٦ قام بردى باشا على رأس بعثة لكشف المنطقة الممتدة من دارا وحتى حفرة النحاس ، ووصف بردى هذه القرية بأنها قرية صغيرة بنيت منازلها من القش والطين ، كما ألقى الضوء على حفرة النحاس التى كان الوطنيون يقومون بالحفر فيها للحصول على معدن النحاس •

وأما عن شرق السودان فقد أرسلت مصر عددا من البعثات الكشفية أرسلت احداها فى سبتمبر عام ١٨٧٥ م ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة أرندروب باشا وفى الحقيقة كانت هذه البعثة بعثة عسكرية ، ولكنها بدون أدنى شك قامت بكشف المنطقة الواقعة بين سنهيت وجونديت • وفى شهر سبتمبر من نفس العام ، أرسل الخديو اسماعيل بعثة أخرى كانت تحت قيادة منزنجر باشا ، واكتشفت هذه البعثة المنطقة الواقعة بين تاجورة وبحيرة أوسا • وفى العام التالى أى فى عام ١٨٧٦ م ، أرسلت مصر حملة عسكرية الى مصوع (لمحاربة الحبشة) ، وتمكنت هذه الحملة من كشف مناطق كثيرة ، مع أنها كانت حملة عسكرية •

وفى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٠ م ، أرسلت مصر بعثة كشفية أخرى الى شرق السودان كانت تحت قيادة اللواء محمد مختار • وقد قامت هذه البعثة بكشف بلدة أبى حراز والقضارف والقلابات وأميديب وكسلا ، وتمكنت من الوقوف على أحوال هذه البلاد من حيث نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، ومن حيث عادات وتقاليد سكانها (٨) •

وأما بالنسبة لافريقيا الشرقية ، فقد أرسلت مصر عام ١٨٧٠ م بعثة كشفية الى هذه المنطقة كانت قد بدأت مهمتها من السويس شمالا ، مارة بكل البلاد التى تقع على طول الساحل الغربى للبحر الأحمر • وكانت هذه البعثة تحت قيادة جمالى باشا • وقد تمكنت هذه البعثة من كشف البلاد التى مرت من خلالها • وقد عين ممتاز باشا حاكم على كل هذا الشاطىء ،

---

(٨) د • السيد يوسف نصر : المصدر السابق •

وعين منزنجر حاكم على مصـــوع • وفى عام ١٨٧٢ م تمكن منزنجر من الاستيلاء على اقليم باغوص الواقع بين مصوع والتاكة وفى عـــام ١٨٧٣ عين منزنجر حاكم على اقليم السودان الشرقى ابتداء من سواكن وحتى رهيطة فى الجنوب بما فى ذلك اقليم باغوص والتاكة •

وفى عام ١٨٧٥ أرسلت الحكومة المصرية بعثة كشفية برئاسة اللواء / محمد رؤوف وذلك لفتح بلاد هرر وضمها للسيادة المصرية ، وقـــد طلب أميرها محمد بن على بن عبد الشكور من رؤوف باشا ، وضع مملكته تحت السيادة المصرية (٩) وبعـــد ذلك واصـــلت مصر مد نفـــوذها الى رأس غردفوى • Cape Guardafui

ولم يقتصر هذا العمل الكشفى من جانب مصر فى عهد الخديو اسماعيل على هذه المناطق ، التى تم كشفها بل امتد الى منطقة أعالى النيل • فكانت مصر قد قررت فى عهد الخديو اســـماعيل الحاق منطقـــة أعالى النيل الى ممتلكاتها فى السودان • وقد اختير صمويل بيكر لقيادة هذه البعثة لأنه كان ذا خبرة بهذه البلاد •

وكان من أهم ما أوكل الى صمويل بيكر أن تقوم هذه الحملة بتأسيس عشرة مراكز حربية وتجارية على طول خط ســـيرها ، وكان على الســـير صمويل بيكر أيضا أن يعين فى كل مركز العدد المناسب من الجند ، هـــذا فضلا عن وضع كل مركز من هذه المراكز تحت رئاسة أحد الضباط وكان الهدف من انشاء هذه المراكز العسكرية هو العمل على استقرار الأمن فى هذه البلاد ، فضلا عن دعم النفوذ المصرى فيها • وكان من واجبات هذه الحملة أيضا القضاء على تجارة الرقيق التى انتشرت فى هذه المنطقـــة Central of Africa وعلى نطاق واسع بمعرفة التجار الأوربيين • وبعد أن وصلت هذه الحملة الى منطقة أعالى النيل ، كانت المواد التموينية

(٩) د • محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحـــدة وادى النيل السياسية فى القرن ١٩ ، ١٨٢٠ — ١٨٩٩ • القاهرة ١٩٦٣ ص ص ١٢٥ — ١٢٦ •

قد نفدت ودفع ذلك بيكر الى محاولة الحصول على مؤن أخرى من القبائل ، مما أدى الى الدخول معهم فى معارك جانبية لم تكن ضمن تكليفات هـذه الحملة ، وقد نجم عن ذلك توليد الكرة لدى هذه القبائل ضد مصر [١٠] .

ويفهم من ذلك أن هذه الحملة لم تعد اعدادا جيدا ، بحيث أنها بمجرد أن وصلت الى منطقة أعالى النيل كانت المواد التموينية قد نفدت ولا يمكن ، للحملة فى هذه الحالة مواصلة السير ، أو القيام بمهمتها على الوجه الأكمل . ولكن على الرغم من ذلك فقد حققت هذه الحملة التى أغفلت المؤلفة الاشارة اليها ، نتائج ايجابية منها أنها ارتادت المنطقة الواقعة بين أوغندا وبحـر الجبل ، ومنها أنها وضعت هذه المناطق تحت السيادة المصرية ، وهذا فى حد ذاته كسبا عظيما للادارة المصرية فى السودان . وكان من أهم النتائج السلبية أنها فشلت أولا فى تحقيق الكشف عن منابع النيل ، هذا فضلا عن أنها فشلت فى القضاء على تجارة الرقيق ، وهى معزورة فى ذلك ، لأنه ليس من المعقول أن تحكم حملة صغيرة قبضتها على كل هذه المساحات الشاسعة وبخاصة وأنه لم يكن هناك حدود سياسية أو لم يوجد هنـاك ما يعرف بالوحدات السياسية التى يمكن لها منع تسرب تجارة الرقيق من خلالها ، فلكى تقوم هذه الحملة بمثل هذا العمل كان يلزمها عددا كبيرا من الجند ، يكفى لمحاصرة القارة الافريقية من الشرق والشمال والغرب والجنوب وهذا بالطبع من الصعب تحقيقه .

وبعد أن أنهت هذه الحملة مهمتها عادت الى الخرطوم ، ومن الخرطوم سافر بيكر الى القاهرة فوصلها يوم ٢٤ أغسطس عام ١٨٧٣ م . وهنـاك قابل الخديو اسماعيل ، وأخبره بانتهاء خدمته فى أعالى النيل ، فأنعم عليه اسماعيل بالنيشان العثمانى تقديرا لجهوده وقيادته لهذه الحملة [١١] .

ومع ذلك فلم تقف جهود مصر الكشفية عند هذا الحد ، بل نجـــد

---

(١٠) د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية . المصدر السابق .
(١١) د . السيد يوسف نصر : نفس المصـــدر .

اسماعيل يختار شارلس جورج غردون ، لقيادة حملة كشفية أخرى الى أعالى النيل ، لاتمام العمل الذى فشلت فى اتمامه حملة السير صمويل بيكر ، ففى ١٦ فبراير عام ١٨٧٤ م ، أصدر الخديو اسماعيل التعليمات الى غردون والتى كان من أهمها ضرورة القضاء على تجارة الرقيق ، والكشف عن البحيرات الاستوائية ، ثم ادخال التجارة المشروعة محل تجارة الرقيق ، هذا فضلا عن ضم البلاد التى تخضعها هذه الحملة الى السيادة المصرية (١٢) .

وكان برفقة غردون عددا من الضباط الأجانب الذين كان منهم الايطالى رومولى جيسى والبلجيكى ارنست لينان دى بلفون ، ومن الأمريكان ماسون بك ، وشاييه لونج (١٣) وقد نجحت هذه الحملة فى انشاء عدد كبير من المحطات على طول خط سيرها ، ابتداء من التوفيقية وحتى منطقة البحيرات الاستوائية (١٤) .

واذا كان السير صمويل بيكر قد مد نفوذ مصر جنوبا الى غندوكرو ، وقام بتأسيس بعض المراكز فى أعالى النيل ، فأن غردون قد اخترق منطقة أعالى النيل فى اتجاه الشرق الى أوغندا ، ونجح فى تأكيد السلطة الحقيقية على منطقة أواسط أفريقيا Central of Africa ، وقد دعم غردون هذه السياسة بتعيينه عدد من الحكام من أمثال لوبتون بك Lupton Bey الذى عين حاكم لبحر الغزال ، وسلاتين حاكم على دارفور وأمين باشا الذى عين حاكم لخط الاستواء (١٥) .

وبعد ان استقرت الأمور لغردون فى منطقة أعالى النيل سير بعثة كشفية برئاسة رومولى جيسى لاستكشاف بحيرة البرت نيانزا ، وكان جيسى

---

(١٢) د . محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ، ١٩٤٧ ص ١٤٢ .

(١٣) د . السيد يوسف نصر : المصدر السابق .

(١٤) د . مكى شبيكة : السودان عبر القرون . بيروت ١٩٦٥ ص ١٩٨ .

(15) George Young : Egypt. London, 1917. p. 81.

قد ذكر انه لا يوجد أى نهر يتصل بالبحيرة من جهة الجنوب ولكن كان هذا القول بعيدا عن الصواب ، لذلك أرسل غردون بعثـــة كشفية أخرى تحت قيادة ماسون بك ، الذى طاف بمركب بخارى على سطح مياه هذه البحيرة فبدأ مسيره من بلدة ماجنجو وسار بحزاء الشاطىء الغربى ، فوصـــل الى جنوبها ، ورأى نهر السمليكى الذى يصب فيها من جهة الجنوب ، ووصف ماسون مياه هذا النهر بأنها ذات لون بنى وبعد ذلك واصل ماســـون بك سيره بجوار الشاطىء الشرقى حتى وصل الى قرية فاكوفيا ، التى يعمـــل سكانها بالصيد واستخراج الملح • ويرجع الفضل الى ماســـون بك فى أنه تمكن وبدون أدنى شك من ازاحة الغموض الذى خيم على هذه البحيرة ، وقد قام ماسون بك برسم خريطة لهذه البحيرة ، نشرت فى كتاب جهـــود مصر الكشفية للمترجم •

وفضلا عن ذلك كله فقد قام شابيه لونج من غندوكرو على رأس بعثة كشفية متوجها الى أوغندا ، وقد قام شابيه لونج بوصـــف المناطق التى مرت بعثته من خلالها هذا فضلا عن انه نجح فى كشف بحيرة مجهولة كانت فى طى النسيان هى بحيرة كيوجا ، والتى سماها باسم جديد هو بحـــيرة ابراهيم « نسبة الى ابراهيم باشا » والد الخديو اسماعيل ، وبعد وصوله الى مركز مديرية خط الاستواء أخبر غردون باشا بكشفه لهذه البحيرة ، وطلب منه أن يظهر كشفه هذا على الخريطة التى سترسم لأواسط افريقيا ، وكان غردون باشا قد وعده بذلك •

وفيما يلى صورة الخطاب الذى قدمه شابيه لونج الى غردون باشا :

The Struggle to maintain lake Ibrahim, discovered by me in 1874, on the map of Africa began in 1879, by my appeal to Sir Rutherford Alecock, president of the Royal Geographical Society. It was referred to General Gordon, who replied by the letter inserted in the first pages of this book Subsesquently. I felt obliged to complain to Sir Rutherford that Cartographers, under the Aegis of the R.G.S. were Changing the name of my lake, with the result that Sir Rutherford laid my letter before the council,

which regognised the priority of my discovery and naming of lake Ibrahim. (16)

وفضلا عن ذلك فقد قام شاييه لونج على رأس بعثة كشفية الى بلاد نيام نيام ، وتمكن من كشف هذه المنطقة ، بل وألقى الضوء على أحوال سكانها وأنظمتهم السياسية والاجتماعية . وفى الوقت نفسه قام ارنست لينان دى بلفون ، على رأس بعثة كشفية بدأها من بلدة فاتيكو وحتى أوغندا ، وهناك قابل الملك ميتسا ، ووقف على أحوال هذه المملكة من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ولكن على الرغم من كل هذه الجهود الكشفية التى قامت بها مصر فى منطقة أعالى النيل ، وغيرها من مناطق مجهولة ، الا أن الكتاب الأجانب لم يتعرضوا لهذا الدور بالدراسة والتحليل حتى يعطوا لمصر حقها فى هذا المضمار ، ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء الكتاب قد نسبوا هذا العمل الى الرحالة والمغامرين الذين وفدوا الى افريقيا سواء أكان ذلك من جهة الشرق أم الجنوب أم الشمال متجاهلين أن البعض من هؤلاء الرحالة كانوا يحصلون على تصاريح من حكمدارية السودان تخول لهم التجول فى المناطق التى يرغبون فى زيارتها .

ولهذا حاولت بقدر الامكان ابراز دور مصر الحضارى فى مجال الكشوف الجغرافية ، وبخاصة فى النصف الثانى من القرن ١٩ ، وكان من أهم نتائج هذا الدور وضع منطقة أعالى النيل تحت السيادة المصرية . بل وربط هذه المنطقة بالساحل الغربى للمحيط الهندى ، وقد تصدت بريطانيا لهذا التوسع المصرى فى شرق افريقيا (ولا مجال هنا لدراسة هذه النقطة) كما أن مصر عملت على استتباب الأمن فى هذه الجهات ، التى كانت تنتشر الفوضى فى ربوعها ، كما عملت من جانبها أيضا على الغاء تجارة الرقيق فى افريقيا ، ومما لا شك فيه ، فانها نجحت نجاحا لا بأس به فى هذا المجال .

---

(16) Colonel Chaillé-long : My life in four Continent Vol. 2 London, 1912. p. 544.

وزيادة على ذلك فأن مصر فتحت هذه المناطق الأفريقية على العالم الخارجى فوصل اليها الأوربيون سواء أكانوا من المبشرين أم من الرحالة ، فكان هؤلاء ، الرحالة لا يجرؤن على الوصول الى هذه المناطق قبل أن تدخلها مصر • ولكن بعد ذلك جاءوا اليها بكل سهولة ويسر ، وكتبوا الكثير عن سكانها وعاداتهم وعن المظاهر الطبيعية لهذه المناطق ، وعن مواردها الحيوانية والسمكية والزراعية ، وبذلك أصبحت الصورة واضحة عن افريقيا بالنسبة لبقية الأوربيين ، الذين خططوا لاستنزاف موارد هذه القارة • ومن نتائج الدور المصرى أيضا تنشيط حركة التجارة المشروعة فى جميع المناطق الافريقية المصرية ، بل وأصبحت طرقها مأمونة بحيث لا تعترضها أية مخاطر تهدد أزدهارها •

وبالاضافة الى ذلك كله ، فأن مصر أدخلت العديد من الغلات الزراعية الجديدة والتى لم تكن معروفة من قبل ، مثل الخضر وأشجار الفاكهة والأرز ، والذرة الشامية والبن والقطن ، كما أنها اهتمت بالغلات التى كانت متوفرة فى هذه المناطق بحيث أصبح لها أهمية • ومن هذه الغلات الفول السودانى والموز والشاى والبن ، وقد عاد ذلك على المواطنين بالخير والرفاهية (١٧) •

وكان من النتائج الهامة بالنسبة للكشوف الافريقية التى قامت بها مصر قيام الادارة المصرية فى السودان برسم عدد من الخرائط الهامة ، لأجزاء كثيرة من نهر النيل ، فرسمت خريطة لبحر الجبل ، ولنهر سومرست أو النيل الفيكتورى وأكثر من خريطة لبحيرة البرت ، ولنهر السوباط ، ولبحيرة ابراهيم • ومما لا شك فيه فأن هذه الخرائط تعتبر جديدة بحيث لم ترسم خرائط من قبل لهذه المناطق • لذا فهى على جانب كبير من الأهمية (١٨) •

---

(17) Sagay J. O. and Wilson D. A. : Africa, a modern History, 1800-1975. London, 1978.

(١٨) وللاستزاده أنظر ، كتاب الوجود المصرى فى افريقيا فى القرن ١٩ • للمترجم •

وبعد أن تعرضنا للدور المصرى وأهميته ، كان لابد لنا أن نشير الى أهمية كل من ستانلى ولفنجستون اللذين ركزت ، عليهما المؤلفة • يتميز لفنجستون بأنه رجل دين يقوم بالتبشير بالعقيدة المسيحية بين السكان الوثنيين هذا فى الظاهر ، ولكنه فى حقيقة الأمر كان رجلا استعماريا من الطراز الأول ، فقد اتبع وسائل استطاع من خلالها أن يحقق هدفه ، وكان من هذه الوسائل مطالبته بالغاء تجارة الرقيق بحيث اعتبرها وصمة عار فى جبين الانسانية ، وطالب بريطانيا بالتدخل للقضاء على هذه التجارة ، وقد تناسى هذا المستعمر أن بريطانيا كانت من أول الدول التى تاجرت فى أبناء افريقيا ، بل ونقلت منهم أعدادا كبيرة لا تقدر ، ولكن بعد طردها من العالم الجديد ، وبعد نجاح الثورة الأمريكية ، لم تعد فى حاجة الى الأيدى العاملة ، وبخاصة بعد أن تقدمت الصناعة وحلت الآلة محل الانسان ، هذا فضلا عن أن بريطانيا أصبح لديها فائض فى الانتاج الصناعى ، لذا كانت فى حاجة الى فتح أسواق جديدة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كانت فى حاجة الى الحصول على المواد الخام بكافة أنواعها ومن أجل هذا أخذ لفنجستون على عاتقه تنفيذ هذه السياسة البريطانية فى افريقيا • وكانت الوسيلة الثانية التى اتبعها دافيد لفنجستون لتحقيق الحلم البريطانى فى استعمار افريقيا هى ادعائه بأنه سيقوم بنشر العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية فى جنوب افريقيا ، وهذا ادعاء باطل ، لأنه لو كان يرغب حقا فى نشر العقيدة المسيحية بين السكان الوثنيين لمكث بينهم وبخاصة فى المناطق المكتظة بالسكان ، وهذا شىء طبيعى ، ولكن نلاحظ أن لفنجستون ترك المناطق المكتظة بالسكان وذهب للتجول فى المناطق المقفرة ، لكى يتعرف على ما تحويه هذه المناطق من ثروات معدنية وغيرها من الثروات الأخرى ، لهذا نجده يعبر القارة من الجنوب ، ثم يتجه نحو الغرب فيصل الى لواندا ، ثم يعود بعد ذلك الى جهة الشرق ، وبذلك يكون قد تمكن من عبور القارة الافريقية من جهة الغرب الى الشرق • وهناك دليل آخر يوضح لنا أن لفنجستون كان استعماريا ولم يكن مبشرا كما كان يدعى ، ويتمثل هذا الدليل فى أنه غضب غضبا شديدا ، عندما علم بعدم صلاحية نهر الزمبيزى للملاحة ، فماذا تعنيه صلاحية هذا النهر للملاحة من عدمه ، الا اذا كان له

هدف اقتصادى واستعمارى بينما لو كان هدفه دينى ما كان فى حاجة لمعرفة صلاحية نهر الزمبيرى للملاحة من عدمه • كما كان يدعى •

وعلى أية الأحوال ، فأن لفنجستون كان رحالة من الطراز الأول فقد تمكن بكل جرأة من عبور القارة الافريقية من الغرب الى الشرق ، رغم المخاطر التى اعترضت طريقه ، حتى انه مات فى سبيل تحقيق هدفه هذا ، وهو تحقيق العظمة والمجد لبلده بريطانيا •

وبالرغم من آن ستانلى كانت له ظروف صعبة الا أنه نجح فى أن يجعل من نفسه شخصية لها أهميتها ، فقد تمكن من الوصول الى افريقيا بحثا عن لفنجستون ، وبعد ذلك قام بأخطر رحلة كشفية اكتشف أثنائها نهر الكنغو ، وبذلك يكون قد تمكن من عبور القارة من جهة الشرق الى الغرب • وبهذا يكون قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه •

وللاستزادة أنظر :

١٩ — أمين سامى باشا : تقويم النيل وعصر اسماعيل ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣٦ •

٢٠ — عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها الى ضياعها أى من ١٨٦٩ — ١٨٨٩ ، ثلاثة أجزاء •

٢١ — د • جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، القاهرة ، ١٩٦٨ •

الفصل العاشر

اكتملت القصة الرئيسية

لم يكتمل بعد كشف مناطق البحيرات فى وسط افريقيا • وقبل أن تتأكد أخبار موت لفنجستون ، أرسلت بعثتان من انجلترا لنجدته ، فقد بدأت الأولى من الساحل الغربى ، ولكنها لم تبعد كثيرا عن السلفادور Selvador • وأما البعثة الثانية ، فقد قادها الضابط البحرى الذى يدعى لوفيت كاميرون Lovett Cameron ، وقد بدأت مهمتها من الساحل الشرقى • وقد قابل كاميرون كل من سوزى وشوما فى بلدة طابورا ، فى شهر اكتوبر من عام ١٨٧٣ م وأقنعاه بأنهما حملا جثمان لفنجستون الى الشاطىء الشرقى الافريقى ، ولكنه قرر التقدم الى بلدة أوجيجى ، كى يجمع تقارير لفنجستون الذى اكتشف ورسم خرائط للجزء الأكبر من بحيرة تنجانيقا ، كما انه اكتشف نهر لولابا Lualaba River ، ومن ملاحظاته على هذا النهر انه لم يكن نهر النيل ، بل كان أحد فروع نهر الكنغو •

وقد مرت حتى ذلك الوقت ، عشر سنوات على وفاة سبيك ، ومع ذلك فان كشوفاته لم تتأكد بعد ، ولكن فيما بعد تقدمت الكشوفات ، ووجدت أدلة جديدة فى ظل ادارة الجنرال غردون ، الذى كان قد خلف Succeeded بيكر كحاكم عام Governor General للمنطقة التى تعرف بحوض النيل الاستوائى ، أو منطقة أعالى النيل الاستوائية ففى عام ١٨٧٤ م أثبت الكولونيل شابيه لونج Chaillié-long ، الأمريكى الجنسية ، والذى التحق بهيئة غردون باشا أن بحيرة فيكتوريا والبرت كانتا متصلتين بنهر سومرست Somerset ، أو بنيل فيكتوريا Or Victoria Nile كما انه اكتشف بحيرة كيوجا ، وبحيرة البرت •

وكان من بين هؤلاء الذين تغلبوا على المشاكل المتبقية أمين باشا

المعالج لحاشية غردون والملم بكثير من اللغات • وكان اسم أمين باشــا الحقيقى هو ادوارد شينتزر Edward Schnitzer ، وهــو يهــودى ألمانى اعتنق الدين الاسلامى وقد تأثر غردون باشا بمواهبــه الادارية ، لذا عينه حاكما للسودان الاستوائى • وفى الفترة ما بين ١٨٧٧ ، ١٨٨٨ م تجول أمين باشا على نطاق واسع فى المناطق المحيطــة ببحيرة البــرت ، واكتشف نهر السمليكى الذى يدخل البحيرة من نهايتها الجنوبية ورغم كل هذه الكشوف التى تمت ، الا أنه لا تزال هناك مشاكل متبقية • والسؤال الآن هو ، هل بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة أو بحــيرات عديدة متصــلة ببعضها ؟ وهل هى تمثل فى الواقع المصدر الرئيسى للنيــل ؟ كل هــذه التساؤلات والمشاكل تركت لستانلى •

وكان اللقاء الذى تم بين ستانلى ولفنجستون ، يمثل القمة فى حيــاة ستانلى ، كما أنه كان يمثل فقط ، بداية عمله كمكتشف ومن المعتقد أن ترحيبه الحماسى بالدكتور لفنجستون ، كان له صدى حول العالم ، فبينما اعتبر البعض من الناس هذا اللقاء شيئا مدهشا ، اعتبره البعض الآخر من الناس شيئا غير ملائم تماما ، فاستانلى الذى لم يكن لديه احساس بالفكاهة ، تبرأ من هذه الاشارة ، ولم يعطها من قبل ثقته فى كتابه « كيف وجــدت لفنجستون How I found Livingstone ، واستمر هذا التبرأ من جانب ستانلى ملازما له حتى آخر أيامه •

وفى شهر مايو عام ١٨٧٢ م وصل ستانلى الى انجلترا واســتقبل استقبالا ضخما ، وكافأته الجمعية الجغرافية بالميدالية الذهبية ، التى كان يطمع فى الحصول عليها • وكان كتابه قد حقق نجاحا ملموسا • فقد مدحته معظم الصحف على انجازه العظيم ، ومع ذلك فقد ألمح الكثير منها بالتشكيك فى هذه الرحلة (رحلة ستانلى) بحيث أنها لا تعدو أن تكون عمــل صحفى مثير Journalistic Stunt ، وأن خطــاب لفنجســتون الذى أرســـله الى جريدة النيويورك هيرالد مزيف « كما أن ستانلى لم يكن شــخصية ذو شعبية حتى أن هجوم السير جون كيرك عليه زاد من عدم شعبيته هذه ،

حيث أن كيرك قال : « ان ستانلى ترك لفنجستون يموت لأنه فشل فى أن يرسل له حمالين جدد ومؤن .

وقد صمم ستانلى على أن يسكت منتقـدوه ، وذلك بأن يريهم انه لايزال له القدرة على تحقيق انجازات أكبر ، لهذا نجده فى عام ١٨٧٤ م يستميل محررى جريدة النيويورك هيرالد ، وجريدة لندن المعروفة باسـم ديلى تلجراف ، كى تمولا له رحلة أخرى الى افريقيا . وكانت التعليمات الصادرة له أن يكمل العمل الذى ترك بدون اتمام بعد مـوت لفنجستون المفجع ، فكان على ستانلى ان أمكنه ذلك أن يحل المشاكل الجغرافية المتبقية فى وسط افريقيا . كما كان عليه أن يتفحص ويكتب تقريرا عن القلاقل التى يثيرها تجار الرقيق فى أوجيجى ، الواقعة فى منطقة بحيرة تنجانيقا ، وفى بلدة نيانجوى Nyangwa الواقعة على نهر لولابا .

وقد فسر ستانلى هذا على أنه تصريح يخول له عمل بحث شـامل لبحيرتى فيكتوريا وتنجانيقا ، وكل المنطقة الغربية من افريقيا الوسطى . والواقعة بين نهر لولابا والمحيط الأطلسى . ويمكن أن نتذكر أن سبيك قد اكتشف شلالات ريبون ، وادعى أن النيل يتدفق من بحيرة فيكتوريا . وفى نفس الوقت كان بيرتون يتمسك حتى هذه اللحظة بنظريته التى تقول أن نهر روسيزى Rusizi River هو نهر النيل ، وانه يتدفق من بحـيرة تنجانيقا . وقد مات لفنجستون وهو مصر على أن نهر لولابا يمثل فى الواقع نهر النيل بينما يشك ستانلى مثل لوفيت كاميرون Lovett Cameron فى أن نهر لولابا هو أحد فروع نهر الكنغو . وقد فطن Relise ستانلى الى أنه لكى يؤسس ذاته كان عليه أن يعبر القارة (الأفريقية) .

وقد غادرت قافلة ستانلى زنجبار فى شهر نوفمبر ١٨٧٤ م وكانت هذه القافلة كبيرة ومجهزة تجهيزا جيدا عن أى قافلة ذهبت قبلها ، فقـد جند ستانلى ثلاث مائة وستة وخمسين شخصا من الأفارقة ، وكان البعض منهم ممن كانوا ضمن بعثة لفنجستون ، فضـلا عن ثلاثة من الشـباب الانجليزى ، الذين لم يكن لديهم تخصصات معينـة وهم فردريك باركر

Frederick Barker الذى كان يعمل كاتبا فى مستشفى فى لنـــدن ، وادوارد بوكوك Edward Pocock ، وفرانسيس بوكوك Francis Pocock وهما ابنا رجل صياد من بلدة كنتش Kentish ، وقد زودت البعثـة بقارب خشبى كان يسمى ليدى اليس Lady Alice ، الذى تمكن أفراد البعثة من نقله فى شكل قطع صغيرة ثم أعيد تركيبه ، هذا فضلا عن حمل أفراد البعثة لثمانية أطنان من المؤن ، كما اصطحبت البعثة معهـــا خمسة كلاب •

وبعد أن سارت البعثة مدة ٣٣ ثلاثة وثلاثين يوما كان ستانلى خلالها فى حالة طيبة جدا ، حيث أنه كان مستعدا لمواصلة المسيرة الشاقة ، ذلك لأنه قد أعد نفسه لمواجهة الخسائر الفادحة • وبعد أن أمضى على بـــدء الرحلة أربعة عشر أسبوعا ، وقبل وصول بعثة ستانلى الى بحيرة فيكتوريا، فقدت من أفرادها ما لا يقل عن ١٨١ شخصا مات البعض منهم بســـبب المرض ، ومات البعض الآخر بسبب الحروب ، التى دارت بين أفرادها وبين القبائل ، وفضلا عن ذلك كله ، فقد هرب البعض من أفرادها ، وكان من ضمن الأفراد الذين فقدوا ، ادوارد بوكوك ، الذى مات بســـبب مرض التيفوس Typhus

وقد وصلت بعثة ستانلى الى الشاطىء الجنوبى الشرقى لبحـــيرة فيكتوريا أى وصلت بالقرب من المنطقة التى رأى من فوقها سبيك البحيرة وتخيل أنه من المحتمل أن تكون هذه البحيرة مصدر النيل ، ولكن لم تـــكن هذه التصورات كافية بالنسبة لستانلى ، الذى أصدر أوامره لأفراد بعثته بأن يعيـــدوا تركيب أجزاء المركب ليـــدى اليس Lady Alice • وفى ٨ مارس عام ١٨٧٥ م ترك ستانلى اثنين من الانجليز المسئولين عن المجموعة الأساسية فى البعثة ، وشرع هو ومعه عشرة من الأفارقة المختارين (للسير على سطح مياه البحيرة) ، وكان هؤلاء الرجال فى حالة من اليأس ، بحيث أنهم كانوا يجدفون وهم على مضض ، وكتب ستانلى فى هذا الصدد يقـــول :

« لقد كان لدينا نبؤات محزنة تقول اننا سنغرق فى البحيرة ، أو ربما سنموت بأيدى الرجال المتوحشين القاطنين على شواطىء النيانزا Nyanza

ولقد واصل رجال البعثة ابحارهم وتجديفهم على التوالى مع الشاطىء الشرقى للبحيرة ، وفى ٢٨ من شهر مارس من نفس العام ، وصلوا الى شلالات سبيك المعروفة بشلالات ريبون ، وفى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا الى المنطقة التى يحكمها الملك ميتسا ملك يوجندا • وفى ٤ من شهر ابريل ، قابل ميتسا ستانلى بحفاوة بالغة فى عاصمة مملكته التى بنيت على أنقاضها العاصمة الحديثة كامبالا • وكان هذا الملك فى ذلك الوقت ، فى بداية الأربعين من عمره ، وكان تأثر ستانلى يختلف عن تأثر سبيك الذى استسلم لسحرة (أى سحر ميتسا) المعروف به جيدا • وقد وجد ستانلى الملك الطاغية ذكى جدا ، وانسان وأمير مرموق ، فلم يكن طاغية همجى ، وسفاكا للدماء بل وجده رجلا مسلما وورعا ، وملك خير وذكى ، له سلطة مطلقة على قطاع شاسع من افريقيا ، وكان محبوبا الى حد ما ، بل وكان مبجلا من جانب رعيته التى كانت تدين له بالاحترام ولا تخافه •

وكان ستانلى يأمل فى أن يتخلى ميتسا عن العقيدة الاسلامية وأن يعتنق العقيدة المسيحية ، وبالفعل أعلن ميتسا أن لديه الرغبة فى السماع الى قراءة الانجيل • وفى الواقع كان ميتسا قد تغير الى المسيحية قليلا ، منذ مقابلته لسبيك ، وفى ذلك الوقت أصبح ميتسا أكثر دبلوماسية وبخاصة منذ فطن الى أنه يتعين عليه أن يكسب صداقة القوى العظمى ، كما كان حريصا بأن يخفى عاداته الوحشية المألوفة •

وقد كان ستانلى قلقا على ضرورة ، اكمال الطواف حول بحيرة فيكتوريا ، لذلك شرع فى المسير مستخدما الطريق المائى مرة ثانية • وفى الخامس من شهر مايو من نفس العام عاد ستانلى الى النقطة التى كان قد بدأ منها ، بعد أن قطعت بعثته مسافة طولها ١٠٠٠ ميل • فقد برهن باقتناع بأن بحيرة فيكتوريا لم تكن سلسلة من البحيرات ، ولكنها كانت بحرا داخليا

واسعا ، وبرهن ستانلى أيضا على أنه يوجد منفذ واحد رئيسى فقط لبحيرة فيكتوريا عند شلالات ريبون ، ويوجد لها منفذ آخر داخلى ، هو نهر كاجيرا Kagera الذى استبعده بقدر الامكان كل من سبيك وجرانت بأن يكون مصدر من مصادر النيل ، وكتب ستانلى يقول : « أن سبيك فى ذلك الوقت كان مملؤا بالفخر بسبب كشفه لأكبر بحر فى داخل القارة الأفريقية ، وأيضا كشفه لرافده الرئيسى ، بالاضافة الى كشفه لمخرجه (أى مخرج النهر) فلو كان ستانلى متأكدا من رأيه ، فأن نهر سبيك يكون فى الواقع نهر النيل ، وفى النهاية لم يمل ستانلى الى ادعاء بيرتون المتعلق بنهر الروسيزى Rusizi River

وعند عودة ستانلى من رحلته الى بوجندا هاجمته القبائل (الافريقية) • وأثناء غيابه حدث عدد من الخسائر فى المعسكر الخاص بالبعثة ، وكان من هذه الخسائر أن الكاتب الشاب فردريك باركر Frederick Barker قد مات بسبب الحمى هذا الى جانب موت عدد آخر من الافريقيين ، بينما مرض الآخرون أو هربوا • لذلك فقد وعده الملك ميتسا بالامدادات العسكرية • وبعد وصول هذه الامدادات الى ستانلى شرع فى القيام بسلسلة من الغارات الانتقامية ضد القبائل الافريقية التى أقلقته ، والتى كانت قد أزعجت لفنجستون « الرجل الخير » ، فقد وجه ستانلى هذه الاغارات الى قبيلة تقطن عند رأس البحيرة (أى فى الطرف الشمالى للبحيرة) • وفى الواقع ضم ستانلى قواته الى قوات الملك ميتسا المستبد ، الذى كان يرغب فى ابقاء ستانلى الى جانبه فى بوجندا ، ولكن ستانلى رفض هذا المطلب بحجة عدم التأخير • وبدلا من أن يقوم ستانلى بكشف القطر الواقع غرب بحيرة فيكتوريا ، نجده يكتشف بحيرة صغيرة توجد فى المنطقة الواقعة جنوب خط الاستواء ، وكانت هذه البحيرة هى بحيرة البرت ادوارد Edward ، وهناك زار ستانلى الملك المعمر رومانيكا Rumanika ، وبعد ذلك سافر ستانلى صوب الجنوب الى أوجيجى وفى يونيو ، عام ١٨٧٦ م ، سارت المركب ليدى اليس على مياه بحيرة تنجانيقا Tanganyika ، وفى نهاية شهر يوليو عاد ستانلى الى نقطة البداية (أى

بداية الرحلة) ، وهو يحمل معه دليل ايجابى يقول « أنه لا يوجد مخرج مطابق للنيل يمكن تصوره » •

وفى هذا الوقت ، تخلص Disposed ستانلى ، من ادعاء بيرتون ورجع بذاكرته الى نظرية لفنجستون • وفى شهر اكتوبر ، عام ١٨٧٦ م ، تتبع ستانلى وادى نهر لواما The Vally of the River Luama مبتدءا رحلته من بحيرة تنجانيقا ، وحتى التقاء نهر لواما بنهر لولابا ، وعندئذ كان عليه أن يشرع فى أكبر مغامراته : فاذا كان لفنجستون على حق فى نظريته ، فمن الواجب على ستانلى اثبات ذلك ، أما اذا كان لفنجستون على خطأ ، فيتعين عليه فى هذه الحالة انجاز الربط بين نهر لولابا والمجارى المائية الأخرى فى وسط افريقيا • وفى هذا الصدد كتب ستانلى فى كتابه « خلال القارة المظلمة «Through the dark continent» » يقول فيه ما نصه : ان الغموض الذى ظل كل هذه القرون كان بالطبع محميا بعيدا عن العالم الحديث ، الذى كان ينتظر حلا له وأنه يوجد أمامى الآن نهر رائع ، وأصبح من واجبى أن أتتبعه حتى المحيط » •

وكان لفنجستون قد شاهد المذبحة البشرية البشعة التى حدثت فى المنطقة الشاسعة الواقعة حول نيانجوى Nyangwe وقد استغل تاجر الرقيق الثرى ثراء فاحشا والمدعو محمد بن السيد (المعروف باسم تيبوتيب) هذه المنطقة فى مشروعاته الخاصة ، وكان تيبوتيب هذا يرغب فى تزويد ستانلى بالحمالين Porters ، فى مقابل أن يحصل منه على مبلغ كبير من النقود • وقد بدأ ستانلى رحلته وبصحبته ٣٥٦ رجلا ، وكان البعض منهم قد أحضر زوجاتهم الى جانبهم •

وفى المرحلة الأولى من الرحلة استخدموا الطريق البرى ، لأن الألسنة المنخفضة فى النهر كانت مسدودة بواسطة شلالات لا يمكن عبورها ، وقد سار أعضاء بعثة ستانلى بصعوبة مدة أربعة عشر يوما أثناء مرورهم من خلال غابة كثيفة ومظلمة ، وكثيرا ما كان ستانلى يجد أنه من المستحيل كتابة يومياته ، التى منها سيعد كتابه • ومرت بعثته من خلال العديد من القرى المحلية وبكل صراحة ، فقد انتشرت الجماجم والعظام حول أماكن

الطهى (المطابخ) لأن السكان فى هذه المنطقة كانوا من آكلى لحوم البشر Cannibals وأخيرا خرجت البعثة من الغابة وعسكرت منذ الوهلة الأولى على الشاطىء الأيمن للنهر ، وعلى الفور قرر ستانلى أن يعيد تسمية نهر لولابا بحيث أصبح يعرف باسم نهر لفنجستون • وقد كتب ستانلى كعادته بهمة ونشاط يقول ما نصه « لقد مرت هذه الليلة ، سحب سوداء ، غامضة وخرافية من فوق أراضى أناس شبه آدميين ، هم على ما يبدو من الأقزام The blanket earedmen وعندئذ بحثت عن الطريق • وهنا كان يوجد منطقة تقسيم الماء (بحر مجهول) يشبه المجرى السريع » وبعبارته :

To night black clouds of mystery and fable, may hap past the lands of the anthropoids, the pigmies and the blanket-eared men .... I seek a road. Why, here lies a broad water clearing the unknown to some sea, like a path of light.

وفى ذلك الوقت شرعت المركب ليدى اليس فى المسير فى النهر بحيث استخدمت النهر كطريق عام ، وكان على متنها ثلاثون رجلا ، أما بقية أفراد البعثة فقد ساروا على طول شاطىء النهر • وفى نفس الوقت ، لم يعرف ستانلى الى أى جهة سوف يأخذهم هذا النهر ، ولكن مع ذلك كان مملوءا بالثقة ، وفى كل مكان من طريق الرحلة برهن الجميع على أنهم من الأبطال ، على أى مقياس بالنسبة لتاريخ السفر فى افريقيا ، وقد واجهت البعثة كوارث من كل نوع • وفى أغلب الأحيان كان الرجال يتساقطون بسبب المرض الذى تعرضوا له ، وكان من هذا المرض الجدرى Small-Pox والدورسنتاريا Dysentery والحمى التيفودية Typhoid Fever وكان من نتيجة هذه الأمراض انه كان يموت فى كل يوم العديد من أفراد البعثة ، فقد تمزقت أرجل وأقدام الأفراد الذين ساروا على البر بسبب الأشواك Thorns والحفر وقد سببت هذه التمزقات التقرحات Ulcers الخطيرة ، التى جعلت من المستحيل على أفراد البعثة مواصلة المسير ، وعندئذ استولى ستانلى على العديد من المراكب التى من الواضح أنها كانت متروكة على شاطىء النهر وقام بربطها مع بعضها كى ينشىء منها مستشفى عائم Afloating - Hospital

ولم يمض وقت طويل حتى وصل أفراد البعثة مرة أخرى الى مسطح مائى لا يمكن عبوره ، وقد ثبت أنه واحدا من كثير ، فكان على أفراد البعثة طوال الوقت أن يأخذوا المركب وهى مفككة الى قطع صغيرة ، ثم يعيدوا تركيبها وبعد ذلك يقومون بجرها على طول الممر الذى كان الرجال يقومون بتمهيده خلال الأدغال ، وكانت هذه العملية تتكرر فى البر وفى المـاء ، ونتيجة لذلك كان أفراد البعثة يتعرضون للهجوم من جانب رجال القبائل الذين يأكلون لحوم البشر ، ولكن كانت جماعة ستانلى لديها أسلحة نارية كى تحمى بها نفسها وكان آكلى لحوم البشر لا يدركون مدى خطورة هذه الأسلحة النارية ، لذلك توالت هجماتهم المرة تلو الأخرى ، ولم يكونوا مدفوعين فقط بسبب الرغبة فى الحصول على اللحم البشرى ، ولكن أيضا كانوا مدفوعين بسبب ما انتابهم من شك طبيعى ، واعتقدوا أنه لم يستطع أحد من القدوم الى هنا (أى الى بلادهم) الا اذا كان تاجرا للرقيق ، فهو الذى يكون لديه الشجاعة على القيام برحلة مثل هذه •

وفى البداية قادهم النهر فى اتجاه الشمال ، وبعد كل هذا بدا من الممكن أن يكون لفنجستون على صواب • وفى تلك الأثناء ، وصلت البعثة الى أول شلال من الشلالات السبع ، التى عرفت فيما بعد بشلالات ستانلى • وعندئذ قام أفراد البعثة بحفر ممر حول واحد من هذه الشلالات ، وفى تلك الأثناء تعرض أفراد حراسة البعثة الموجودين فى المؤخرة الى هجوم من جانب رجال القبائل الذين يتجولون للسلب والنهب ، وفى كل وقت كان هؤلاء الرجال من قطاع الطرق ، يبرزون من الغابة ، وبخاصة عند مسطحات المياه الساكنة لهذا كان رجال البعثة يأملون فى انهاء مشاكلهم ، ولكن كانت أمالهم تتحطم فى كل لحظة بسبب الرعد الذى كان يحدث عند اصطدام البعثة بأحد الشلالات ، ولقد زاد التعب وفقدان الهمة والتمرد لدى رجال البعثة ، ولكن ستانلى تمكن من ابقائهم على مواصلة المسير ، وذلك باستخدام أسلوب القوة والجلد ، وكان يلجأ الى استخدام التهديد فى حالة فشل كل أساليبه •

وفى نهاية يناير عام ١٨٧٧ م ، مر أفراد البعثة خلال الشلال السابع ،

وأتوا الى نهر ممتد غير مسدود فى خط الاستواء ، أى عند النقطة التى سيبنى فيها فى يوم ما مدينة ستانلى فيل ، ولم يعد أمامهم سفر تجـاه الشمال ، ولكنهم سوف يسافرون فى اتجاه الشمال الغربى ، وكان ستانلى متأكدا تقريبا من أنهم لم يكونوا على النيل ، ولكنهم على الكنغو ، فلو صح ذلك ، فانه فى هذه الحالة يكون قد عرف أن أمامهم شهورا من السفر ، وعرف أيضا ان مستوى النهر لايزال مرتفعا عن مستوى البحر بحيث توجد أمامهم شلالات على مسافة بعيدة • ولكن لا يمكن أن يكون هناك عودة مرة أخرى الى لفنجستون • وفى هذا الصدد كتب ستانلى يقل ما نصه : « نزلنا نحو نهر لولابا ، وجازفت ببراعة وبرهنت فى الواقع بنصف احساس على كتابة هذه السطور ، التى لم تقرأ من جانب أى أحد ولازلنا نصر على الطفو طبقا لنصيبينا • ومع ذلك فقد أصررت على الكتابة ، وأترك بكل تدبر ولطف الحوادث ، فبالليل والنهار كنا مذهولين ، بسبب قرع الطبول المخيف التى كانت تعلن عن وصولنا ، وعن حضورنا الى هذه المياه ، وكانت القوة متساوية على الشاطىء وكنا لكى نذهب من الشاطىء الأيمن الى الشاطىء الأيسر ، فإن هذا كان يعنى بالنسبة لنا القفز من طاسة القلى الى النار ، ومع ذلك كنا نواصل التجديف من خلال هذه الجزر الواقعة بين الأقطار الهمجية التى تحيط بنا ، ومن الأفضل القول بأننا كنا نجرى بإرهاق » •

وفى بداية شهر فبراير ، نفد الطعام من أفراد البعثة ، فعلى أثر ذلك قرر ستانلى رغم مخاطر الموت الحصول على الطعام والقيام بمحاولة ايجاد علاقة تجارية قائمة على أساس المقايضة مع إحدى هذه القبائل ، لأن أفراد البعثة فى ذلك الوقت كان لايزال معهم بعض الهدايا الملاءمة ، والمثلة فى الملابس ، والأسلاك والخرز ، بحيث كان فى الإمكان تقديم هذه الأشياء لهذه القبائل ، فى مقابل الحصول على بعض الأطعمة • وكانت البعثة قد طلبت هذا المطلب بطريقة سلمية كى تتمكن من الحصول على بعض المؤن • وسأل ستانلى الرئيس (يبدو انه رئيس احدى القبـائل الكنغولية) عن اسم أكبر نهر ، فأجابه هذا الرئيس بالقول « ان هذا النهر يعرف باسم نهر الكنغو » وعند هذا الحد لم يعد هناك أدنى شك فى اثبات حقيقة هذا النهر •

وفى الثامن عشر من شهر فبراير من نفس العام ، سافرت البعثة فى منطقة متسعة ومتعرجة ، ومرة ثانية وصلت الى خط الاستواء ، والى الجنوب من هذه المنطقة كانت توجد مدينة ككول هاتفيل الحديثة The Modern Town of Coqwlhatville

وفى ذلك الوقت اتجهت البعثة صوب الجنوب الغربى ، وعند هذه النقطة نفد طعام أفراد البعثة مرة ثانية ، ولذلك اضطر أفرادها للمخاطرة بالاقتراب من أحد القبائل الافريقية ولحسن الحظ ، وجد أفراد البعثة قرية صديقة لهم ، ومنذ ذلك الحين ، وما بعده فلم يتعرض أفراد البعثة للهجوم من جانب القبائل الافريقية فبعد أن قضى أفراد البعثة وقتا للراحة فى هذه القرية ، بلغ عدد قليل من الأيام واصلوا بعدها السفر ، وبسرعة وصلوا الى بحيرة تعترض مجرى النهر ، والتى كان فرانك بوكوك Frank Pocock قد رأى انها تمثل مصدر قوة كبيرة ومستمر ، وقال ينبغى أن يقترح تسميتها ببحيرة ستانلى Stanly Pool •

ويبلغ طول المسافة بين هذه البحيرة وساحل المحيط مئات قليلة من الأميال وكان ستانلى على صواب حينما قال : « انه من الممكن أن يوجد فى الأمام مخاطر خطيرة ، وكانت السفينة ليدى اليس التى كان على متنها ستانلى معرضة للغرق عند نقطة معينة وعندما رأى أفراد البعثة أن قائدهم فى أمان اندفعوا الى المياه واحدا يتلو الآخر ، وهم فى فرحة غامرة وكان الفرح يتدفق منهم فى شكل ايماءات ولمحات وأصوات ، وكان فرانك اللطيف الصادق الوعد ، يعتقد على أقل تقدير فى الحب والعاطفة ، لهذا كان من الواجب أن نعترف له بالجميل ، لأنه أنقذنا من المقبرة المائية أى من الغرق » •

وفى ٢١ من شهر أبريل من نفس العام ، قطعت البعثة مسافة طولها ٣٤ ميلا ، رغم استمرار وجود الشلالات • والآن عرف أفراد البعثة أنهم لم يكونوا على مسافة بعيدة من البحر (المحيط الأطلسى) ، لأنهم وجدوا لدى الوطنيين عينات من السلع الأوربية • وكانت هذه علامة على هذا الأمل

الذى يعنى أنه لم يعد هناك أى مطلب لبضائعهم الخاصة (أى لم يعد للبعثة حاجة فى السلع الافريقية وبخاصة بعد أن توافرت السلع الأوربية فى البلدان القريبة من ساحل المحيط) .

وفى مرات كثيرة تعرض أفراد البعثة للموت جوعا تقريبا ، وزيادة على ذلك فقد هرب حوالى ٣٠ شخصا من أعضائها ، هذا الى جانب موت البعض من أفرادها ، زد على ذلك فان الجوع قد تزايد بين معظم الأفراد وقد أدى ذلك بالتالى الى أن ستانلى تألم كثيرا بسبب ما تعرضت له بعثته من كوارث ، وقد تحمل فرانك بوكوك كل المعاناة (حتى أنه أصبح أعرجا) ، بسبب التقرحات التى تعرضت لها أرجله وأقدامه ، بل وأنه تعرض للغرق فى المسطح المائى الهائج ، فمن أجل هذا كله أطلق ستانلى على هذه البقعة اسم حوض بوكوك Pocock Basin .

وفى بداية أغسطس ، من نفس العام ، وصل ستانلى الى نتيجة مفادها أنه كان عليهم التخلى عن المراكب ، والسير بالطريق البرى حتى يصلوا الى الساحل (ساحل المحيط الأطلسى) حيث أن ستانلى عرف انه فى الامكان مقابلة التجار البرتغاليين ، وكان هو نفسه ضعيفا ومنهكا ، وكان قد سأل شيخا صديقا للبعثة بأن يتقدمها ويحمل معه خطابا معنونا الى أى سيد يتكلم اللغة الانجليزية ، وفى هذا الخطاب شرح ستانلى أنه مسافر من زنزبار وبصحبته ١١٥ شخصا متضمنين ١٣ ثلاثة عشرة امرأة ، معهن أطفالهن الذين ولدهن أثناء الطريق ، وأضاف يقول كنا فى ذلك الوقت على وشك الوقوع فى مجاعة ، ولا يمكن لنا أن نشترى أى شىء من الوطنيين ، لأنهم يضحكون على أصناف ملابسنا وخرزنا وأسلاكنا فلا يوجد أى مؤن فى القطر يمكن شراؤها باستثناء ما يوجد منها أيام السوق والناس الجوعانين لم يكن فى استطاعتهم انتظار هذه الأسواق » .

وقد سأل ستانلى عن الأرز أو الذرة لرجاله ولنفسه ، وسأل أيضا عن القليل من الشاى والبن والسكر والبسكويت ، وقد وقع الخطاب باسم « هنرى مورتون ستانلى » قائد البعثة الانجليزية الأمريكية لكشف

افريقيا • وأضاف أنه لو شك أى شخص فى هويته ، فهذا الرجل هــو (ستانلى) الذى وجد لفنجستون عام ١٨٧١ م •

وفى خلال يومين وصله خطاب جاء فيه « أن الامدادات فى الطريق اليك » وفى التاسع من شهر أغسطس عام ١٨٧٧ م ، وبعد مضى ٩٩٩ يوما على رحيل البعثة من زنزبار ، دخلت البقية الباقية منها الى مستعمرة بوما حيث كان أكثر من نصف أعضاء البعثة الأصليين قد هلكوا ، وبقى لدى ستانلى ٣٦ شخصا ، كانت شعورهم بيضاء ، وكانوا ضعاف • وعندئذ استدار ستانلى وألقى النظرة الأخيرة على النهر وقال : « شعرت من كل قلبى بتقديم تحية مخلصة اليه (الى الله) ، لأنه مد يده كى يحمينا ، وقد مكننا ذلك من أن نخترق القارة المظلمة من الشرق الى الغرب ، وأن نتتبع أضخم نهر ملاصق للمحيط » •

وفى الليلة الألف من بدء الرحلة ركب أعضاء البعثة الذين ظلوا على قيد الحياة السفينة التى تقلهم الى زنزبار عن طريق الرأس (رأس الرجاء الصــالح) The Cape of Good Hope وفى نفس الوقت سافر ستانلى بمفرده الى انجلترا بعد أن أكمل مهمته •

ولم يعد هناك أى شك فى أن النيل ينبع من بحيرة فيكتوريا ، ويتدفق صوب الشمال ، ثم يأخذ طريقه بعد ذلك الى البحر المتوسط ، كما أن نهر لولابا لم يتصل بنهر الكنغو الذى يستمر فى جراياته عبر القــارة الافريقية حتى المحيط الأطلسى •

ومع ذلك فقد بقيت بعض الثغرات فى المعرفة الجغرافية ، فقــد حاول ستانلى أن يملأها بنفسه لهذا حاول استمالة الحكومة البريطانية كى تفتتح حوض الكنغو لكى تنشىء طريق وسكة حديد ، بحيث يبدآن من الساحل الغربى وحتى بحيرة ستانلى ، وبعد ذلك يصبح النهــر صالحا للملاحة • ولكن رغم الجهد الذى قام به ستانلى ، الا أنه لم يتمكن من تحقيق هدفه ، لذلك عرض خدماته على الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا ،

الذى لم يتردد فى قبول هذا العرض لحظة واحدة • وبعد ذلك عاد ستانلى الى الكنغو عام ١٨٧٨ م ، نيابة عن ملك بلجيكا ، ونيابة عن الجمعية الافريقية الدوليـــة The International African Association التى أسسها الملك ليوبولد ، وكان على ستانلى أن يأخذ على عاتقه تنظيم المنطقة الشاسعة التى تعرف بدولة الكنغو الحرة The Congo Free State (وتعرف فى الوقت الحالى بالكنغو) وفى عام ١٨٨٣ م أى عندما كان ستانلى هناك ، اكتشف بحيرتين هما بحيرة تمبا Timba وبحيرة ليوبولد الثانى •

وقد أضيف عمل ستانلى الى الأعمال الأخرى التى قام بها المكتشف الفرنسى الشهير سافورنان دى برازا Savorgnan de Brazza ففى عام ١٨٧٥ م ، اكتشف برازا الجزء الأكبر من الأجووى Ogowe فى الجابون الواقعة فى افريقيا الفرنسية الاستوائية (التى تعرف فى الوقت الحالى بجابون) واكتشف أيضا أنهار أليما Alima وليكونا Likona ، وهما من فروع الكنغو •

وقد عاد ستانلى الى افريقيا فى نهاية عام ١٨٨٧ م • وكان واجبه هذه المرة أن ينقذ أمين باشا Emin Pasha ، الذى ترك منعزلا بسبب اغتيـــال الجنرال غردون فى عام ١٨٨٥ م ، وبسبب انســـحاب المبشرين المسيحيين من بوجندا ، والذين طردوا بمعرفة خليفة الملك ميتسا • وقـــد تقدم ستانلى فى منطقة الساحل الغربى ، متجولا خلال غابات الكنغـــو الكثيفة ، محاولا بذلك انقاذ أمين باشا ، الذى لم يرغب فى الانقاذ ، ومع ذلك واصل ستانلى المسير لكى يكتشف جبال رونزورى ذات القمم الثلجية The Snow Capped Ruwenzori Mountains وجبـــال القمـــر الأســـطورية The legendary Mountains of the Moon ، الواقعـــة فى منتصف الطـــريق بين بحيرة البرت وبحيرة ادوارد التى كشفها فى رحلته الأولى • وعندئذ ، اتخذ طريقه ومعه أمين باشا الى الساحل الشرقى ومنه الى زنزبار •

وهكذا ، فقد عبر ستانلى افريقيا من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق • وانتهت الرحلة الأخيرة نهاية طيبة بسبب ما قام به ستانلى

كمكتشف • وبعد عودته الى انجلترا منح رتبة الفروسية ، واستقر هناك بعد أن حصل على وظيفة بسيطة ، تمثلت فى أنه أصبح عضوا فى البرلمـان (البريطانى) وتزوج ولكنه لم ينجب أطفالا ، لهذا تبنى هو وزوجته طفلا ، كانت تربيته صعبة ، بل وأكثر اختلافا عن ابنه الخاص • وقد مات ستانلى عام ١٩٠٤ م ، وهو فى سن الرابعة والستين من العمر •

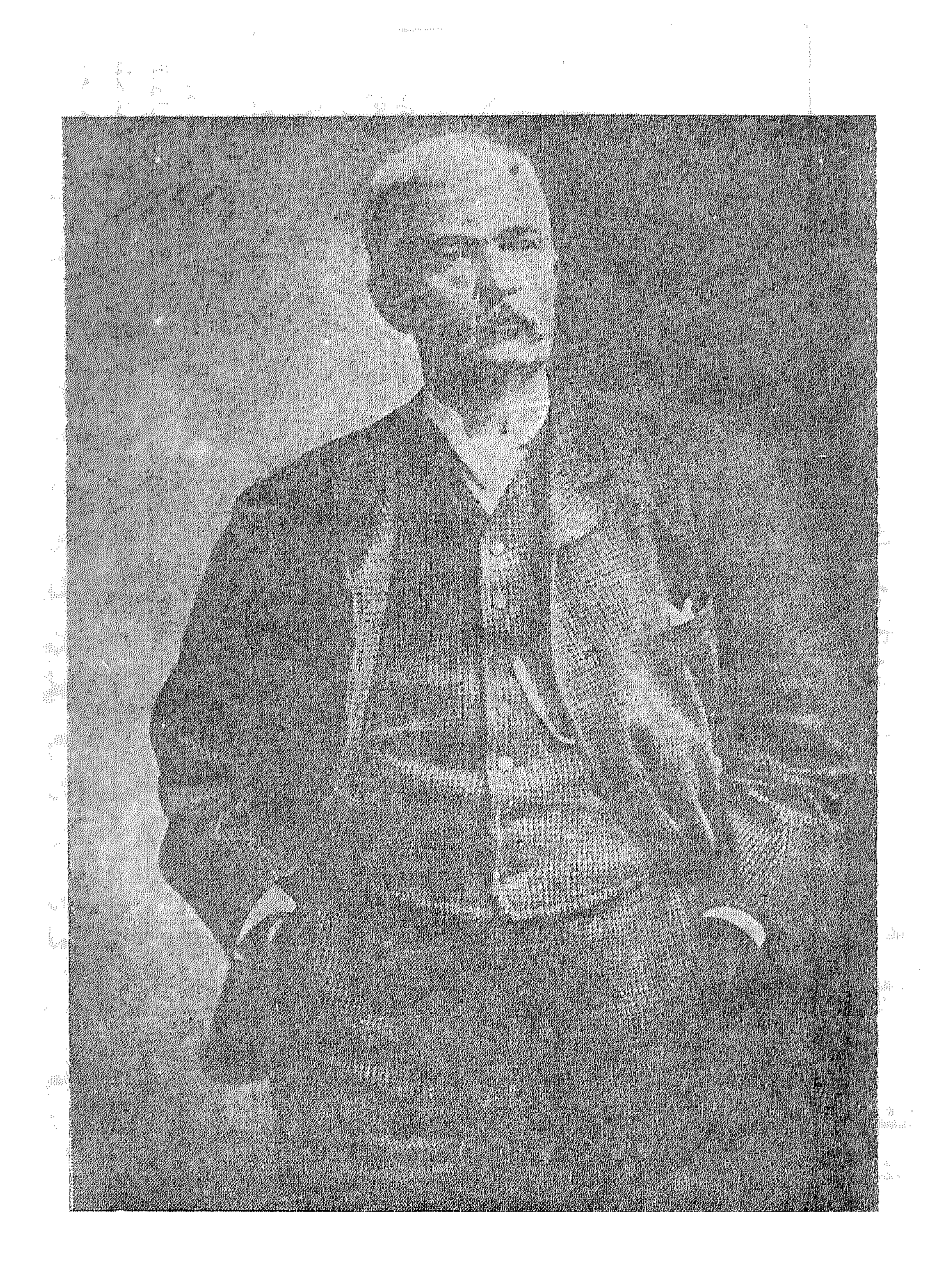
وفى ذلك الوقت ، فان كل المعلومات الهامة عن منابع النيل قد أعلنت ولكنها ظلت فى حاجة الى تصنيف بعض التفاصيل • وكان من بين هؤلاء الذين لعبوا دورا فى الكشف عن منابع النيل الشاب الأسكتلندى الذى يدعى جوزيف تومسون Joseph Thomson ، الذى قام عام ١٨٧٩ م ، وهو فى سن الواحد والعشرين من العمر بكشف وسط افريقيا ، وبخاصة المنطقة الواقعة بين بحيرة نياسا وتنجانيقا ، كما اكتشف أيضا بحيرة روكوا Lake Rukwa • وفى عام ١٨٨٢ م عاد تومسون الى افريقيا كى يكتشف طريقا للتجارة يبدأ من الساحل الشرقى وحتى أوغندا • وقـد توغل فى الداخل فوصل الى جبال كليمنجارو Kilimanjaro Mountains وجبال كينيا ، ومر بأمان من خلال قطر شعب المساى المحارب ، واستمر يواصل مسيره حتى وصل الى النهاية الشمالية الشرقية من بحيرة فيكتوريا •

وكان تومسون مكتشفا تقليديا ، فقد اندفع بوضـوح بسبب حب استطلاعه وبسبب حبه للسفر ، وفى هذا الصدد يقول تومسون ما نصه : « لقد أهلكت كى أكون رحالا » وأضاف باختصار قبل وفاته عام ١٨٩٥ م يقـول : « أنا لم أكن مؤسس امبراطورية ، ولم أكن مبشرا Missionary كما لم أكن فى الحقيقة عالما ، ولكننى كنت أريد فقط العودة الى افريقيا كى أواصل تجوالى » •

ويبدو لنا هنا أنه كان لكل مكتشف سمة يتميز بها عن غيره فكانوا جميعا رجالا على جانب من الشجاعة • وقد مكنهم ذلك من الاحساس بالقـوة لتحقيق الهدف • فكان لديهم الرغبة فى المخاطرة بصحتهم وبحياتهم بل كانوا يتحملون الحرمان طوال سنوات الانفصال عن أسرهم ، وذلك اما

للبحث عن شيء لا فائدة من ورائه ، أو لكى يبحثوا عن منابع النيل ، دون الحصول على مكافأة • وعلى وجه العموم فكان لديهم طموحا يتمثل فى حصولهم على الشرف والمجد ، بسبب مساعدتهم فى ملىء فراغ خريطة افريقيا وكان هذا الطموح يختلف باختلاف ، دوافعهم الشخصية التى تختلف من فرد لآخر فبروس على سبيل المثال كان لديه فضول علمى وارادة قوية ، وكان فى حاجة الى الهروب من حمل التعاسة التى لا يستطيع حملها • وكان لكل من لينج Laing وكاييه Caillié رغبة ملحة فى زيارة مدينة تمبكتو الخرافية • وأما بيرتون Burton فكان له الرغبة فى أن يفهم ، وأن يؤكد ذاته وتفوقه الحضارى على غيره » وأما ستانلى فكان عنده تصميم على تحقيق انتصارات منذ طفولته المحطمة ، ولكى يثبت لنفسه وللعالم أنه كان من بين العظماء • وأما بالنسبة لكل من المبشرين كراف Krapf وربمان Rebman، فأنهما كانا يرغبان فى نشر العقيدة المسيحية ، وأما لفنجستون فربما كان يسعى لتحقيق البطولة عليهم ، فكان يحب الشعوب الافريقية ، لهذا كان مصمما على توجيه ضربة لتجارة الرقيق ، كما كان يرغب فى فتح طريق للمسيحية وللتجارة معـا • ومن هؤلاء جميعا نخص بالذكر ريتشارد لانـدر Richard Lander الذى كان مسحورا بسماع اسم افريقيا • فكل الرحالة على حد سواء ، كان لهم هدف محدد ، سواء تمثل هذا الهـدف فى المشاهدة أو التجول ، مثل تومسون الذى كان يرغب فى التجول •

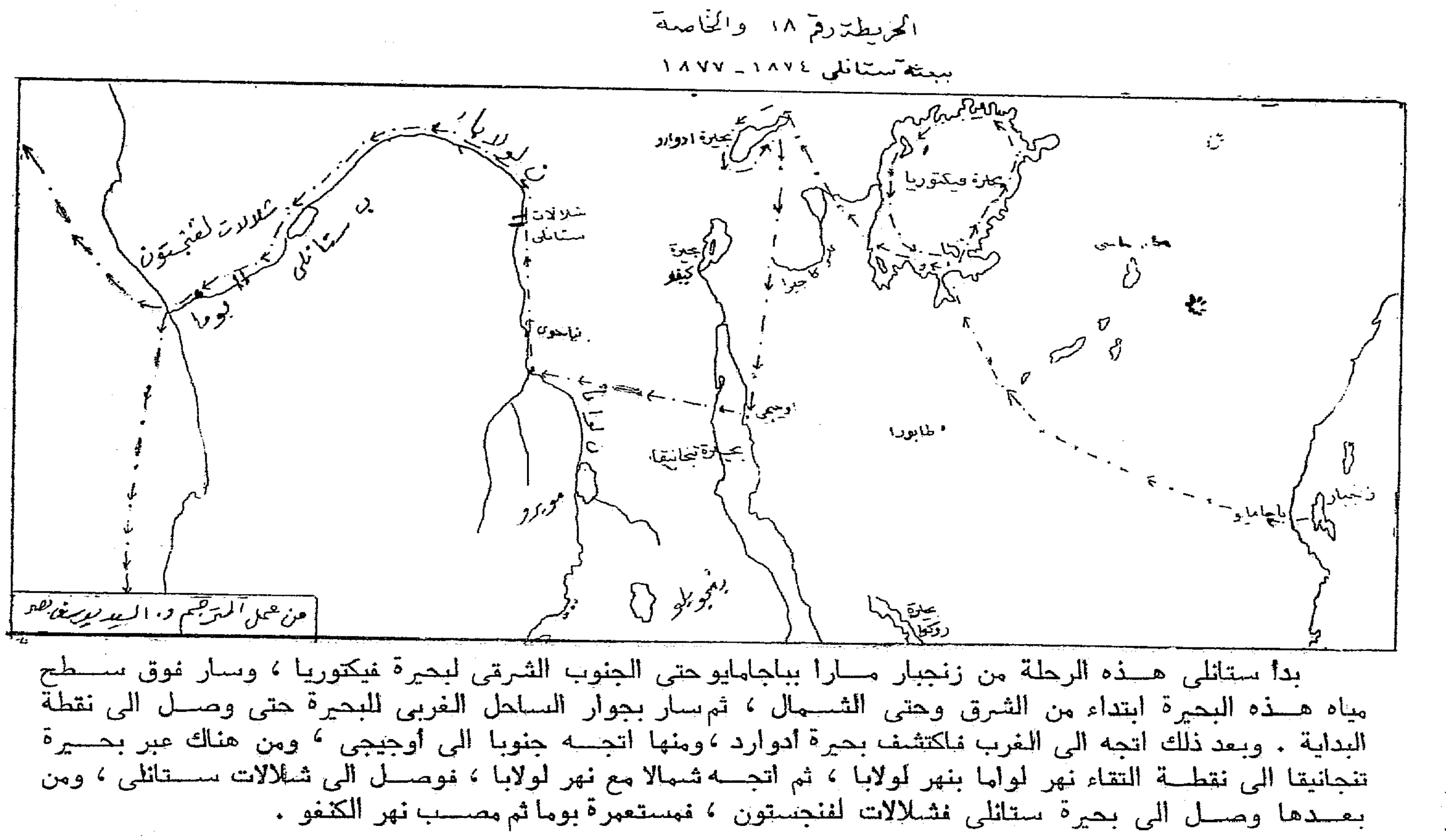
ولم يستمر الكشف فى القرن العشرين لأنه فى نهاية القرن التاسع عشر كان عصر الكشوف قد انتهى ، فكل المشاكل الجغرافية الرئيسية قد حلت وتطلب ذلك وجود سوق للانتاج الافريقى ، وفى أغلب الأحيان كان هذا السوق لا مفر منه لأن القوى العظمى كان ينبغى عليها التدخل ، بحيث تشق طريقها من أجل استغلال هذا القطر ، الذى فتحه المكتشفون (افريقيا) عندئذ بدأ التقسيم العالمى The International Scramble للقارة الافريقية عام ١٨٨٤ م ، وقد عجل به بعد رحلة ستانلى الثانية ، فكان من نتيجة هذه الرحلة خلق دولة الكنغو الحـرة التى أدت بطريق مباشر الى تقسيم افريقيـا •



صــورة المغامر الصحفى هنرى مورتون ستانلى الذى جاء الى افريقيا ليكتشف منابع نهر الكنغو عام ١٨٧٤ م . من اعــداد المترجم .

الخريطة رقم ١٨ والخاصة

ببعثة ستانلي ١٨٧٤ - ١٨٧٧



بدأ ستانلي هــذه الرحلة من زنجبار مــارا بباجامايو حتى الجنوب الشرقي لبحيرة فيكتوريا ، وسار فوق ســطح مياه هــذه البحيرة ابتداء من الشرق وحتى الشــمال ، ثم سار بجوار الساحل الغربي للبحيرة حتى وصــل الى نقطة البداية . وبعد ذلك اتجه الى الغرب فاكتشف بحيرة أدوارد ، ومنها اتجــه جنوبا الى أوجيجي ، ومن هناك عبر بحــيرة تنجانيقا الى نقطــة التقاء نهر لواما بنهر لولابا ، ثم اتجــه شمالا مع نهر لولابا ، فوصــل الى شلالات ســتانلي ، ومن بعــدها وصــل الى بحيرة ستانلي فشلالات لفنجستون ، فمستعمرة بوما ثم مصــب نهر الكنغو .

التعليق على الفصل العاشر

تعرضت مؤلفة هذا الكتاب فى هذا الفصل الى عدد من الموضوعات الهامة تناولت بعضها بالدراسة والتحليل ، وأشارت الى البعض الآخر منها ، مجرد اشارة .

وأما الموضوعات التى أشارت المؤلفة لها مجرد اشارة ، فسأتناولها بالدراسة حتى أعطيها قدرها من الأهمية ، وحتى تتضح الرؤية أمام القارىء العربى بصفة عامة والمصرى بصفة خاصة . وكان من هذه الموضوعات التى لم تتناولها المؤلفة بشىء من التفصيل ادوارد شنتزر أو أمين بشا الذى كان طبيبا آلمانيا ، والذى كان قد مارس مهنة الطب فى تركيا . وهناك اعتنق العقيدة الاسلامية ، وبعد ذلك جاء الى السودان فالحقه غوردون باشا — الذى كان آنذاك حكمدارا عاما لمديريات خط الاستواء — بمعيته فى وظيفة طبيب ، ولكن من الواضح ان أمين باشا لم يقم بأعباء هذه الوظيفة فحسب بل انه قام بعدة مأموريات سياسية فى البلاد المجاورة لمديرية خط الاستواء ، فكان قد قام بمأمورية الى بلاد البونيورو وأوغندا . وفيما بعد عينه غردون باشا حكمدارا عاما لمديريتى خط الاستواء ، وبحر الغزال اللتين كان غوردون باشا قد فصلهما عندما أصبح حاكما عاما للسودان [1] .

ومن الموضوعات التى لم تفها المؤلفة حقها موضوع آكلى لحوم البشر Cannibals من أبناء افريقيا ، ففى الواقع لم تكن هذه العادة منتشرة فى كل أرجاء افريقيا ، بل كانت منتشرة فى مناطق محددة وعلى وجه التحديد منطقة جنوب غربى السودان ، أى المنطقة الواقعة بين حدود الكنغو والسودان . هذا فضلا عن وجود بعض القبائل فى غرب افريقيا والتى كانت تمارس هذه العادة .

(١) عمر طوسون : المصدر السابق ، ص ٣٨٤ .

ويرجع السبب فى تناول هذه القبائل للحوم البشر ، الى أن هذه المناطق كانت موبؤة بذبابة تسى — بسى Tse-Tse Fly ، فمن المعروف أن هذه الحشرة كانت تقضى على الحيوانات والانسان معا ، وكان من نتيجة ذلك ندرة الثروة الحيوانية التى من المحتمل أن تكون قد اختفت تماما من هذه المناطق • وقد أدى ذلك الى فقد السكان فى هذه المناطق لعنصر غذاء هام ، يتمثل فى البروتين ، لهذا لجأ السكان الى البحث عن مصدر آخر للبروتين ، ولم يجدوا ضالتهم الا فى تناولهم للحشرات الأرضية كالنمل الذى كانت قبائل جنوب غرب السودان تقوم بتناوله بل وصل الأمر بهذه القبائل الى تناول اللحوم البشرية ، فقد جاء فى بعض المراجع التاريخية أن بعض القبائل الافريقية كانت تتبادل المرضى والأسرى ، كى تقوم بالتهام لحومهم ، فكانت القبيلة الافريقية تستحى من أن تتناول لحوم مرضاها ، لهذا كانت تستبدلهم بغيرهم من القبائل المجاورة حتى لا يكون هناك حرج فى ذلك • وكان الدكتور جورج شوينفرث عالم النبات الألمانى قد جاء الى منطقة بحر الغزال لدراسة أحوال هذه المنطقة والوقوف على أحوال القبائل التى أعتقد فى أنها تتناول اللحوم البشرية ، فقد عثر على عدد من الجماجم البشرية فى هذه المناطق • وعند سفره الى ألمانيا حمل معه عددا من هذه الجماجم الى ألمانيا ، لوضعها فى متاحفها وبعبارته :

«Manzu's tribes were cannibals, when I let it be known that he was looking for human skulls and bones, they poured in. Most had been boiled and scraped with knives. Some were still warm from the cooking pot. But out of 200 skulls, only 40 were intact the rest, Schweinfourth noted regretfully had been smashed to get at the brains. He packed up the skulls, Labeled them, and sent them back to Berlin Via Khartoum.(2)

هذا فضلا عن أن هنرى مورتون ستانلى قد ذكر انه فى يوم ١٧ نوفمبر ١٨٧٦ ، وعلى بعد مسيرة ١١ ميلا نحو الشمال الغربى ، وصل الى قرية كاميونزو حيث رأى فى وسط القرية شارعا ضيقا صفت على جانبيه

---

(2) Doub'eday and company Inc. : The Encyclopedia of disovery and Exploration, Exploring Agrica and Asia. New York, 1973, p. 299.

جماجم تبعد كل واحدة عن الأخرى عشرة أقدام ، وسرعان ما عرف أنهـا جماجم بشرية ، فعرف ستانلى على الفور أن أهل هذه القرية من آكلى لحوم البشر ، لذلك أحجم الرجال عن متابعة الرحلة معه الى الغرب ، ولكنه تمكن من اقناعهم لمواصلة المسير حتى ينهى مهمته •

ومن قراءة هاتين الفقرتين يتضح لنا أن عادة تناول لحوم البشر كانت تسود بعض مناطق من أواسط افريقيا ، وخير دليل على ذلك فى عصرنا المعاصر ، أن الامبراطور بوكاسا امبراطور افريقيا الوسطى كان يفضل تناول اللحوم البشرية ويعتبر هذا العمل من جانب بوكاسا تأكيدا على أن هـذه العادة كانت متأصلة فى الكيان الافريقى •

ويرجع ذلك الى عدة عوامل من أهمها انتشار ذبابة تسى ـ تسى التى أشرت اليها آنفا ، ومنها كذلك التخلف الذى ساد المناطق الافريقية بسبب العوامل الطبيعية التى فرضت العزلة القاتلة على هؤلاء السكان ، وجعلتهم فى منأى عن المدنية الحديثة ، وأدى بهم ذلك الى الاحتفاظ بعاداتهم القديمة ومن المحتمل أن ترجع عادة تناول اللحوم البشرية فى بعض أجزاء من افريقيا الى عادات قديمة ورثوها عن أسلافهم ، وظلوا يتمسكون بها •

ومن الموضوعات التى لم تتناولها المؤلفة بشىء من التفصيل ، التواجد الأوربى على ساحل افريقيا الغربى ، والذى يرجع الى بداية القرن الخامس عشر وكانت البرتغال من أولى الدول الأوربية التى قدمت الى هذه المنطقة كى تحصل على احتياجاتها من المواد الخام والتوابل ، واكتفت بتأسيس مراكز على الساحل الغربى الافريقى لأن الهدف البرتغالى تمثل فى الوصول الى الهند ، والاستيلاء على تجارتها وحرمان المصريين والايطاليين من ممارسة العمـل فى هذه التجـارة • ولذلك كانت البرتغال من أول الدول الأوربية التى أنشأت أكبر امبراطورية عرفها العالم فى مطلع العصـور الحديثـة [٣] •

---

(٣) جيمس وفى : الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا • ترجمـة الدسـوقى حسنين المراكبى مراجعـة د • محمد صبحى عبد الحـكيم • القاهرة ، ١٩٦٣ وللاستزداة انظـر : ـ

وبعد ذلك جاء الأوربيون الى غرب افريقيا بالتتابع ، فجاء الهولنديون الى جنوب افريقيا وأخذوا يطاردون البرتغاليين ، ومن بعدهم جاء البريطانيون ، والدنمركيون ، والفرنسيون ، وحدث ما يعرف باسم التنافس الدولى فى افريقيا ، وظل هذا التنافس فى تزايد حتى كاد يؤدى الى دخول هذه الدول فى صراعات دموية خطيرة ، فاضطرت فى نهاية الأمر الى الاتفاق فى مؤتمر برلين الذى عقد فى الفترة ما بين ١٨٨٤ م ، ١٨٨٥ الى تقسيم القارة الافريقية •

ولعلى بهذا التعليق أن أكون قد وفقت فى توضيح النقاط التى لم تقم مؤلفة هذا الكتاب بتوضيحها ، حتى تتضح الفكرة بصفة خاصة أمام القارىء المصرى وبصفة عامة أمام القارىء العربى ، وحتى أكون بذلك قد وفقت فى اضافة الجديد الى هذا الكتاب •

كما أرجو من الله ألا أكون قد أغفلت بعض النقاط التى كانت فى حاجة الى توضيح ، واذا كان قد حدث ذلك فان هذا النسيان لم يكن عن عمد بل حدث سهوا والكمال لله وحده • وأشير الى أننى استخدمت فى هذا التعليق عددا من المصادر الأصلية المتخصصة ، الأجنبية منها والعربية ، هذا فضلا عن أننى أضفت عددا من الخرائط التوضيحية ، التى توضح خط سير الرحالة حتى تساعد القارىء على فهم ما جاء فى هذا الكتاب ، لهذا أرجو أن يحوز هذا المؤلف رضا أساتذة التاريخ الحديث فى مصر والعالم العربى • ومما لاشك فيه فإن هذا الكتاب يعتبر اضافة كاملة وجديدة الى المكتبة العربية •

والله ولى التوفيق ،،،

---

(4) Hobléy, L.F. : Opening Africa, G. B. 1971, pp. 10-32.

(٥) د . شوقى الجمل : قصة الاستعمار فى افريقيا . القاهرة ١٩٦٠ م •

(٦) د . جلال الدين مصطفى يحيى : التنافس الدولى فى افريقيا . القاهرة ، ١٩٦٥ م •

١ ـ الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة
تقـديم المترجـم	٥
الفصـل الأول :	١٥
الرحالة الأول	١٥
التعليق على الفصل الأول	٢٤
الفصـل الثانى :	٣٣
التجار والمبشرون	٣٣
التعليق على الفصل الثانى	٤١
الفصـل الثالث :	٥١
جيمس بروس فى الحبشة	٥١
التعليق على الفصل الثالث	٧٨
الفصـل الرابع :	٨٥
منجو بارك ونهر النيجر	٨٥
التعليق على الفصل الرابع	١٠٧
الفصـل الخامس :	١١٩
حل مشكلة النيجر	١١٩
التعليق على الفصل الخامس	١٦٧

الموضـــــــوع	الصفحة
الفصـــل السادس :	١٧١
الرحلات فى شمال وغرب افريقيا	١٧١
التعليق على الفصل السادس	١٩٣
الفصـــل السابع :	٢١٣
البعثات الكشفية فى جنوب وشرق افريقيا	٢١٣
التعليق على الفصل السابع	٢٣٦
الفصـــل الثامن :	٢٥٥
لغـــز النيـــل	٢٥٥
التعليق على الفصل الثامن	٢٨٩
الفصـــل التاسع :	٣٠٧
كيف وجدت لفنجستون	٣٠٧
التعليق على الفصل التاسع	٣٢٣
الفصـــل العاشر :	٣٣٥
اكتملت القصة الرئيسية	٣٣٥
التعليق على الفصل العاشر	٣٥٣

٢ ــ الخرائط

الخريطة رقم (١)	٧٧
الخريطة رقم (٢)	١٠٥

الموضـــــوع	الصفحة
الخريطة رقم (٣)	١٠٦
الخريطة رقم (٤)	١٦١
الخريطة رقم (٥)	١٦٢
الخريطة رقم (٦)	١٦٣
الخريطة رقم (٧)	١٦٤
الخريطة رقم (٨)	١٦٥
الخريطة رقم (٩)	١٦٦
الخريطة رقم (١٠)	١٩٠
الخريطة رقم (١١)	١٩١
الخريطة رقم (١٢)	١٩٢
الخريطة رقم (١٣)	٢٣٤
الخريطة رقم (١٤)	٢٣٥
الخريطة رقم (١٥)	٢٨٧
الخريطة رقم (١٦)	٢٨٨
الخريطة رقم (١٧)	٣٢٢
الخريطة رقم (١٨)	٣٥٢

٣ ــ الصــور

صورة المغامر جيمس بروس	٧٦
صورة المغامر منجو بارك	١٠٤
صورة المغامر جون لويس بركنهاردت	١٥٩
صورة المغامر كلابيرتون	١٦٠
صورة المغامر بيرتون	٢٨٤

الموضـــــوع	الصفحة
صورة المغامر سبيك	٢٨٥
صورة المغامر جرانت	٢٨٦
صورة المستكشف دكتور يونكر	٣٢٠
صورة المستكشف طبيب بروت	٣٢١
صورة المغامر دافيد لفنجستون	٢٣٣
صورة المغامر هنرى مورتون ستانلى	٣٥١
الفهـــرس	٣٥٧

رقم الايداع ١٧٠٦ لسنة ١٩٨٤

مطابع سجل العرب

